







إهداء 2005

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود
القاهرة

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء التاسع

الآفة الثالثة

الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة . فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعني ، أو أكثر مما يعني ، فهو ترك الأولى ، ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني ، لا يؤمن عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض في الباطل .

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنها . فلذلك لا مخلص منها إلا بالاعتصام على ما يعني من مهات الدين والدنيا . وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها ، وهو يستحقرها . فقد قال بلال بن الحارث ، ^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فِيكَتُبُ اللَّهِ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فِيكَتُبُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكان علقمة يقول : كم من كلام منعه به حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ بُضْحِكُهَا جُلْسَاءُ يَهُوَى بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثَّرِيَاءِ » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقي لها بالا ، يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة

﴿ الآفة الثالثة الخوض في الباطل ﴾

(١) حديث بلال بن الحارث أن الرجل ليتكلم بالكلمة من رِضْوَانِ اللَّهِ - الحديث : هـ ت وقال حسن صحيح

(٢) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا : ابن أبي الدنيا من حديث

أبي هريرة بسند حسن وللشيخين وث أن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين

خريفا في البار لفظت وقال حسن غريب

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَكْثَرُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فِي الْبَاطِلِ » وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ^(٢)) وبقوله تعالى (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ^(٣)) وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة، أكثرهم كلاماً في معصية الله: وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بجلس لهم فيقول لهم، توضعوا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراء ماسياتي من النبية والبيعة والفحش وغبرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها، أو تدبر للتوصل إليها، من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم، وكل ذلك باطل، والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

الآفة الرابعة

المراء والجدال

وذلك منهى عنه. قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا تُنَارَ أَخَاكَ وَلَا تُمَارِضَهُ وَلَا تَعِدَّهُ مَوْعِدًا فَتُخْلِفَهُ » وقال عليه السلام ^(٣) « ذَرُّوا الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُمْ حِكْمَتُهُ وَلَا تُؤْمِنُ فِتْنَتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقُّ بَنِي لَهُ يَنْتَ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنِي لَهُ يَنْتَ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت

(١) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم حوصاً في الباطل: ابن أبي الدنيا من حديث قتاده مرسل

ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح

(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(٢) حديث لا تمار أخاك ولا تمارضه ولا تعده موعداً فخلفه: من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث ذروا المراء فإنه لا تنفعهم حكمته ولا تؤمن فتنته: طب من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس

ابن مالك ووالله بن الأسع بأسناد ضعيف دون قوله لا تنفعهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا

موقوفاً على ابن مسعود

(٤) حديث من ترك المراء وهو عن بني له ينت في أعلى الجنة - الحديث: تقدم في العم

(١) المذثر: ٤٥ (٢) النساء: ١٤٠

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَا عَمِدَ إِلَى رَبِّي وَهَمَائِي عَنْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَشُرْبِ الْخُبْرِ مُلَاحَاضَةُ الرَّجَالِ » وقال أيضا (٢) « مَا ضَلَّ قَوْمٌ يَمُدُّ أَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَوْثُوا الْجَدَلَ » وقال أيضا (٣) « لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا » وقال أيضا (٤) « سِتٌّ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الصِّيَامُ فِي الصَّيْفِ وَضَرْبُ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ وَتَعْجِيلُ الصَّلَاةِ فِي الْيَوْمِ الدَّجَنِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُصِيبَاتِ وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَسْكَارَةِ وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ »

وقال الزبير لا بنه : لا تجادل الناس بالقرآن ، فإنك لا تستطيعهم ، ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرصة للخصومات ، أكثر التثقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء ، فإنه ساعة جهل العالم ، وعندها يبتغي الشيطان زلته . وقيل ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه يا بني لا تجادل العاصياء فيمقتوك . وقال بلان بن ساعد ، إذا رأيت الرجل لجوجا ، مماريا معجبا برأيه ، فقد تمت خسارته . وقال سفيان . لو خالفت أخى في رمانة ، فقال حلو ، وقلت حامضة . لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا ، صاف من شئت ، ثم أغضبه بالمراء ، فليرمينك بداهية تمنحك العيش . وقال ابن أبي ليلى ، لا أمارى صاحبي ، فإما أن أكذبه ، وأما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء ، كفى بك إثما أن لا تزال مماريا .

(١) حديث أم سلمة أن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال

ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل

من حديث عروة بن رويم

(٢) حديث ماضل قوم الأوتوا الجدال : من حديث أبي أمامة وصححه وزاده بعدهدى كانوا عليه وتقدم

في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف

(٣) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وان كان محقا : ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة

بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن التبع حتى يترك الكذب في المزاولة والراموان كان صادقا

(٤) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان - الحديث : وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي

من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير - الحديث :

ملاحاة الرجال : مقاولتهم ومخاصمتهم يقال : لاحيته ملاحاة وبلحا . إذا نازعته

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « تَكْفِيرُ كُلِّ لِحَاءٍ رَكْعَتَانِ » وقال عمر رضي الله عنه ،
لا تتعلم العلم ثلاث ، ولا تركه ثلاث . لا تتعلمه لئلا يرى به ، ولا لتباهى به ، ولا لتراثنى به
ولا تركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام ، من كثر
كذبه ، ذهب جماله . ومن لاحى الرجال ، سقطت مروءته . ومن كثر همه ، سقم
جسمه . ومن ساء خلقه ، عذب نفسه

وقيل ليمون بن مهران ، مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه
وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، إما فى اللفظ ، وإما فى
المعنى ، وإما فى قصد التكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته
فإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمر الدين ، فاسكت عنه
والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو ، أو من
جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك
يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله
وأما فى المعنى ، فبأن يقول ليس كما تقول ، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا
وأما فى قصده ، فثل أن يقول هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما
أنت فيه صاحب غرض . وما يجرى مجراه . وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ، ربما
خص باسم الجدال ، وهو أيضا مذموم . بل الواجب السكوت ، أو السؤال فى معرض
الاستفادة ، لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لافى معرض الطعن
وأما المجادلة ، فعبرة عن قصد إخماد الغير ، وتعجيزه وتنقصيه بالقدح فى كلامه ، وسبته
إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك . أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مسكروها عند
المجادل ، يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ، ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه . ولا نجاة
من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأتى به لو سكوت عنه .

(١) حديث تكفير كل لحاء ركعتان: الطبرانى من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه
وهما شهوتان باطنتان للنفس ، قويتان لها
أما إظهار الفضل ، فهو من قبيل تزكية النفس ، وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان
دعوى العلو والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية
وأما تنقيص الآخر ، فهو من مقتضى طبع السبعية ، فإنه يقتضى أن يمزق
غيره ، ويقصمه ويصدمه ويؤذيه

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان . وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواطبة على المراء
والجدال مقول هذه الصفات المهلكة . وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل
فيه إيذاء الغير ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهيج الغضب ، وحمل المعترض عليه على أن
يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدر فى قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار
بين المتماربين ، كما يثور الهراش بين الكلابين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه
بما هو أعلم نكايته ، وأقوى فى إخمائه وإلجائه

وأما علاجه . فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على
تنقيص غيره ، كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغضب . فإن
علاج كل علة بإمالة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه يجعله عادة
وطبعاً ، حتى يتمكن من النفس ، ويعسر الصبر عنه

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه ، قال لداود الطائى . لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد
نفسى بترك الجدال . فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ، ولا تتكلم . قال ففعلت ذلك
فما رأيت مجاهدة أشد علىّ منها . وهو كما قال ، لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على
كشفه ، تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ
وَهُوَ مُحِقٌّ بِنَى اللَّهِ لَهُ يَتَنَفَّى إِلَى الْجَنَّةِ » لشدة ذلك على النفس .

وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد ، فإن المراء طبع ، فإذا ظن أن له عليه ثوابا
اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغى للإنسان
أن يكف لسانه عن أهل القبلة . وإذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة ، لا بطريق

الجدال . فإن الجدال ينجل إليه أنها حيلة منه في التلبس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا . فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتؤكد . فإذا عرف أن النصيح لا ينفع ، اشتغل بنفسه وتركه . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « رَحِمَ اللَّهُ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ » وقال هشام بن عروة . كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات . وكل من اعتاد المجادلة مدة ، وأثنى الناس عليه ، ووجد نفسه بسببه عزاً وقبولا ، قويت فيه هذه المهلكات ، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب ، والكبر ، والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها ، فكيف بمجموعها !

الآفة الخامسة

الخصومة

وهي أيضا مذمومة . وهي وراء الجدال والمراء . فالمرء طعن في كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج في الكلام ، ليستوفي به مال أو حق مقصود . وذلك تارة يكون ابتداء ، وتارة يكون اعتراضا . والمرء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضي الله عنها ، ^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إِنْ أَبْغَضَ الرَّجُلُ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدَ الْخِصْمُ » وقال أبو هريرة ، ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ يَغْيِرُ عَلَيْهِ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ »

(١) حديث رَحِمَ اللَّهُ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ : ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ إِعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ وهو منقطع وضعيف جدا

(الآفة الخامسة الخصومة) :

(٢) حديث عائشة ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم : رخ وقد تقدم

(٣) حديث أبو هريرة من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع : ابن أبي الدنيا الأصفهاني في الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور

وقال بعضهم ، إياك والخصومة ، فإنها تحقق الدين . ويقال ماخاصم ورع قط في الدين وقال ابن قتيبة ، مرّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكر ، فقال ما يجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي . فقال إن لأبيك عندي يدا ، وأنى أريد أن أجزيك بها . وإني والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال فقامت لأنصرف . فقال لي خصمي ، مالك ؟ قلت لأخاصمك . قال إنك عرفت أن الحق لي . قلت لا ، ولكن أكرم نفسي عن هذا . قال فإني لأطلب منك شيئا هو لك فإن قلت : فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه ، أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ؟ وكيف تنم خصومته

فاعلم أن هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل ، والذي يخاصم بغير علم ، مثل وكيل القاضي ، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب ، هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان ، فيخاصم بغير علم . ويتناول الذي يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة ، بل يظهر اللدد في الخصومة ، على قصد التسلط ، أو على قصد الإيذاء ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ، ليس يحتاج إليها في نصرته الحاجة ، وإظهار الحق . ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد ، لقهر الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال . وفي الناس من يصرح به ويقول ، إنما قصدي عناده وكسر عرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي . وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج ، وهو مذموم جدا .

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع ، من غير لد وإسراف وزيادة لجاج ، على قدر الحاجة ، ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا . فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج النفس . وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه ، وبقي الحقد بين المتخاصمين . حتى ينسحق كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرة ، ويطلق اللسان في عرسه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المجدورات . وأقل ما فيه تسوييس ساطر . حتى أنه في سائر تشتمل بمساءة خصمه ، فلا يبقى الأمر على حد الواجب .

فانحصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال . فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة ، وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ، ولا تدم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه ، لأن عنده ما يكفيه ، فيكون تاركا للأولى ، ولا يكون آثما . نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام ، وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض ، الذي حاصله إما تجهيل ، وإما تكذيب . فإن من جادل غيره أو مراه أو خاصمه ، فقد جهله أو كذبه ، فيفوت به طيب الكلام

وقال صلى الله عليه وسلم «يَمَكِّنْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ طِيبُ الْكَلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ» وقد ذال الله تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، من سلم عليك من خلق الله ، فارد عليه السلام وإن كان مجوسيا ، إن الله تعالى يقول (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) (٢) وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خير الرددت عليه . وقال أنس (٣) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَالْآنَ الْكَلَامَ»

وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير ، فقال مر بسلام . فقيل ياروح الله أتقول هذا للخنزير ؟ فقال أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام (٤) «السَّكَلَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ» وقال (٥) «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِسْكَلَةَ طَيِّبَةٍ» وقال عمر رضي الله عنه ، البرشى هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء ، الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء ، كل كلام لا يستغفر بك

(١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله

من حديث هـ ، أبى شريح ناسناد جيد وحب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٢) حديث أنس أن في الجنة لعرفا يرى ظاهرها من باطنها - الحديث : ت وقد تقدم

(٣) حديث الكلمة الطيبة صدقة : من حديث أبي هريرة

(٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة - الحديث : متفق عليه من حديث عدى ابن حاتم وقد تقدم

(٥) البقرة : ٨٣ (٦) النساء : ٨٦

إلا أنك ترضى به جليستك ، فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لعله يجر منك منه ثواب المصنفين
وهذا كله في فضل الكلام الطيب ، وتضاده الخسومة ، والمرء ، والبدال ، والنجاج
فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذي للقلب ، المنقص لليدين ، المهيج للغضب ، الموغر
للمصدر ، نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه

الآفة السادسة

التعمر في الكلام

بالتشديق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشديدات والمقدمات ، وما جرت
به عادة المتفاحيين ، المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف
المعقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا وَأَتَقِيَاءُ أُمِّي بُرَاءٌ مِنَ التَّكْلِيفِ »
وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَى وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا التَّرْتَارُونَ الْمُتَفَهِّقُونَ
الْمُتَشَدِّقُونَ فِي الْكَلَامِ » ، وقالت فاطمة رضى الله عنها ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ يَا كُلُّونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ
وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَلَا هَلَاكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » ثلاث
مرات . والتنطع هو التعمق والاستقصاء .

وقال عمر رضى الله عنه ، إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمرو بن
سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة . فتكلم بين يدي حاجته بكلام . فقال له سعد
ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
^(٤) « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ الْكَلَامَ بِالسِّنِّهِمْ كَمَا تَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ الْكَلَامَ بِالسِّنِّهَا ،

(الآفة السادسة الفرع في الكلام والتشديق)

(١) حديث إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الترتارون المتفهمون المتشققون أحمد من حديث أبي ثعلبة

وهو عند من حديث جابر وحسنه بلفظ إن أبغضكم إلى

(٢) حديث فاطمة شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم - الحديث : وفيه يتشققون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب

(٣) حديث ألا هلك المتنطعون م من حديث ابن مسعود

(٤) حديث سعد يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنيهم كأنخل البقرة الكلام بلسانها رواه أحمد

وكانه أنكر عليه ما قدمه على الكلام ، من التشبيب ، والمقدمة المصنوعة
التكافؤ وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصيل
الخاصة بغير حجة العادة ، وكذلك السجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بكرة في الجنة ، فقال بعض قوم الجاني ، ^(١) كيف ندى من لا شرب ولا أكل
ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك بطل ! فقال « أَسْجَعًا كَسَجِ الْأَعْرَابِ » وأنكر
ذلك ، لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه . بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده
ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم

ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة ، والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن
المقصود منها تحريك القلوب وتثقيفها ، وقبضها وبسطها ، فإرشافة اللفظ تأثير فيه ، فهو
لائق به . فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات ، فلا يليق بها السجع والتشديق ،
والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة ، والتميز
بالبراعة ، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ، ويزجر عنه

الآفة السابعة

الفحش والسب وبداءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِيَّاكُمْ
وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ » ^(٣) ومنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال « لَا تَسُبُّوا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ »

(١) حديث كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث : من حديث المغيرة بن شعبه وأبي هريرة وأصلها عند عم أيضا

(الآفة السابعة الفحش والسب وبداءة اللسان)

(٢) حديث إياكم والفحش - الحديث : ن في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله -

ابن عمرو ورواه ابن جابر من حديث أبي هريرة

(٣) حديث النهي عن سب قتلى بدر من المشركين - الحديث : ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر

مرسلا ورواه ثقات والنسائي من حديث ابن عباس باسناد صحيح ان رجلا وقع في آب للعباس

كان في الجاهلية فطمه - الحديث : وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحيانا

يَمَّا تَمُولُونَ وَتُؤْذُونَ الْأَحْيَاءَ إِلَّا إِنْ الْبَدْءُ لَكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّمَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ أَنْ يَدْخُلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْأَحْمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ رَجُلٌ يَسِيلُ قُوَّهُ قَيْحًا وَدَمًا فَيُقَالُ لَهُ مَا بَالَ الْأَبَدُ قَدْ آدَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنْ الْأَذَى فَيَقُولُ إِنْ الْأَبَدُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذَعَةٍ خَيْشَةٍ فَيَسْتَلْذُهَا كَمَا يَسْتَلْذُرُ الرَّفَثَ » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة ^(٤) « يَا عَائِشَةُ لَوْ كَانَ الْفَحْشُ رَجُلًا لَكَانَ رَجُلٌ سَوَاءٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) « الْبَدْءُ وَالْيَأْنُ شُعْبَتَانِ مِنْ شُعْبِ النَّفَاقِ » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح، حتى ينتهي إلى حد التكلف، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين، وفي صفات الله تعالى، فإن القاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه، إذ قد يشور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادر القلوب إلى القبول ولم تضطرب. ولكن ذكره مقرونا بالبذاء، يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل، دون الكشف والبيان

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « إِنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ الصَّيَّاحَ فِي الْأَسْوَاقِ »

(١) حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء : ت باسناد صحيح من حديث ابن مسعود

وقال حسن عريب والحاكم وصححه وروى موفوفا قال الدار فطى في العلل والموقوف أصح

(٢) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى - الحديث : وفيه أن الأبعد كان ينظر إلى كل

كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث ابن أبي الدنيا من حديث شق بن مائع واختلف في محبته

فذكره أبو نعيم في الصحاح وذكره مخ في الباعين

(٤) حديث يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن أبي عمير عن أبي النصر

عن أبي سلمة عنها

(٥) حديث البذاء واليان شعبتان من النفاق : ت وحسنه وك وصححه على شرطهما من حديث أبي امامة وقد تقدم

(٦) حديث أن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصيَّاح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف

وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد أن الله لا يحب الفاحش المتفحش واستاده جيد

وقال جابر بن سمرة^(١)، كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأبى أمامي. فقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْفُحْشَ وَالتَّفَاحُشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا».

وقال إبراهيم بن ميسرة: يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب. وقال الأحنف بن قيس، ألا أخبركم بأدوا الداء، اللسان البذي، والخلق الذنى. فهذه مذمة الفحش.

فأما حده وحقيقته، فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به. فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يكونون عنها، ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها. وقال ابن عباس، إن الله حيي كريم، يعفو ويكنو. كنى باللمس عن الجماع، فالسپس، واللمس، والدخول، والصحبة، كنايةات عن الوقاع. وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة، يستقبح ذكرها، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير. وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أخش من بعض، وربما اختلف ذلك بمادة البلاد، وأوائلها مكروهة، وأواخرها محظورة، وبينهما درجات يتردد فيها. وليس يختص هذا بالوقاع، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول، والغائط أولى من لفظ التنوط والخراء وغيرهما. وإن هذا أيضا مما يخفى، وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة، فإنه فحش.

وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء، فلا يقال قالت زوجتك كذا، بل يقال قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود، والتصريح فيها يفضى إلى الفحش.

وكذلك من به عيوب يستحيا منها، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص، والقرع، والبواسير، بل يقال العارض الذي يشكوه، وما يجري مجراه. فالتصريح بذلك داخل في الفحش. وجميع ذلك من آفات اللسان قال العلاء بن هرون، كان عمر بن عبد العزيز

(١) حديث جابر بن سمرة أن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء مسال الحديث: أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح

يتحفظ في منطقته ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأثيناها نسأله لئرى ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد .

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) أوصنى فقال « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِنْ أَمْرُكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فَيْكَ فَلَا تُعْبِرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ فِيهِ يَكُنْ وَبِاللَّهِ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلَا تَسُبَّنْ شَيْئًا ، قال فما سببت شيئا بعده

وقال عياض بن حمار ^(٢) قلت يارسول الله ، إن الرجل من قومي يسبني وهو يهودى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « اَلْمُسَابَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَتَهَارَجَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « اَلْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ الْمَظْلُومُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » وفي رواية « مِنْ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قالوا يارسول الله ، كيف يسب الرجل والديه ؟ قال « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »

الآفة الثامنة

اللعن

إما لحیوان أو جھاد أو إنسان . وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث قال اعرابي أوصنى فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عبرك بشيء تعلمه فبك فلا تعبره بشيء تعلمه فيه - الحديث : أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قيل اسمه جابر

ابن سليم وقيل سليم بن جابر

(٢) حديث عياض بن حمار قلت يارسول الله الرجل من قومي يسبني وهو يهودى هل على من بأس أن أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاران : د الطيالسي وأصله عند أحمد

(٣) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٤) حديث المستبان ما قالا فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم : م من حديث أبي هريرة وقال ما لم يمتد

(٥) حديث ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه - الحديث : أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد وانفق الشيخان

على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

«الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِالْعَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم^(١) «لَا تَلَاَعُنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا بِقَضِيهِ وَلَا يَجْهَنَّمُ» وقال حذيفة، ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول وقال عمران بن حصين^(٢) بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها، فلعننها. فقال صلى الله عليه وسلم «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قال فكأنني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس، لا يتعرض لها أحد وقال أبو الدرداء، ما لعن أحد الأرض إلا قالت، لعن الله أعصانا لله. وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) أبا بكر وهو يلحن بعض رقيقه، فالتفت إليه وقال «يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَانِينَ! كَلَّا وَرَبُّ الْكَفَّةِ» مرتين أو ثلاثا، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لا أعود وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤)، «إِنَّ اللَّعَانِينَ لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وقال أنس^(٥)، كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلحن بعيره، فقال صلى الله عليه وسلم «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ» وقال ذلك إنكارا عليه

واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من انصف بصفة تبعده من الله عز وجل، وهو الكفر والظلم، أن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين

(الآفة الثامنة اللعن)

(١) حديث المؤمن ليس بلعان: تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان - الحديث

قبل هذا بأحد عشر حديثا والترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا

(٢) حديث لا تلاعنوا بلعنة الله - الحديث: ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح

(٣) حديث عمران بن حصين بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعننها - الحديث: رواه م

(٤) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعانين وصديقين - الحديث: ابن أبي الدنيا في الصمت وشيحه بإشار

ابن موسى الحفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه

(٥) حديث إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة: م من حديث أبي الدرداء

(٦) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلحن بعيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

وينبغي أن يتبع فيه لهذا الشرع، فإن في اللعنة خطرا، لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبدى للملعون، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طلمعه الله عليه والصفات المقتضية لللعن ثلاثة، الكفر، والبدعة، والفسق. وللعن في كل واحدة ثلاثة مراتب الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين، والفسقة الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه، كقولك لعنة الله على اليهود، والنصارى، والمجوس، وعلى القدرية، والخوارج، والروافض، وأعلى الزناة، والظلمة، وآكلى الربا، وكل ذلك جائز، ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر، لأن معرفة البدعة غامضة، ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام، لأن ذلك يستدعى المعارضة بعثله، ويشير نزاعا بين الناس وفسادا الثالثة: اللعن للشخص المعين، وهذا فيه خطر. كقولك زيد لعنه الله، وهو كافر، أو فاسق، أو مبتدع والتفصيل فيه، أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا، فتجاوز لعنته. كقولك فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا. أما شخص بعينه في زماننا، كقولك زيد لعنه الله، وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر. فإنه ربما يسلم؛ فيموت مقربا عند الله، فكيف يحكم بكونه ملعونا؟ فإن قلت. يلعن لكونه كافرا في الحال، كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مساهبا في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد

فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله، أى ثبتته الله على الإسلام، الذى هو سبب الرحمة. وعلى الطاعة. ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة. فإن هذا سؤال للكفر، وهو في نفسه كفر. بل الجاز أن يقال، لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدري، والمطلق متردد بين الجهتين، ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر، فهو في زيد الفاسق، أو زيد المبتدع أولى. فلعن الأعيان فيه خطر، لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوما باللعن، فكان يقول في دعائه على قريش، ^(١) «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ يَا بِي جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ وَعُتْبَةُ بْنُ رَيْبَعَةَ» وذكر جماعة

(١) حديث اللهم عليك يا بى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

فدوا على الكثرة بما روي حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعبه فقهى عنه .^(١) إذ روي أنه كان يعلم الذين قتلوا أصحاب برمعة في قنوته شهرا ، فنزل قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ^(٢)) يعني أنهم ربا بسلامون ، فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر ، جاز لعنه ، وجاز ذمه ، إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يخز ، كما روي^(٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرثبه ، وهو يريد الطائف . فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله ، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام ، وأضرب للهام من أبي حنيفة . فقال أبو بكر ، يكلمنى هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ! فقال صلى الله عليه وسلم « اكفُفْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ » فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال « يَا أَبَا بَكْرٍ إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمِّمُوا فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الْأَنْبَاءُ لِلآبَاءِ » فكف الناس عن ذلك

^(٤) وشرب نعيان الخمر ، فخدمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال بعض الصحابة ، لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ »

(١) حديث أنه كان يعلم الذين قتلوا أصحاب برمعة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء . الشيخان من حديث أسد دار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب برمعة ثلاثين صباحا - الحديث : وفي رواية لهما قنوت شهرا يدعو على رعل وذكوان - الحديث : ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه - الحديث : وفيه اللهم العن لحيان ورعلا - الحديث : وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ م

(٢) حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مرثبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه - الحديث : د في الراصيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحاهد الله ورسوله - الحديث : وفيه فاداسيتهم المشركين فسبهم جميعا (٣) حديث شرب نعيان الخمر فخدمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عونًا للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار

عَلَى أَخِيكَ ، وَفِي رَوَايَةٍ « لَا تَقُلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » فَهَاءُ عَنْ ذَلِكَ . وَهَذَا
بَدَلُ عَلَى أَنْ لَعْنُ فَاسِقٍ بِعَيْنِهِ غَيْرُ جَائِزٍ

وَعَلَى الْجُمْلَةِ ، فَنَفْيُ لَعْنِ الْأَشْخَاصِ خَطَرٌ ، فَلْيَجْتَنِبْ . وَلَا خَطَرٌ فِي السَّكُوتِ عَنْ
لَعْنِ إِبْلِيسَ مِثْلًا . فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَجُوزُ لَعْنُ يَزِيدَ ، لِأَنَّهُ قَاتِلُ الْحُسَيْنِ أَوْ أَمْرِيهِ ،

قُلْنَا : هَذَا لَمْ يَثْبُتْ أَصْلًا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ قَتَلَهُ أَوْ أَمْرِيهِ مَا لَمْ يَثْبُتْ ، فَضْلًا عَنْ
الْبَلْعَةِ ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ نِسْبَةُ مُسْلِمٍ إِلَى كَبِيرَةٍ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ . نَعَمْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ قَتَلَ ابْنَ مَلْجَمٍ عَلَيْهِ ،
وَقَتَلَ أَبُو لَوْلُؤَةَ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَإِنْ ذَلِكَ ثَبَتَ مُتَوَاتِرًا . فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَرْمَى
مُسْلِمٌ بِفُسْقٍ أَوْ كُفْرٍ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) « لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا
بِالْكُفْرِ وَلَا بِزَمِيهِ بِالْفُسْقِ إِلَّا أَرْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) « مَا شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالْكُفْرِ إِلَّا بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَافِرًا أَفْهَوْ
كَمَا قَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَقَدْ كَفَرَ بِتَكْفِيرِهِ إِيَّاهُ » وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ
أَنَّهُ مُسْلِمٌ . فَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ كَافِرٌ بَبَدْعَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، كَانَ مُخْطِئًا لَا كَافِرًا . وَقَالَ مَعَاذُ ^(٣) قَالَ لِي
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَنْتَ أَهَكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِمًا أَوْ تَعْصِيَ إِمَامًا عَادِلًا »

وَالْتَعَرُّضُ لِلْأَمْوَاتِ أَشَدُّ . قَالَ مَسْرُوقٌ ، دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ فَقَالَتْ
مَا فَعَلَ فَلَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ ؟ قُلْتُ تَوَفَّى . قَالَتْ رَحِمَهُ اللَّهُ ، قُلْتُ وَكَيْفَ هَذَا ؟ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

مِنْ رَوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَمٍ مَرَسَلًا وَمُحَمَّدٌ هَذَا أَوَّلُ دَفْعِ حَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمَاءُ مُحَمَّدًا
وَكُنَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ وَالْمَحَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ وَكَانَ يَقْلِبُ حِمَارًا وَكَانَ يَضْحَكُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَدْ جَلَدَهُ
فِي الشَّرْبِ فَأَتَى بِهِ يَوْمًا فَأَمْرَهُ بِجُلْدٍ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنِهِ مَا أَكْثَرَ مَا يُوْتِي بِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي رَجُلٍ
شَرِبَ وَلَمْ يَسْمَعْ فِيهِ لَا تَعْنُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَفِي رَوَايَةٍ لَا تَكُونُوا عَوْنُ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ

(١) حَدِيثُ لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْكُفْرِ وَلَا بِزَمِيهِ بِالْفُسْقِ إِلَّا أَرْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ : مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ
وَالسِّيَاقُ لِلْمَحَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ مَعَ تَقْدِيمِ ذِكْرِ الْفُسْقِ

(٢) حَدِيثُ مَا شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالْكُفْرِ إِلَّا أَرْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا أَفْهَوْ كَمَا قَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَقَدْ كَفَرَ
بِتَكْفِيرِهِ إِيَّاهُ أَبُو مَنْصُورٍ الدِّبَالِيُّ فِي مُسْتَدْرَكِ الْفَرْدُوسِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ

(٣) حَدِيثُ مَعَاذَ أَنْتَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِمًا أَوْ تَعْصِيَ إِمَامًا عَادِلًا : أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثٍ لَهُ طَوِيلٌ

صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال عليه السلام ^(٢) « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الْأَحْيَاءَ » وقال عليه السلام ^(٣) « أَيُّهَا النَّاسُ احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلَا تَسُبُّوهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ فَادَّكَّرُوا مِنْهُ خَيْرًا »

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الأمر بقتله لعنه الله قلنا الصواب أن يقال ، قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله . لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة . فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا . ولا يجوز أن يلعن . والقتل كبيرة ، ولا تنتهي إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق ، كان فيه خطر . وليس في السكوت خطر ، فهو أولى وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة ، وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان . فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فلا اشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن ، ففي السكوت سلامة . قال مكى بن إبراهيم ، كنا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبي بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه . وابن عون ساكت . فقالوا يا ابن عون ، إنما نذكركم لما تركب منك ، فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحتي يوم القيامة . لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانا . فلان يخرج من صحتي لا إله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها العن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) أوصني ، فقال « أوصيك أن لا تكون لعانًا » .

(١) حديث عائشة لا تسبوا الاموات فانهم قد افضوا إلى ما قدموا : بخ و ذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفائق مع القصة

(٢) حديث لا تسبوا الاموات فتؤذوا الاحياء : الترمذي من حديث المغيرة بن شعبة و رجاله ثقات إلا ان بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم

(٣) حديث أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبوهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عباد الانصارى احفظوني في أصحابي وأصهارى واسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة لا تسبوا أصحابي ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم والنسائي من حديث عائشة لا تذكروا موتاكم إلا بخير واسناده جيد

(٤) حديث قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعاناً : أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرير بن مزور الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم .

وقال ابن عمر ، إن أبغض الناس إلى الله كل طمان لعان ، وقال بعضهم ، لعن المؤمن يعدل قتله . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا ، لو قلت إنه مرفوع لم أبال . وعن أبي قتادة ، قال ^(١) « كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله . وقد نقل ذلك حديثا سرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر ، حتى الدعاء على الظالم . كقول الإنسان مثلا لا صحح الله جسمه ، ولا سامه الله ، وما يجري مجراه . فإن ذلك مذموم . وفي الخبر ^(٢) « إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى بُكَافَتْهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

الآفة التاسعة

الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل ، فلا تعيده أما الشعر ، فكلام حسنه حسن ، وقيحه قبيح . إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « لَأَنْ يَمْتَلِي جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِي شِعْرًا » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر ، فكرهه ، فقيل له في ذلك ، فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر ، فقال اجعل مكان هذا ذكرا ، فإن ذكر الله خير من الشعر .

وعلى الجملة : فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام ، إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ مِنْ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ » نعم مقصود الشعر المدح ، والذم ، والتشبيب ، وقد يدخله الكذب . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) حسان بن ثابت

(١) حديث لعن المؤمن كقوله : متفق عليه من حديث ثابت بن الصحاح .

(٢) حديث أن المظلوم يدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة : لم أقف له على أصل .

وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انتصر

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

(٣) حديث لأن يمتلي جوف أحدكم قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِي شِعْرًا : مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص وانفق عليه

الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد

(٤) حديث أن من الشعر لحكمة : تقدم في العلم وفي آداب السماع

(٥) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين : متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان

أهجهم وجبريل معك

الانصاري بهجاء الكفار . والنوسع في المدح ، فإنه وإن كان كاذبا ، فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب . كقول الشاعر

ولو لم يكن في كفه غير روحه
لجاء بها فليستق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بتهاية السخاء . فإن لم يكن صاحبه سخيا ، كان كاذبا . وإن كان سخيا . فالبالغة من صنعة الشعر ، فلا يقصد منه أن يعتد بصورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو تتبعته ، لوجد فيها مثل ذلك ، فلم يمنع منه قالت عائشة رضي الله عنها : ^(١) ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نورا ، قالت فبهت ، فنظر إلى فقال « مَا لَكَ بِهِتٌ ؟ » فقلت يا رسول الله ، نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولورأك أبو كبير الهذلي ، لعلم أنك أحق بشعره . قال « وَمَا يَقُولُ يَا بَاجِيشَةُ أَبُو كَبِيرٍ الْهَذَلِيُّ ؟ » قلت يقول هذين البيتين

ومبرا من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقام إلى ، وقبل ما بين عيني ، وقال « جَزَالِكُ اللَّهُ خَيْرًا يَا عَائِشَةُ مَا سُرِرْتَ مِنِّي كَسُرُورِي مِنكَ » ^(٢) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين ، أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص ، فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره

(١) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه

يعرق وجعل عرقه يتولد نورا - الحديث : وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي

ومبرا من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث : رواه البيهقي في دلائل النبوة

(٢) حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره

وما كنت بدر ولا خاس يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه - الحديث : مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسفبان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع

ابن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس ذلك فقال عباس بن مرداس

وما كان بدر ولا حابس . يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منها . ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال صلى الله عليه وسلم « افطعوا عني لسانه » فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه
حتى اختار مائة من الإبل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس . فقال له صلى الله عليه وسلم
« أَتَقُولُ فِي الشُّعْرَ ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول ، بأبي أنت وأمي ، إني لأجد للشعر ديبا
على لساني كديب النمل ، ثم يقرضني كما يقرض النمل ، فلا أجد بدا من قول الشعر . فتبسم
صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَدْعُ الْعَرَبُ الشُّعْرَ حَتَّى تَدْعَ الْإِبِلُ الْحَنِينَ »

الآفة العاشرة

المزاح

وأصله مذموم منهى عنه ، إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم
(١) « لَا تُمَارِ أَخَاكَ وَلَا تُمَارِجْهُ »

فإن قلت : الماراة فيها إيذاء ، لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح
فقطاية ، وفيه البساط وطيب قلب ، فلم ينهى عنه ؟
فاعلم . أن المنهى عنه الإفراط فيه ، أو المداومة عليه
لأما المداومة ، فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة
وأما الإفراط فيه ، فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تيمت القلب ، وتورث
الضعف في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فما ينخلو عن هذه الأمور فلا يذم ،

أنجعل نهى وهب العبيد بين عيبة والأمرع
وما كان بدر ولا حابس . يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منها . ومن تضع اليوم لا يرفع
قال فأنم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد في رواية وأعطى علقمة بن علانة مائة وأما زيادة
أقطعوا عني لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة
(الآفة العاشرة المزاح)

(١) حديث لا تمار أخاك ولا تمارجحه : الترمذي وقد تقدم

نَحْنُ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ^(١) « إِنِّي لَا مَزْحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا » إِلَّا أَنْ مَثَلَهُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمَزَحَ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا . وَأَمَّا غَيْرُهُ إِذَا فَتَحَ بَابَ الْمَزَاحِ ، كَانَ غَرَضُهُ أَنْ يَضْحَكَ النَّاسَ كَيْفَمَا كَانَ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ النَّارِ »

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَنْ كَثُرَ ضَحْكُهُ ، قَلَّتْ هَيْبَتُهُ ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتَخَفَّ بِهِ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عَرَفَ بِهِ ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ، وَلَئِنْ الضَّحْكَ يَدُلُّ عَلَى الْغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٣) « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا »

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَخِيهِ يَا أَخِي ، هَلْ أَتَاكَ أَنْكَ وَارْدَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ . فَهَلْ أَتَاكَ أَنْكَ خَارِجَ مِنْهَا ؟ قَالَ : لَا قَالَ . فَفِيمَ الضَّحْكَ ؟ قِيلَ فَمَا رَأَيْتَ ضَاحِكًا حَتَّى مَاتَ ، وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ أَقَامَ الْحَسَنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَمْ يَضْحَكْ . وَقِيلَ : أَقَامَ عَطَاءُ السَّامِيُّ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَضْحَكْ . وَنَظَرَ وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ إِلَى قَوْمٍ يَضْحَكُونَ فِي عِيدِ فِطْرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ غُفِرَ لَهُمْ فَمَا هَذَا فَعَلَ الشَّاكِرِينَ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ فَمَا هَذَا فَعَلَ الْخَائِفِينَ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَعْلَى يَقُولُ ، أَتَضْحَكُ وَلَعَلَّ أَكْفَانَكَ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِ الْقَصَارِ ؟ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَهُوَ يَضْحَكُ ، دَخَلَ النَّارَ وَهُوَ يَبْكِي . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : إِذَا رَأَيْتَ فِي الْجَنَّةِ رَجُلًا يَبْكِي ، أَلَسْتَ تَعْجَبُ مِنْ بَكَائِهِ ؟ قِيلَ بَلَى ، قَالَ . فَالَّذِي يَضْحَكُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَدْرِي إِلَى مَاذَا يَصِيرُ هُوَ أَعْجَبُ مِنْهُ فَهَذِهِ آفَةُ الضَّحْكَ . وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْرِقَ ضَحْكًا . وَالْمَحْمُودُ مِنْهُ التَّبَسُّمُ الَّذِي يَنْكَشِفُ فِيهِ السِّنُّ ، وَلَا يَسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ . وَكَذَلِكَ كَانَ ضَحْكَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٤) قَالَ الْقَاسِمُ مَوْلَى مُعَاوِيَةَ ^(٥) أَقْبَلَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى قُلُوصٍ لَهُ صَعْبٌ

(١) حديث أنى لمزح ولا أقول إلا حقا : تقدم

(٢) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من النرا : تقدم

(٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : متفق عليه من حديث أنس وعائشة

(٤) حديث كان ضحكه التبسم : تقدم

(٥) حديث القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فلم يجعل

كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله فيريه وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه

فسلم ، فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله ، يهرب ، فيجعل أصحابه يمشون
رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه . ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقال : أنه قتيلا
يارسول الله ، إن الأعرابي قد صرعه قلوبسه ، وقد هلك . فقال : كنتم وأقواهم ملاءي من دمه .
وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار ، فقد قال عمر رضي الله عنه ، من مزح امتنع به
وقال محمد بن المنكدر ، قالت لى أمى ، يا بنى لا تمزح الصبيان فتبهون عندهم . وقال سعيد
ابن العاص لابنه ، يا بنى لا تمزح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيا فيجتريء عليك . وقال
عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، اتقوا الله وإياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة ، ويجر
إلى القبيح . تحدثوا بالقرءان ، وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث
الرجال . وقال عمر رضي الله عنه . أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا . قال
لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل لكل شيء بذور ، وبذور العداوة المزاح . ويقال
المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء .

فإن قلت . قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه
فأقول . إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن
تمزح ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الدور
فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم ، أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب
عليه ، ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو كمن يدور بهاره
مع الزوج ، ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن
للعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد . وهو خطأ . إذ من الصغائر ما يصير
كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار . فلا ينبغي أن يغفل عن هذا

ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوبسه فهلك

قال نعم وأقواهم ملاءي من دمه : ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل

(١) حديث أذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد : تقدم

نعم روى أبو هريرة ^(١) أنهم قالوا يا رسول الله، إنك تداعبنا، فقال «إِنِّي وَإِنْ دَاعَبْتُكُمْ لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» وقال عطاء ^(٢) «إِنْ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، أَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُحُّ؟ فَقَالَ نَعَمْ. قَالَ فَمَا كَانَ مَزَاحِهِ؟ قَالَ كَانَ مَزَاحَهُ: إِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَسَا ذَاتَ يَوْمٍ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ ثَوْبًا وَاسِعًا، فَقَالَ لَهَا «الْبَسِيهِ وَأَحْمَدِي، وَجَرِّي مِنْهُ ذِيلاً كَذَّيلاً لِلْعُرُوسِ» وقال أنس، إِنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٣) كَانَ مِنْ أَفْكِهِ النَّاسَ مَعَ فُسَائِهِ. وروى ^(٤) أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ التَّبَسُّمِ. وَعَنْ الْحَسَنِ ^(٥) قَالَ، أَتَيْتُ عَجُوزَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ» فَبَكَتْ فَقَالَ «إِنَّكَ لَسِتِ بِعَجُوزٍ يَوْمَئِذٍ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ^(٦))

وقال زيد بن أسلم ^(٦) إِنْ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أُمُ أَيْمَنَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ «إِنِّي زَوْجِي يَدْعُوكَ. قَالَ «وَمَنْ هُوَ؟ أَهُوَ الَّذِي بَعَيْنِهِ بَيَاضٌ؟» قَالَتْ وَاللَّهِ مَا بَيْنَهُ بَيَاضٌ. فَقَالَ «بَلَى إِنْ بَعَيْنِهِ بَيَاضًا» فَقَالَتْ لَا وَاللَّهِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا مِنْ نَحْوِهِ إِلَّا وَبَعَيْنُهُ بَيَاضٌ» وَأَرَادَ بِهِ الْبَيَاضَ بِالْحَدِيقَةِ. وَجَاءَتْ امْرَأَةٌ أُخْرَى فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِلْنِي عَلَى بَعِيرٍ. فَقَالَ «بَلَى نَحْمِلُكَ عَلَى ابْنِ الْبَعِيرِ» فَقَالَتْ مَا أَصْنَعُ بِهِ؟ إِنْهُ لَا يَحْمِلُنِي. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ» فَكَانَ يَزُحُّ بِهِ

(١) حديث أبي هريرة قالوا إنك تداعبنا قال أنى وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً: الترمذى وحسنه

(٢) حديث عطاء بن رباح سأل ابن عباس أَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُحُّ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَعَمْ - الحديث:

فذكر منه قوله لامرأة من نساءه البسية واحمدى وجرى منه ذيل كذيل العروس لم أقف عليه

(٣) حديث أنس كان من أفكه الناس: تقدم

(٤) حديث أنه كان كثير التبسّم

(٥) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز: الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلًا وأستدعه ابن الجوزى فى الوفاء

من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمان قالت ان زوجى يدعوك أهو الذى بعينه بياض - الحديث: الزبير

ابن بكار فى كتاب الفكاهة والزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف

(٧) حديث قوله لامرأة استحمله نحمك على ابن البعير - الحديث: ابو داود والترمذى وصححه من حديث

أنس بلفظ أنا حملك على ولد الباقه

وقال أنس ، كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير^(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتهم ويقول « يَا أَبَا عَمِيرٍ مَا فَعَلَ الثَّغِيرُ » لغير كان يلعب به وهو فرخ المصفور ، وقالت عائشة رضي الله عنها^(٢) ، خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال « تَعَالِي حَتَّى أُسَاقِكَ » فشددت درعى على بطنى ، ثم خططنا خطا ، فقمنا عليه واستبقنا ، فسبقنى . وقال « هَذِهِ مَكَانُ ذِي الْمَجَازِ » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز ، وأنا جارية قد بعثنى أبى بشيء ، فقال أعطيني ، فأبيت وسعيت ، وسعى فى أثرى ، فلم يدركنى . وقالت أيضا^(٣) ، سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هَذِهِ بَنِيكَ » وقالت أيضا رضي الله عنها^(٤) ، كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة بنت زمعة ، فصنعت حريرة وجئت به ، فقلت لسودة كلى . فقالت لا أحبه ، فقلت والله لتأكلن أولاً لطنخ به وجهك ، فقالت ما أنا بذائقته . فأخذت يدي من الصحيفة شيئاً منه . فلطنخت به وجهها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها . فنفض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتيه لتستقيد منى . فتناولت من الصحيفة شيئاً ، فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك وروى أن الضحاك بن سفيان السكلابي ،^(٥) كان رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم ، قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء ، وذلك قبل أن تنزل

(١) حديث أنس أبا عمير ما فعل الثغير : متفق عليه وسد في أخلاق النبوة

(٢) حديث عائشة في مساقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها قال هذه مكان ذى المجاز : لم أجده أصلاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر

(٣) حديث عائشة سابقنى فسبقته : النسائي وابن ماجه وقد تقدم في النكاح

(٤) حديث عائشة في لطنخ وجه سودة بحريرة ولطنخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد

(٥) حديث أن الضحاك بن سفيان السكلابي قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أمي أحسن أم أنت فقال بل أمي أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميماً : الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسل أو معضلاً وللدارقطني نحو هذه القصة مع عينة ابن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة

أيه الخجاب ، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها ، وعائشة جالسة تسمع فقالت ، أهي أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه ، لأنه جكان ديباً

وروى علقمة عن أبي سلمة ^(١) ، أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليها السلام ، فيرى الصبي لسانه ، فيهش له . فقال له عيينة بن بدر الفزاري ، والله ليكونن لي الابن قد تزوج ، وبقل وجهه ، وما قبلته قط . فقال صلى الله عليه وسلم « إن من لا يرحم لا يرحم » فأكثر هذه المطايات متبولة مع النساء والصبيان . وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم ، من غير ميل إلى هزل . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) مرة لصهيب وبه رمد ، وهو يأكل تمرًا « أتا سكل التمر وأنت رمد ؟ » فقال : إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله . فتبسم صلى الله عليه وسلم . قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه .

وروى ^(٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة . فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ » فقال يقتلن ضفيرا لجل لى شرود . قال فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، ثم عاد

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيهش إليه فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد خرج وجهه وما قبلته قط فقال إن من لا يرحم لا يرحم : أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عبيدة ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر وتسب إلى جده وحكى الخطيب في المبهات قول ابن في قائل ذلك أحدها أنه عيينة بن حصن والثاني أنه الأفرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأفرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم

(٢) حديث قال لصهيب وبه رمد أنا سكل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم : ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٣) حديث أن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يقتلن ضفيرا لجل لى شرود . الحديث : الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو

الآفة الحادية عشرة

السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مہما کان مؤذیا، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ

(١) حديث كان نعيان رجلا مزاحا وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه - الحديث وفيه أنه كان يشتري النبي ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يحيى صاحبه فيقول اعطه ثمن متاعه - الحديث : الزبير بن بكار في الفسكاة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدم أوله

﴿ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء ﴾

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءَ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ^(١)) ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به ، لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها ، ^(٢) « حاكيت إنسانا ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم » وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ إِلَيَّ حَاكِيَةُ إِنْسَانًا وَلِي كَذَا وَكَذَا » وقال ابن عباس في قوله تعالى : (يَا وَدَّعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ^(٣))) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمرة ^(٤) أنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال « عَلَامَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ! » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرٍّ بِهِ وَغَمٍّ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرٌ فَيَقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرٍّ بِهِ وَغَمٍّ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ فَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ الْبَابُ فَيَقَالُ لَهُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَلَا يَأْتِيهِ » وقال معاذ بن جبل ^(٦) : قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ لَمْ يَمِتْ حَتَّى يَمُوتَهُ » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه استهانة به واستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ^(٧)) أي لا تستحقره استصغارا ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به .

(١) حديث عائشة حكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ما يسرنى إلى حاكيت إنسانا وإلى كذا وكذا : أبو داود والترمذي وصحه

(٢) حديث عبد الله بن زمرة وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدهم مما يفعل : متفق عليه

(٣) حديث أن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكره وغمه فإذا جاء أغلق دونه - الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلًا ورويناه في غرائب الجيب

من رواية أبي هبة أحد الهالكين عن أنس

(٤) حديث معاذ بن جبل من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يموت حتى يموت : الترمذي دون قوله قد تاب منه وقال

حسن عريب وليس أسناده متصل قال الترمذي قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

(٥) الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلًا ورويناه في غرائب الجيب

(٦) حديث معاذ بن جبل من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يموت حتى يموت : الترمذي دون قوله قد تاب منه وقال

حسن عريب وليس أسناده متصل قال الترمذي قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

(١) الحجرات : ١١ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) الحجرات : ١١

فاما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح . وقد سبق ما ينم منه وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على خطئه ، وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا ، أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها

الآفة الثانية عشرة

إفشاء السر

وهو منهى عنه ، لما فيه من الإيذاء ، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ انْتَفَتَ فِيهِ أَمَانَةٌ » وقال ^(٢) « الْحَدِيثُ بَيْنَكُمْ أَمَانَةٌ » وقال الحسن : « إِنْ مِنْ الْخِيَانَةِ أَنْ تَحْدِثَ بِسِرِّ أَخِيكَ »

ويروى أن معاوية رضي الله عنه ، أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا . فقال لأبيه ، يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا ، وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك . قال فلا تحدثني به ، فإن من كتم سره كان الخيار إليه ؛ ومن أفشاه كان الخيار عليه . قال . فقلت يا أبت ، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر . قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال . يا وليد ، أعتقك أبوك من رق الخطأ إفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة ، فأغنى عن الإعادة

الآفة الثالثة عشرة

الوعد الكاذب

فإن اللسان مباح إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء ، فيصير الوعد خلفا ، وذلك

﴿ الآفة الثانية عشرة إفشاء السر ﴾

(١) حديث اداحدث الرجل بحديث ثم انتفت فهي أمانة: أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث الحديث بينكم أمانة: ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسل

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

من أمارات النفاق قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ^(١)) وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) «الْوَأَىُّ مِثْلُ الدِّينِ أَوْ أَفْضَلُ» والوَأَىُّ الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام ، في كتابه العزيز ؛ فقال (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ^(٣)) قيل إنه وعد إنسانا في موضع ، فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي . فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال ، إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد ، فو الله لا ألقى الله بثلاث النفاق ، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي^(٤) وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك ، ففسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال «يَا قَتْنَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَهُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَتَنْتَظِرُكَ» وقيل لإبراهيم الرجل يواعد الرجل للمعاد فلا يجيء . قال . ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥) إذا وعد وعدا قال «عَسَى» وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله ، وهو الأولى ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد ، فلا بد من الوفاء ، إلا أن يتعذر . فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي ، فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَاقِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتَمَنَ خَانَ»

(١) حديث العدة عطية : الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق

من حديث الحسن مرسل

(٢) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل : ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسل وقال الوأى

يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف

(٣) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك

فسبب يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا بني لقد شققت على أنا ههنا . منذ

ثلاث انتظرلك : رواه أبو داود واختلف في اسماؤه وقال ابن مهدي ما اظن إبراهيم

ابن طهساب إلا اخطأ فيه

(٤) حديث كان إذا وعد وعدا قال عسى : لم أحمله أصلا

(٥) حديث أبي هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق - الحديث : وفيه إذا وعد اخلف متفق عليه وقد تقدم

(٦) للمائدة : ١ (٢) مريم : ٥٤

وقال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَرْتَعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُمْ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِيَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء عن غير عذر . فأما من عزم على الوفاء ، فعن له عذر منعه من الوفاء ، لم يكن منافقا ، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق .

ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا ، كما يحترز من حقيقته . ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ، فأتى بثلاثة من السبي ، فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول . ألا ترى أثر الرحي يبدى ؟ فذكر مواعده لأبى الهيثم ، فجعل يقول « كَيْفَ بِنَوْعِدِي لِأَبِي الْهَيْثَمِ » فأثره به على فاطمة ، لما كان قد سبق من مواعده له ، مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضميفة .

^(٣) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بجنين ، فوقف عليه رجل من الناس ، فقال إن لى عندك موعدا يا رسول الله ، قال « صَدَقْتَ فَأَحْتَكِمُ مَا شِئْتَ » فقال أحكم ثمانين ضائية وراعيها . قال « هِيَ لَكَ » وقال « احْكَمْتَ بِسِيرًا وَلَصَاحِبَةٌ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ كَانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكْمًا مِنْكَ حِينَ حَكَمَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَةً وَأَدْخُلَ مَعَكَ الْجَنَّةَ »

(١) حديث عبدالله بن عمرو اربع من كن فيه كان منافقا - الحديث منفق عليه

(٢) حديث كان وعد ابا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه - الحديث : وفيه فجعل يقول كيف بموعدي لأبى الهيثم فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة

(٣) حديث انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بجنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ما شئت - الحديث : وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك - الحديث : ابن حبان والحاكم فى المستدرک من حديث أبى موسى مع اختلافه قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر

قيل فكان الناس يصفون ما احتكم به حتى جعل مثلاً ، فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعي
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَيْسَ الْخُلْفُ أَنْ يَعْدَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَفِي نَيْتِهِ أَنْ يَفِي »
وفي لفظ آخر « إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَفِي نَيْتِهِ أَنْ يَفِي فَلَمْ يَجِدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »

الآفة الرابعة عشرة

الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب . قال اسماعيل بن واسط ، سمعت أبا بكر
الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال . ^(٢) ، قام فينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ، ثم بكى وقال « إِبَّاءُكُمْ وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ
مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » وقال أبو أمامة . ^(٣) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ
الْكَذِبَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ » وقال الحسن . كان يقال إن من النفاق اختلاف السر
والملاينة ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب
وقال عليه السلام ^(٤) « كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهٍ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ

(١) حديث ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي وفي لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفي
نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه : أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ
الثاني الا أنها قالوا فليرف

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين)

(٢) حديث أبي بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال
إياكم والكذب - الحديث : ابن ماجه والنسائي في اليوم والايلة وجعله المصنف من رواية
اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن
(٣) حديث أبي أمامة ان الكذب باب من ابواب النفاق : ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى
الوجيهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن
فيه كان منافقا قال فى كل منهما وإذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدم فى الآفة التى قبلها
(٤) حديث كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب : البخارى فى كتاب الأدب
للإمام أبو داود من حديث سفيان بن اسيد وضعفه ابن عدى ورواه احمد والطبرانى من
حديث الزواس بن سمعان بإسناد جيد

به كَذِبٌ» وقال ابن مسعود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »

^(٢) ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاه ويتحالفان ، يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر - والله لا أزيدك على كذا وكذا - فر بالشاه وقد اشتراها أحدهما . فقال « أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا بِالْإِيمِ وَالْكَفَّارَةِ » وقال عليه السلام ^(٣) « الْكَذِبُ يُنْقِصُ الرِّزْقَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ التَّجَارَةَ هُمُ الْفُجَّارُ » فقيل يا رسول الله ، أليس قد أجَلَ اللهُ البيع ؟ قال « نَعَمْ وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْتُمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) ، « ثَلَاثَةٌ نَهَى لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الْمَنَانُ بَعْطِيَّتُهُ وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْخَلِيفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارُهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « مَا حَلَفَ خَالِفٌ بِاللَّهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلَّا كَانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو ذر ^(٧) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ رَجُلٌ كَانَ فِي فِتْنَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ »

(١) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا: متفق عليه

(٢) حديث مر برجلين يتبايعان شاه ويتحالفان - الحديث : وفيه فقال اوجب احدهما بالايمة والكفارة

ابو الفتح الازدي في كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناه (في إنا) ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ وقال ابو حاتم هو عبد الله بن ناسخ

(٣) حديث السكذب ينقص الرزق : أبو الشيخ في طبقات الاصبهانين من حديث أبي هريرة ورويناه

كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر واسناده ضعيف

(٤) حديث ان التجار هم الفجار - الحديث : وفيه ويحدثون ويكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد

والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل

(٥) حديث ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والمتفق سلعت بالخلف الكاذب

والسبل ازاره : مسلم من حديث أبي ذر

(٦) حديث ما حلف خالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة

الترمذي والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس

(٧) حديث أبي ذر ثلاثة يحبهم الله - الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم انه التاجر أو البائع الخلاف أحمد واللفظ له

وفيه ابن الاحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ اخر باسناد جيد والنسائي من

حديث أبي هريرة أربعة يفضهم الله البياع الخلاف - الحديث : واسناده جيد

وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سَوْءٍ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَرٍ أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السَّرَى حَتَّى أَعْجَبَهُمْ أَنْ يَمْسُوا الْأَرْضَ فَزَلُّوا فَتَنَحَّى يُسَلِّي حَتَّى يُوقِفَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلِ . وَثَلَاثَةٌ يَشْنُوهُمْ اللَّهُ التَّاجِرُ أَوْ الْبَيْاعُ الْخِلَافُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ » وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ »

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) « رَأَيْتُ كَانَ رَجُلًا جَاءَنِي فَقَالَ لِي قُمْ فَقُمْتُ مَعَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالْآخَرُ جَالِسٌ بِيَدِ الْقَائِمِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الْجَالِسِ فَيَجْذِبُهُ حَتَّى يَبْلُغَ كَاهِلَهُ ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيُلْقِمُهُ الْجَانِبَ الْآخَرَ فَيَمْدُهُ فَإِذَا مَدَّهُ رَجَعَ الْآخَرُ كَمَا كَانَ فَقُلْتُ لِلَّذِي أَقَامَنِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذِّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَرَادٍ قَالَ ^(٣) سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ يَزْنِي الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ « قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ » قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هَلْ يَكْذِبُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَا . ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) ^(٤) وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٥) يَدْعُو فَيَقُولُ فِي دُعَائِهِ « اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَفَرْجِي مِنَ الزَّانَا وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ »

(١) حديث ويلى الذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويلى له ويلى له: أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى

فى السكرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

(٢) حديث رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمتم معى فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم

كلوب من حديد يلقيمه فى شدة الجالس - الحديث : البخارى من حديث مسمره ابن جندب فى حديث طويل

(٣) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن قال قد يكون من ذلك

قال هل يكذب قال لا - الحديث : ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء

(٤) حديث أبى سعيد اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب هكذا وقع فى

نسخ الأحياء عن ابن سعيد وأما هو عن أم معبد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله

وفرجى من الزنا وزاد وعلى من الرياء وعنى من الحياة وإسناده ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ سَيِّخُ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » وقال عبد الله بن عامر ^(٢) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي ، يا عبد الله ، تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ » قالت تراء فقال « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَكُنْتَ عَلَيْكَ كَذْبَةً » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « لَوْ أَفَاءَ اللَّهُ نَبِيًّا نِعْمًا عَدَدَ هَذَا الْحَصَى لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخِيَلًا وَلَا كَذَّابًا وَلَا جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئا ، ^(٤) « أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ ؟ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » ثم قعد وقال « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ فَيَتَّبَعُهُ الْمَلِكُ عَنْهُ مَسِيرَةٌ مِيلٌ مِنْ ثَنَيْنٍ مَا جَاءَ بِهِ » وقال أنس ^(٦) قال النبي صلى الله عليه وسلم « تَقَبَّلُوا إِلَيَّ يَسْتَأْتِبُكُمْ بِالْجَنَّةِ » فقالوا وما هن ؟ قال « إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يَخْلِفْ وَإِذَا أَتَيْتُمْ فَلَا يَحْنُ وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ »

(١) حديث ثلاثه لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم - الحديث : وفيه والامام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب

فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت أن تعطيه قالت تراء فقال ان لم تفعل

كنبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم ان عبد الله بن عامر رآه

في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود

ورجالهما ثقات الا أن الرهري لم يسمع من أبي هريرة

(٣) حديث لو أفاء الله على نعمة عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا : رواه

مسلم ونقدم في أخلاق النبوة

(٤) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - الحديث : وفيه ألا وقول الروم متفق عليه من حديث أبي بكر

(٥) حديث ابن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من ثنين ما جاء به

الترمذي وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس تقبلوا إلى يستأقبلكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب - الحديث : الحاكم في

المستدرک والخرائطى في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن

معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ كَحَلًّا وَلَمُوقًا وَنَشُوقًا أَمَّا لَعُوقُهُ فَالْكَذِبُ وَأَمَّا نَشُوقُهُ فَالْعَنَبُ وَأَمَّا كَحَلُّهُ فَالنَّوْمُ »

وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال ^(٢) ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقياي هذا فيكم ، فقال « أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلَاوُسُهُمْ ثُمَّ يَفْشُوا الْكَذِبَ حَتَّى يُخْفِ الرَّجُلُ عَلَى الْيَمِينِ وَلَمْ يُسْتَخْلَفْ وَيَشْهَدْ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ »

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِأَنَّهُ لَيَقْتُلَنَّ بِهَا مَالَ أَمْرِي مُسْلِمٍ بَغْيٍ حَقِّ أَيْ لَقِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٥) ، أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « كُلُّ خَصْلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يَطْوَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ »

وقالت عائشة رضي الله عنها ^(٧) ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب ، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها .

(١) حديث أن الشيطان كالألوعوقا - الحديث : الطبراني وأبو يعين من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث خطب عمر بالجالية - الحديث : وفيه ثم يهشوا الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٣) حديث من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين مسلم في مقدمة صحيحة من حديث سمرة بن جندب

(٤) حديث من حلف على يمين ما أتى ليقطع بها مال امرئ مسلم - الحديث : منفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبا : ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه من أكبر قاله أحمد بن حنبل

(٦) حديث على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب : ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي امامة ورواه ابن عدى في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي امامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد بن زوقا وموقوفا وللوقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلل

(٧) حديث ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله توبة أحمد من حديث عائشة ورجالها لأنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه ابن الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح

وقال موسى عليه السلام : يارب ، أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه يابني ، إياك والكذب ، فإنه شئ كلحم العصفور ، عما قليل يقلاه صاحبه .

وقال عليه السلام في مدح الصدق ^(١) « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا يَضُرُّكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا صِدْقُ الْحَدِيثِ وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِفَّةٌ طُعْمَةٌ » وقال أبو بكر رضي الله عنه ^(٢) في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول ؛ ثم بكى وقال « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ » وقال معاذ . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْمَهْدِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ »

وأما الآثار فقد قال علي رضي الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه . ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى . وقال عمر رضي الله عنه ، أجبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسما فإذا رأيناكم فأجبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اخترناكم فأجبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة وعن ميمون بن أبي شبيب قال ، جلست أكتب كتابا ، فأتيت على حرف إن أنا كتبت زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فمزمت على تركه فنوديت من جانب البيت (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ^(٣)) وقال الشعبي ما أدرى أيهما أبعث غورا في النار ، الكذاب أو البخيل . وقال ابن السكك ، ما أرانى أو جر على ترك الكذب ، لأننى إنما أدعه أنفة

(١) حديث أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث .. الحديث : الحاكم

والحرائطي في مكارم الاخلاق من حديث عبد الله بن عمرو فيه ابن لهيعة

(٢) حديث أبى بكر عليكم بالصدق فانه مع البر وهما في الجنة ابن ماجة والنسائي في اليوم والليلة وقد

تقدم بعضه في أول هذا النوع

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : أبو نعيم في الحلية وقد تقدم

وقيل لخالد بن صبيح، أيسى الرجل كاذبا بكذبة واحدة؟ قال نعم. وقال مالك بن دينار، قرأت في بعض الكتب، مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقا صدق، وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بنقاريض من نار، كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك ابن دينار، الصدق والكذب يعتركان في القلب، حتى يخرج أحدهما صاحبه. وكلم عمر ابن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء، فقال له كذبت. فقال عمر، والله ما كذبت منهذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

بيان

ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره. فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا، وقد يتعلق به ضرر غيره. ورب جهل فيه منفعة ومصلحة. فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذونا فيه، وربما كان واجبا، قال ميمون بن مهران، الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرايت لو أن رجلا سمى خلف إنسان بالسيف ليقتله، فدخل دارا، فأنهى إليك فقال أرايت فلانا؟ ما كنت قائلا؟ ألت تقول لمأره، وما تصدق به؟ وهذا الكذب واجب

فقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد. فكل مقصود محمود، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام. وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك المقصد مباح، وواجب إن كان المقصود واجبا. كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فهما كان في الصدق سفك دم امرئ. مسلم فداختي من ظالم، فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب، أو إصلاح ذات البين، أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بالكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما يمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا للضرورة.

والذى يدل على الاستثناء ، ماروى عن أم كلثوم قالت ^(١) ، ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب ، إلا فى ثلاث ، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ غَيْرًا » وقالت أسماء بنت يزيد ^(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَسَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا »

وروى عن أبي كاهل ^(٤) قال وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما . فاقبضتهما فقلت مالك ولشلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك التواء . ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك ، حتى أنه طلحا . ثم فلتت أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يَا أَبَا كَاهِلٍ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ » أى ولولوا بالكذب وقال عطاء بن يسار ^(٥) قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، أ كذب على أهلى ؟ قال « لَا خَيْرَ فِي الْكَذِبِ » قال أعدما وأقول لها ؟ قال « لَا جَنَاحَ عَلَيْكَ »

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى ، وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن . فطارت له فى الناس من ذلك أحدىثة يكرهها . فلما علم بذلك ، أخذ يهدى عبد الله ابن الأرقم : حتى أتى به إلى منزله . ثم قال لامرأته ، أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تشدنى

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص فى شىء من الكذب الا فى ثلاث : مسلم وقد تقدم

(٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس - الحديث : منفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا

(٣) حديث أسماء بنت يزيد كل الكذب يكتسب على ابن آدم إلا الرجل كذب بين رجلين يصلح بينهما : أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه

(٤) حديث أبي كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام - الحديث : وفيه يا أبا كاهل أصلح بين الناس رواه الطبرانى ولم يصح

(٥) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أ كذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدما وأقول لها قال لا جناح عليك : ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الوطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

قال فإني أنشدك الله . قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلمهن . فاسأل ابن الأرقم . فسأله فأخبره . فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة ، فجاءت هي وعمتها . فقال أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ، فتألت إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناشدني فتخرجت أن أ كذب ، فأ كذب بأمر المؤمنين ؟ قال نعم ، فأ كذبي ، فإن كانت إحدا كن لا تحب أحدا فلا تحبني بذلك فإن أقل البيوت الذي يبني على الحب ؛ ولكن الناس يتعاضون بالإسلام والأحساب

(١) وعن النعمان بن سميان الكلابي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَالِي أَرَاكُمْ تَهَافُتُونَ فِي الْكَذِبِ تَهَافُتُ الْفَرَّاشُ فِي النَّارِ كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ لَا تَحَالَةَ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَحْنَاءُ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا أَوْ يُحَدِّثَ امْرَأَتَهُ يُرْضِيهَا » وقال ثوبان . الكذب كله إثم ، إلا ما نفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن أ كذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم ، فالحرب خدعة

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها ، إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره

أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ، فله أن ينكره . أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبتها ، فله أن ينكر ذلك ، فيقول ما زنت وما سرقت وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلَيْسَتْ بِسِتْرِ اللَّهِ » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه ، وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه ، وإن كان كاذبا

(١) حديث النعمان بن سميان ماله أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفرّاش في النار كل الكذب مكتوب - الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق بلفظ تنبأ يعون إلى قوله في النار دون ما بعده فرواه الطبراني وفيها شهر بن حوشب

(٢) حديث من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله : الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستر بستر الله واستاده حسن

وأما عرض غيره ، فبأن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره . وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه . وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه ، فيعدها في الحال تطيباً لقلبها . أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد ، فلا بأس به .

ولكن الحد فيه ، أن الكذب محذور . ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط . فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق ، أشد وقماً في الشرع من الكذب ، فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران ، بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك في كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم ، فيرجع إليه . ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ، ينبغى أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه . وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب . فأما إذا تعلق بغير غيره ، فلا يجوز المسامحة لحق الغير ، والإضرار به . وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم . ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأموال ليس فواتها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به ، وتكذب لأجل مراعاة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء ^(١) ، سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ، إن لي ضرة ، وإنى أتكرر من زوجي بما لم يفعل ، أضرها بذلك . فهل على شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « اَلْمَتَشَبِعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ تَطَعَّمَ بِمَا لَا يُطْعَمُ أَوْ قَالَ لِي وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أُعْطِيَ وَلَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذي لا يتثبت به إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لأدري ، وهذا حرام

(١) حديث أسماء قالت امرأة إن لي ضرة وإنى أتكرر من زوجي بما لم يفعل - الحديث : متفق عليه

وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق

(٢) حديث من تطعم بما لا يطعم وقال لي وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور

يوم القيامة : لم أجده بهذا اللفظ

ومما يلتحق بالنساء الصبيان . فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعده ، أو وعيد ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا . نعم رويناه في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ، ويحاسب عليه ، ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما يبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع في خطر الاجتهاد ، ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أم في الشرع من الصدق أم لا . وذلك غامض جداً . والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح . وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ، ولا ضرورة . إذ في الصدق مندوحة عن الكذب . فصار من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها .

وقول القائل إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء ، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

بيان

الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف : أن في المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه : أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب ! وروى ذلك عن ابن عباس وغيره .

(١) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار : منفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب . فأما إذا لم تكن حاجة وضروره ، فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون

ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد ، فاستبطأه . فتملل بمرض وقال :
مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال إبراهيم ، إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب ، فقل إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع ، وعنده للإيهام

وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه . فلما رجع ، قالت له امرأته ، ماجئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء ، فقال : كان عندي ضاغط . قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه ، فبعث عمر معك ضاغطا ! وقامت بذلك بين نسائها ، واشتكت عمر . فلما بلغه ذلك ، دعا معاذًا وقال بعثت معك ضاغطا ؟ قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك . فضحك عمر رضي الله عنه ، وأعطاه شيئا ، فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقبيا ، وأراد به الله تعالى

وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا ، بل يقول أرايت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار ، قال للجارية ، قولي له أطلبه في المسجد ، ولا تقولي ليس ههنا ، كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه ، خط دائرة ، وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا ، فهو مكروه على الجملة . كما روى عبد الله بن عتبة قال ، دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ، فخرجت وعليّ ثوب ، فجعل الناس يقولون ، هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه . فتهاه عن ذلك ، لأن فيه تقرير لهم على ظن كاذب ، لأجل غرض المفارقة ، وهذا غرض باطل لا فائدة فيه . نعم : المعارض تباح لغرض خفيف ، كتطبيب

قلب الغير بالمزاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » وقوله للأخرى الذى فى عين زوجك يياض ، والأخرى نملك على ولد البعير ، وما أشبهه

وأما الكذب الصريح ، كما فعله نعيمان الأنصارى مع عثمان ، فى قصة الضرير ، إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق ، بتغريهم بأن امرأة قدر غبت فى تزويجك فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب ، فهو حرام . وإن لم يكن إلا لمطايبتة ، فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا يَكْمُلُ لِلْمَرْءِ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَنِبَ الْكَذِبَ فِي مِزَاجِهِ »

وأما قوله عليه السلام ^(٣) « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا النَّاسَ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثَّرْيَاءِ » أراد به ما فيه غيبة مسلم ، أو إيذاء قلب ، دون محض المزاح . ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ، ما جرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبت لك كذا وكذا مرة ، وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها ، بل تفهيم المبالغة . فإن لم يكن طلبة إلا مرة واحدة كان كاذبا . وإن كان طلبة مرات لا يعتاد مثلها فى الكثرة ، لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . وبينهما درجات ، يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب

ومما يعتاد الكذب فيه ، ويتساهل به ، أن يقال كل الطعام ، فيقول لا أشتهي . وذلك منهى عنه ، وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : ^(٤) قالت أسماء بنت عميس ، كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هياتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لا يدخل الجنة عجزوز وحديث فى عين زوجك يياض وحديث نملك على ولد البعير : تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة

(٢) حديث لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يمتنع الكذب فى مزاحه ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الدمارى وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقنى فى المؤلف والمختلف من حديث أبى هريرة لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر (٣) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم فى الآفة الثالثة (٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هياتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبى الدنيا فى الصمت والطيراني

ومعى نسوة ، قالت فو الله ما وجدنا عنده قري إلا قدحا من لبن ، فشرب ، ثم ناوله عائسة ، قالت فاستحييت الجارية ، فقلت لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء . فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك ، فقلن لا نشتهي . فقال « لَا تَجْمَعْنَ جُوعًا وَكَذِبًا » قالت فقلت يا رسول الله ، إن قالت إحدانا لشيء تشتهي لا أشتيه ، أيعبد ذلك كذبا ؟ قال « إِنَّ الْكَذِبَ لَيُكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبُ الْكُذِبِيَّةُ كُذِبِيَّةً »

وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب ، قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسبب ترمص ، حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له لو مسحت عينيك ، فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك ، فأقول لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره ، فيكذب ولا يشعر .

وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خثم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت كيف أنت يا بني ؟ فجلس الربيع وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله ، أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم

ورعا يكذب في حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم ، إذ قال عليه السلام ^(١) « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يُرَى عَيْنِيهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ يَرَأَوْ يَقُولَ عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ » وقال عليه السلام ^(٢) « مَنْ كَذَبَ فِي حُلُمٍ كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ بَيْنَهُمَا أَبَدًا »

في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبيشة لكن في طقات الاصهايين لأبي الشيخ من رواية عطاء ابن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفنا الى النبي صلى الله عليه وسلم بعض سائله الحديث : فإذا كانت غير عائشه ممن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك

(١) حديث ان من أعظم الفري أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم يريا أو يقول على ما لم أقول : البخارى من حديث واثله بن الاسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفري أن يرى عينيه ما لم تريا

(٢) حديث من كذب في حلمه كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين البخارى من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة

الغيبة

والنظر فيها طويل ، فلندكر أولا مذمة الغيبة ، وما ورد فيها من سواهد الشرع
ومد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى
(وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ^(١))
وقال عليه السلام^(٢) «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ» والغيبة تتناول
العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو هريرة ، قال عليه السلام^(٣) «لَا تَحَاسَدُوا
وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَنَاجَسُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»
وعن جابر وأبي سعيد^(٤) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِيَّاكُمْ وَالْغَيْبَةَ
فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَسَدٌ مِنَ الزَّنَا فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدِيزِي وَيُنُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَإِنْ صَاحِبَ
الْغَيْبَةِ لَا يَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ» وقال أنس^(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
«مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرَى بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِشُونَ وَجُوهَهُمْ بِأَطْفَارِهِمْ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَنْ
هَؤُلَاءِ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» وقال سليم بن جابر^(٥) ، أتيت
النبي عليه الصلاة والسلام ، فقلت علمني خيرا أنفع به . فقال «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ
أَنْ تَصُبَّ مِنْ دُلُوكَ فِي إِنَاءٍ الْمُسْتَقَى وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِبَشَرٍ حَسَنٍ وَإِنْ أَدِيرَ فَلَا تَغْتَابْنَهُ»

﴿ الآفة الخامسة عشرة الغيبة ﴾

- (١) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه : مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث أبي هريرة لا تحاسدوا ولا تباعدوا ولا تباغضوا ولا يغتاب بعضكم بعضا كونوا عباد الله اخوانا : يمتنع عليه من حديث
أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يغتاب بعضكم بعضا وقد تقدم في آداب الصحبة
- (٣) حديث جابر وأبي سعيد اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا . الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت
وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير
- (٤) حديث أنس مررت ليلة أسرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم . الحديث : أبو داود
مسندا ومرسلا والسند أصح
- (٥) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني خيرا ينفعني الله به . الحديث :
أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت والنسب له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدير فلا
يفتاه وفي اسادهما ضعف

وقال البراء ^(١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن ، فقال « يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغابوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن نبتع الله عورته يفضحه في جوف بينه » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام ، من مات تائباً من النبية ، فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصراً عليها ، فهو أول من يدخل النار .

وقال أنس ، ^(٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم ، فقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له » فصام الناس ، حتى إذا أمسوا ، جعل الرجل يجيء فيقول يا رسول الله ظلت صائماً فآذن لي لأفطر ، فيأذنه . والرجل ، والرجل ، حتى جاء رجل فقال يا رسول الله فتانان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك ، فآذن لهما أن يفطرا . فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ثم عاوده ، فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال « إنهما لم يصوماً وكيف يصوم من ظلَّ نهاره يا كلُّ لحم الناس اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيا ، فرجع إليهما فأخبرهما ، فاستقيا ، فقأت كل واحدة منهما علقه من دم . فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال « والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار » وفي رواية ، أنه لما أعرض عنه . جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله ، والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال صلى الله عليه وسلم ، ^(٣) « اثنوني بهما » فجاءتا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرح ، فقال لأحدهما قبيء . فقأت من قيح ودم وصديد ، حتى ملأت القدح . وقال للآخرى قبيء فقأت كذلك . فقال إن هاتين صامنا عما أحل الله لهما ،

(١) حديث البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغابوا المسلمين - الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي بررة بإسناد جيد

(٢) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس - الحديث : في ذكر المرأتين اللتين اعتانوا في صيامهما فقأت كل واحدة منهما علقه من دم : ابن أبي الدنيا في المسند وابن رجب في المحلى . من رواه بإسناد صحيح

(٣) حديث المرأتين المذكورتين وقال لهما هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا علي . حرم الله عليهما . الحديث : أحمد من حديث حميد بن موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبيه رجلاً لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المجهول

وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جاست إحداهما إلى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس وقال أنس .^(١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه ، فقال . إن الدرهم يسببه الرجل من الربا ، أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل : وأربى الربا عرض المسلم

وقال جابر^(٢) ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَنْتَابُ النَّاسَ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُ مِنْ بَوْلِهِ » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين ، فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال « أَمَّا إِنَّهُ سَيَهْوُونَ مِنْ عَذَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ أَوْ مَا لَمْ يَبْيَسَا » ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) ما عزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه ، هذا أقص كما يقص الكلب . فر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة ، فقال ، « إِنَّهُمَا مِنْهَا » فقالا يا رسول الله ، تنهش جيفة ! فقال « مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَتَنُّ مِنْ هَذِهِ »

وكان الصحابة رضى الله عنهم ، يتلافون بالبشر ، ولا يفتابون عند الغيبة . ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة^(٤) من أكل لحم أخيه في الدنيا ، قرب إليه لمة في الآخرة : وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فينضج ويكاح . وروى عوفوا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد ،

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه - الحديث : وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم

ابن أبي الدنيا بسد ضعيف

(٢) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما

يعذبان وما يعذبان في كبر أم أحدهما فكان ينتاب الناس - الحديث : ابن أبي الدنيا في الصحة

وأبو العباس الغزالي في كتاب الآداب باسناد حمد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس

الا أنه ذكر فيه الجملة بدل الغيبة وللطالبي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولاحمد

والطبراني من حديث أبي بكر بن خنوص باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق الرجوم عدا أفقص كما يقصص الكلب فر بجيفة فقال

انهم شامها - الحديث : أبو داود والسناني من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد

(٤) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لمة في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته

حيا - الحديث : ابن مردويه في التفسير وفوتاه ووفاء وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعبارة

فر بهما رجل كان مخشاً فترك ذلك . فقالا لقد بقي فيه منه شيء ، وأقيمت الصلاة ، فدخلوا ، فصليا مع الناس ، فحاك في أنفسهما ما قالاهما ، فأتيا عطاء فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد ، أنه قال في (وَيَلُكُلُ هُمَزَةَ لُكْلَةٍ ^(١)) الهُمزة الطمان في الناس ، والهُمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ، ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث . ثلث من الغيبة ، وثلث من النيمة ، وثلث من البول . وقال الحسن ، والله للغبية أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم ، أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس ، إذا أردت أن تذكر غيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة ، يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ، ابن آدم ، إنك لن تصيب حقيقة الأيمان حتى لا تسيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب ، فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار ، مر عيسى عليه السلام ، ومعه الخواريون . بحقيقة كلب . فقال الخواريون ، ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام ، ما أشد بياض أسنانه . كأنه صلى الله عليه وسلم نهام عن غيبة الكلب ونههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يفتاب آخر ، فقال له إياك والغبية ، فإنها إدام كلاب الناس وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء . وإياكم وذكر الناس فإنه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان

معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه ، أو في خلقه . أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه ، وداره ، وودابته أما البدن ، فكذلك المشي ، والحول ، والقرع ، والقصر ، والطول ، والسواد ،

والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب ، فبأن تقول
أبوه نبطي : أو هندي ، أو فاسق ، أو خيس ، أو إسكاف ، أو زبال ، أو شيء مما يكرهه
كيفما كان . وأما الخلق ، فبأن تقول : هوسي ، الخلق : بخيل ، متكبر مرء . شديد
الغضب ، جبان ، عاجز ، ضعيف القلب ، متهور ، وما يجري مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة
بالدين ، فكقولك هوسارق ، أو كذاب ، أو شارب خمر ، أو خائن ، أو ظالم ، أو متهاون بالصلاة ،
أو الزكاة ، أو لا يحسن الركوع ، أو السجود ، أو لا يحترز من النجاسات ، أو ليس باراً بالديه ،
أو لا يضع الزكاة موضعها ، أو لا يحسن قسمتها ، أو لا يحرس صومه عن الرفث ، والغيبة ،
والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا ، فكقولك إنه قليل الأدب ، متهاون
بالناس ، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً ، أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام ،
كثير الأسكل ، نؤم ، ينام في غير وقت النوم ، ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه ،
فكقولك إنه واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثياب

وقال قوم : لا غيبة في الدين ، لأنه ذم ما ذمه الله تعالى ، فذكره بالمعاصي ، وذمه بها يجوز ،
بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاحها وصومها ،
ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال « هي في النار » ^(٢) وذكرت عنده امرأة أخرى
بأنها بخيلة ، فقال « فَا خَيْرُهَا إِذَا » فهذا فاسد ، لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى
تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول
صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه ، إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب
لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة . وكل هذا ، وإن كان صادقا
فيه ، فهو به مغتاب ، عاص لربه ، وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم
^(٣) قال « هَلْ تَذَرُونَ مَا لَ الْغِيْبَةِ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ »

(١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاحها لكن تؤذي جيرانها فقال هي في النار : ابن حبان
والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها إذا : الخرائطي في مكارم الاخلاق : من حديث
أبي جعفر محمد بن علي مرسل وروياه في أمالي ابن شمعون هكذا

(٣) حديث هل تذكرون ما للغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره : الحديث :
مسلم من حديث أبي هريرة

قيل أرايت إن كان في أخي ما أقوله ، قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وإن لم يكن فيه فقد بهتته » وقال معاذ بن جبل ، ^(١) ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ، فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتكم أخاكُم » قالوا يا رسول الله ، قلنا ما فيه . قال « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتتموه » وعن حذيفة ، عن عائشة رضي الله عنها ، ^(٢) أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة ، فقالت إنها قصيرة ، فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتبها » وقال الحسن ، ذكر الغير ثلاثة ، الغيبة ، والبهتان ، والإفك . وكل في كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما ليس فيه . والبهتان أن تقول ما بلغك . وذكر ابن سيرين رجلا فقال ، ذاك الرجل الأسود ، ثم قال ، أستغفر الله ، إني أراي قد اغتبتته وذكر ابن سيرين ، إبراهيم النخعي ، فوضع يده على عينه ، ولم يقل الأعور . وقالت عائشة ^(٣) لا يغتابن أحدكم أحدا ، فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إن هذه لطويلة الذيل ، فقال لي « الفُطَي الفُطَي » فلفظت مضغة لحم

بيان

أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان ، إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك ، وتعريضه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح ، والفعل فيه كالقول ، والإشارة ، والإيحاء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود ، فهو داخل في الغيبة ، وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها ^(٤) ، دخلت علينا امرأة ، فلما ولت ، أو مات يدي أنها قصيرة ، فقال عليه السلام « اغتبتبها »

(١) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه - الحديث :

الطبراني بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال اغتبتبها : رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي

وصححه لم يفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في البصير لابن أبي

الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صبيب

(٣) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفُطَي الفُطَي فلفظت مضغة من لحم

ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي استاده امرأة لا أعرفها

(٤) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أي قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتبها

ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية الحسن بن علي بن عمار عن عائشة وحسان وثقه ابن حبان وبقية ثقات

ومن ذلك المحاكاة ، كأن يمشى متعارجاً ، أو كما يمشى . وهو عيبة ، بل هو أشد من الغيبة ، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم . ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال ^(١) : « مَا بَسُرَنِي أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَانًا وَلِي كَذَا وَكَذَا » ،

وكذلك الغيبة بالكتابة ، فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصاً معيناً ، وتهجين كلامه في الكتاب عيبة ، إلا أن يقتصر به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ، كما سيأتي بيانه وأما قوله . قال قوم كذا ، فليس ذلك غيبة . إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيته ، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ، لأن المحذور تفهيمه ، دون ما به التفهيم . فأما إذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ^(٢) إذا ذكره من إنسان شيئاً ، قال « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا » فكان لا يعين . وقولك بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم : إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص ، فهي غيبة

وأخبت أنواع الغيبة القراء المرائين . فإنهم يفهمون المقصود ، على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ، ويفهمون المقصود . ولا يدرون بحيلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين ، الغيبة والرياء . وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان ، فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل في طلب الحطام . أو يقول : نعوذ بالله من فلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها . وإنما قصده أن يفهم عيب الغير ، فيذكره بصيغة الدعاء . وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته . فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فنور ، وابلى بما يتلى به كلنا ، وهو فلة الصبر . فيذكر نفسه ، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ، ويمدح نفسه بالنسبة بالصالحين ، بأن يذم نفسه . فيكون مقتاباً ومرائياً ، ومزكياً نفسه . فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله ، يظن أنه من الصالحين المتعفين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل : إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ، ويحبط بمكائده عملهم ، ويضحك عليهم ، ويستخر منهم

(١) حديث ما سرني أني حكيت ولي كذا وكذا : تقدم في الآفة الحادية عشرة

(٢) حديث كان إذا ذكره من إنسان شيئاً قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا - الحديث : أبو داود من

حديث عائشة دون قوله وكان لا يعبره ورحاله رجال الصحيح

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان ، فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول سبحانه الله ما أعجب هذا ، حتى يصنئ إليه ، ويعلم ما يقول . فيذكر الله تعالى ، ويستعمل اسمه آله له في تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره ، جهلا منه وغرورا . وكذلك يقول ، ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه . فيكون كاذبا في دعوى الاغتم ؛ وفي إظهار الدعاء له . بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته . ولو كان يهتم به لاغتم أيضا بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول ، ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة ، تاب الله علينا وعابه . فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده . وهو لجهاه لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجاهل إذا جاهره . ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب . فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة ؛ فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق . فيقول ، عجب ، ما علمت أنه كذلك ، ما عرفته إلى الآن إلا بالخبر ، وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه . فإن كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب ، قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « المُسْتَمِعُ أَحَدُ الْمُغْتَابِينَ » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ^(٢) أن أحدهما قال لصاحبه ، إن فلانا لنؤم ، ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأكلا به الخبز . فقال صلى الله عليه وسلم « قَدْ اتَّهَمْتُمَا » فقالا مانعه . قال « بَلَى إِنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْ لَحْمِ أَخْبِكُمَا » فانظر كيف جهمهما ، وكان القائل أحدهما ، والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما ، افحص الرجل كما يفحص الكلب ^(٣) « انْهَشَا مِنْ هَذِهِ الْجِيْفَةِ » فجمع بينهما . فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة ، إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، فلم يفعل

(١) حديث المستمع أحدا المغتابين : الطبراني من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف

(٢) حديث ابن أبي بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنؤم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال قد اتهمتكما فقالا ما نعلم فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما : أبو العباس الدغولي في

الآداب من زواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه

(٣) حديث انهش من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما افحص كما يفحص الكلب : تقدم

قبل هذا يأتي عشر حديثا

لزمه . وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرج منه إلا ما لم يكرهه بقلبه . ولا يكفي في ذلك أن يشرب باليد أي اسكت ، أو يشير بجماله وجبينه فإن ذلك استحقاق للمذكور ، بل ينبغي أن يعظم ذلك ، فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ أَذَلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُسِ الْخَلَائِقِ » وقال أبو الدرداء ^(٢) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَدَّ عَنْ عَرْشِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْ عَرْشِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أيضا ^(٣) « مَنْ ذَبَّ عَنْ عَرْشِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ » وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة ، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة ، أوردناها في كتاب آداب الصلوة وحقوق المسلمين ، فلا تطول بإعادتها .

بيان

الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة ، أما الثمانية فالأول : أن يشفى الفيض ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه ، يشقى بذلك مساويه ، فيسبق اللسان إليه بالطبع ، إن لم يكن ثمدين وازع . وقد تمتنع تشفى الأنفيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ، فيصير حقا ثابتا ، فيكون سببا دائما لذكر المساوي . فالحق والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة

-
- (١) حديث من أدل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق : الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لميعة
- (٢) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرشه يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفي رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف
- (٣) حديث من ذب عن عرش أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار : أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد

الثانى : موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أوقف المجلس ، استنقلوه ، ونفروا عنه ، فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصعبة . وقد يغضب رفقائه ، فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ، ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة ، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ، ليكذب عليه بعده ، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول ، ما من عادى الكذب ، فإنى أخبركم بكذا وكذا من أحواله ، فكان كما قلت

الرابع : أن ينسب إلى شىء ، فيريد أن يتبرأ منه ، فيذكر الذى فعله ، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ، ولا يذكر الذى فعل ، فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ، ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه ، فيقدح فيه لذلك

السادس : الحسد ، وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ، ويحبونه ، ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدرح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس ، حتى يكفوا عن كرامته ، والثناء عليه ، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه ، وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعى جنائيا من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق السابغ : اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره

جاءت في هذا الناس على سبيل الحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب

النامن . السفر به والاستهزاء . إستحقار له ، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجرى أيضا في الغيبة . ومنشؤه التكبر ، واستعغار المستهزاء به .
وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة ، فهي انغمضها وأدقها ، لأنها شرور خباها الشيطان في معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر
الاول : أن تنبئ من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ، فإنه قد يكون به صادقا ، ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتمجب ولا يذكر اسمه ، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل ، تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ، وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل

الثاني : الرحمة ، وهو أن يتم سبب ما يتلى به ، فيقول مسكين فلان قد غنمى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ، ويليه النعم عن الحذر من ذكر اسمه ، فيذكره فيصير به مغتابا ، فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتماد ممكن دون ذكر اسمه ، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبتل به ثواب اغتمامه وترحمه

الثالث : الغضب لله تعالى ، فإنه قد بغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فيظهر غضبه ، ويذكر اسمه . وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا يظهره على غيره . أو يستر اسمه ، ولا يذكره بالسوء
فهذه الثلاثة مما يعمض دركها على العلماء فضلا عن العوام . فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة ، والغضب إذا كان لله تعالى ، كان عذرا في ذكر الاسم ، وهو خطأ . بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة ، لامندوحة فيها عن ذكر الاسم ، كما سيأتي ذكره

روى عن عامر بن واثلة ، ^(١) أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام . فلما جاوزهم ، قال رجل منهم ، إني لأبغض هذا في الله تعالى

(١) حديث عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله - الحديث : بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك : أحمد بإسناد صحيح

فقال أهل المجلس ، لبئس ماقلت ، والله لننبئنه . ثم قالوا يا فلان ، لرجل منهم ، ثم فأدركه وأخبره بما قال . فأدركه رسولهم . فأخبره . فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له ما قال ، وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله . فقال قد قلت ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لِمَ تَبْعُهُ » فقال أنا جاره ، وأنا به خابر . والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآني آخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا . فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآني قط أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه . فقال والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ، ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله ، إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر . قال فاسأله هل رآني نقصت منها ؟ أو ما كست فيها طالها الذي يسألها ؟ فسأله فقال لا . فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « فَمَ فَلَعَلَّ خَيْرٌ مِنْكَ »

بيان

العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها ، إنما تعالج بمعجون العلم والعمل . وإنما علاج كل غلة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة . والآخر على التفصيل . أما على الجملة ، فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته ، بهذه الأخبار التي رويتها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه ، بدلا عما استباحه من عرضه . فإن لم تكن له حسنات ، نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك ممرض لمقت الله عز وجل ، ومشببه عنده بآكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه ، فيحصل بها الرجحان ، ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك

بعد الخاصة والمطلوبة ، والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا النَّارُ فِي الْيَسْرِ بِأَسْرَعَ مِنَ الْغَيْبَةِ فِي حَسَنَاتِ الْعَبْدِ »

وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تغتابني فقال ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي . فيها آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة ، لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه ، فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه . وذكر قوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » ومهما وجد عيبا ، فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ، ويذم غيره . بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه ، في التنزه عن ذلك العيب ، كعجزه . وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره . وإن كان أصرا خلقيا ، فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم ياقبيح الوجه ، قال ما كان خالق وجهي إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه ، فليشكر الله تعالى ، ولا يلوث نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بنسبته ، كتألمه بغيبة غيره له . فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب ، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جليلة أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة يقطع سببها وقد قدمنا الأسباب

أما الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب ، وهو أن يقول إني إذا أمضيت غضبي عليه ، فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة ، إذ لم يأتني عنها فاجترأت على نبيه ، واستخففت بزرجه . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِنْ جِئْتُمْ بَابَا لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ اتَّقَى رَبَّهُ كَلَّ لِسَانُهُ وَلَمْ يَشَفْ غَيْظُهُ »

(١) حديث ما النار في اليسر بأسرع من الغيبة في حسنات العبد : لم أجده أصلا

(٢) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس : البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث ان لجئتم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله : البزار وابن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه في الأربعين البلدانية للسلفي

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْصِيَهُ دَعَاَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤْسِ اخْتِلَاقٍ حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَىِّ الْحُورِ شَاءَ» ، وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين ، يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق وأما الموافقة ، فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك ، إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توفّر غيرك ، وتحقر مولاك ، فتترك رضاه لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى . وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقاك إذا ذكره بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب ، وهى الغيبة وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة ، حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق ، أشد من التعرض لمقت المخلوقين . وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ، فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم ، وتهلك في الآخرة وتحسر حسناتك بالحقيقة . ويحصل لك ذم الله تعالى نقداً ، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة ، وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذر كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل . لأنك تعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به . فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به ، كائنا من كان . ولو دخل غيرك النار ، وأنت تقدر على أن لا تدخلها ، لم توافقه . ولو وافقته لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة ، وزيادة معصية ، أضفتها إلى ما اعتذرت عنه ، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل ، فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعدر ، وصرحت بالعدر ، وقالت العز أكيس منى ، وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل ، لكنك تضحك من جهلها . وحالك مثل حالها . ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك

وأما قصدك المباهاة وتركية النفس ، بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك ، فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر .

(١) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه - الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس

وربما نقص اعتقادهم فيك ، إذا عرفوك بثلب الناس ، فتكون قد بدمت ما عند الخالق يشينا ،
 بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل ، لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا
 وأما الغيبة لأجل الحسد ، فهو يجمع بين بذائيل . لأنك مسدته على نعمة الأنبا ، وكنت
 في الدنيا ممذبا بالحسد ، فما قدمت بذلك ، حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا
 نفسك في الدنيا ، فصرت أيضا خاسرا في الآخرة ، لتجمع بين النكالين . فقد قصدت
 محسودك ، فأصبت نفسك ، وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك ،
 إذ لا تضره غيبتك وتضره ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك ، أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك
 وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقد حك ، سبب انتشار
 فضل محسودك ، كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس ، بإخزاء نفسك عند الله تعالى ،
 وعند الملائكة والنبين عليهم الصلاة والسلام . فلو تفكرت في حسرتك ، وجنايتك ،
 وخجلتك ، وخزيك يوم القيامة ، يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار ،
 لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك . ولوعرفت حالك ، لكنت أولى أن تضحك منك ،
 فأنك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملامن
 الناس ، ويسوقك تحت سيئاته ، كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزأ بك ، وقرحا بخزيك ،
 ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك ، وتسلمه على الانتقام منك

وأما الرحمة له على إيمه ، فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس ، فأضلك ، واستنطقك بما ينقل
 من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم ، فيخرج عن كونه
 مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك
 وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبيب إليك الغيبة ، ليحبط
 أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة ، فتعجب من نفسك أنت ، كيف أهكت

نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه ، وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك ، كما هتكت بالتعجب ستر أخيك .

فاذاً علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان .
فن قوى إيمانه بجميع ذلك ، انكف لسانه عن الغيبة لاحالة

بيان

تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك مساوى الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك وتساء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه . بل الشك أيضاً معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ^(١)) . وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سواً إلا إذا انكشف لك ، ببيان لا يقبل التأويل ، فمئذ ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذبه ، فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَالَةٍ ^(٢)) فلا يجوز تصديق إبليس : وإن كان ثم نخيلة تدل على فساد ، واحتمل خسلافه ، لم يجوز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به . حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الحمر ، لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تفضض بالحمر ومجها ، وما شربها ، أو حمل عليه قهراً . فكل ذلك لاحالة دلالة محتملة

(١) الحجرات: ١٢ (٢) الحجرات: ١٢

فلا يجوز تصديقاً بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته ، أو بينة عادلة . فإذا لم يكن كذلك ، وخطر لك وسواس سوء الظن ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن ، والشكوك تحتلج ، والنفس تحدث فنقول : أمانة عقد سوء الظن ، أن يتغير القلب معه عما كان ، فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ، ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه ، والاغتمام بسببه ، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « ثَلَاثٌ فِي الْمُؤْمِنِ وَلَهُ مِنْهُنَّ تَخْرُجُ فَخَرَجَهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَنْ لَا يُحَقِّقَهُ » أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل ، لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب ، فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما فى الجوارح ، فبالعمل بعوجه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك ، وسرعة فهمك ، وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بفرور الشيطان وظلمته . وأما إذ أخبرك به عدل ، فالظنك إلى تصديقه ، كنت معذورا . لأنك لو كذبتك لكنت جانيا على هذا العدل . إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد . وتسمى بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنّت ، فتتطرق التهمة بسببه ^(٣) ، فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة . ورد شهادة العدو . فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا ، فلا تصدقه ولا تكذبه .

(١) حديث . إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن بظن السوء : البيهقي فى الشعب من حديث ابن عباس

بسند ضعيف ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر

(٢) حديث ثلاث فى المؤمن وله منهن يخرج : الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) . حديث . رد الشرع شهادة لواله العدل وشهادة العدو : الترمذى من حديث عائشة وضعفه لا يجوز شهادة

خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى عمر لأخيه وفيه ولا ظن فى ولا . ولا قرابة ولأبى داود

وابن ماجه باسنا جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغمر على أخيه

ولكن تقول في نفسك ، المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان امره محجوباً عني ، وقد بقي كما كان ، لم ينكشف لى شىء من أمره

وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ، ولا محاسده بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس ، وذكر مساويهم . فهذا افد يظن انه عدل ، وليس بعدل . فإن المقتاب فاسق . وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته . إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ، ولم يكثرثوا بتناول أعراض الخلق

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعوله بالخير ، فإن ذلك يفيظ الشيطان ، ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك الخاطر السوء ، خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة ، فالنصح في السر ، ولا يخذ عنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه . وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ، لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار ، وترفع عليه بأبداء الوعظ . ولكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك . وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك ، أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بعصيته ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضاً منهى عنه . قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا ^(١)) فالغيبه وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس ، أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك السر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

بيان

الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور :

(١) الحجرات : ١٢

الاول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم . إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا » وقال عليه السلام ^(٢) « مَطْلُ الظَّالِمِ ظُلْمٌ » وقال عليه السلام ^(٣) « لِي الْوَاجِدُ يَحِلُّ عُقُوبَتُهُ وَعِزُّهُ »

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه ، فسلم عليه ، فلم يرد السلام . فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ، ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه ، أن أبا جندل قد عاقر الحمر بالشام . كتب إليه ، بسم الله الرحمن الرحيم (حَمِّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ^(٤)) الآية فتاب . ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك ، فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره . وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح . فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما

الثالث : الاستفتاء ، كما يقول للمفتي ، ظماني أبي ، أو زوجتي ، أو أخي ، فكيف طريقي في الخلاص . والأسلم التعريض ، بأن يقول ، ما قولك في رجل ظلمه أبوه ، أو أخوه ، أو زوجته . ولسكن التعيين مباح بهذا القدر ، لما روى عن هند بنت عتبة ، أنها قالت ^(٥) للنبي صلى الله عليه وسلم ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفأخذ من غير علمه ؟ فقال « خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدُكَ بِالْمَعْرُوفِ » فذكرت الشح ، والظلم لها بولولها ، ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء

الرابع . تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، ونخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك

(١) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث مطلق الغني ظلم متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث لي الواجد يحل عرضه وعقوبته أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث النوري بإسناد صحيح

(٤) حديث أن هندا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة

(٥) غافر : ١ و ٣

الخوف عليه من سرية الباطن والاعتراف بالباطن مع المروءة، لأن الخوف هو الباعث، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق. وكذلك من اشترى مملوكا، وقد عرفت المالك بالسرية أو بالتسوق، أو بغيب آخر فأن تذكر ذلك، فإن في سكونك ضرر المشتري، وفي ذكرك ضرر المبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه. وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد، فله الظن فيه إن علم مطلقا وكذلك المستشار في التزويج، وإبداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير، لا على قصد الوضعة. فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا يصلح لك، فهو الواجب، وفيه الكفاية. وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصريح بعبء، فله أن يصرح به. إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) «أَتَرَعُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ أَتُبْكُوهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ أَذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ» وكانوا يقولون، ثلاثة لا غيبة لهم، الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه

الخامس. أن يكون الإنسان معروفا باتباع يعرب عن عبء، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يقول، روى أبو الزناد عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش، وما يجرى مجراه. فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه، بعد أن قد صار مشهورا به. نعم إن وجد عنه معدلا، وأمكنه التعريف بعبارة أخرى، فهو أولى. ولذلك يقال للأعمى البصير، عدولا عن اسم النقص

السادس. أن يكون مجاهرا بالنسب، كالخنث، وصاحب المساخور، والمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهره، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له، ولا يكره أن يذكر به. فإذا ذكرت فيه ما يتظاهره، فلا إثم عليك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلَا غِيْبَةَ لَهُ» وقال عمر رضي الله عنه

(١) حديث أترعون عن ذكر الفاجر اهكوه متى عرفه الناس اذكروه بما فيه يحذر الناس الطبراني وابن حبان

في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى عرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في السمعت

(٢) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الاعمال من حديث

أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ليس لعاقر حرمة . وأراد به الخبايا ، فسقه دون المستتر . إذ المستتر . لا بد من مراعاة
 حرمة . وقال الصلت بن طريف ، قلت للحسن ، الرجل الفاسق المعلن بفجوره ، ذكرى له
 بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لأغية لهم صاحب الهوى ، والفاسق
 المعلن بفسقه ؛ والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به
 فكيف يكرهون ذلك ، وهم يقصدون إظهاره . نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم
 وقال عوف ، دخلت على ابن سيرين ، فتناولت عنده الحجاج . فقال ، إن الله حكم عدل
 ينتقم للحجاج ممن اغتابه ، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه . وإياك إذا لقيت الله تعالى غدا ،
 كان أصغر ذنب أصبته ، أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

بيان

كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج به من
 حق الله سبحانه . ثم يستحل المغتاب ، ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبئ أن يستحله
 وهو حزين ، متأسف ، نادم على فعله إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي
 الباطن لا يكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن ، يكفيه الاستغفار
 دون الاستحلال . وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال ، قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ^(١) « كَفَّارَةُ مَنْ اغْتَابَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ » وقال مجاهد ، كفارة أكلك لحم
 أخيك أن تثنى عليه ، وتدعوه بخير .

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة ، قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له ، كذبت
 فيما قلت ، وظلمتك ، وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت . وهذا هو الأصح
 وقول القائل ، العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال ، كلام
 ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف ، وثبتت المطالبة به

(١) حديث كفارة من اغتابه أن تستغفر له ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث

أنس بسند ضعيف

بل في الحديث الصحيح ، ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ^(١) « مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرْضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَسْتَحْلِلْهَا مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَيْسَ هُنَاكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَبْتَاتِ صَاحِبِهِ فَرِيدَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخركم إنها طويصة الذيل ، قد اغتبتبها فاستحلها

فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائباً أو ميتاً ، فينبغي أن يكثره الاستغفار والدعاء ، ويكثر من الحسنات

فإن قلت . فالتحليل هل يجب ؟ فأقول لا . لأنه تبرع ، والتبرع فضل وليس بواجب . ولكنه مستحسن . وسبيل المعتذر ، أن يبالغ في الثناء عليه ، والنودد إليه ، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطيب قلبه ، كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له ، يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب ، لأحل من ظمني . وقال ابن سيرين إنى لم أحرما عليه فأحلها له إن الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأخلل ما حرم الله أبداً

فإن قلت . فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْلِلَهَا » وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن

فقول : المراد به المظلمة ، لا أن يتقلب الحرام حلالاً . وما قاله ابن سيرين ، حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَيْعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْصَمٍ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعَرَضِي عَلَى النَّاسِ » فكيف يتصدق بالعرض ؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله ؟ فإن كان لا تنفذ صدقته ، فما معنى الحث عليه

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليستحلها - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة .
(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس
البرار وابن السني في اليوم والليلة والعقبلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وأنا هو رجل ممن كان قبله كما عده البرار والعقبلي .

فنتول معناه أنى لا أطلب مظامة في النيامة منه ، ولا أخافه . وإلا فلا تصير الغيبة حللا به ، ولا تسقط المظامة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب . إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، وإن رجع وخاصم ، كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح النقياء أن من أباح القذف ، لم يسقط حقه من حد القاذف . ومظامة الآخرة مثل مظامة الدنيا وعلى الجملة فاعفو أفضل . قال الحسن ، إذا جثت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، نودوا ليقم من كان له أجر على الله . فلا يقوم إلا المنافون عن الناس في الدنيا . وقد قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(١)) فقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا الْعَفْوُ ؟ » فقال ، إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي من حرمك . وروى عن الحسن ، أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك . فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال قد بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها . فاعذرني ، فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام

الآفة السادسة عشرة

النميمة

قال الله تعالى (هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ^(١)) ثم قال (عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ^(٢)) قال عبد الله ابن المبارك . الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتفم الحديث . وأشار به إلى أن كل من لم يكتفم الحديث ومشى بالنميمة ، دل على أنه ولد زنا ، استنباطاً من قوله عز وجل (عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) والزنيم هو الدعي . وقال تعالى (وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ^(٣)) قيل الهمزة النمام وقال تعالى (حَمَّالَةَ الْخُلُوبِ ^(٤)) قيل إنها كانت غمامة ، حمالة للحديث . وقال تعالى (فَخَآ تَنَاهِيَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ^(٥)) قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال يا جبريل ما هذا فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك تقدم في رياضة النفس

(١) الاعراف : ١٩٩ (٢) والقلم : ١١ و ١٣ (٣) الهمزة : ١ (٤) السد : ٤ (٥) التحريم : ١٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَعَامٌ » وفي حديث آخر « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَتَاتٌ » والتقات هو النعام . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَحَبُّكُمْ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطَّئُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلُقُونَ وَيُبْزُقُونَ وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ أَلْمَسَاؤُنَ بِالنَّيْمَةِ الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُتَنَسِّسُونَ لِلْبُرَاءَةِ الْعَثَرَاتِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ أَرْكَمٍ ؟ » قالوا بلى . قال « أَلْمَسَاؤُنَ بِالنَّيْمَةِ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرِّ آءِ الْعَيْبِ » وقال أبو ذر ، ^(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً لِيَشِينَهُ بِهَا بَذِيرٌ حَتَّى شَانَهُ اللَّهُ بِهَا فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو الدرداء ^(٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُذَيِّبَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ » وقال أبو هريرة ، ^(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ بِشَهَادَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ويقال إن ثلث عذاب القبر من النايمة وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٧) « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْجَنَّةَ قَالَ لَهَا تَكَلَّمِي فَقَالَتْ سَعِدْتُ مَنْ دَخَلَنِي فَقَالَ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَسْكُنُ فِيكَ ثَمَانِيَةٌ نَفَرٍ مِنَ النَّاسِ لَا يَسْكُنُكَ مُدٌّ مِنْ تَهْرٍ وَلَا مُصِرٌّ عَلَى الزَّانَا وَلَا قَتَاتٌ وَهُوَ النَّعَامُ

(١) حديث لا يدخل الجنة نعام وفي حديث آخر قات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم

(٢) حديث أبو هريرة وأجكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الطبراني في الأوسط والصغير وتقدم في آداب الصعبة

(٣) حديث ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال للمشائون بالنييمة الحديث أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

(٤) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حتى شانه الله بها في النار يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الاخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث (٥) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلفظ آخر

مرفوعا من حديثه وقد تقدم

(٦) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا من الاسناد

(٧) حديث ابن عمر ان الله للمخلق الجنة قال لها تكلمي قالت سعد من دخلني قال الجبار وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية فذكر منها ولا قاتات وهو النعام لم أجده هكذا بتمامه ولا أحمد لا يدخل الجنة

وَلَا دِيُوتٌ وَلَا شُرَاطِيُّ وَلَا نَخْنَثُ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلَا الَّذِي يَقُولُ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ إِنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ »

ودوى كعب الأخبار ، أن بنى إسرائيل أصابهم قحط ، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فماسقوا . فأوحى الله تعالى إليه ، إني لا أستجيب لك ولن معك وفيكم نعام ، قد أصر على النعمة . فقال موسى ، يارب من هو ؟ دلني عليه حتى أخرج من بيننا . قال يا موسى ، أنها كم عن النعمة وأكون نعاما ! فتأبوا جميعا ، فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات . فلما قدم عليه ، قال إني جئت لك للذي آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرني عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم ، البهتان على البريء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ؟ والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذالم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنام إذا بان أمره أذل من اليتيم

بيان

حد النعمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النعمة إنما يطلق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا . وليست النعمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه ، أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال ، أو من الأقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه ، أو لم يكن . بل حقيقة النعمة إفشاء السر ،

نابن لوالديه وذويهم وللسامع من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الحسد هناك ولا يمتدح ولا مدح من حمير والسيحيين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قنات ولها من حديث حير بن عظيم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي تريبي فتربت فقالت طوبى لمن دخلني ورضي عنه الهى فقال الله عز وجل لا سكنك نخث ولا مائعة

وهتك الستر عما يكره كنهه . بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره ، فينبغي أن يسكت عنه ، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهده به ، مراعاة لحق المشهود له . فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه ، فذكره فهو نعمة ، وإفشاء للسر فإن كان ما ينم به تقصا وعيبا في المحكي عنه ، كان قد جمع بين الغيبة والنيمة فالباعث على النعمة أما إرادة السوء المحكي عنه ، أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل

وكل من حملت إليه النعمة ، وقيل له إن فلانا قال فيك كذا ، أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك ، أو في ممالأة عدوك ، أو تقبيح حالك ، أو ما يجري مجراه . فعليه ستة أمور الأول . أن لا يصدق له لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجَاهَلَةٍ ^(١)) الثاني . أن ينهه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٢))

الثالث . أن يفضله في الله تعالى ، فإنه يفيض عند الله تعالى ، ويجب بفض من يفضله الله تعالى الرابع . أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ^(٣))

الخامس . أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقيق اتباعا لقوله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا ^(٤))

السادس . أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكي نيمة ، فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا ، وقد تكون قد أثبت ما عنه نهيت وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أنه دخل عليه رجل ، فذكر له عن رجل شيئا . فقال له عمر ، إن شئت نظرنا في أمرك ، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية (إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(٥)) وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية (هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَعِيمٍ ^(٦)) وإن شئت عفونا عنك . فقال العفوي أمير المؤمنين لأعداء إليه أبدا

(١) الحجرات : ٦ (٢) لقمان : ١٧ (٣) الحجرات : ١٢ (٤) الحجرات : ٦ (٥) القلم : ١١

وذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه ، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم ، قد أبطأت في الزيارة ، وأتيت بثلاث جنائيات . بغضت أخي إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، وآهمت نفسك الأمانة . وروى أن سليمان بن عبد الملك ، كان جالساً وعنده الزهرى ، فجاءه رجل ، فقال له سليمان ، بلغني إنك وقعت في وقت كذا وكذا ، فقال الرجل ما فعلت ولا قلت . فقال سليمان ، إن الذي أخبرني صادق . فقال له الزهرى ، لا يكون النمام صادقاً . فقال سليمان صدقت . ثم قال للرجل اذهب بسلام

وقال الحسن . من نِم اليك ، نِم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ، ولا يوثق بقوله ، ولا بصداقته . وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة ، والفدر والخيانة ، والنيل والحسد والنفاق ، والإفساد بين الناس والخديعة . وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض

وقال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^(١)) والتمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ » والتمام منهم . وقال ^(٣) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » قيل وما القاطع . قال « قَاطِعٌ بَيْنَ النَّاسِ » وهو النمام ، وقيل قاطع الرحم

وروى عن علي رضي الله عنه ، أن رجلاً سعى إليه برجل ، فقال يا هذا ، نحن نسأل عما قلت ، فإن كنت صادقاً مقتناً ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك ألقناك . فقال ألقني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظي ، أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر ، وكان أميراً بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرني بما قال لك . حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسي بلساني ، وحسبي أني لم أصدقته فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال

(١) حديث ابن من شَر الناس من اتقاه الناس لشَره : متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث لا يدخل الجنة قاطع : متفق عليه من حديث جابر بن مطعم

(١) الشورى : ٤٢

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ، ما ظنكم بقوم يحمّد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وتأل مصعب بن الزبير ، نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به ، كمن قبله وأجاز به ، فاتفقوا الساعي ، فلو كان صادقا في قوله لكان لثما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة

والسعاية هي النيمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة » يعني ليس بولد حلال ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك ، فاستأذنه في الكلام ، وقال إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام ، فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما يحب إن قبلته . فقال قل . فقال يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما أئتمنت الله عليه ، ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إليهم ، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضییعا ، والأعراض قطعاً وانها كما أعلی قریبهم البنى والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقیعة ، وأنت مسؤول عما أجرموا ، وليسوا المسؤولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره

وسعى رجل بزياد الأنجم ، إلى سليمان بن عبد الملك ، فجمع بينهما للموافقة . فأقبل زياد على الرجل وقال

فأنت امرؤ ما أئتمنتك خاليا نخت وأما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

(١) حديث الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة : الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شيء منها وقال له أسانيد هذا أمثلها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال - والحديث : لأصل له وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسعى على الناس الأولاد بنى والامن فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال ، ابن أبي بردة أبا الوليد القرشي

وقال رجل لعمر بن عبيد ، أن الأسوارى ما يزال يذكر ك في قصصه بشر . فقال له عمرو ، يا هذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل ، حيث نقلت إلينا حديثه . ولا أديت حق ، حين اعلمتني عن أخى ما أكره . ولكن أعلمه أن الموت بعنا والقبر بضمنا والقيامة بجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين

ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة ، نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة وقوعه على ظهرها . السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة . فإن كنت أجريتها مجرى النصح ، فخير لك فيها أفضل من الربح . ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا في مستور . ولولا أنك في خفارة شيتك ، لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك . فتوق يا ملعون العيب ، فإن الله يعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعي لعنه الله

وقال لقمان لابنه ، يا بني ، أوصيك بخلال ، إن تمسكت بهن لم تزل سيدا . أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والليليم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع ، أو سماع باع يريد فسادك ، ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

وقال بعضهم : النيمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق ، وهى أئافى الذل . وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام إليك ، لكان هو المجترى ، ما لستم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك ، لأنه لم يقابلك بشتك . وعلى الجملة ، فشر النمام عظيم ، ينبغي أن يتوقى . قال حماد ابن سامة : باع رجل عبدا ، وقال للمشتري : ما فيه عيب إلا النيمة . قال قدر ضيت . فاشتراه فكش الغلام أياها ، ثم قال لزوجة مولاه ، إن سيدى لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى موسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات ، حتى أسحره عليها ، فيحبك . ثم قال للزوج ، إن امرأتك اتخذت خيلا ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . ففسأل الله حسن التوفيق

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه

وقالما يخلو عنه من يشاهد متعادين . وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر ، ^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو هريرة ، ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ عِبَادِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِحَدِيثٍ وَهَوْلَاءَ بِحَدِيثٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِوَجْهِ وَهَوْلَاءَ بِوَجْهِ »

وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت في التوراة ، بطلت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أُبْعِضُ خَلِيقَةَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكَذَّابُونَ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْبَغْضَاءَ لِأَخْوَانِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ فَإِذَا لَقَوْهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانُوا بُطَاءً وَإِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ كَانُوا سِرَاعًا » . وقال ابن مسعود ، لا يكونن أحدكم إمامة . قالوا وما الإمامة ؟ قال الذى يجرى مع كل ربح . واتفقوا على أن ملاقة الإثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة ، وهذه من جملتها وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة . فقال له عمر ، يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تصل عليه فقال يا أمير المؤمنين ، إنه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ، ولا أو من منها أحدا بعدك

(الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين)

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة : البخارى في كتاب الادب

الفرد وأبو داود بسند حسن

(٢) حديث أبي هريرة من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين - الحديث : متفق عليه بلفظ نجد

من شر الناس لفظ البخارى وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

(٣) حديث أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمنكبرون والذين يكتُمون البغضاء لأخوانهم

في صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم - الحديث : لم أقص له على أصل

فإن قلت :إذا يصير الرجل ذا لسانين ؛ وما حد ذلك؟.

فأقول . إذا دخل على متعادين ، وجاهل كل واحد منهما ، وكان صادقا فيه ، لم يكن منافقا ، ولا ذا لسانين . فإن الواحد قد يصادق متعادين . ولكن صداقة ضعيفة ، لا تنتهي إلى حد الأخوة . إذ لو تحققت الصداقة ، لاقتضت معاداة الإعداء ، كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر ، فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير غامما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن بكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه ، فهذا ذو لسانين . وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته . وكذلك إذا أثنى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه ، فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثنى على الحق من المتعادين ، ويثنى عليه في غيبته ، وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضي الله عنهما ، ^(١) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نفاق مبهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير ، وعن الشئاء عليه . فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن ، فهو نفاق ، لأنه الذي أخرج نفسه إلى ذلك . فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قطع بالقليل ، وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى ، وأثنى ، فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) «حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُبْنِيَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُبْنِي الْمَاءُ الْبَقْلَ» لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراآتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة ، وخاف إن لم يثن ، فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز قال أبو الدرداء رضي الله عنه ، إنا لنكشر في وجوه أقوام ،

(١) حديث قيل لابن عمر إذا تدخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من طرق

(٢) حديث حب الجاه والمال يبنيان النفاق في القلب كما يبني الماء البقل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة يستند ضعيف لأنه قال حب الغناء وقال الشعب مكان البقل

وإن قلوبنا لتلحنهم وقالت عائشة رضي الله عنها ، ^(١) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فيئس رجل العشييرة هو » ثم لما دخل ألان له القول . فاما خرج قلت يا رسول الله ، قلت فيه ماقلت ، ثم ألنت له القول ! فقال « يا عائشة إن شر الناس الذي يُكرّم اتقاء شره » ولكن هذا ورد في الإقبال ، وفي الكشر والتبسم . فاما الشناء ، فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة ، أو إكراه يباح الكذب بمناله ، كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الشناء ، ولا التصديق ، ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك ، فهو منافق . بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فبسكت بلسانه ، وينكر بقلبه

الآفة الثامنة عشرة

المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع . أما الذم ، فهو الغيبة والوقيعة ، وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات ، أربع في المادح ، واثنان في المدوح . فاما المادح : فالأولى . أنه قد يفرط ، فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الأشهاد ، بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه الثانية : أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضرا له ، ولا معتقدا لجميع مايقوله : فيصير به مرأيا منافقا .

الثالثة : إنه قد يقول ما لا يتحققه ، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه . روى ^(٢) أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه السلام « وَيَحْكُ قَطَلَعَتْ عَنْقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا قَلَحَ » ثم قال « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لَأَبَدَ مَا دِحَا أَخَاهُ فَلْيُقِلْ أَحْسَبُ فَلَانًا وَلَا أَزَكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا حَسِبُهُ اللَّهُ إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ »

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فيئس رجل العشييرة

من الحديث : وفيه أن شر الناس الذي يُكرّم اتقاء شره . انتهى منقوله وفيه أنه قد تقدم في الآفة التي قبلها

(الآفة الثامنة عشرة المدح)

(٢) حديث أن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطلعت عنق صاحبك

متفق عليه من حديث أبي بكر بنحوه وهو في الصمت لا برأى الدنيا بلفظه الصنف

وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة، التي نعرف بالأدلة، كقوله إنه متق وورع، وزاهد، وخير، وما يجري مجراه. فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل، ويتصدق، ويحج، فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله إنه عدل، رضا، فإن ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه. إلا بعد خبرة باطنة. سمع عمر رضي الله عنه رجلا يشي على رجل، فقال أسافرت معه؟ قال لا. قال. أخالطته في البايعة والمعاملة؟ قال لا. قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه

الرابعة: أنه قد يفرح المدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِّحَ الْفَاسِقِ» وقال الحسن. من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه. والظالم الفاسق ينبغي أن يذم لينتقم، ولا يمدح ليفرح. وأما المدوح فيضره من وجهين:

أحدهما. أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا، وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه. كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة، والناس حوله، إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل هذا سيد ريعة. فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود. فلما دنا منه، خفقه بالدرة. فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال مالي ولك أما لقد سمعتها؟ قال سمعتها. قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحييت أن أظاطيء منك.

الثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتّر، ورضي عن نفسه. ومن أعجب بنفسه قل تشمره. وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً. فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه، ظن أنه قد أدرك. ولهذا قال عليه السلام «قَطَعْتَ عُقْرَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرُكَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى وَمِيسَا» وقال أيضا لمن مدح رجلا ^(٣) «عَقَرْتَ الرَّجُلَ عَقَرَكَ اللَّهُ»

(١) حديث أن الله يغضب إذا مدح الفاسق: ابن أبي الدنيا في الصمت والبيق في الشعب من حديث أنس وفي

أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدى بلفظ إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في الميزان منكر وقد تقدم في آداب العكس

(٢) حديث إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا: ابن المبارك في الزهد والرفائق

من رواية يحيى بن جابر مرسل

(٣) حديث عقرت الرجل عقرك الله: قاله لمن مدح رجلا لم أجده أصلا

وقال مطرف، ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم :
ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة ، إلا تراءى له الشيطان . ولكن المؤمن يراجع .
فقال ابن المبارك ، لقد صدق كلاهما . أما ما ذكره زياد ، فذلك قلب العوام . وأما ما ذكره مطرف ،
فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ يَسْكُنُ
مَرْهَفٍ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يُشَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ » وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو
الذبح . وذلك لأن المذبح هو الذي يفتقر عن العمل . والمدح يوجب الفتور . أو لأن
المدح يورث العجب والكبر ، وهما مهلكان كالذبح ، فلذلك شبهه به .

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق الماسح والممدوح ، لم يكن به بأس . بل ربما تأنى
مندوبا إليه ولذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال ^(٢) « لَوْ وَزَنَ
إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيْمَانِ الْعَالَمِ لَرَجَحَ » وقال في عمر ^(٣) « لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبُعِثْتَ يَا عُمَرُ »
وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبسيرة وكانوا رضي
الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح
لما فيه من الكبر والتفاخر . إذ قال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أَنَا سَيِّدُ آدَمَ وَلَا فَخْرَ »
أى لست أقول هذا تفاخرا ، كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره
صلى الله عليه وسلم كان بالله ، وبالقرب من الله ، لا بولد آدم وتقدمه عليهم . كأن
المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه ، وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه
وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه . قال صلى الله
عليه وسلم ^(٥) « وَجِبَتْ » لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد إن لى آدم جلساء

(١) حديث لومنى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يشى عليه في وجهه : لم أجده أيضا

(٢) حديث لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح : تقدم في العلم

(٣) حديث لوم أبى بكر لبعثت يا عمر : أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر

والعروف حديث عفة بن عامر لو كان يعدى نبى لكان عمر بن الخطاب رواء الترمذى وحسنه

(٤) حديث أناسيد ولد آدم ولا تفر : الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والحاكم من حديث

جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت أناسيد الناس يوم القيامة ولا تفر

ولسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم يوم القيامة

(٥) حديث وجبت قاله لما أثنوا على بعض الموتى : متفق عليه من حديث أنس

من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير ، قالت للملائكة ولك بمثله . وإذا ذكره بسوء ، قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان

ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب ، وآفة الفتور ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح . ولو انكشف له جميع أسرار ، وما يجري على خواطره ، لكف المادح عن مدحه

وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَحْشُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الدَّاحِينَ » وقال سفيان بن عيينة ، لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين : فقال اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني ، وأنت تعرفني . وقال آخر لما أثنى عليه ، اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك ، وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضي الله عنه لما أثنى عليه ، اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه ، فقال أتهلكني وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال نادون ما قلت ، وفوق ما في نفسك

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام

لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين . فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء . فمن قصر في علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل . لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أحشوا في وجوه الداحين التراب : مسلم من حديث المعداد .

(١) « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَلَسَكِنْ لَيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ » وذلك لأن في المطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، (٢) جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكلمه في بعض الأمر ، فقال ما شاء الله وشئت . فقال صلى الله عليه وسلم « اجعلني لله عبد بلا بل ما شاء الله وحده » وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال د قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع

وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ، ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال ، اللهم اعتقنا من النار ، وكان يقول العتق يكون بعد الورود . وكانوا يستجيرون من النار ، ويتعوذون من النار وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة « إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد ، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين

وقال ابراهيم ، إذا قال الرجل للرجل يا حمار ، يا خنزير ، قبل له يوم القيامة ، حمارا أيا خنزيرا خلقته ، خنزيرا رأيتني خلقته ؟ . وعن ابن عباس رضى الله عنها إن أحكم ليشرك حتى يشرك بكلمه ، فيقول لولاه لسرقنا الليلة

وقال عمر رضى الله عنه ، (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْهَاكُمُ أَنْ تَخْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » قال عمر رضى الله عنه « فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ كَرَمًا »

(الآفة التاسعة عشرة في الغفلة عن دقائق الخطأ)

(١) حديث حذيفة لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت - الحديث : أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت

فقال جعلني لله عبدا قل ما شاء الله وحده النسائي في الكبرى باسناد حسن وابن ماجه

(٣) حديث خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما

فقد غوى - الحديث : مسلم من حديث عدى بن حاتم

(٤) حديث عمران الله ينهاكم أن تخلصوا آبائكم : متفق عليه

(٥) حديث لا تسموا العنب الكرم انما الكرم الرجل المسلم : متفق عليه من حديث أبي هريرة

إِنَّمَا الْكَرَمُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ

وقال أبو هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أَمَتِي كُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَيَقُلُّ غُلَامِي وَجَارَتِي وَفَتَاتِي وَلَا يَقُولُ الْمَمْلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبَّتِي وَلَيَقُلُّ سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي فَكُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ وَالرَّبُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) «لَا تَقُولُوا لِلْفَاسِقِ سَيِّدًا فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ اسْتَخْطَمَ رَبَّكُمْ» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «مَنْ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا»

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره. ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم. وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم ^(٣) «مَنْ صَمَتَ نَجَا» لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق التكلم، فإن سكوت سلم من الكل. وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه؛ إلا أن يوافق لسان فصيح، وعلم غزير، وورع حافظ؛ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام، فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر. فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن. إلا أن ذلك ثقیل على النفوس، والفضول خفيف على القلب. والعامي يفرح بالخوض في العلم. إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحجب إليه ذلك: حتى يتكلم في العلم بما هو كافر، وهو لا يدري

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا - الحديث: أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح

(٢) حديث من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال - الحديث: النسائي وابن ماجه من حديث

بريدة بسند صحيح

(٣) حديث من صمت نجا: الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

وكل كبيرة يرتكبها العاصي ، فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم : لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم ؛ يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك ، وهو موجب للمقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم . فإنه بالإضافة إليه عاصي ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « ذُرُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مَا هَيَّئْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَإِنَّمَا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

وقال أنس : ^(٢) سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « نَسَلُونِي وَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ » فقام إليه رجل ؛ فقال يارسول الله من أنى ؟ فقال « أَبُوكَ حَذَافَةُ » فقام إليه شابان أخوان ، فقالا يارسول الله ، من أبونا ؟ فقال « أَبُوكُمَا الَّذِي تُدْعَيَانِ إِلَيْهِ » ثم قام إليه رجل آخر ، فقال يارسول الله ، أنى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لَا بَلْ فِى النَّارِ » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا . فقام إليه عمر رضى الله عنه ، فقال رضىنا بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا . فقال « اجْلِسْ يَا عُمَرُ رَحِمَكَ اللَّهُ إِنَّكَ مَا عَلِمْتَ لَمَوْقِفٍ » وفى الحديث ، ^(٣) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل ، والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَنْسَاءَ لَوْ أَنَّ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَهَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ قَسُّوا (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

(١) حديث ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم - الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال

سألونى فلا تسألونى عن شئ ، إلا أنبأتكم به - الحديث : متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله

بن حذافة وقول عمر ومسلم من حديث أبى موسى فقام آخر فقال من أبى فقال أبوك سام مولى شية

(٣) حديث النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث النيرة بن شعبة

(٤) حديث يوشيك الناس ينساء لوف ينهم حتى يقولوا قد خلق الله المخلق - الحديث : متفق عليه من حديث

أبى هريرة وقد تقدم

اللَّهُ الصَّمَدُ^(١) حَتَّى تَخْتَبُوا السُّورَةَ ثُمَّ لِيُثْلُ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلِيَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » وقال جابر^(٢) ، ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال

وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال (فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا^(٣)) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر ، وقال (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا^(٤)) فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ^(٥)) وفارقه

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم في حروف القرآن ، يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا ، فلم يشتغل بشيء منها ، وضع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ، فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديعة أم حديثه ، وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم

(١) حديث حار ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال رواه البزار بإسناد جيد

^(١) الصمد : ٢، ١ (٢ ، ٣ ، ٤) الكهف : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨

کتاب ذم الغضب والمقصد والمحمد

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يتكل على غفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وساط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون . ثم حفرهم بالمكاره والذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتنحن به جهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، فقال (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ^(١)) . والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خالق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد . ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كما يستخرج الحجر النار من الحديد . وقد انكشف لناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان ، حيث قال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ^(٢)) فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب . ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد . وإذا كان الحقد والحسد والغضب بما يسوق العبد إلى مواطن العطب ،

(١) بئ: ٢٩ ، ٥٠ (٢) الاعراف: ١٣

فأحوجه إلى معرفة معاطيه ومساور به ، أبعد ذلك ، وبتقيه ، ويميدله عن القلب إن كان ينفيه ،
ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة
لا تكفيه ، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه

ونحن نذكر ذم الغضب ، وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ، وجميعها يان ذم الغضب ،
ثم يان حقيقة الغضب ، ثم يان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله بالرياضة أم لا ، ثم يان الأسباب
المهيبة للغضب ، ثم يان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم يان فضيلة كظم الغيظ ، ثم
يان فضيلة الحلم ، ثم يان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ، ثم القول في
معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول في ذم الحسد ، وفي حقيقته وأسبابه
ومعالجته ، وغاية الواجب في إزائته ، ثم يان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال ، والأقران ،
والأخوة ، وبنى العم ، والأقارب . وتأكده وقتله في غيرهم وضعفه ، ثم يان الدواء الذي به
ينفي مرض الحسد عن القلب ، ثم يان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الغضب

قال الله تعالى : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ^(١)) الآية ، ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن
الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة . وروى أبو هريرة
^(٢) أن رجلاً قال يا رسول الله ، مرني بعمل وأقلل . قال « لَا تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال
« لَا تَغْضَبْ » وقال ابن عمر ^(٣) قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « قل لي قولاً وأقلله
لعل أعتقه . فقال « لَا تَغْضَبْ » فأعدت عليه مرتين ، كل ذلك يرجع إلى لا تغضب .

(كتاب الغضب والحقد والحسد)

(١) حديث أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال

لا تغضب : رواه البخاري

(٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقلل . الحديث : نحوه أبو يعلى بإسناد حسن

(٣) الفتح : ٤٦

وعن عبد الله بن عمرو^(١)، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماذا ينقذني من غضب الله؟ قال «لَا تَغْضَبْ» وقال ابن مسعود^(٢)، قال النبي صلى الله عليه وسلم «مَاتَعْدُونَ الصَّرْعَةَ فَيَكُم؟» قلنا الذي لا تصرعه الرجال. قال «لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» وقال أبو هريرة^(٣) قال النبي صلى الله عليه وسلم «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» وقال ابن عمر^(٤) قال النبي صلى الله عليه وسلم «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَهُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ». وقال سليمان بن داود عليهما السلام: يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم. وعن عكرمة في قوله تعالى (وَسَيِّدًا وَخَصُورًا)^(٥) قال السيد الذي لا يغلبه الغضب. وقال أبو الدرداء^(٦)، قلت يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة. قال «لَا تَغْضَبْ» وقال يحيى ليعسى عليهما السلام، لا تغضب، قال: لا أستطيع أن لا أغضب، إنما أنا بشر. قال لا تقن مالا، قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم^(٧) «الْغَضَبُ يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبْرُ الْعَسَلَ» وقال صلى الله عليه وسلم^(٨) «مَا غَضِبَ أَحَدٌ إِلَّا أَشْنَى عَلَى جَهَنَّمَ» وقال له رجل^(٩)، أي شيء أشد قال «غَضَبُ اللَّهِ» قال فما يبعدني عن غضب الله؟ قال «لَا تَغْضَبْ»

(١) حديث عبد الله بن عمرو سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب الطبراني في معجم الأئمة وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن وهو عند أحمد وابن عبد الله بن عمرو وهو السائل

(٢) حديث ابن مسعود ماتعدون الصرعة - الحديث: رواد مسلم

(٣) حديث أبي هريرة وليس الشديد بالصرعة - الحديث: متفق عليه

(٤) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته: ابن أبي الدنيا في كتاب العفو ودم الغضب وفي الصمت وتقدم في آفات اللسان

(٥) حديث أبي الدرداء دلى على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب: ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والوسط بإسناد حسن

(٦) حديث الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل: الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف

(٧) حديث ما غضب أحدا لا أشنى على جهنم: البزار وابن عدي من حديث ابن عباس للنارباب لا يدخله الأمن شئ غيظه بمعية الله وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان

(٨) حديث قال رجل أي شيء أشد على قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب: أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بسبع أحاديث

(٩) آل عمران: ٣٩

الآثار . قال الحسن : يا ابن آدم ، كلما غضبت وثبت ، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار . وعن ذى القرنين ، أنه لقي ملكاً من الملائكة ، فقال علمني علماً أزداد به إيماناً وبقيناً ، قال لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالنوذة . وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك . وكن سهلاً لينا للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً

وعن وهب بن منبه ، أن راهباً كان في صومعته ، فأراد الشيطان أن يضله ، فلم يستطع فجاءه حتى ناداه ، فقال له افتح فلم يجبه ، فقال افتح . فإني إن ذهبت ندمت فلم يلتفت إليه . فقال إني أنا المسيح قال الراهب ، وإن كنت المسيح . فما أصنع بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ؟ ووعدتنا القيامة ؟ فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك . فقال إني الشيطان ، وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ، فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك . فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال : فولى مدبراً . فقال الراهب ألا تسمع ؟ قال بلى . قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم ؟ قال الحدة . إن الرجل إذا كان حديداً ، قلبناه كما يقلب الصياد الكرة وقال خيثة ، الشيطان يقول ، كيف يغلبني ابن آدم ، وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه . وقال جعفر بن محمد ، الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار ، رأس الحق الحدة ، وقائده الغضب . ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وقال مجاهد ، قال إبليس ، ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث . إذا سكر أحدهم أخذنا بمنزلة فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا . وإذا غضب قال بما لا يعلم ، وعمل بما يندم . وبخله بما في يديه ، ونغى بما لا يقدر عليه . وقيل للحكيم ، ما أملك فلاناً لنفسه قال إذا لاندله الشهوة . ولا يصبره الهوى ، ولا يغلبه الغضب ، وقال بعضهم إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبدالله بن مسعود ، انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه . وأما نتة عند طمعه ، وما أملك بحلمه إذا لم يغضب ، وما أملك بأمانته إذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله ، أن لا تعاقب عند غضبك على رجل فاجبسه ، فإذا سكن غضبك فأخبره فمأقبه على قدر ذنبه . ولا تجاوز به خمسة عشرة سوطاً . وقال علي بن زيد ، أغلظ

رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول ، فأطرفي عمر زمانا طويلا ، ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان ، فأناك منك اليوم ما تناله منى غدا . وقال بعضهم لابنه ، يا بني ، لا يثبت العقل عند الغضب ، كما لا تثبت روح الحي في التناير المسجورة .

فأقل الناس غضبا أعقلهم . فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حاما وعاما . فقد قيل الغضب عدو العقل ، والغضب غول العقل . وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب قال في خطبته ، أفلح منكم من حفظ من الطمع ، والهوى ، والغضب . وقال بعضهم ، من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتحمل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وتحمل في رفاقة ، وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمع به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظالم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتدر ، يفقر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء . وقيل لعبد الله بن المبارك ، أجل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال ترك الغضب وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه ، من يتكفل لي أن لا يغضب ، فيكون معي في درجتي ، ويكون بعدى خليفة . فقال شاب من القوم ، أنا . ثم أعاد عليه ، فقال الشاب أنا أوفى به فلما مات كان في منزلته بعده ، وهو ذو الكفل . سمي به لأنه تكفل بالغضب ، ووفى به . وقال وهب ابن منبه ، للكفر أربعة أركان ، الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع

بيان

حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان ممرضا للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه ، وأسباب خارجة عنه ، أنعم عليه بما يحمي عن الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، إلى أجل معلوم سماه في كتابه . أما السبب الداخل ، فهو أنه ركبته من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة . وتجنفها ، وتبخرها ،

حتى تصير أجزاءها نخباً تتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالطبيعة مدد من الغذاء ، يجه ما خل .
ونبخر من أجزائها ، لفسد الحيوان . فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان ، وخلق في الحيوان
شهوة تبعثه على تناول الغذاء ، كالموكل به في جبر ما انكسر ، وسد ما انثلم ، ليكون ذلك
حافظاً له من الهلاك بهذا السبب

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان ، فكالسيف ، والسم ، والسنان ، وسائر المهلكات
التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمة تثور من باطنه ، فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله
طبيعة الغضب من النار ، وغرزها في الإنسان ، وعجنها بطينته ، فهما صد عن غرض من
أغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب ، وثارت به ثوراناً يغلي به دم القلب
وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في
القدر . فلذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها ، تحكي لون
ما وراءها من حمرة الدم ، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينسط الدم إذا غضب على من دونه ،
واستشعر القدرة عليه . فإن صدر الغضب على من فوقه ، وكان معه بأس من الانتقام ، تولد
منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، وصار حزناً . ولذلك يصفر اللون . وإن كان
الغضب على نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب
وباجلّة فقوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام . وإنما
تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذبات قبل وقوعها ، وإلى التشنّي والانتقام بعد
وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة ، من التفريط ، والإفراط
والاعتدال . أما التفريط ، فيفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم . وهو الذي
يقال فيه إنه لاجمة له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله ، من استغضب فلم يغضب فهو حمار
فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً ، فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية ، فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ^(١)) وقال لنبيه
صلى الله عليه وسلم (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ^(٢)) الآية . وإنما الغلظة والشدة

(١) الفتح : ٢٩ (٢) التحريم : ٩

من آثار قوة الحمية، وهو الغضب . . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة، حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة، ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر، وسبب غلبته أمور غريزية، وأمور اعتيادية. فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب، حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان. ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب، لأن الغضب من النار، كما قال صلى الله عليه وسلم،
 ﴿وَإِنَّمَا بُرُودَةُ الْمَزَاجِ تُطْفِئُهُ وَتُكْسِرُ سَوَرَتَهُ﴾

وأما الأسباب الاعتيادية، فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشنى الغيظ، وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم أنا الذي لأصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا، ومعناه لا عقل في ولا حلم. ثم يذكره في معرض الفخر بجعله فن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب، وحُب التشبه بالقوم، فيقوى به الغضب. ومهما اشتدت نار الغضب، وقوى اضطرابها، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع، بل زاده ذلك غضبا. وإذا استضاء بنور عقله، وراجع نفسه، لم يقدر. إذ ينطفئ نور العقل، وينمحي في الحال بدخان الغضب. فإن معدن الفكر الدماغ. ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ، يستولي على معادن الفكر. وربما يتعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه، حتى لا يرى بعينه، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار، فاسود جوهه، وحمى مستقره، وامتلأ بالدخان جوانبه، وكان فيه سراج ضعيف فانمحي، أو انطفأ نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلام، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق. فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ. وربما تقوى نار الغضب، فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظا، كما تقوى النار في الكهف فينشق، وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لإبطال النار مافي جوانبه من القوة المسككة، الجامعة لأجزائه. فهكذا حال القلب عند الغضب. وبالحقيقة

(١) حديث الغضب من النار: الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف الغضب جرة في قلب ابن آدم ولا يداود

من حديث عطية السعدي أن الغضب من الشيطان وأن الشيطان خلق من النار

فالسفينة في ملتطم الأمواج ، عند اضطراب الرياح في لجسة البحر ، أحسن حالا ، وأرجى سلامة ، من النفس المضطربة غيظا . إذ في السفينة من يخال لتسكينها وتديرها ، وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب ، فهو صاحب السفينة ، وقد سقطت حيلته ، إذ أعماه الغضب وأصمه ومن آتار هذا الغضب في الظاهر ، تغبر اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته ، اسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقة . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر غنوان الباطن . وإنما قبحت صورة الباطن أولا ، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فتس الثمرة بالثمرة . فهذا أثره في الجسد وأما أثره في اللسان ، فانطلاقه بالشتم والفتش من الكلام ، الذي يستحي منه ذو العقل ، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخطيط النظم ، واضطراب اللفظ وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب ، والتهجم ، والتمزق ، والقتل ، والجرح عند التمكن من غير مبالاة . فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب ، وعجز عن التشنى ، رجع الغضب على صاحبه ، فمزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب يده على الأرض ، ويعدو عدو الواله السكران ، والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا ، لا يطبق العدو والهوض بسبب شدة الغضب ، ويعتريه مثل العشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض ، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها ، ويتعاطى أفعال المجانين ، فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ، ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ، كأنه يخاطب عاجلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ، ويقابلها بذلك

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه ، فالحقد ، والحسد ، وإضرار السوء ، والشمانية بالمساآت ، والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك السر ، والاستهزاء ، وغير ذلك من القبايح . فهذه ثمرة الغضب المفرط . وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه ، من التعرض للحرم ، والزوجة ، والأمة ، واحتمال الدل من الأخساء ، وصغر النفس ، والقماء ، وهو أيضا مذموم . إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم ، وهو خنونة

قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنْ سَعَدَ الْغَيُورُ وَأَنَا أَسْرُورُ بَيْنَ سَعْدٍ وَإِنْ اللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل لكل أمة وضعت النيرة في رجالها ، وضعت الصيانة في نساءها .

ومن ضعف الغضب انخوار ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « خَيْرُ أُمَّتِي أَحَدًاؤُهُمَا » يعني في الدين . وقال تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ^(٣)) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط للغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة .

فقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفئ حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ^(٤) « خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا » . فمن مال غضبه إلى الفتور ، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الدل والضم في غير محله . فينبغي أن يعالج نفسه ، حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط ، حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش ، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم ، وهو أرق من الشعرة ، وأحد من السيف . فإن عجز عنه ، فليطلب القرب منه قال تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمِئَلَّةِ ^(٥)) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ، ينبغي أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض

فهذه حقيقة الغضب ودرجاته ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه ، إنه على ما يشاء قدير

(١) حديث ان سعد الغيور - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث الغيرة

م بنحوه وتقدم في النكاح

(٢) حديث خيراً متى احداؤها: الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد

الذين اذا غضبوا رجعوا

(٣) حديث خير الامور اوسطها: البيهقي في الشعب مرسل وقد تقدم

(٤) النور : ٢ (٥) النساء : ١٢٩

بيان

الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكافة ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد . وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج ، وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغير . وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما نذكره ، وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً ، فلا يخلو من النية والغضب . وما دام يوافقه شيء ، ويخالفه آخر ، فلا بد من أن يحب ما يوافقه ، ويكره ما يخالفه : والغضب يتبع ذلك . فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، وإذا قصد بمكروهه غضب لا محالة . إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام

الأول : ما هو ضرورة في حق الكافة ، كالقوت ، والسكن ، والملبس ، وصحة البدن فن قصد بدنه بالضرب والجرح ، فلا بد وأن يغضب . وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه ، أو أريق ماؤه الذى لبعطشه . فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ، ومن غيظ على من يتعرض لها

القسم الثانى : ما ليس ضروريا لأحد من الخلق ، كالجاه ، والمال الكثير ، والفلان والدواب . فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة ، والجهل بتقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكتران ، ويغضب على من يسرقهما ، وإن كان مستغنيا عنهما فى القوت . فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه . فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه ، فهدمها ظالم ، فيجوز أن لا يغضب . إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا ، فيزهد فى الزيادة على الحاجة ، فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها ، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى ، كالجاه ، والصيت ، والتصدر فى المجالس ، والمباهاة فى العلم . فن غلب هذا الحب عليه ، فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل . ومن لا يحب ذلك

فلا يبالى ولو جلس في صف النعال ، فلا يفضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارهه ، فأكثر غضبه . وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر ، كان صاحبها أخط رتبة وأنقص . لأن الحاجة صفة نقص . فبما أكثر كثر النقص . والجاهل أبدا جبهه في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب النعم والحزن ، حتي ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ، ومخالطة قرناء السوء ، إلى أن يفضب لو قيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور ، واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير ، وتناول الطعام الكثير ، وما يجري مجراه من الرذائل . فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري ، لأن جبهه ليس بضروري

القسم الثالث : ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض . الكتاب مثلا في حق العالم ، لأنه مضطر إليه فيجبهه ، فيغضب على من يحرقه وينرقه . وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب ، الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها . فإن ما هو وسيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا . وهذا يختلف بالأشخاص . وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (١) « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَايً فِي بَدَنِهِ وَلَهُ قُوَّةُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بَحْذًا فِيرَهَا » ومن كان بصيرا بحقائق الأمور ، وسلم له هذه الثلاثة ، يتصور ، أن لا يفضب في غيرها

فهذه ثلاثة أقسام ، فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرع ، ويستحسنه العقل . وذلك ممكن بالمجاهدة ، وتكليف الحلم والاحتفال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا . فأما قمع أصل الغيظ من القلب ، فذلك ليس مقتضى الطبع ، وهو غير ممكن . نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن . وينتهي ضعفه . إلى أن لا يظهر أثره في الوجه . ولكن ذلك شديد جدا . وهذا حكم القسم الثالث أيضا

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها: الترمذي .

وابن ماجه من حديث عبيد الله بن عاصم دون قوله بحذا فيرها قال الترمذي حسن غريب

لأن ما صار ضروريا في حق شخص ، فلا يمنعه من الفيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به ، وتضعف هيجانه في الباطن ، حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه .
وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه ، إذ يمكن إخراج حبه من القلب . وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ، ومستقره الآخرة ، وإن الدنيا معبر يعبر عليها ، ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ، ويخجو حباها عن قلبه . ولو كان للإنسان قلب لا يحبه . لا يغضب إذا ضربه غيره . فالغضب تبع للحب . فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب ، وهو نادر جدا . وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب ، والعمل بموجبه ، وهو أهون .

فإن قلت : الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب . فن له شاة مثلا وهي قوته ، فانت ، لا يغضب على أحد ، وإن كان يحصل فيه كراهة . وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ، ولا يغضب على الفصاد والحجام . فمن غلب عليه التوحيد ، حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه . فلا يغضب على أحد من خلقه ، إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته ، كالقلم في يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبتة لم يغضب على القلم . فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته ، كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل ، فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ، ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله ، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في مرضه ، وجوعه ، وجرحه وقلته ، فلا يغضب ، كما لا يغضب على الفصاد والحجام ، لأنه يرى أن الخيرة فيه . فنقول هذا على هذا الوجه غير محال . ويمكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد ، إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب في أحوال مختلطة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط ، رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه . ولو تصور ذلك على الدوام لبشر ، لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) فإنه كان يغضب

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه : مسلم من حديث جابر كان إذا خطب احمرت

عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللحاكم كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه

وقد تقدم في أخلاق النبوة

حتى تحمر وجنتاه ، حتى قال ^(١) « اللَّهُمَّ أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَإِنَّمَا مُسْلِمٌ سَبَبُهُ أَوْ لَعْنَتُهُ أَوْ ضَرْبُهُ فَاجْعَلْهُ مِنِّي صَلَاةً عَلَيْهِ وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تَقَرُّبُهُ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، ^(٢) يارسول الله ، أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا ، فقال « أكتب فواللذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . فلم يقل إني لا أغضب . ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أي لا أعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله عنها مرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا لَكَ جَاءَكَ شَيْطَانُكَ » فقالت ومالك شيطان ، قال « بَلَى وَلَكِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ فَأَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِالْخَيْرِ » ولم يقل لاشيطان لي وأراد شيطان الغضب ، لكن قال لا يحملني على الشر . وقال علي رضي الله عنه ، ^(٤) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدين . فإذا أغضبه الحق ، لم يعرفه أحد ، ولم يهتم لغضبه شيء ، حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله ، فهو التفات إلى الوسائط على الجملة

بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته ، التي لا بد له في دينه منها ، فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري ، إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه ، فلا يكون في القلب منسع للغضب ، لاشتغاله بغيره ، فإن استغرق القلب ببعض المهمات ، يمنع الاحساس بما عداه ، وهذا كما أن سلمان لما شتم قال ، إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازيني لم يضرنى ما تقول فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة ، فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال بأعذار ، قد سمع الله كلامك ، وإن دون الجنة عقبة ، إن قطعها لم يضرنى ما تقول ،

(١) حديث اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلده بدل ضربته وفي رواية اللهم أنا محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأمله متفق عليه وتقدم . ومسلم من حديث أنس أنما أنا بشر أَرْضَى كَأَرْضَى الْبَشَرِ وَأَغْضَبُ كَأَغْضَبِ الْبَشَرِ وَلَا بِي عَلَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَوْضَرْتُهُ

(٢) حديث عبد الله بن عمرو يارسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا قال أكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه : أبو داود وبنحوه

(٣) حديث غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك - الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث علي كان لا يغضب للدين - الحديث : الترمذي في المعالي وقد تقدم

وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول ، وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه ، فقال ماستر الله عنك أكثر . فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ، ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان . وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار ، يا مراثنى . فقال ما عرفنى غيرك . فكأنه كان مشغولا بأن ينقى عن نفسه آفة الرياء ، ومنكرا على نفسه ما يليقه الشيطان إليه ، فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشيعى فقال ، إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك فهذه الأقاويل دالة فى الظاهر على أنهم لم يغضبوا ، لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم . ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ، ولكنهم لم يشتغلوا به ، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم . فإذا اشتغال القلب ببعض المهمات ، لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند قوات بعض المحاب . فإذا يتصور فقد الغيظ : إما باشتغال القلب بهم : أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث ، وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يعتاظ ، فيطنى . شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال فى أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محور حب الدنيا عن القلب ، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ، كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا . ومن أخرج حب المزاي عن القلب ، تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه ، يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ، ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه ، إنه على كل شىء قدير ، والحمد لله وحده .

بيان

الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها ، وإزالة أسبابها . فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام ، أى شىء أشد ؟ قال غضب الله . قال فأبقر من غضب الله ؟ قال أن تغضب ، قال فأيدي الغضب وما ينبته ؟ قال عيسى الكبر ، والفخر ، والتعزز ، والحمية والأسباب المهيجة للغضب : هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزم والتعير والمارة . والمضادة ، والفدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهى بأجمعها أخلاق

ورديئة مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا يد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها . فينبغي أن تमित الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الاتساق أب واحد ، وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتا ، فبنو آدم جنس واحد ، وإنما الفخر بالفضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل ، وهى أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك . فلم تقتخر وأنت من جنس عبدك ، من حيث البنية والنسب ، والأعضاء الظاهرة والباطنة

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية ، التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزاء فتزيله بالتكريم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعبير فبالحذر عن القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة ، طلبا للزوال والاستغناء ، وترفعها عن ذل الحاجة . وكل خلق من هذه الأخلاق ، وصفة من هذه الصفات ، يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبورها . ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالمادة مألوفا هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال ، تسميتهم الغضب شجاعة ، ورجولية ، وعزة نفس ، وكبرهمة ، وتلقبهم بالألقاب المحموده ، غباوة وجهلا ، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر ، فى معرض المدح بالشجاعة . والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهبج الغضب إلى القلب بسببه . وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل ، بل هو مرض قلب ، ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها . وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضبا

من صاحب الفضائل . فالرذل بغضب لشهوته إذا فاته اللقمة ، وإبغاه إذا فاته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسنتهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء ، والحكماء والعلماء ، وأكابر الملوك الفضلاء وصد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك ؟ والجهلة والأغبياء ، الذين لا عقول لهم ، ولا فضل فيهم

بيان

علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب ؛ وقطع لأسبابه حتى لا يهيج . فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم . وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنورها ، في فضل كظم الغيظ . والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، فيتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشنق والانتقام وينطلق عنه غيظه . قال مالك بن أوس بن الحدثان ، غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(١)) فكان عمر يقول (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(٢)) فكان يتأمل في الآية ، وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه ، كشر التدبر فيه ، فتدبر فيه ، وخلي الرجل . وأمر عمر ابن عبد العزيز بضرب رجل ، ثم قرأ قوله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ^(٣)) فقال لنلامه خل عنه الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه ، لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج مما أكون إلى العفو ، فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة ، يا ابن آدم ، اذكرني حين

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله

(١) و (٢) الاعراف : ١٩٩ (٣) آل عمران : ١٣٤

تغضب ، أذكر له حين أنضب ، فلا أشتك فيه الحق . ويعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيحا إلى حاجة ، فأبطأ عليه ، فلما جاء قال ^(١) « لَوْلَا الْقِصَاصُ لَأَوْجَعْتُكَ » أى القصاص فى القيامة . وقيل ما كان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها أرحم المسكين ، واخش الموت ، وأذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشامة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ، إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب ، وليس هذا من أعمال الآخرة ، ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة ، يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ، وما يمينه على الآخرة ، فيكون مثابا عليه

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضارى ، والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب ، للأنبياء والأولياء ، والعلماء والحكماء ، ويخبر نفسه بين أن يشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يشبه بالعلماء والأنبياء فى عاداتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ، إن كان قد بقى معه مسكة من عقل

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب . مثل قول الشيطان له ، إن هذا يحمل منك على العجز . وصغر النفس والذلة ، والمهانة ، وتصير حقيرا فى أعين الناس . فيقول لنفسه ، ما أعجبك ! تأتئين من الاحتمال الآن ، ولا تأتئين من خزي يوم القيامة والافتضاح ، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منه ! وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبين أفهما كظم الغيظ . فينبغى أن يكظمه الله ، وذلك يعظمه عند الله فإله للناس ، وذلك من ظلمه يوم القيامة أشد من ذل لو انتقم الآن . أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة ليقيم من أجره على الله . فلا يقوم إلا من عفا فهذا أمثاله من معارف الإيعان ينبغى أن يقرره على قلبه .

(١) حديث لولا القصاص لأوجعتك : أبو يعلى من حديث أم سلمة بسنده ضعيف

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله ، لا على وفق مراده. فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه وأما العمل ، فإن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا غضبت عائشة ، أخذ بأنفها وقال : يَا عُوَيْشُ قُولِي لِلَّهِمَّ رَبِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ » فيستحب أن تقول ذلك

فإن لم يزل بذلك ، فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ، لتعرف بذلك ذل نفسك . واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون ، فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) : « إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوَقَّدُ فِي الْقَلْبِ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى اتِّفَاحِ أَوْدَاجِهِ وَخَمَرَةِ عَيْنَيْهِ ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَجْلِسْ وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَنِمْ »

فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء فتدفع قال صلى الله عليه وسلم^(٣) : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ بِمَاءٍ فَإِنَّمَا الْغَضَبُ مِنَ النَّارِ » وفي رواية : « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ

(١) حديث الامر بالنعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ : متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت

جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانفخت أوداجه

- الحديث : وفيه لوقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يحبه فقالوا له إن النبي

صلى الله عليه وسلم قال نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الحديث :

(٢) حديث كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب

غيظ قلبي - الحديث : ابن السني في اليوم واليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات

(٣) حديث إن الغضب جمرة توقد في القلب - الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد

وقد سدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب

(٤) حديث إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد - الحديث : أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله

بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها للصف و قد تقدم

بِالنِّسَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَخَذَكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» وقال ابن عباس^(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ » وقال أبو هريرة^(٢) ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
 غضب وهو قائم جالس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه . وقال أبو سعيد
 الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) « أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَلَّا
 تَرَوْنَ إِلَى جَمْرَةٍ عَيْنِيهِ وَانْتِفَاحُ أَوْ دَاجِهِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيُلْصِقْ خَدَّهُ بِالْأَرْضِ »
 وكان هذا إشارة إلى السجود ، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب
 لتستشعر به النفس الذل ، وتزاييل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب

وروى أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان ، وهذا
 يذهب الغضب . وقال عروة بن محمد ، لما استعملت على اليمن ، قال لي أبي ، أوليت ؟ قلت
 نعم . قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ، ثم عظم خالقهما
 وروى أن أباذر قال لرجل يا ابن الحمراء ، في خصومة بينهما . فبلغ ذلك رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فقال^(٤) « يَا أَبَا ذَرٍّ بَلَّغْنِي أَنَّكَ الْيَوْمَ عَيَّرْتَ أَخَاكَ بِأَمِّهِ »
 فقال نعم . فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول الله

(١) حديث ابن عباس اذا غضبت فاسكت : احمد وابن ابى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقي في شعب

الايمان وفيه ليث بن أبي سليم

(٢) حديث أبي هريرة كان اذا غضب وهو قائم جلس وادا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه

ابن ابى الدنيا وفيه من لم يسم ولا احمد باسناد جيد في اثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس

ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب

أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والافل اضطجع والمرفوع عند أبي داود وفيه

عنده اقطاع سقط منه أبو الاسود

(٣) حديث أبي سعيد أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ - الحديث : الترمذي وقال حسن

(٤) حديث أبي ذر أَمَا قَالَ لِرَجُلٍ يَا أَبَا الْحَمَاءِ فِي خُصُومَةٍ بَيْنَهُمَا فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الحديث :

وفيه فقال يا أباذر ارفع رأسك فانظر . - الحديث : وفيه ثم قال اذا غضبت الى آخره ابن ابى الدنيا

في العفو وذم الغضب باسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال كان بيني وبين رجل من إخواني

كلام وكانت أمه أعجمية فعبرته بأمة فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر إنك

إمرؤ فبك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فإني لست بخير من أحمر ولا أسود

الأن فضله يتقوى ورجاله ثقان

صلى الله عليه وسلم فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَمْرٍ فِيهَا وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِعَمَلٍ » ثم قال « إِذَا غَضِبْتَ فَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْعُدْ وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَانْكَبْ وَإِنْ كُنْتَ مُتَكَبِّرًا فَانْطَجِعْ »

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم ، يغضب فيشتد غضبه . فكتب ثلاث صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلا . وقال للأول . إذا غضبت فأعطني هذه . وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه . وقال للثالث . إذا ذهب غضبي فأعطني هذه . فاشتد غضبه يوما ، فأعطى الصحيفة الأولى ، فإذا فيها ، ما أنت وهذا الغضب ، إنك لست بالله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا . فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية ، فإذا فيها ، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء . فأعطى الثالثة ، فإذا فيها ، خذ الناس بحق الله ، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . أي لا تعطل الحدود . وغضب المهدي على رجل ، فقال شبيب لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال خلوا سيده

فضيلة

كظم الغيظ

قال الله تعالى (وَالْكَاطِبِينَ الْغَيْظَ ^(١)) وذكر ذلك في معرض المدح ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى رَبِّهِ قِيلَ اللَّهُ عُذْرُهُ وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَشَدُّكُمْ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَأَحْلَمَكُمْ مَنْ عَفَا عِنْدَ الْقُدْرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

(١) حديث من كف غضبه كفا الله عنه عذابه - الحديث : الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظه من حديث أنس بإسناد ضعيف ولاين أبي الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه - الحديث : وقد تقدم في آفات اللسان

(٢) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة : ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسل بإسناد جيد والبراز والطبراني في معارج الأخلاق واللفظه من حديث أشدكم أملككم لنفسه غنم الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه

(١) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُنْصِيَهُ لَأَمْسَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا » وفي رواية « مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا جَرَعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَكْثَمَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى » وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، (٣) قال صلى الله عليه وسلم « إِنْ لَجَّهْمَ بَابًا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ شَقَى غَيْظُهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ وَمَا كَظَمَهَا عَبْدٌ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ السَّالِقِينَ وَخَيْرُهُ مِنْ أَى الْحُورِ شَاءَ » الآثار: قال عمر رضي الله عنه . من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه . يا بني ، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك مميشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا ، واجتمع سفيان الثوري ، وأبو خزيمة اليربوعي ، والفضيل ابن عياض ، فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه ، والله ما تقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل . فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، ألا تسمع أن الله تعالى

-
- (١) حديث من كظم غيظا ولو شاء أن ينصيه أمساه ملاء الله قلبه يوم القيامة رضا وفي رواية أمنا وإيماننا ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكن بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبوداود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم
- (٢) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله: ابن ماجه
- (٣) حديث ابن عباس: إن لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شق غيظه بمعصية الله: تقدم في آفات اللسان
- (٤) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملاء الله قلبه . إيماننا: ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابي النبي لم يسم وقد تقدم
- (٥) حديث من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفعه دعاه الله على رؤوس السالقين حتى ينخير منه أي الحور شاء: تقدم في آفات اللسان

يقول . (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(١)) فهذا من الجاهلين . فقال
عمر صدقت . فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب . ثلاث من كن فيه
استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاء في الباطل ، وإذا غضب لم يخرج به غضبه عن
الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان ، فقال يا عبد الله أوصني . قال :
لا تغضب ، قال لا أقدر . قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان

فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم ، أى تكلف
الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة . ولكن
إذا تعود ذلك ، مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ . وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب
وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها
للعقل ، ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) : « إِنَّمَا أَلِمْهُ
بِالتَّعْلَمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحْلُمِ وَمَنْ يَتَخَيَّرِ الْخَيْرَ يُنْفِطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ » وأشار بهذا إلى أن
اكتساب الحلم طريقته التحلم أولا وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقته التعلم

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) : « اَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ
الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ لِيُنْوَائِمَ تَعْلَمُونَ وَلِيَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ
الْعُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ جِلْمَكُمْ » أشار بهذا إلى أن التكبر والتعجب ، هو الذى يهيج

(فضيلة الحلم)

(١) حديث انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم - الحديث : الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث
أبى الدرداء بسند ضعيف

(٢) حديث أبى هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم - الحديث : ابن السني فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف

الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم ^(١) « اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزَيِّنِي بِالْحِلْمِ ، وَأَكْرِمْ نِي بِالتَّقْوَى وَجَمِّلْنِي بِالْمَأْفِيَةِ » وقال أبو هريرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « ابْتَغُوا الرُّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ » قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال « تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطَى مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَّنْ جَهَلَ عَلَيْكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « خَمْسٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ الْحَيَاءُ وَالْحِلْمُ وَالْحُجَامَةُ وَالسُّوَاكُ وَالتَّعَطُّرُ » وقال على كرم الله وجهه ، ^(٤) قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالْحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَإِنَّهُ لَيَكْتُبُ جَبَّارًا عَنِيدًا وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِهِ » وقال أبو هريرة ، ^(٥) إن رجلا قال يا رسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسئون إلي ، ويجهلون علي وأحلم عنهم . قال « إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسْفِهِمُ الْمُلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَيْرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » المثل يعني به الرمل .

^(٦) وقال رجل من المسلمين ، اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة . فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أني قد غفرت له

(١) حديث كان من دعائه اللهم اغني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية: لم أجد له أصلا

(٢) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي قال تصل من قطعك - الحديث : الحاكم والبيهقي وقد تقدم

(٣) حديث خمس من سنن المرسلين الحياء والعلم والحجامة والسواك والتعطير: أبو بكر بن أبي عاصم في ' الثاني والاحاد والترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية ملبح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن

جده والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح

(٤) حديث على ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم - الحديث : الطبراني في الأوسط بسند ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ان رجلا قال يا رسول الله ان لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسئون

الي ويجهلون علي وأحلم عنهم - الحديث رواه مسلم

(٦) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبما رجل أصاب من عرضي شيئا

فهو صدقة عليه - الحديث : أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد

ابن أبي عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسنادين زاد البيهقي عن علي بن زيد وعليه هو

الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث ، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب انه رواه ابن عيينة

عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه

أبا ضمضم قلت وليس بابي ضمضم إنما هو علي بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم

تسفيهم المثل : يعني تجعل وجوههم كلون الرماد

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) «أَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْصَمٍ؟» قالوا وما أبو ضمضم؟ قال «رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي تَعَدَّدْتُ الْيَوْمَ بِعِزِّي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي» . وقيل في قوله تعالى (رَبَّائِينَ ^(٢)) أى حملاء علماء .

وعن الحسن في قوله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ^(٣)) قال حملاء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبي رباح (يَعْمُشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ^(٤)) أى حملا . وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل (وَكَهَلًا ^(٥)) قال الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ^(٦)) أى إذا أودرا صفحوا ^(٧) . وروى أن ابن مسعود مر بلفو مغرضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَى كَرِيمًا» ثم تلا إبراهيم ابن ميسرة ، وهو الرواية ، قوله تعالى (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ^(٨)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٩) «اللَّهُمَّ لَا يَذْرُؤُنِي وَلَا أُدْرِكُهُ زَمَانٌ لَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْعَلِيمَ وَلَا يَسْتَحْيُونَ فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ وَالسِّنَّةُ الْعَرَبِ» وقال صلى الله عليه وسلم ^(١٠) «لِيَلْبِسَنِي مِنْكُمْ ذَوُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ» . وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج ، فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام ^(١١) «إِنَّ فِيكَ يَا أَشَجَّ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

(١) حديث أعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم - الحديث : تقدم في آفات اللسان .

(٢) حديث ابن ابن مسعود مر بلفو مغرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ابن المبارك في البر والصلة

(٣) حديث اللهم لا يذركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحليم - الحديث : أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف

(٤) حديث ليليني منكم أولوا الأحلام والنهي - الحديث : مسلم من حديث ابن مسعود قوله ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود

(٥) حديث يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة - الحديث : متفق عليه

(٦) آل عمران : ٧٩ ^(١) ، (٢) الفرقان : ٦٣ ^(٢) ، آل عمران : ٦٦ ^(٣) ، (٤) الفرقان : ٧٣

قال ماها بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال « الْحَلَمُ وَالْأَنَاءُ » فقال خلتان تخلقتما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بَلْ خُلِقَانِ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله . وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيَّ ، النَّبِيَّ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ النَّبِيَّ وَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ السَّائِلَ الْمُتْلِحِفَ الْغَنِيِّ »

وقال ابن عباس ، «^(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا تَعْتَدُوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِلْمٌ يَكْفِي بِهِ السَّفِيهَ وَخُلُقٌ يَعْيشُ بِهِ فِي النَّاسِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «^(٢) إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرُ فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ فَيَقُولُونَ لَهُمْ مَا كَانَ فَضْلُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا ظَلِمْنَا صَبْرًا وَإِذَا أُبِيءَ إِلَيْنَا عَفْوًا وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حُلْمًا فَيَقَالُ لَهُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »

الآثار: قال عمر رضي الله عنه . تعلموا العلم ، وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال علي رضي الله عنه . ليس الخير إن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى ، وقال الحسن اطلبوا العلم ، وزينوه بالوقار والحلم . وقال إكثم بن صبيح : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر . وقال ابو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه ، فأصبحوا شوكا لا ورق فيه ، إن عرفتهم نقسوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قالوا كيف نصنع ؟ قال تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال علي رضي الله عنه : إن أول ما عوض الحليم من حلمه ، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى ، لا يبلغ العبد مبلغ الرأي ،

(١) حديث ان الله يحب الحي الحليم النقي للتعفف - الحديث : الطبراني من حديث سعد أن الله يحب العبد التقي النقي الحفي

(٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعدن بشيء . من عمله أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة . بإسنادين وقد هدم في آداب الصحة

(٣) حديث اذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس - الحديث : وفيه اذا جهل علينا حلما البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال البيهقي في إسناده ضعيف

حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته . ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية لعمر و ابن الأهم ، أى الرجال أشجع ؟ قال من رده لجهله بحلمه . قال أى الرجال أسخى قال من بذل ديناه لصالح دينه . وقال أنس بن مالك ، فى قوله تعالى (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ^(١)) إلى قوله (عَظِيمٌ ^(٢)) هو الرجل يشتمه أخوه ، فيقول إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لى .

وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة ، فسلم عليّ ، فاستعبدنى بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس ، بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال يا أمير المؤمنين ، كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطيت سائلهم ، وأسعى فى حوائجهم . فمن فعل فى قومى فهو مثلى ، ومن جاوزنى فهو أفضل منى ، ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما ، فلما فرغ ، قال يا عكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحي ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، أشهد أنك من الفاسقين . فقال ليس تقبل شهادتك .

وعن علي بن الحسين بن علي رضى الله عنهم ، أنه سبه رجل ، فرمى إليه بخيصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم ، جمع له خمس خصال محمودة ، الحلم ، وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل ، وحمته على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى مدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير . وقال رجل لجعفر بن محمد ، إنه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر ، وإنى أريد أن أتركه ، فأخبنى أن يقال لى إن تركك له ذل . فقال جعفر : إنما الدليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد ، كان يقال من أساء فأحسن إليه ، فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأخنف بن قيس ، لست بحليم ، ولكننى أتحملم . وقال وهب بن منبه ، من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يخطئ ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشرىأثم ، ومن يكره الشر يعصم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ، ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله

يخذه ، ومن يستعين بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار ، بلغني أنك ذكرتني بسوء قال أنت إذا أكرم على من نفسي . إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي . وقال بعض العلماء ، الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء ، والله لأسبئك سببا يدخل معاك في قبرك ، قتال معك يدخل لامي . ومريم عليه الصلاة والسلام تقوم من اليهود ، فقالوا له شراء فقال لهم خيرا . فقيل له إنهم يقولون شراء ، وأنت تقول خيرا . فقال كل ينطق مما عنده . وقال لقمان ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه .

ودخل على بعض الحكماء صديق له ، فقدم إليه طعاما ، فخرجت امرأة الحكيم ، وكانت ميرة الشاة ، فرفعت المائدة ، وأقبلت على شتم الحكيم . فخرج الصديق مغضبا . فقبه الحكيم وقال له ، تذكر يوم كنا في منزلك نطعم ، فسقطت دجاجة على المائدة ، فأفسدت ما علينا . فقام ينضب أحد منا . قال نعم . قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة . فصرى عن الرجل غنابه وانصرف ، وقال صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجلا قدم حكيم نأوجه ، فلم ينسب . فقيل له في ذلك . فقال أقمته مقام حجر تمرت به . فذبحت الغضب وقال تفرد الوراق

والنفس الصافي عن كل مذنب	وإن كثرت منه على الجرائم
والناس إلى الواحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثل مقاوم
والذي فوقه فأعرف فاره	وأبع فيه الحق والحق لازم
والذي دوني فإن قال صحت عن	إجابته عرضي وإن لام لائم
والذي على يانف زل أو شفا	تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان

القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

في الكلام . فقام . فذكر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله . فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة . ولا مقابلة المحسن بالمحسن . ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص رادها على قدر ما ورد الشرع به ، وقد فصلناه في الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله ،

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنْ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِمَا فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا فِيهِ » ، وقال « الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَ قُيُوءٌ عَلَى الْبَادِيءِ مَا لَمْ يَمْتَدِ الْمَظْلُومُ » وقال ^(٢) « الْمُسْتَبَانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ » وشتم رجل ^(٣) أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو ساكت . فلما ابتدأ ينتصر منه ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر ، إنك كنت ساكنا لما شتمني فلما تكلمت قمت ، قال : « لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يُبِيبُ عَنْكَ فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ الْمَلِكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ فِي مَجْلِسِ فِيهِ الشَّيْطَانُ »

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعبير بمثله نهى تنزيهه ، والأفضل تركه ، ولكنه لا يعصى به . والذي يرخص فيه ، أن تقول من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود ، وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله يا أحمق . قال مطرف ، كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر ^(٤) في حديث طويل ، حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى

وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله ياسيء الخلق ، ياصفيق الوجه ، ياتلأباً للأعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخزأك الله وانتقم منك . فإما البيمة ، والغيبة ، والكذب ، وسب الوالدين ، فحرام بالاتفاق لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالداً عند سعد ، فقال سعد منه ، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا . يعني أن يأثم بعضنا في بعض . فلم يسمع السوء ، فكيف يجوز له أن يقوله . . والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام ، كالنسبة إلى الزنا

(١) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه : أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم

(٢) حديث المستبان شيطانان يتهاوران : تقدم

(٣) حديث شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم

- الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة مفعلاً ومرسلاً قال البخاري المرسلاً أصح

(٤) حديث ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عز وجل : تقدم في العلم

والفحش والسب ، ماروت عائشة رضى الله عنها ،^(١) أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت يا رسول الله ، أرسلني إليك أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم ، فقال « يَا بِنْتُ الْمُحَبِّينِ مَا أَحَبُّ ؟ » قالت نعم . قال « فَأَجِبِي هَذِهِ » فرجعت إليهن ، فأخبرتهن بذلك ، فقلن ما أغنيت عنا شيئاً . فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت وهي التي كانت تساميني في الحب ، فجاءت فقالت ، بنت أبي بكر ، وبنت أبي بكر ، فزالتي تذكرني وأنا ساكتة ، أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب ، فأذن لي . فسببتها حتى جف لساني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كَلَّا إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ » يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط . وقولها سببتها ليس المراد به الفحش ، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ، ومقابلتها بالصدق

وقال النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) « الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَقَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا حَتَّى يَتَدَيَا الْمَغْضُومُ » فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ، ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع في الجواب ، والوقوف على حد الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يتقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ، ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس في الغضب أربعة ، فبعضهم كالخلفاء ، سريع الوقود سريع الخمود . وبعضهم كالغضا ، بطيء الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو بطيء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمَد ، مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة . وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو شرهم . وفي الخبر^(٣) « الْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرَّضَا » فهذا بتلك . وقال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان .

(١) حديث عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلني أزواجك

يسألك العدل في ابنة أبي قحافة - الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث المستبان ما قالا وعلى البادي - الحديث : رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضا - الحديث : تقدم

وقد قال أبو سعيد الخدري^(١)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَاطِلٌ وَالْغَضَبُ سَرِيعُ الْغَيْءِ وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْغَيْءُ، فَتِلْكَ بَتْلُكَ وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ الْبَاطِلُ الْغَيْءُ أَلَا وَإِنَّ خَيْرَهُمُ الْبَاطِلُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْغَيْءُ وَشَرُّهُمْ السَّرِيعُ الْغَضَبِ الْبَاطِلُ الْغَيْءُ »

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان، وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه، فيكون متشكيا لغيظه، ومربحا نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ. فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضي الله عنه سكران : فأراد أن يأخذه ويمزقه، فشتمه السكران . فرجع عمر . فقبل له يأمر المؤمنين ، لما شتمك تركته ؟ قال لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك لغضبي لنفسي ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسي . وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه ، لولا أنك أغضبتي لعاقبتك

القول

في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه ، فصار حقدًا . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استئقاله ، والبغضة له ، والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم^(٢) « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقَّودٍ » فالحقد ثمره الغضب والحقد يشمر ثمانية أمور : الأول : الحسد ، وهو أن يملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه ، فتغتم بنعمة إن أصابها ، وتسرب بصيبة إن نزلت به . وهذا من فعل المنافقين ، وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى الثاني : أن تريد على إضرار الحسد في الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء الثالث . أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه ؛ وإن طلبك وأقبل عليك

(١) حديث أبي سعيد الخدري أن ابن آدم خلقوا على طبقات - الحديث : تقدم

(٢) حديث المؤمن ليس بحقدود : تقدم في العلم

الرابع : وهو دونه ، أن تعرض عنه استصغاراله

الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل ، من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر ، وهتك ستر ، وغيره .

السادس : أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه

السابع : إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه

الثامن : أن تمنعه حقه من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظامة ، وكل ذلك حرام

وأقل درجات الحقد أن تحتز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله في الباطن ، ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تتمتع عما كنت تطوع به من البشاشة ، والرفق ، والعناية ، والقيام بحاجاته ، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى ، والمعاونة على المنفعة له . أو بترك الدعاء له ، والثناء عليه ، أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، ويحول بينك وبين فضل عظيم ، وثواب جزيل . وإن كان لا يعرضك لعقاب الله ^(١) . ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ، وكان قريبه ، لكونه تكلم في واقعة الإفك ، نزل قوله تعالى (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ^(٢)) إلى قوله (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ^(٣)) فقال أبو بكر نعم نحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه . والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس ، وارعاما للشيطان ، فذلك مقام الصديقين ، وهو من فضائل أعمال المقربين . فالحقود ثلاثة أحوال عند القدرة

أحدهما . أن يستوفي حقه الذي يستحقه ، من غير زيادة ونقصان وهو العدل

الثاني : أن يحسن إليه بالمعفو والصلة ، وذلك هو الفضل .

الثالث . أن يظلمه بما لا يستحقه . وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني هو اختيار الصديقين ، والأول هو منتهى درجات الصالحين ، ولنذكر الآن فضيلة المعفو والإحسان

(١) حدثت للحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح بل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية : معق

عليه من حديث عائشة

(١) و (٢) البور : ٢٢

فضيلة

المعفو والإحسان

اعلم أن معنى المعفو أن يستحق حقاً ، فيسقطه ويبريء عنه ، من فصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه ، قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(١)) وقال الله تعالى (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ^(٢))

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « ثَلَاثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ حَلَاً فَحَلَفْتُ عَلَيْهِنَّ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلَا عَفَارَ جُلُّ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَنْتَنِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « التَّوَاضُّعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رَفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعَكُمْ اللَّهُ وَالْعَفْوُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا فَاعْفُوا يُعِزَّكُمْ اللَّهُ وَالصَّدَقَةُ لَا تَزِيدُ إِلَّا مَالًا إِلَّا كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ » . وقالت عائشة رضي الله عنها ^(٥) « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ، ما لم ينتهك من محارم الله . فإذا انتهك من محارم الله شيء ، كان أشدَّهم في ذلك غضباً . وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثمًا . وقال عقبة ، لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فأبتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ يدي . فقال ^(٦) « يَا عُقْبَةُ إِلَّا أَخْبَرْتُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطَى مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَنْ مَنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ثلاث والذي نفسى بيده ان كنت حالماً لكانت عليهن ما نقصت صدقة من مال - الحديث :

الترمذى من حديث أبي كبشة الأنبارى ومسلم وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فواضعوا يرفعكم الله : الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور

للديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط - الحديث :

الترمذى في التلخيص وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم

(٤) حديث عقبة بن عامر يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك - الحديث

ابن أبى الدنيا والطبرانى في معارج الآثار والبيهقى في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم

(١) «قال موسى عليه السلام يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال الذي إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله
مسئل أبو الدرداء عن أعز الناس، قال الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله
وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم
أن يجلس، وأراد أن يأخذه بظلمته. فقال له صلى الله عليه وسلم (٢) «إن المظلمين هم
المفلحون يوم القيامة» فأبى أن يأخذه حين سمع الحديث. وقالت عائشة رضي الله عنها، قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» وعن أنس قال، قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم (٣) «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش
ثلاثة أصوات يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض»
وعن أبي هريرة (٤) «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة، طاف بالبيت،
وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة، فأخذ بعضدتي الباب فقال «ما تقولون وما تظنون؟»
فقالوا نقول أخ وابن عم، حلیم رحيم. قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم «أقول
كما قال يوسف» (لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (٥)

(١) حديث قال موسى يارب أي عبادك أعز عليك قال الذي إذا قدر عفا: الحرائط في مكارم الأخلاق

من حديث أبي هريرة وفيه ابن لميعة

(٢) حديث ان المظلمين هم المفلحون يوم القيامة وفي أوله قصة ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية

أبي صالح الحنفى مرسل

(٣) حديث أنس إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات

يا معشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض: أبو سعيد أحمد بن إبراهيم

المقرى في كتاب البصرة والتذكرة بلفظ ينادى مناد من بطان العرش يوم القيامة يا أمة محمد

ان الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فواهبوها وادخلوا الجنة

برحمتي واسناده ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ نادى مناد يا أهل الجمع تناكروا المظالم

بينكم ونوابكم على وله من حديث أم هانئ. ينادى مناد يا أهل النوحيد ليعف بعضكم

عن بعض وعلى النواب

(٤) حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى

الكعبة فأخذ بعضدتي الباب فقال ما تقولون - الحديث: رواه ابن الجوزي في الوفا. من طريق

ابن أبي الدنيا وفيه ضعف

قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا في الإسلام . وعن سهل بن عمرو قال ^(١) لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وضع يديه على باب الكعبة ، والناس حوله فقال « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدُنَا وَنَصَرْنَا عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم قال « يَا مُعَشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَقُولُونَ وَمَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال قلت يا رسول الله ، تقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم ، وقد قدرت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ » (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) ^(٢)

وعن أنس قال ^(٣) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ نَادَى مُنَادٍ لِيُقِمُّ مَنْ أَجَرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ » قيل ومن ذا الذي له أجر ؟ قال « الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ فَيَقُومُ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقال ابن مسعود ^(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَنْبَغِي لَوَالِي أَمْرٍ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلَّا أَقَامَهُ وَاللَّهُ عَفْوٌ يَجِبُ الْعَفْوُ » ثم قرأ (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) ^(٥) الآية . وقال جابر ، ^(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيْمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوجَ مِنَ الْخَوَرِ الْعَيْنِ حَيْثُ شَاءَ مَنْ أَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا وَقَرَأَ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ^(٧) عَشْرَ مَرَّاتٍ وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ » قال أبو بكر ، أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال « أَوْ إِحْدَاهُنَّ »

(١) حدث سهل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة

الحديث : بنحوه لم أجده

(٢) حديث أنس إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذي أجره على الله

قال العافون عن الناس - الحديث : الطبراني في معكرم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار

ولا يتابع على حديثه

(٣) حديث ابن مسعود لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحديث إلا أقامه والله عفو يحب العفو - الحديث : أحمد

والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصلوة

(٤) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء - الحديث : الطبراني

في الاوسط وفي الدعاء يسند ضعيف

(٥) يوسف : ٩٢ (٦) النور : ٢٢ (٧) الصمد : ١

الآثار : قال ابراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرغمه . وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بمرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له بصواب وقال بعضهم ، إذا أراد الله أن يتعف عبدا ، قبض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ، فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ، ويقع فيه . فقال له عمر إنك إن تلقى الله ومظالمك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك ، فإن الله تعالى يقول ، إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخر تكا إلى يوم القيامة فيسمعكم عفوئى وقال مسلم بن يسار له رجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه ، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه ، إلا أن يتداركه بعمل ، وكن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال ، بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة ، فينادى من كان له عند الله شيء ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال ، أتى النعمان بن المنذر برجلين ، قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما ، فمفا عنه ، والآخر أذنب ذنبا خفيفا ، فمفاقه وقال

تمفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تماقب في اليسير وليس ذاك لجسها
إلا يعرف حـ لها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال ، وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر . قال فكنت عنده ، إذ أتني برجل فأمر بهتله . فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر . فقلت يا أمير المؤمنين ، ألا أحدئك حديثا سمعته من الحسن ، قال وما هو ، قلت سمعته يقول ، إذا كان يوم القيامة ، جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ، حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . فيقوم مناد فينادي ، من له عند الله يد فليقم . فلا يقوم إلا من عفا . فقال والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه . فقال خلينا عنه

وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمسكنم الفرصة . فإذا أمكنكم فمليكم بالصفع والإفضال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك . فقال للراهب ، أرايت ذا القرنين ،

أكان نبيا ؟ فقال لا . ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه . كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد . وقال بعضهم لبس الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر عفا وقال زياد ، القدرة تذهب الحفيظة ، يعنى الحقد والغضب . وأتى هشام برجل ابائنه عنه أمر ، فلما أقيم بين يديه ، جعل يتكلم بحجته . فقال له هشام ، وتكلم أيضا ؟ فقال الرجل يأمر المؤمنين ، قال الله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا^(١)) أنجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام ، بلى ويحك تكلم

وروى أن سارقا دخل خلاء عمار بن ياسر بصفين ، فقال له اقطعه فإنه من أعدائنا . فقال بل أستر عليه ، لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما ، فابتاع ، ثم طلب الدراهم ، وكانت فى عمامته ، فوجدها قد حلت : فقال لقد جاست وإنها لمى . فاجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون ، اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها ، اللهم افعل به كذا فقال عبد الله ، اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها . وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ، ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلى فى المسجد الحرام ، ثم قام ليطوف ، فسرق دنانير كانت معه ، فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال لا . ولكن مثلتى وإياه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلى على إدحاض حجبته فبكائى رحمة له . وقال مالك بن دينار ، أتبتنا منزل الحكم بن أيوب ليلا . وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف . فدخلنا معه عليه . فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام ، وما صنع به إخوته من بيعهم إياه ، وطرحهم له فى الحب . فقال باعوا أخاهم ، وأحزنوا أباهم . وذكر ما لى من كيد النساء ومن الحبس ، ثم قال ، أيها الأمير ، ماذا صنع الله به ؟ أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته : وجعله على خزائن الأرض . فإذا صنع حين أكمل له أمره ؟ وجمع له أهله ؟ قال (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ^(٢) الْيَوْمَ يَفْقِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(٣)) يعرض للحكم بالقو عن أصحابه . قال الحكم ، فأنا أقول (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ^(٤)) ولولم أجد إلا ثوبى هذا لوأريتكم تحتته .

(١) النحل : ١١١ (٣٠٢) يوسف : ٩٢

وكتب ابن المقفع إلى صديق له، يسأله العفو عن بعض إخوانه، فلان هارب من زلته إلى عفوك. لا تذكرك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما . إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى بن الأشعث ، فقال لرجاء بن حيوة ، ما ترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فأعط الله ما يحب من العفو . فمغافهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج ، فأفلت منه ، فأخذ أخاه ، فقال له إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرايت إن جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلي؟ قال نعم . قال فانا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم ، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى . ثم تلا (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى^(١)) فقال زياد، خلوا سبيله؟ هذا رجل قد لقن حجته : وقيل مكتوب في الأنجيل ، من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود، ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه ، بحيث يدهش عن التفكير ، ويمنع من التثبت . فالرفق في الأمور ثمرة لا يشرها إلا حسن الخلق . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة : وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق ، وبالعنف فيه . فقال^(١) « يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ مَنْ أَعْطَى حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ »

﴿ فضيلة الرفق ﴾

(١) حديث بإعانة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة - الحديث : أحمد والعملي والسمعاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر الميكي وضعه عن القاسم عن عائشة وفي الصحيحين من حديثها بإعانة ان الله يحب الرفق في الأمر كله

(٢) حديث إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق : أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْلٍ يَنْتَ يُحَرِّمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا حُرِّمُوا نَحْبَةَ اللَّهِ تَعَالَى . » وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعُنْفِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلٍ يَنْتَ كَرَامَةً دَلَّهْمُ عَلَى بَابِ الرَّفْقِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « أَيُّمَا وَالٍ وَنِيَّ فَرَفَقَ وَلَانَ رَفَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « تَذَرُونَ مَنْ يُحَرِّمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ كُلُّ هَيْئٍ لَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٧) « الرَّفْقُ يُنَمِّنُ وَالْخُرْقُ شَوْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٨) « الثَّانِي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال ، ^(٩) « يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ قَدْ بَارَكَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ فِيكَ ، فَاصْصِنِي مِنْكَ بِخَيْرٍ : فَقَالَ « الْحَمْدُ لِلَّهِ » مَرَّتَيْنِ

(١) حديث ان الله ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق - الحديث : الطبراني في الكبير من حديث

جرير باسناد ضعيف

(٢) حديث ان الله رقيق يحب الرفق - الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٣) حديث يا عائشة ارفقي ان الله اذا اراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق : أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود يا عائشة ارفقي

(٤) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله : مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهي عند أبي داود

(٥) حديث أيما والى فلان ورفق ورفق الله به يوم القيامة : مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه ومن ولى من أمرأتى شيئاً فرقى بهم فارق به

(٦) حديث تدرؤن على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب : الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصحبة

(٧) حديث الرفق بين والخرق شؤم : الطبراني في الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

(٨) حديث الثأني من الله والعجلة من الشيطان : أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة من الله وقد تقدم

(٩) حديث أتاه رجل فقال يا رسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك - الحديث وفيه فاذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فان كان رشداً فأَمْضِهِ - الحديث : ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث

أبي جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جدا ولأبي نعيم في كتاب الايجاز من رواية

اسماعيل الانصاري عن أبيه عن جده اذا هممت بأمر فأجلس فتدبر عاقبته واسناده ضعيف

أو ثلاثاً ، ثم أقبل عليه فقال « هَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ » مرتين أو ثلاثاً . قال نعم . قال « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ سِرْوَى ذَلِكَ فَأَنْتَهُ » وعن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « يَا عَائِشَةُ عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »

الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه . فلما أتوه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ، أيها الناس ، أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ، إن للرعية عليكم حقا ، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعر ، من حلم إمام ورفقه . وليس جهل أنقض إلى الله ولا أنعم ؛ من جهل إمام وخرقه . واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرنيه ، يرزق العافية ممن هو دونه . وقال وهب بن منبه ، الرفق ثمن العلم . وفي الخبر موقوفا ومرفوعا ^(٢) « الْعِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ وَالْعَمَلُ قِيمُهُ وَالرَّفْقُ وَالِدُهُ وَاللِّينُ أَخُوهُ وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ » وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم ، وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق . وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو ابن العاص لابنه عبد الله ، ما الرفق ؟ قال . أن تكون ذا أناة فتلاين الولاية . قال فما الخرق ؟ قال . معاداة إمامك ومناوأة من يتقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه ، تدرؤن ما الرفق ؟ قالوا قل يا أبا محمد قال : أن تضع الأمور مواضعها ، الشدة في موضعها ، واللين في موضعها ، والسيوف في موضعها والوسط في موضعها . وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين ، والفضاظة بالرفق كما قيل .
ووضع الندي في موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف في موضع الندي

(١) حديث عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه - الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائمه والرفق والده أبو الشيخ في كتاب التواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه الفصاعى في مسند مشاهير من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف

فالمحمود وسط بين العنف واللين ، كما في سائر الأخلاق : ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل ، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر . فلذلك كثرت بناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسنا ، كما أن الرفق في محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو أن يزد بالشد ، وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، روي أن عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية يماثبه في الثاني ، فكتب إليه معاوية

أما بعد . فإن التفهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب ، أو كاد أن يكون مصيبا . وإن العجل مخطيء ، أو كاد أن يكون مخطئا . وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق . ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي . وعن أبي عون الأنصاري ، قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة ، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي . لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه ، فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدّة شيئا ، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن . المؤمن وقاف متأن ، وليس كحاطب أيل . فهذا بناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ، ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على السدور . وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق ، فإن النجح معه في الأكثر

القول

في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان

ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الخفد ، والحسد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرعه ؛ والغضب أصل أصله . ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم

الحسد خاصة أخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا يَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه وممراته ^(٢) « لَا تَحْسَدُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »
 وقال أنس ، ^(٣) كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فسلم . فلما كان الغد : قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . فطلع ذلك الرجل . وقاله في اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص : فقال له ، إني لآحيت أبي ، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا . فإن رأيت ابن تُوَيْنِي إليك حتى تخشى الثلاث فعلت . فقال نعم . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال غير أني ماسمعته يقول إلا خيرا . فلما مضت الثلاث ، وكدت أن أحقر عمله ، قلت يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملي ، فلم أرك تعمل عملا كثيرا . فما الذي بلغ بك ذلك ؟ فقال ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعائي فقال . ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا ، على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله ، فقلت له هي التي بلغت بك ، وهي التي لا نطبق

(القول في دم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث

أنس وقد تقدم

(٢) حديث لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا - الحديث : متفق عليه وقد تقدم

(٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة - الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله : رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وصححه في رواية له سعد بن أبي السرح

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « ثَلَاثٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ الظَّنُّ وَالطَّيْرَةُ وَالْحَسَدُ وَسَاحِدُكُمْ بِالْمُخْرِجِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَاْمُضْ وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَتَّبِعْ » وفي رواية « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ » فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمِّمْ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ حَالِقَةُ الشَّعْرِ وَلَكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا إِلَّا أَنْبَسَكُمْ عَمَّا يُثْبِتُ ذَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّهُ سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمِّمْ ، قَالُوا وَمَا دَاءُ الْأُمِّمْ ؟ قَالَ « الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاعُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ ثُمَّ الْهَرَجُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَعَايَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ » . وروى أن موسى عليه السلام ، لما تعجل إلى ربه تعالى ، رأى في ظل العرش رجلا ، فقبضه بمكانه . فقال إن هذا لكريم على ربه . فسأل

(١) حديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد - الحديث : وفي رواية وقل من ينجو منهن ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى ابن يعقوب الزمى ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف والطراني من حديث حارثة بن العمان نحوه وتقدم في آفات اللسان

(٢) حديث دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء - الحديث : الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير (٣) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر : أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضا

(٤) حديث انه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم قالوا وما داء الأمم قال الاشتر والبطر - الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٥) حديث لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه ويبتليك : الترمذي من حديث وائلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا في رحمه الله

ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره ، وقال أحدثك من عمله بثلاث . كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يمتق والديه ، ولا يمشى بالنميمة . وقال زكريا عليه السلام . قال الله تعالى ، الحاسد عدو لنعمتي ، متسخط لقضائي ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْتُرَ فِيهِمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُونَ وَيَقْتُلُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٌ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِنَّ لِنِعْمِ اللَّهِ أَعْدَاءَ » قليل ومن هم ؟ فقال « الَّذِينَ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسِتَّةِ » قيل يا رسول الله من هم ؟ قال « الْأَمْرَاءُ بِالْجَوْرِ وَالْعَرَبُ بِالنَّصَبِ وَالذَّهَّانُ بِالتَّكْبُرِ وَالتَّجَارُ بِالْخِيَانَةِ وَأَهْلُ الرُّسْتَقِ بِالْجَهْلِ لَوْ لَعُمَاءُ بِالْحَسَدِ » **الآثار:** قال بعض السلف ، أول خطيئة كانت هي الحسد . حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته ، فأبى أن يسجد له ، فعمله الحسد على المعصية . وحكى أن عون بن عبد الله ، دخل على الفضل بن المهلب ، وكان يومئذ على واسط . فقال إني أريد أن أعطيك بشيء . فقال وما هو ؟ قال إياك والكبر ، فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

(١) حديث أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتلون : ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد أن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولها من حديث عمرو بن عوف البدرى والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا الحديث وسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا فتحت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدبرون الحديث ولأحمد والبخاري من حديث عمرو لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (٢) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود : ابن أبي الدنيا والطبراني حديث معاذ بنسند ضعيف

(٣) حديث إن نعم الله أعداءه قيل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله : الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس الله لأهل النعم حاسدا فاحذروهم (٤) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة قيل يا رسول الله ومن هم قال الأمراء بالجور - الحديث : وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بن مالك ضعيفين

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ^(١) الآية . وإياك والحرص ، فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض ، يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها ، فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ (أَهْبِطُوا مِنْهَا^(٢)) إلى آخر الآية . وإياك والحسد ، فإنما نزل ابن آدم إياه حين حسده ، ثم برأ (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ يَاتِلُكُمْ^(٣)) الآيات . وإذا ذكر أعجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك . وإذا ذكر القدر فاسكت . وإذا ذكرت النجوم فاسكت

وقال بكر بن عبد الله . كان رجل ينشئ بعض الملوك ، فيقوم بخذاء الملك : فيقول أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسمى سيكفيك إساءته . فحسده رجل على ذلك المقام والكلام ، فسمى به إلى الملك ، فقال إن هذا الذي يقوم بخذائك ويقول ما يقول ، زعم أن الملك أنجر . فقال له الملك ، وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر . فقال له انصرف حتى أنظر . فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله ، فأطعمه طعاما فيه ثوم . فخرج الرجل من عنده ، وقام بخذاء الملك على عادته . فقال أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسمى سيكفيك إساءته . فقال له الملك ادن مني . فدنا منه ، فوضع يده على فيه تخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم . فقال الملك في نفسه ، ما أرى فلانا إلا قد صدق . قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة . فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله ، إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه ، واسلخه ، واحش جلدَه تبنًا ، وابعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به ، فقال ما هذا الكتاب ؟ قال خط الملك لي بصلة . فقال هبه لي . فقال هولاك . فأخذه ومضى به إلى العامل ، فقال العامل ، في كتابك أن أذبحك وأسلخك . قال إن الكتاب ليس هولي ، فالحق الله في أمري حتى تراجع الملك . فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه ، وسلخه ، وحش جلدَه تبنًا ، وبعث به . ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله فعجب الملك ، وقال ما فعل الكتاب ؟ فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له . قال الملك ، إنه ذكر لي أنك ترمي أني أنجر . قال ما قلت ذلك . قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن لسمه . قال صدقت أرجع إلى مكانك ، فقد كفى المسمى إساءته

وقال ابن سيرين رحمه الله . ما حدثت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ! وقال رجل للحسن ، هل يحسد المؤمن ؟ قال ما أنساك بنى يعقوب ، نعم ، ولكن غمه في صدرك ، فإنه لا يضر لك ما لم تعد به يد أو لسانا ، وقال أبو الدرداء ، ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قلَّ فرحه ، وقلَّ حسده ، وقال معاوية ، كل الناس أقدر على رضاه ، إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، ولذلك قيل كل المداوات قد ترجى إقامتها * إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسد الحسود ما يلقى . وقال أعرابي : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك تقمة عليه . وقال الحسن يا ابن آدم ، لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه ، فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك ، فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم ، الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً . ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا . ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً . ولا ينال عند النزع إلا شدة وهو لا . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا

بيان

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة . فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة ، فلك فيها حالتان إحداها : أن تسكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسداً . فالحسد حده كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة . وقد تختص باسم المنافسة . وقد تسمى المنافسة حسداً ، والحسد منافسة ، وبوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حرج في الأسامي بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنْ الْمُؤْمِنُ يَغِيظُ وَالْمُنافِقُ يَحْسَدُ »

فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهيج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الملق، فلا بضرك كرهتكم لها، وحببتكم زوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فسادها، لم يعمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كرهتكم لراحة مسلم، من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله (إِنْ تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ نَّسُوءُهُمْ وَإِنْ تَصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا^(١)) وهذا الفرخ شامة، والحسد والشامة يتلازمان.

وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ^(٢)) فأخبر تعالى أن جهنم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عز وجل (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً^(٣)) وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى (إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَوِطُّوهُ أَرْضًا يَجْعَلُ لَكُمْ وَجْهَهُ أَيْسَكُم^(٤)) فلما كرهوا حب أبيهم له، وساء لهم ذلك وأجوازواله عنه، فغيبوه عنه. وقال تعالى (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا^(٥)) أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون. فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وقال تعالى في معرض الإنكار (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^(٦)) وقال تعالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً^(٧)) إلى قوله (إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ^(٨)) قيل في التفسير حسدا، وقال تعالى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ^(٩)) فأنزل الله العلم ليجمعهم، ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم

(١) حديث الزمن يغبط والنافق يحسد: لم أجده أصلا مرفوعا وإنما هو من قول الفضيل بن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد

(١) آل عمران: ١٢٠ (٢) البقرة: ١٠٩ (٣) النساء: ٨٩ (٤) يوسف: ٨ (٥) الحشر: ٩ (٦) النساء: ٤٥

(٧) و (٨) البقرة: ٢١٣ (٩) الشورى: ١٤

أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا واختلقوا، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة، وقبول القول، فرد بعضهم على بعض. قال ابن عباس^(١) كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم، إذا قاتلوا قوما، قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله، إلا مانصرتنا. فكانوا ينصرون. فاما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل عليه السلام عرفوه، وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ^(١)) إلى قوله (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيًّا^(٢)) أي حسدا. وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم^(٣) جاء أبي وعمي من عندك يوما، فقال أبي لعمي ما تقول فيه؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى؟ قال أزي معاداته أيام الحياة. فهذا حكم الحسد في التحريم

وأما المنافسة، فليست بجرام. بل هي إما واجبة، وإما مندوبة، وإما مباحة. وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة، والمنافسة بدل الحسد. قال قثم بن العباس^(٤) لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم، فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة، قالوا لعلي

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

(١) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله - الحديث : في نزول قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا: ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكره نحوه وهو منقطع

(٢) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى - الحديث : ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا (٣) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قالوا لعلي - الحديث : هكذا وقع للمصنف انه قثم والفضل وانما هو الفضل والطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث الطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي والفضل بن عباس ائتيا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما ذكر - الحديث :

(١) البقرة: ٨٩ (٢) البقرة: ٩٠

حين قال لها لا تذهبا إليه ، فإنه لا يؤمر كما عليها ، فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة . والله
لقد زوجك أبنته فما نفسنا ذلك عليك ، أي هذا منك حسد ، وما حسدناك على تزويجها
إياك فاطمة ، والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة ، قوله تعالى
(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ^(١)) وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ^(٢))
وإنما المنافسة عند خوف الموت ، وهو كالعبد يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجرع
كل واحد أن يسبقه صاحبه ، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها . فكيف وقد صرح
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال ^(١) « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا
فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ »
ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنباري فقال ^(٢) « مِثْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُ أَرْبَعَةِ رَجُلٍ آتَاهُ
اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَيَقُولُ رَبُّ
لَوْ أَنَّ لِي مَالًا مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ » وهذا
منه يجب لأن يكون له مثل ماله ، فيعمل مثل ما يعمل ، من غير حب زوال النعمة عنه قال
« وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَعَاصِي اللَّهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا
وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِي مِثْلِ مَا يُنْفِقُهُ فِيهِ مِنْ
الْمَعَاصِي فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تنبيه للمعصية
لامن جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله

فإذا أخرج على من يغبط غيره في نعمة ، ويستهي لنفسه مثلها ، مهما لم يجب زوالها
عنه ، ولم يسكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة ، كالإيمان
والتصلاة ، والزكاة ، فهذه المنافسة واجبة . وهو أن يجب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن
يجب ذلك فيكون راضياً بالمعصية ، وذلك حرام . وإن كانت النعمة من الفضائل ، كالنفاق

(١) حديث لا حسد إلا في اثنتين - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أبي كبشة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أَرْبَعَةُ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا - الحديث : رواه ابن ماجه

والترمذي وقال معصن صحيح

(١) الطائفتين : ٣٦ (٢) الحديث : ١٢

الأموال في المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها . وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح ، فالمنافسة فيها مباحة . وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته ، واللجوق به في النعمة ، وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المنعم عليه ، والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه . وهو يكره أحد الوجهين ، وهو تخلف نفسه ، ويحب مساواته له . ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ، ويناقض الزهد ، والتوكل ، والرضا ، ويحجب عن المقامات الرفيعة ، ولكنه لا يوجب المصيان

وهنا دقيقة غامضة ، وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة ، وهو يكره تخلفه ونقصانه ، فلا محالة يجب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسد أحد الطريقين ، فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود ، كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره . وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه ، فإن كان بحيث لو ألتقى الأمر إليه ، ورد إلى اختياره ، لسمى في إزالة النعمة عنه ، فهو حسود حسدا مذموما . وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعنى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده ، مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه : ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ لَا يَنْفَكُ الْمُؤْمِنُ عَنْهُنَّ الْحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطَّيْرَةُ » ثم قال « وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ » أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . وبمعنى أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة ، فيعجز عنها ، ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة . إذ يجد لا محالة ترجيحها له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يراحم الحسد الحرام ، فينبغي أن يحتاط فيه ، فإنه موضع الخطر . وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الإيمان ، رزين التقوى ومهما كان محرکه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره ، جره ذلك إلى الحسد المذموم

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة - الحديث : تقدم غيره مرة

وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته ، إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لارخصة فيه أصلا ، بل هو حرام ، سواء كان في مقاصد الدين ، أو مقاصد الدنيا ، ولكن يعني عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه حقيقة الحسد وأحكامه ، وأما مراتبه فأربع الأولى : أن يحب زوال النعمة عنه : وإن كان ذلك لا ينتقل إليه . وهذا غاية الخبث الثانية : أن يحب زوال النعمة إليه ، لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة لها غيره ، وهو يجب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها الثالثة : أن يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها . فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينها

الرابعة . أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المفعول إن كان في الدنيا . والمندوب إليه إن كان في الدين . والثالثة فيها مذموم وغير مذموم . والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى (وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ^(١)) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

بيان

أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة ، فسببها حب ما فيه المنافسة . فإن كان ذلك أمرا دينيا ، فسببه حب الله تعالى وحب طاعته . وإن كان دنيويا ، فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإفهامنا الآن في الحسد المذموم ، ومداخله كثيرة جدا ؛ ولكن يحصر جملة سبعة أبواب ، المداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه إنما يكره النعمة على غيره ، إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير

وهذا لا يختص بالأمثال ، بل يحسد الخسيس الملك ، بمعنى أنه يحب زوال نعمته ، لكونه مفضاله بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه ، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفخيره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتمزز . وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ، ويمتنع ذلك عليه لنعمته . وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة ، والمنصب عظيماً ، فيتمجب من فوز مثله بحمل تلك النعمة ، وهو المراد بالتمجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التي تقبى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب ، بل طلبت النفس وشهها بالخير لعباد الله تعالى ، ولا بد من شرح هذه الأسباب

السبب الأول : العداوة والبغضاء . وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب ، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه : أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد . والحقد يقتضي التشنى والانتقام ، فإن عجز البغض عن أن يتشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان . وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى : فهما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . ومهما أصابته نعمة ، ساء ذلك ؛ لأنه ضد مراده . وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله ، حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه ، بل أنتم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وإنما غاية التقى أن لا يبنى ، وأن يكره ذلك من نفسه . فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن . وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة . إذ قال تعالى (وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ قُلْ مَوْثُؤُا بِنِعْمَتِكُمْ إِنْ أَلَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ تَسْتَكْمُ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ ^(١)) الآية . وكذلك قال تعالى (وَذُرُوا مَا عَلَيْكُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ^(٢)) . والحسد بسبب البغض وربما يفضى إلى التنازع والتقاتل ، واستغراق العمر في إزالة النعمة بالجيل ، والسعاية ، وهناك المنتر ، وما يجري مجراه

(١) آل عمران : ١١٩ ، ١٢٠ . (٢) آل عمران : ١١٨

السبب الثاني : التعزز . وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية ، أو علما ، أو مالا ، خاف أن يتكبر عليه ، وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر ، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه

السبب الثالث : الكبر . وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ، ويستصغره ويستخدمه ، ويتوقع منه الاتقياء له ، والمتابعة في أغراضه . فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ، ويترفع عن متابعتة ، أو ربما يتشوف إلى مساواته ، أو إلى أن يرتفع عليه ، فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسدا أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم ! وكيف نطأ على رءوسنا ^(١) فقالوا (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٢)) أي كان لا يثقل علينا أن يتواضع له ، ونتبعه إذا كان عظيما . وقال تعالى يصف قول قريش (أَهْوَأُ لَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ يَتِيمَانِ ^(٣)) كالأستحقار لهم والألفة منهم

السبب الرابع : التعجب . كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة ، إذ قالوا (مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ^(٤)) وقالوا (أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ^(٥)) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَالِسُون ^(٦)) فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة ، والوحى ، والقرب من الله تعالى ، بشر مثلهم . فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم ، جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة ، لا عن قصد تكبر ، وطلب رياسة ، وتقدم عداوة ، أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ^(٧)) وقالوا (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ ^(٨))

(بيان أسباب الحسد والمنافسة)

- (١) حديث سبب نزول قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : ذكره ابن اسحاق في السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال : أنزل على محمد وأتركوا لنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف فنحن عظام القريتين فأنزل الله فينا بلقي هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالاهما مسعود بن عمرو وفي رواية لابن مردويه جبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف

(١) الزخرف : ٣ (٢) الانعام : ٥٣ (٣) يس : ١٥ (٤) المؤمنون : ٧ (٥) المؤمنون : ٣٤ (٦) الاحزاب : ٤٦ (٧) الفرقان : ١٣ (٨) الفرقان : ١٣

وقال تعالى (أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ^(١)) الآية

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد . وذلك يختص بمزاحمين على مقصود واحد . فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده . ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الأخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين ، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال . وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه ، للتوصل به إلى المال والجاه . وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة ، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم . وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة ، وطلب الجاه لنفسه ، من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك ، وأحب موته ، أو زوال النعمة عنه ، التي بها يشاركه في المنزلة ، من شجاعة ، أو علم ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو جمال ، أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ، ويفرح بسبب تفرده . وليس السبب في هذا عداوة ، ولا تمززا ، ولا تكبرا على المحسود ، ولا خوفاً من فوات مقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس ، للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم ، مهما نسخ علمهم

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ، وتكبر ، ولا طلب مال ، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى ، فيما

أنعم الله به عليه ، يشق ذلك عليه . وإذا وصف له اضطراب أمور الناس ، وإدبارهم ، وفوات مقاصدهم ، وتنقص عيشهم ، فرح به . فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره . فهذا يبخل بنعمة الله تعالى ، على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة . وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ، ورذالة فى الطبع ، عليه وقعت الجيلة ، ومعالجته شديدة . لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب ، أسبابه عارضة يتصور زوالها ، فيطمع فى إزالتها . وهذا أخبث فى الجيلة ، لأن سبب عارض فتمسر إزالته ، إذ يستحيل فى العادة إزالته . فهذه هى أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب ، أو أكثرها ، أو جميعها فى شخص واحد ، فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل يهتك حجاب المجاملة ، وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب . وكلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان

السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب

وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ، ولأنه يتكبر ، ولأنه عدو ، ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط ، يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ، ويتواردون على الأغراض : فإذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض ، نفر طبعه عنه ، وأبغضه ، وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحققه ويتكبر عليه ، ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه ، وتترادف جملة من هذه الأسباب . إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدين متنايئين ، فلا يكون بينهما

محاسدة . وكذلك في محلتين . نعم إذا تجاوزا في مسكن ، أو سوق ، أو مدرسة ، أو مسجد تواردا على مقاصد تنافض فيها أغراضهما ، فيثور من التنافض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز ، لا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة .

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه ، أكثر مما يحسد الأجانب . والمرأة تحسد ضرته وأوسرية زوجها ، أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته : لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف ، فلا يتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ، ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما يتنازع فيه بزاز آخر . إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له ، أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق . فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم ، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ، وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم . ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص

فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعين بل متناسين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه ، وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه ، فإنه يحسد كل من هو في العالم ، وإن بعد ، ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين . أما الآخرة فلا ضيق فيها . وإنما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوته سمواته وأرضه ، لم يحسد غيره ، إذا عرف ذلك أيضا ، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين ، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته ، ويلتذبه ، ولا تنقص لذته واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأتس ، وثمره الاستفادة والإفادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى ، وهو بحر واسع

لا يضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى ، لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه ، وليس فيها مسانعة ومزاحمة ، ولا يضيق ببعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأُنس بكثرتهم

نعم إذا قصد العالم بالعلم المال ، والجاه ، تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام ، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب . ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم ، انصرف عن تعظيم الآخر ، أو نقص عنه لاحتالة ، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى ؛ لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها ، وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل في يدهم لم يرتحل عن اليد الأخرى . والعلم في قلب العالم مستقر ، ويحل في قلب غيره بتعليمه ، من غير أن يرتحل من قلبه . والمال أجسام وأعيان ، ولها نهاية : فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض ، لم يبق بعده مال يملكه غيره . والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه . فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، صار ذلك ألد عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعاً منه ، ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام ، أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة . فإن نعيم العارف وجنته معرفته ، التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها ، وهو أبداً يحيى ثمارها . فهو بروحه وقلبه مفتد بها كنه علمه ، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطوفها دانية . فهو وإن غمض العين الظاهرة ، فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ، ورياض زاهرة . فإن فرض كثرة في العارفين ، لم يكونوا متحاسدين ، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين (وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ^(١)) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا . فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ، ومشاهدة المحبوب في المقبي ! فإذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة ، لأن الجنة لا مضايقة فيها . ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى ، التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً . فأهل الجنة بالضرورة برآء

من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا . بل الحسد من صفات المبغدين عن سعة عليين ، إلى مضيق سجين . ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتهاد ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى ، وتعد وعصى فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ، ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ، ويتحاسدون على رؤية البساتين ، التي هي جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تراحم ولا تحاسدا أصلا ف عليك إن كنت بصيرا ، وعلى نفسك مشفقا ، أن تطلب نعمة لازمة فيها ، ولذة لا كدر لها ، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضا . فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ، ولم تجد لذتها ، وتر عنك رأيك ، وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور ، إذ العنين لا يشاق إلى لذة الوقاع ، والصبي لا يشاق إلى لذة الملك فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمختنين . فكذلك لذة المعرفة ، يختص بإدراكها الرجال (رَجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ^(١)) ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشاق ، ومن لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ^(٢))

بيان

الدواء الذي ينقي مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد ، هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ،

وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارت الحسد لا محالة .

أما كونه ضررا عليك في الدين . فهو أنك بالجند سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه مخفى حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد ، وفدى في عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين : وتركت نصيحته ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلى وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب ، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتحوها كما يحو الليل النهار

وأما كونه ضررا عليك في الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا ، أو تعذب به ولا تزال في كد وغم ، إذ أعدائك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموما ، محروما ، متشعب القلب ، ضيق الصدر ، قد نزل بك ما يشبهه الأعداء لك ، وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتجنزت في الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولولم تكن تؤمن بالبعث والحساب ، لكان مقتضى الفطنة . إن كنت عاقلا ، أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته ، مع عدم النفع . فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ! فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله .

بل مع ضرر يحتمله ، وألم يقاسيه ، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح . لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة ، فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم ، قدره الله سبحانه ، فلا حيلة في دفعه . بل كل شيء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكاني من الأنبياء ، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فأوحى الله إليه فر من قدامها ، حتى تنقضى أيامها . أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره ، فأصبر حتى تنقضى المدة التي سبق القضاء

بدوام إقبالها فيها . ومهما لم تزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا . ولا يكون عليه إثم في الآخرة . ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل ، فإنه بلاء تشبيهه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو بحسبك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبق لله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى (وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ^(١)) إذ ما يريد المحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره ، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتبهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد ، فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسب الكفار ، وكذا سائر النعم .

وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بحسبك ولا تزول عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباء . فإن كل واحد من جمعي الحساد أيضا ، يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد ، مما يجب عليك شكرها ، وأنت يجهلك تكرها

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا ، فواضح . أما منفعته في الدين ، فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل ، بالغبية ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدي إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا ، محروما عن النعمة ، كما حرمت في الدنيا عن النعمة . فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة ، إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه ، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة ، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته في الدنيا ، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء ، وغنمهم ، وشقاوتهم ، وكونهم معذيين ، مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد . وغاية أمانى أعدائك ، أن يكونوا في نعمة ، وأن تكون في غم وحسرة بسببهم . وقد فعلت بنفسك

ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي أن تطول حياتك ، ولكن
في عذاب الحسد ، لتنظر إلى نعمة الله عليه ، فينقطع قلبك حسداً . ولذلك قيل
لامات أعداؤك بل خلدرا حتى يروا فيك الذي يكمد
لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من محسد

ففرح عدوك بنعمك وحسدك ، أعظم من فرحه بنعمته . ولو علم خلاصك من ألم الحسد
وعذابه ، لكان ذلك أعظم صيبة وبلية عنده . فمأنت فيما تلازمه من غم الحسد ، إلا كما يشتهي عدوك
فإذا تأملت هذا ، عرفت أنك عدو نفسك ، وصاديق عدوك ، إذ تعاطيت ما تضررت
به في الدنيا والآخرة ، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة ، وصرت مذموماً عند الخالق
والخلاق ، شقياً في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة ، شئت أم أيت باقية .

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك ، حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس
الذي هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم ، والودع ، والجاه ، والمال ،
الذي اختص به عدوك عنك ، خاف أن تحب ذلك له ، فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ،
لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكارب في الدين
لم يفته ثواب الحب لهم ، مهما أحب ذلك . فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده
من صلاح دينه ودنياه ، فتفوز بثواب الحب ، فبغضه إليك ، حتى لا تلحقه بحبك ، كما لم
تلحقه بعملك . وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ^(١) الرجل يحب
القوم ولما يلحق بهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب » وقام أعرابي
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال ^(٢) يارسول الله ، متى الساعة ؟ فقال
« مَا أَعَدَدْتَ لَهَا ؟ » قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله
فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس ، فافرح المسلمون بعد إسلامهم
كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس ، فنحن
نحب رسول الله ، وأبا بكر ، وعمر ، ولا نعمل مثل عملهم ، ونرجو أن نكون معهم

(١) حديث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث سؤال الأعرابي متى الساعة فقال ما أعددت لها : الحديث : متفق عليه من حديث أنس

وقال أبو موسى، ^(١) قلت يارسول الله، الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «هُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» وقال رجل لعمر بن عبد العزيز، إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً فإن لم تستطع أن تكون عالماً فسكن متعلماً، فإن لم تستطع أن تكون متعلماً فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم. فقال سبحانه الله، لقد جعل الله لنا مخرجاً

فانظر الآن، كيف حسدك إبليس، فقوت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك، وحملك على السكراهة، حتى أثمت. وكيف لا، وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم، وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى، وينكشف خطؤه ليفتضح، وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم، وأى إثم يزيد على ذلك! فليتك إذفاتك اللحاق به، ثم اغتممت بسببه، سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث ^(٢) «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: الْمُحْسِنُ وَالْمُحِبُّ لَهُ وَالْكَافُّ عَنْهُ» أى من يكف عنه الأذى، والحسد، والبغض، والسكراهة. فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة، حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في هدوك، بل على نفسك :

بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام رأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمى مبهماً إلى عدوه ليصيب مقتله، فلا يصيبه، بل يرجع إلى حدقته البيني، فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ثانية، فيرمى أشد من الأولى، فيرجع إلى عينه الأخرى، فيعميها، فيزداد غيظه، فيعود ثالثة، فيعود على رأسه فيشجبه، وعدوه سالم في كل حال، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به، ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود؛ وسخرية الشيطان منه

(١) حديث أبي موسى قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي - الحديث: وفيه هومع من أحب

متفق عليه من حديث بلقة آخره غمضوا الرجل يحب القوم ولمسا يلحق بهم قال الله مع من أحب

(٢) حديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه : لم أجده له أصلاً

بل حالك في الحسد أفصح من هذا ، لأن الرمية العائدة لم تقوت إلا العيينين ، ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة ، والحسد يعود بالإثم ، والإثم لا يفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله ، وإلى النار . فلا تذهب عينه في الدنيا ، خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار ، فيقلعها الهيب النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد ، إذ أراد زوال النعمة عن المحسود ، فلم يزلها عنه ، ثم أزالها عن الحاسد ، إذ السلامة من الإثم نعمة ، والسلامة من الغم والسكد نعمة ، وقد زالتا عنه ، تصديقا لقوله تعالى (وَلَا يَحِقُّ الْمُكْرُ السُّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ^(١)) وربما يبتلى بعين ما يشتهي لعدوه ، ولما يشمت شامت بعبادة إلا ويبتلى بمثله ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها ، ماتت لعثمان شيئا إلا نزل بي ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت

فهذا إثم الحسد نفسه ، فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف ، وجحود الحق ، وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء ، وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة فهذه هي الأدوية العالمية ، فهم تفكر الإنسان فيها بذهن صاف ، وقلب حاضر ، انطفاة نار الحسد من قلبه ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ، ومنقص عيشه وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يحكم الحسد ، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيضه . فإن بعثه الحسد على القدح في محسوده ، كلف لسانه المدح له ، والثناء عليه . وإن حمّله على التكبر عليه ، ألزم نفسه التواضع له ، والاعتذار إليه . وإن بعثه على كف الإنعام عليه ، ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه . فهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه وأحبه . ومهما ظهر حبه ، عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع ، والثناء ، والمدح ، وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه . ويستترقه ، ويستعطفه ، ويحمّله على مقابلة ذلك بالإحسان . ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول ، فيطيب قلبه ، ويصير ما تكلفه أو لا طبعاً آخر . ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له ، لو تواضعت وأثمنت عليه ، حملك العدو على العجز ، أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة . وذلك من خدع الشيطان ومكايده . بل الجملة تكلفا كانت أو طبعاً ، تكسر سورة السداوة من الجانبين ، وتقل مرغوبها ، وتعود القلوب

التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد ، وغم التباغض
 فهذه هي أدوية الحسد ، وهي نافعة جدا ، إلا أنها مُمرّة على القلوب جدا . ولكن النفع
 في الدواء المر ، فمن لم يصبر على حرارة الدواء ، لم ينل حلاوة الشفاء . وإنما تهون حرارة
 هذا الدواء ، أعني التواضع للأعداء ، والتقرب إليهم بالمدح والثناء ، بقوة العلم بالمعاني التي
 ذكرناها ، وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى ، وحب ما أحبه ، وعزة النفس وترفعها
 عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل . وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ
 لا مطمع في أن يكون ما يريد . وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا
 الذل إلا بأحد أمرين ، إما بأن يكون ما تريد ، أو بأن تريد ما يكون . والأول ليس إليك
 ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني فلمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة
 ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلى .

فأما الدواء المفصل ، فهو تتبع أسباب الحسد ، من الكبر وغيره ، وعزة النفس ، وشدة
 الحرص على ما لا ينبغي . وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى
 فإنها مواد هذا المرض ، ولا ينقزع المرض إلا بقمع المادة . فإن لم تقمع المادة لم يحصل بيا
 ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ، ويطول الجهد في تسكينه
 مع بقاء مواده . فإنه مادام محبا للجاء ، فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء والمنزلة في قلوب
 الناس دونه ، ويفعه ذلك لاحالة . وإنما غايته أن يهون النعم على نفسه ، ولا يظهر بلسانه
 ويده ، فأما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه ، والله الموفق

بيان

القدر الواجب في نفى الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذى ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا . فإذا تيسرت
 له نعمة ، فلا يمكنك أن لا تكرهها له ، حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله
 بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له . ولكن
 إن قوى ذلك فيك ، حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل ، بحيث يعرف ذلك

من ظاهره بأفعالك الاختيارية ، فأنت حسود عاص بحسبك . وإن كفت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطلك تحب زوال النعمة ، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة ، فأنت أيضا حسود عاص . لأن الحسد صفة القلب لصفة الفعل . قال الله تعالى (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا^(١)) وقال عز وجل (وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً^(٢)) وقال (إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ^(٣)) . أما الفعل ، فهو غيبة وكذب ، وهو عمل صادر عن الحسد ، وليس هو عين الحسد . بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظامة يجب الاستحلال منها ، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح .

فأما إذا كفت ظاهرك ، وأزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع ، من حب زوال النعمة ، حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها ، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل ، في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا

فأما تغيير الطبع ، ليستوى عنده المؤذى والمحسن ، ويكون فرجه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة ، أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ، مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغفرا يحب الله تعالى ، مثل السكران الواله . فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهى عين الرحمة . ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالا لله ، ويراهم مسخرين . وذلك إن كان ، فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ، ويمود العدو إلى منازعته ، أعنى الشيطان ، فإنه ينازع بالوسوسة . فهما قابل ذلك بكراهته ، وأزمت قلبه هذه الحالة ، فقد أدى ما كلفه .

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأتى إذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، لما روى عن الحسن ، أنه سئل عن الحسد فقال ، غمه فإنه لا يضررك ما لم تبده . وروى عنه موقفا

(١) الحشر : ٩ () النساء : ٨ (٢) آل عمران : ١٣٠

ومر قوما إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثَلَاثَةٌ لَا يَخْلُو مِنْهُنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ نَجْرَجُ»
فخرج من الحسد أن لا يبنى .

والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه ، من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل ،
في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو . وتلك الكراهة تمنعه من البنى والإيذاء ، فإن جميع
ما ورد من الأخبار في ذم الحسد ، يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم . ثم الحسد عبارة عن صفة
القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كونه آثما بمجرد
حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد . وإلا ظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات
والأخبار ، ومن حيث المعنى . إذ يبعد أن يعنى عن العبد في إرادته إساءة مسلم ، واشتماله
بالقلب على ذلك من غير كراهة . وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال
أحدها : أن تحب مساوئهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك ، وميل قلبك إليه بعقلك ،
وتقت نفسك عليه ، وتود لو كانت لك خيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه
قطعا ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه

الثاني : أن تحب ذلك ، وتظهر الفرح بمساوئهم ، إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو
الحسد المحظور قطعا

الثالث : وهو بين الطرفين ، أن تحسد بالقلب ، من غير مقت لنفسك على حسدك ،
ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ،
وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم ، بقدر قوة ذلك الحب وضمفه ،

والله تعالى أعلم

والحمد لله رب العالمين ، وجسبنا الله ونعم الوكيل

كتاب ذم الدنيا

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتهما ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا في شواهدا وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها ، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يني مرجوها بخوفها ، ولا يسلم طالعها من كسوفها . ولكنها في صورة امرأة مليحة ، تستميل الناس بجهاها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها . ثم هي فرارة عن طلابها ، شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها . إن أحسنت ساعة ، أساءت سنة . وإن أساءت مرة ، جعلتها سنة . فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيتها خاسرة باثرة ، وآفاتهما على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجاري أحوالها بذل طالبها ناطقة فكل ضرور بها إلى الذل مصيره ، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها ، والطلب لها ربها . ومن خدمها فاته ، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ، ولا ينفك سرورها عن المنفصات سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم . فهي خداعة مكاره طيارة فرارة ، لا تزال تزين لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها ، وكشفت لهم عن مكنون عجايبها ، فأذاقتهم قوائل سهامها ورشقتهم بصوائب سهامها ، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام ، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطختهم طعن الحصيد ، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد . إن ملكك واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيدا كأن لم يفن بالأمس . تني أصحابها سرورا ، وتعدمهم غمورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح قصورهم قبورا ،

وجمعهم يورا ، وسعيهم هباء منشورا ، ودعائهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة على محمد عبده ورسوله ، المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا ، وسراجا منيرا ، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا . وعلى الظالمين نصيرا ، وسلم تسليما كثيرا أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأوليائه الله ، وعدوة لأعداء الله أما عداوتها لله ، فإنها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل ، فإنها تزينت لهم بزینتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها

وأما عداوتها لأعداء الله ، فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، فافتنستهم بشبكتها ، حتى وثقوا بها ، وعولوا عليها ، فخرلهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتوا منها حسرة تقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فراها يتحسرون ، ومن مكيدها يستغيثون ولا يغاثون ، بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تسكلمون (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(١)) وإذا عظمت غوائل الدنيا وشروورها ، فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا ، وما هي ، وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، وما مدخل غرورها وشروورها ، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا ، وأمثلتها وحقيقتها ، وتفصيل معانيها وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى ، وهو المعين على ما يرتضيه

بيان

ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القراء ان مشتمل على ذم الدنيا ، وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القراء ان لظهورها ، وإنما نورد بعض الاخبار الواردة فيها

(١) القرينة: ٨٦ -

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) مر على شاة ميتة ، فقال « أَتَرُونَ هَذِهِ الشَّاةَ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ » قالوا من هوانها ألقوها : قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِهَا وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَأْسَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً » وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ اللَّهُ مِنْهَا » وقال أبو موسى الأشعري^(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَأَمَرُوا مَا بَقِيَ عَلَى مَا بَقِيَ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٥) « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »

^(٦) وقال زيد بن أرقم ، كنا مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فدعا بشراب ، فأثى بماء وعسل . فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، وسكتوا وما سكت . ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرّون على مسأله . قال ثم مسح عينيه ، فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك ؟ قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيتَه يدفع عن نفسه شيئا ولم أرمعه أحدا . فقلت يا رسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال « هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلْتُ لِي فَقُلْتُ »

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

(١) حديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها - الحديث : ابن ماجه والحاكم وصححه اسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر

(٢) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد الاذكار الله وما والاها وعالم ومتعلم

(٤) حديث أبي موسى الأشعري من أحب دنياه أضرب آخريته - الحديث : أحمد والبخاري وابن حبان والحاكم وصححه

(٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة : ابن أبي الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه من رواية الحسن مرسل

(٦) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبى بكر فدعا بشراب فأثى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى - الحديث : وفيه كس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيتَه يدفع عن نفسه شيئا - الحديث : البخاري بسند ضعيف بحقه والحاكم وصححه اسناده وابن أبي الدنيا والبيهقى من طريقه بالقطعة

لَهَا إِلَيْكَ عَنِّي ثُمَّ رَجَعَتْ فَقَالَتْ إِنَّكَ إِنْ أَفْلَتَ مِنِّي لَمْ يُفْلِتْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ »
 وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « يَا عَجَبًا كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بَدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْتَعِي
 لِدَارِ الْغُرُورِ » وروى ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة ، فقال « هَلُمُّوا
 إِلَى الدُّنْيَا » وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة ، وعظاما قد نخرت ، فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا »
 وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخاق مثل تلك الخرق ، وأن الأجسام التي ترى بها
 ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَصِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ
 مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ إِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ لَمَا بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَمُهَّدَتْ
 تَاهُوا فِي الْحَلِيَّةِ وَالنِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ وَالثِّيَابِ »

وقال عيسى عليه السلام ؛ لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيدا . اكنزوا كنزكم عند من
 لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة
 وقال عليه أفضل الصلاة والسلام ، يامعشر الحواريين ، إني قد كبت لكم الدنيا على وجهها
 فلا تعشوها بعدى . فإن من خبت الدنيا أن عصي الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تدرك
 إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة
 ساعة أورت أهلها خزنا طويلا . وقال أيضا ، بطحت لكم الدنيا ، وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعكم
 فيها الملوك والنساء . فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا ، فإنهم لن يمرضوا لكم ما تركتموهم وديارهم .
 وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة
 تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل فيها رزقه . وطالب الدنيا تطلبه الآخرة ، حتى يجي الموت فيأخذ بمنقه

(١) حديث يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الغرور : ابن أبي الدنيا من حديث
 أبي جرير مرسل

(٢) حديث أنه وقف على مزبلة فقال هلموا إلي الدنيا - الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهي في شعب

الايان من طريقه من رواية ابن ميمون البخاري مرسل وفيه بهية بن الوليد وقد عني وهو مدلس

(٣) حديث أن الدنيا خلوة خصرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر كيف تعملون - الحديث : الترمذي وابن ماجه

من حديث أبي شعيبه دون قوله إن بني إسرائيل الخ والشرط الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا

من حديث الحسن مرسل بالزيادة التي في آخره

وقال موسى بن يسار^(١) . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَتَبَضُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا » وروى أن سليمان ابن داود عليهما السلام ، مر في موكبه والطير تطله ، والجن والإنس عن يمينه وشماله ، قال فرمى بآب من بني إسرائيل ، فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال فسمع سليمان وقال ، لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَاءٌ كَلْتُمْ فَافْقِنْتُمْ أَوْ لَبَسْتُمْ فَأَبْلَيْتُمْ أَوْ تَصَدَّقْتُمْ فَأَبْقَيْتُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٣) « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَعَلَيْهَا يُعَادِي مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهَا يَحْسُدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ وَلَهَا يَسْنَعِي مَنْ لَا يَقِينَ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٤) « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » وَأَلْزَمَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ هَمًّا لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَدًا وَشُغْلًا لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَدًا وَأَمَلًا لَا يَبْلُغُ مُتْنَاهُ أَبَدًا » وقال أبو هريرة ،^(٥) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمِيعَهَا بِمَا فِيهَا ؟ » فقلت بلى يا رسول الله . فأخذ بيدي ، وأتى بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رءوس أناس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام ، ثم قال « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَذِهِ

(١) حديث موسى بن يسار أن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها

ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل

(٢) حديث ألهاكم الكثرة يقول ابن آدم مالى مالى - الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشخير

(٣) حديث الدنيا دار من لا دار له - الحديث : أحمد من حديث عائشة مقتصر على هذا وعلى قوله ولها يجمع

من لا عقل له دون بقية وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه ومال من لا مال له واسناده جيد

(٤) حديث من أصبح والدنيا أكبر همهم فليس من الله في شيء . وألزم الله قلبه أربع خصال - الحديث :

الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبي الدنيا

من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب

الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى بي واديا من أودية

المدينة فإذا مزبلة - الحديث : لم أجده أصلا

الرؤوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَجِرِّ صِيكُمُ وَتَأْمَلُ كَأَمْسِكُمُ ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ بِلَا جِلْدٍ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ زَمَادًا وَهَذِهِ الْقَذَرَاتُ هِيَ الْوَانُ أُطْعِمْتِهِمْ اِكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اِكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامُونَهَا وَهَذِهِ الْخِرْقُ الْبَالِيَةُ كَانَتْ وَبَاسَهُمْ وَبَاسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالرِّيَّاحُ تُصَفِّقُهَا وَهَذِهِ الْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ الَّتِي كَانُوا يَنْتَحِمُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ الْبِلَادِ فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيُبَيْتِكَ « قَالَ فَمَا بَرَحْنَا حَتَّى اشْتَدَّ بَكَؤُنَا وَيُرْوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، لَمَّا أَهْبَطَ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ ، قَالَ لَهُ ابْنُ الْخِرَابِ ، وَلَدَ الْفَنَاءِ وَقَالَ دَاوُدُ بْنُ هَلَالٍ ، مَكْتُوبٌ فِي صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَادِنِيَا مَا هُونَكَ عَلَى الْأَبْرَارِ الَّذِينَ تَصْنَعْتَ وَتَزِينْتَ لَهُمْ ، إِنِّي قَذَفْتُ فِي قُلُوبِهِمْ بَغْضُوكَ وَالصَّدُودَ عَنْكَ ، وَمَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَهْوَنَ عَلَى مَنْكَ ، كُلُّ شَأْنِكَ صَغِيرٌ وَإِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ ، قَضَيْتَ عَلَيْكَ يَوْمَ خَلَقْتِكَ أَنْ لَا تَدُومِيَ لِأَحَدٍ ، وَلَا يَدُومُ لَكَ أَحَدٌ ، وَإِنْ يَخْلُ بِكَ صَاحِبُكَ وَشَحَّ عَلَيْكَ . طُوبَى لِلْأَبْرَارِ الَّذِينَ أَطْلَعُونِي مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى الرِّضَا ، وَمَنْ ضَمِيرُهُمْ عَلَى الصَّدَقِ وَالِاسْتِقَامَةِ . طُوبَى لَهُمْ ، مَا لَهُمْ عِنْدِي مِنَ الْجَزَاءِ إِذَا وَفَدُوا إِلَى مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَّا النُّورُ يَسْعَى أَمَامَهُمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ حَافُونَ بِهِمْ ، حَتَّى أُلْغِمَهُمْ مَا يَرْجُونَ مِنْ رَحْمَتِي . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) « الدُّنْيَا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا وَتَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا رَبِّ اجْعَلْنِي لِأَذْنَى أَوْلِيَاكَ الْيَوْمَ تُصِيبَا فَيَقُولُ اسْكُنِي يَا لَأَشْيَى إِنِّي لَمْ أَرْضَكَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَرْضًا كَلَهُمُ الْيَوْمَ » . وَرَوَى فِي أَخْبَارِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ، تَحَرَّكَ مَعْدَنَتُهُ لِخُرُوجِ السَّفَلِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَجْمُوعًا فِي شَيْءٍ مِنَ أَطْعَمَةِ الْجَنَّةِ إِلَّا فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ . فَلِذَلِكَ نَهَى عَنْ أَكْلِهَا . قَالَ فَجَعَلَ يَدُورُ فِي الْجَنَّةِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا بِخَاطَبِهِ ، فَقَالَ لَهُ قُلْ لَهُ أَيْ شَيْءٍ تَرِيدُ ؟ قَالَ آدَمُ ، أُرِيدُ أَنْ أَضَعُ مَا فِي بَطْنِي مِنَ الْأَذَى فَخِيلَ لِلْمَلِكِ قُلْ لَهُ فِي أَيْ مَكَانٍ تَرِيدُ أَنْ تَضَعَهُ ؟ عَلَى الْفَرَشِ ؟ أَمْ عَلَى الْبُسْرِ ؟ أَمْ عَلَى الْأَنْهَارِ أَمْ تَحْتَ ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ؟ هَلْ تَرَى هَهُنَا مَكَانًا يَصْلُحُ لَذَلِكَ ؟ أَهْبَطْ إِلَى الدُّنْيَا

(١) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها - الحديث : تقدم بعضه من رواية

موسى بن يسار من سلا ولم أجد باقيه

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَيَجِيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْمَاهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ » قالوا يا رسول الله ، مصلين ؟ قال « نَعَمْ كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هِنَةَ مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُّوا عَلَيْهِ »
وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه ^(٢) « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ » .

وقال عيسى عليه السلام ، لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام ، قال لنوح عليه السلام ، يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال كدار لها بابان ، دخلت من أحدها وخرجت من الآخر . وقيل لعيسى عليه السلام ، لو أخذت بيتا يكتنك ، قال يكفيني خلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ^(٣) « احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أُسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ » وعن الحسن قال ^(٤) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيرًا أَلَا إِنَّهُ مَنْ رَغِبَ فِي الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيهَا أَغْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا وَقَصُرَ فِيهَا أَمَلُهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا يَغْيِرُ تَعْلِيمَ وَهُدًى يَغْيِرُ هِدَايَةَ أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ

(١) حديث ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهماء فيؤمرهم إلى النار - الحديث : أبو نعيم في الحلية

من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضا

(٢) حديث المؤمن بين خافتين بين أجل قدمضى - الحديث : البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع

(٣) حديث احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية

أبي الدرداء الرهاوي مرسلًا وقال البيهقي ان بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة

قال الذهبي لا يدرى من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له

(٤) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى - الحديث : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب

من طريقه هكذا مرسلًا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

الْمَلِكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجْبِيرِ وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْفَقْرِ وَالْبُخْلِ وَلَا الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى
إِلَّا قَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبَغْضَاءِ
وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ عَلَى الدُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى
أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صَدِيقًا . . . وروى أن عيسى عليه السلام ، اشتد عليه المطر
والرعد والبرق يوما ، فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها
فإذا فيها امرأة ، فحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل ، فأتاه ، فإذا فيه أسد . فوضع يده
عليه وقال ، إلهي جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى . فأوحى الله تعالى إليه ،
مأواك فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها يدي ، ولأطعمن فى
عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولأمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا
زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم . وقال عيسى بن مريم عليه السلام ، ويل
لصاحب الدنيا ، كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتفره ويأمنها ، ويشق بها وتخذه . وويل
للمفتزين ، كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون . وويل لمن
الدنيا همه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ،
ياموسى ، مالك ولدان الظالمين ؛ إنها ليست لك بدار ، أخرج منها همك ، وفارقها بمقلك ، فبئست
الدار هي ، إلا لعامل بعمل فيها ، فنعمت الدار هي . ياموسى ، إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للظالم
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، فجاءه عيال
من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فعرضوا له ، فتبسم
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ؟ »
قالوا أجل يا رسول الله . قال « فَأَبَشِرُوا وَأَمْلُوا مَا بَسُرْتُكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ
وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بَسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهُمَا

(١) حديث بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاءه عيال من البحر بن فسمعت الانصار بقدوم أبي عبيدة متفق عليه
من حديث عمرو بن عوف البدرى

كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتَهُمْ » وقال أبو سعيد الخدري ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ » فقيل ما بركات الأرض ؟ قال « زَهْرَةُ الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا تُسْمِنُوا قُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ الدُّنْيَا » فهي عن ذكرها ، فضلا عن إصابة عيها

وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية ، فإذا أهلها موتى في الآفنية والطرق فقال يا معشر الحواريسين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا . فقالوا يا روح الله ، وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى ، فأوحى إليه ، إذا كان الليل فنادهم يجيبوك . فلما كان الليل ، أشرف على نشر ، ثم نادى يا أهل القرية ، فأجابه يجيب لبيك يا روح الله . فقال ما حالكم وما قصتكم ؟ قال بتنا في عافية ، وأصبحنا في الهاوية . قال وكيف ذاك ؟ قال بحبنا الدنيا ، وطاعتنا أهل المعاصي . قال وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها ، وإذا أدبرت حزنا وبكيننا عليها . قال فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار ، بأيدي ملائكة غلاظ شداد . قال فكيف أجبتي أنت من بينهم ؟ قال لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين ، لا كل خبز الشعير بالملح الجريش ، ولبس المسوح ، والنوم على المزابل ، كثير مع عافية الدنيا والآخرة وقال أنس ^(٣) : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المضباء لا تسبق . فجاء أعرابي بناقة له فسبقتها ، فسحق ذلك على المسامين ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » وقال عيسى عليه السلام ، من الذي يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام علما واحدا يحبنا الله عليه . قال ابتعضوا الدنيا يحبكم الله تعالى .

(١) حديث أبي سعيد أن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض - الحديث : متفق عليه

(٢) حديث لا تسمنوا قلوبكم بذكر الدنيا - البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلا .

(٣) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المضباء لا تسبق - وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا الا وضعه البخاري .

وقال أبو الدرداء (١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا تُكْسَبُونَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلَا تَرْثُهَا الْآخِرَةُ » ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه ، لو تعلمون ما أعلم ، لخرجتم إلى الصدقات تجارون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتكم أموالكم لأحارس لها ، ولا راجع إليها إلا ما لبد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل ، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت كالدين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبتها . مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم . مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ، ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته . ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا ، لآثرتم طلب الآخرة ، لأنها أملك لأموالكم . فإن قلتم حب العاجلة غالب ، فإننا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف ، في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فيئس القوم أنتم ، ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فاثبتوا لنبيين لكم ، ولترىكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم . إنكم تسقين صواب الرأي في دنياكم ، وتأخذون بالحزم في أموركم . مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه ، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتقيمونها فيها المآثم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ، ولا يتغير حالكم . إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقي بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره ، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله . فاصطجبت على الغل ، ونبئت مراعيكم على الدمن ، وتصافيت على رفض الأجل

(١) حديث أبي الدرداء ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة

الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزاد لخرجتم إلى الصدقات - الحديث : وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر وماتلذذتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة

ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم ، وألحقني بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم .
فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على
نفسى وعليكم . وقال عيسى عليه السلام ، يامعشر الحواريين ، ارضوا بدنى الدنيا مع

سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا . وفى معناه قيل
أرى رجلا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنيهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام ، ياطالب الدنيا لتبر ، تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله
عليه وسلم ^(١) « لَتَأْتِيَنَّكُمْ بَعْدِي دُنْيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وأوحى
الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى لا تركن إلى حب الدنيا ، فإن تأتيني بكبيرة
هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ، ورجع وهو يبكى . فقال موسى ،
يارب عبدك يبكى من مخافتك . فقال يا ابن عمران ، لو سال دماغه مع دموع عينيه ، ورفع
يديه حتى يسقطا ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا

الآثار : قال على رضى الله عنه ، من جمع فيه ست خصال ، لم يدع للجنة مطلبيا ولا عن النار
مهريا . أولها من عرف الله فطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف
الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما
كانت الدنيا عندهم وديمة ، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا
رحمه الله ، من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فآلقها فى نحره

وقال لقمان عليه السلام لابنه ، يا بني ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن
سفينةك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشرعها التوكل على الله
عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل ، طالت فكرتى فى هذه الآية
(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صُعِيدًا جُرُزًا ^(١)) وقال بعض الحكماء ، إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا ، إلا وقد كان

(١) حديث لئائينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجدها أصلا

له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا ، إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان ، كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان ، ويحدد الآمال ويقرب المنية ، ويبعد الأمنية . قيل فما حال أهله ؟ قال من ظفر به تعب ، ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لسكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها ، قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها ، لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها ، لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم ، أشكو إليك حب الدنيا ، وليست لي بدار . فقال انظر ما آتاك الله عز وجل منها ، فلا تأخذ إلا من حله ، ولا تضعه إلا في حقه ، ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا ، لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتعبه ، حتى يتبرم بالدنيا ، ويطلب الخروج منها . وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئاً ، فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل . لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبق ، لسكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبق ، على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى ، على ذهب يبق ! وقال أبو حازم ، إياكم والدنيا ، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة ، إذا كان معظماً للدنيا ، فيقال هذا عظم ما حقره الله . وقال ابن مسعود ، ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية . فالضيف مرتجل ، والعارية مردودة ، وفي ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أنت ترد الودائع

وزار رابطة أصحابها ، فذكروا الدنيا ، فأقبلوا على ذمها ، فقالت اسكنوا عن ذكرها ، فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن آدم كيف أنت ؟ فقال :

برقع دنيانا بتمزيق ديننا
فطوبى لعبد آثر الله ربه
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره
كبان بني بنيانه فأقامه
ونال من الدنيا سرورا وأنما
فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضا في ذلك

هب الدنيا تساق إليك عفوا
وما دنيائك إلا مثل فيء
أليس مصير ذاك إلى انتقال
أظلك ثم آذت بالزوال

وقال لقمان لابنه ، يا بني ، بع دنيائك بآخرتك تربحها جميعا . ولا تبع آخرتك بدنيائك تخسرهما جميعا . وقال مطرف بن الشخير ، لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياسهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس ، إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم ، الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب . وفي ذلك قيل

يا خاطب الدنيا إلى نفسها
إن التي تخطب غدارة
تنح عن خطبتها تسلم
قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء ، من هوان الدنيا على الله أنه لا يمضى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وفي ذلك قيل

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت
وقيل أيضا
له عن عدو في ثياب صديق

ياراقه الليل مسرورا بأوله
أفنى القرون التي كانت منقبة
إن الجوادث قد يطرقن أسحارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك
كر الحديدين إقبالا وإدارا
يا من يمانق دنيا لا بقاء لها
قد كان في الدهر نقاعا وضرارا
يمسى ويصبح في دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تمانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنانا لخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه ، لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أتت إبليس جنوده فقالوا ، قد بعث نبي وأخرجت أمة . قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم . قال لأن كانوا يحبون الدنيا ما أبلى أن لا يعبدوا الأوثان : وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث ، أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه . والشركه من هذا نبع . وقال رجل لعلي كرم الله وجهه ، يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا . قال وما أصف لك من دار من ضح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال ، أطول أم أقصر ؟ فقبل قصر ، فقال حلالها حساب ، وحرامها عذاب

وقال مالك بن دينار ، اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعني الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني ، إذا كانت الآخرة في القلب ، جاءت الدنيا تراحمها . فإذا كانت الدنيا في القلب ، لم تراحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة ، وهذا تشديد عظيم ونرجوان يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال ، الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعاله . وقال مالك بن دينار ، بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك . وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه ، حيث قال ، الدنيا والآخرة ضرطان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن ، والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . وقال رجل للحسن ، ما تقول في رجل آتاه الله مالا ، فهو يتصدق منه ، وبصل منه ، أي يحسن له أن يتعيش فيه ، يعني يتنعم . فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويخدم ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل ، لو أن الدنيا يحنط فير ها عرض على جلاله ، لا أحاسب عليها في الآخرة . كنت أتقذرها ، كما يتقذر أحدكم الخيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقيل ، لما قدم عمر رضي الله عنه الشام : فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم وسأله

ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر رضي الله عنه ، لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ، إن هذا يبلغنا المقييل . وقال سفيان ، خذ من الدنيا لبدنك ، وخذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن ، والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا وقال وهب . قرأت في بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجاهل ، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه ، يا بني ، إنك استدبرت الدنيا من يوم تزلتها ، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها ، أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود ، إذا رأيت العبد تزداد دنياه ، وتنقص آخرته وهو به راض ، فذلك المغبون ، الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر

وقال عمرو بن العاص على المنبر ، ^(١) والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . والله ما عمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) من قال ذا ؟ قاله من خلقها ، ومن هو أعلم بها . إياكم وما شغل من الدنيا ، فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا ، مسكين ابن آدم ، رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها هذاب ، إن أخذته من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به . ابن آدم يستقل ماله ، ولا يستقل عمله . يفرح بمصيبته في دينه ، ويحزح من مصيبته في دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز ، سلام عليك ، أما بعد . فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قدمات . فأجابه عمر ، سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض ، الدخول في الدنيا هين ، ولكن الخروج منها شديد . وقال بمضهم ، عجبا لمن يعرف أن الموت حق ، كيف يفرح ! وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ! وعجبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها ، كيف يطمئن إليها ! وعجبا لمن يعلم

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . الحديث : الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

أن القدر حق ، كيف ينصب ! وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران ، عمره مائتة سنة . فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال سنيات بلاء ، وسنيات رخاء . يوم فيوم وليلة قليلة يولد ولد ، ويهلك هالك . فلو لا المولود لبدا الخلق ، ولو لا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له هل ماشئت . قال : عمر مضى قترده ، وأجل حضر قترده . قال : لا أملك ذلك . قال : لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله ، يا ابن آدم ، فرحت يلوغ أملك ، وإعما بلغت باقتضاه أجلك . ثم سوفت بعملك ، كأن منفعته لنيرك . وقال بشر ، من سأل الله الدنيا فإعنا يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ، ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث ، أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الغنى . فقال : إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا ، إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار ، اصطلحنا على حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضا ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن ، أهينوا الدنيا ، فوالله ما هي لأحد بأهنا منها لمن أهانها . وقال أيضا ، إذا أراد الله بعبده خيرا ، أعطاه من الدنيا عطية ، ثم أمسك فإذا نقدا عاد عليه . وإذا هان عليه عبد ، بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك ، أمسك الدنيا عني . وقال محمد بن النكدر : أرايت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد في سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة ، فيقال إن هذا عظم في عينه ما صغره الله ، وصغر في عينه ما عظمه الله ، كيف ترى يكون حاله ؟ فن منا ليس هكذا ؟ الدنيا عظيمة عنده ، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا

وقال أبو حازم ، اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها لغولنا وأملؤنة الدنيا ، فإنك لا تضرب يدك إلى شيء منها ، إلا وجدت فاجر قد فسحك إليه .

وقال أبو هريرة، الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، كالشن البالي، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها، يارب، يارب، لم تبغضني؟ فيقول لها اسكتي يا لاشيء. وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا، والذنوب في القلب قد احتوشته؟ فتى يصل الخير إليه؟ وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا، فقد أخطأ الحكمة. ومن جعل شهوته تحت قدميه، فرق الشيطان من ظله. ومن غلب عامسه هواه، فهو الغالب. وقيل لبشر، مات فلان. فقال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه. قيل له إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابا من البر، فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟

وقال بعضهم، الدنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نحبها. فكيف لو تحببت إلينا. وقيل حكيم، الدنيا لمن هي؟ قال لمن تركها. فقيل الآخرة لمن هي؟ قال لمن طلبها. وقال حكيم، الدنيا دار خراب، وأخرى منها قلب من يعمرها. والجنة دار عمران، وأمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد، كان الشافعي، رحمه الله، من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظا أخاله في الله، وخوفه بالله، يقال يا أخى، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر. شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف. الإكثار فيها إفسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله لا تتسلف من دار فئائك إلى دار بقائك، فإن عيشك في زائل، وجدار مائل. أكثر من عملك، وأقصر من أملك. وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال دينار في اليقظة. فقال كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا، كأنك تحبه في المنام. والذي لا تحبه في الآخرة، كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن اسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون إليك عنا يا خنزيرة. فلو وجدوا لها إسما أتبع من هذا لسموها به. وقال كعب، لتحبين إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي، رحمه الله للعلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبني قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضا، الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنحك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها. وقال بكر بن عبد الله، من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا، كان كطفي النار بالنبن. وقال بندار، إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد، فاعلم أنهم في سفرة الشيطان

وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقتة نيرانها ، بمعنى الحرص ، حتى يصير رمادا . ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها ، فصار سبيكة ذهب ينتفع به . ومن أقبل على الله عز وجل ، أحرقتة نيران التوحيد ، فصار جوهرًا لأحد لقيمته

وقال على كرم الله وجهه ، إنا الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشوم . فأشرف المطعومات العسل ، وهو مذقة ذباب . وأشرف المشروبات الماء ، ويستوى فيه البر والفاجر . وأشرف الملبوسات الحرير ، وهو نسج دودة . وأشرف المركوبات الفرس ، وعليه يقتل الرجال . وأشرف المنكوحات المرأة ، وهي مبال في مبال . وإن المرأة لزين أحسن شيء منها ، ويراد أقيح شيء منها . وأشرف المشمومات المسك ، وهو دم

بيان

المواعظ في ذم الدنيا وصفها

قال بعضهم ، يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تنسوا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرت لكم بغورها وقتنتكم بأمانيتها ، وزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة . فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت . فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال فلان غليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء . ثم يقال فلان أوصى ، ولماله أحصى . ثم يقال قد ثقل لسانه ، فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه . وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنفك ، وثبتت بقتك ، وطمخت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، ويكي إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ، ومنمت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطق . ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك

إخوانك ، وأحضرت أكفانك ففسلوك ، وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك
وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك

وقال بعضهم لبعض الملوك ، إن أحق الناس بدم الدنيا وقلها من بسط له فيها ، وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تمدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه قهده ، من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فلسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبائه فالدنيا أحق بالدم ، هي الآخذة مانعة . الراجعة فيما تهب . بينا هي تضحك صاحبها ، إذ أضحكت منه غيره . وبيننا هي تبكي له ، إذ أبكت عليه . وبيننا هي تبسط كفها بالإعطاء ، إذ بسطتها بالاسترداد . فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتعفره بالتراب غدا . سواء عليها ذهاب مذهب ، وبقاء مابقي ، بمجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصري ، إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فأحذرها يأمر المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها . لها في كل حين قتل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها . هي كالسم يأكله من لا يعرفه ، وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الداء . فأحذر هذه الدار الغدارة ، الختالة الخداعة ، التي قد ترينت بخدعها ، وفنت بنفورها ، وحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهمة ، والنفوس لها عاشقة . وهي لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضي معتبر ، ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطنى ، ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه ، حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه ، وحسرات الفوت بقصته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ، ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فأحذر يا أمير المؤمنين ، وكن أسير ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها . فإن صاحب الدنيا كلما اطمان منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه . السار في أهلها غار ، والنافع فيها غدار . وقد وصل إلى خاتمها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها إلى فناء .

فسرورها مشوب بالأحزان ، لا يرجع منها ماولى وأدبر ، ولا يدري ماهوات ،
 فينتظر . أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على
 خطر ، إن عقل ونظر . فهو من النعماء على خطر ، ومن البلاء على حذر . فلو كان الخالق لم
 يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونهبت الغافل
 فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، قالها عند الله جل ثناؤه قدر
 وما نظر إليها منذ خلقها ^(١) . ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها
 لا ينقصه ذلك عند الله بخناح بموضة ، فأبى أن يقبلها ، إذكره أن يخالف على الله أمره ،
 أو يحب ما أبغضه خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختبارا ، وبسطها
 لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله
 عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ^(٢) حين شد الحجر على بطنه ، ولقد جاءت الرواية عنه
 عن ربه عز وجل ، أنه قال لموسى عليه السلام ، إذا رأيت الننى مقبلا ، فقل ذنب عجبت
 عقوبته . وإذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين . وإن شئت اقتديت بصاحب
 الروح والكلمة ، عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنه كان يقول ، إداى الجوع ، وشعارى
 الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودائى
 رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبت الأرض ، أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى
 شيء . وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه ، لما بعث الله عز وجل
 موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون ، قال لا يرو عنك لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن
 ناصيته ييدى ، ليس ينطق ، ولا يطرف ، ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنيك ما تتمتع به منها
 فإنما هى زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين . فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا ، يعرفه

(١) حديث الحسن وكتب به الى عمر بن عبد العزيز عرضت لى الدنيا لى نبيك صلى الله عليه وسلم

بمفاتيحها وخزائنها - الحديث : ابن أبى الدنيا هكذا مرسل ورواه أحمد والطبرانى متصلا
 من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه أنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة - الحديث :
 وسنده صحيح والترمذى من حديث أبى أمامة عرض على وبنى ليجمع لى بطحاء مكة ذهابا - الحديث :
 (٢) حديث الحسين مرسل فى شدة الحجر على بطنه : ابن أبى الدنيا أيضا هكذا والبخارى من حديث أنس رفعا
 لفظنا عن حبيب بن جبر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين وقال حديث غريب

فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما ، لفعلت . ولكنى أرغب بكما عن ذلك ،
نفأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفل بأوليائي ، إني لأزودهم عن نعيمها ، كما يزود الراعى الشفيق
غنمه عن مراتع الهلكة ، وإني لأجنبهم ملاذها ، كما يجنب الراعى الشفيق إبله
عن منازل الغرة . وما ذاك لهُوانهم على ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما
موفرا . إنما يتزين لى أوليائى بالذل ، والخوف ، والخضوع ، والتقوى تنبت فى قلوبهم ،
وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ، ودثارهم الذى يظهرُونَ ، وضميرهم الذى
يستشعرون ، ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون
وسيام التى بها يعرفون . فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذل لهم قلبك ولسانك .
واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الناصر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة ، فقال فيها ، اعلموا أنكم ميتون ، ومبعوثون
من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ، ومجزيون بها . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها
بالبلاء مخوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالعذر موصوفة . وكل ما فيها إلى زوال ، وهى بين أهلها
دول وسجال . لا تدوم أحوالها ، ولا يسلم من شرها نزالها . بينا أهلها منها فى رخاء وشرور
إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة ، وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء
فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها ، وتقصيمهم بحمامها ، وكل
حقتة فيها مقدوز ، وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا
على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأشد منكم بطشا ، وأعمر ديارا ، وأبعد
آثارا . فأصبحت أصواتهم هامة خادمة من بعد طول تقلبها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم على
هروشا خاوية ، وآثارهم خافية ، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والتمارق الممهدة ،
النخور والأحجار المسندة ، فى القبور اللاطئة الملحدة ، فحلها مقرب ، وساكنها مغرب
بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون
تواصل الجيران والإخوان ، على ما بينهم من قرب المسكان والجوار ، ودنو النار . وكيف
يكون بينهم تواصل ، وقد طحنهم بكلكله البلاء ، وأكلتهم الجنادل والثرى ، وأصبحوا

بعد الحياة أمواتا ، وبعد نضارة العيش رفاتا ، فجع بهم الأحباب ، وسكنوا تحت التراب
وظنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ
إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ^(١)) فكان قد صرتم إلى ماصاروا إليه ، من البلاء والوحدة في دار الموتى
وارتهنت في ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو عاينتم الأمور ، وبعثت
القبور ، وحصل ما في الصدور ، وأوقفتم للحصول ، بين يدي الملك الجليل . فطارت القلوب
لإشفافها من سالف الذنوب ، وهتكت عنكم الحجب والأستار ، وظهرت منكم العيوب
والأسرار ، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت . إن الله عز وجل يقول (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ^(٢)) وقال تعالى (وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ^(٣)) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه ، متبعين لأوليائه
حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله ، إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء ، الأيام سهام
والناس أغراض ، والذهب يرمى كل يوم بسهامه ، ويحترمك بلياليه وأيامه ، حتى يستغرق
جميع أجزائك . فكيف بقاء سلامتك ، مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالي في بدنك
لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك
واستثقلت ممر الساعات بك . ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالساعة غوائل الدنيا
وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عجها الحكيم . وقد أعيت الواصف لعيوبها
بظهر أفعالها ، وما تأتى به من العجائب ، أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب
وقال بعض الحكماء ، وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال ، الدنيا وقتك الذي يرجع
إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به . والذهب
يوم مقبل تنعاه ليلته ، وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان
والذهب موكب بتشتيت الجماعات ، وانحرام الشمل ، وتنقل الدول . والأمل طويل ،
والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور : وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال
يا أيها الناس ، إنكم خلقت لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم جمعي ، وإن كنتم تكذبون به
فإنكم هلكي . إنما خلقتكم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون عباد الله ، إنكم

في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لاتصفولكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أتم صائرون إليه ، وخالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل وقال على كرم الله وجهه في خطبته ، أوصيكم بتقوى الله ، والتك في الدنيا التارك لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم ، وأتم تريدون تجديدها . فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر ، سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه . وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفارقها . فلا تجزعوا بؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تقرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال . عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمنقول عنه وقال محمد بن الحسين ، لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها ، وحذر أصحابه من فتنها ، أكلوا منها قصدا ، وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي ، وتركوا ما يلهي . لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مما سدا الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ، وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب ، فخرّبوا الدنيا ، وعمرّوا بها الآخرة . ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم ، فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم ، فارتجّلوا إليها بقلوبهم ، لما علموا أنهم سيرتحّلون إليها بأبدانهم . تعبوا قليلا ، وتنعموا طويلا . كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

بيان

صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ، ثم تخلف في الوفاء . تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفا ، ومرحلة ارتحالا سريما . ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها ، فيطمئن إليها . وإنما يحس عند انقضاءها ومثالها الظل ، فإنه متحرك كما كن متحرك في الحقيقة . مما كن في الظاهر ، لاتدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله ، أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخذع
 وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، يتمثل كثيرا ويقول
 يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظل زائل حق
 وقيل إن هذا من قوله

ويقال أن أعرايا نزل بقوم ، فقدموا إليه طعاما ، فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم
 فنام هناك ، فاقتلعوا الخيمة ، فأصابته الشمس ، فانتبه فقام وهو يقول
 ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل
 وكذلك قيل

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بجبل غرور
 مثال آخر للدنيا ، من حيث التفرير بخيالاتها ، ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها
 تشبه خيالات المنام ، وأضغاث الأحلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « الدُّنْيَا
 حُلْمٌ وَأَهْلُهَا عَلَيْهِمْ مُجَازَوْنَ وَمُعَاقِبُونَ » وقال يونس بن عبيد ، ما شبهت نفسى فى الدنيا
 إلا كرجل نام ، فرأى فى منامه ما يكره وما يحب . فبينما هو كذلك إذ انتبه . فكذلك
 الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شئ مما ركنوا إليه ، وفرحوا به .
 وقيل لبعض الحكماء ، أى شئ أشبه بالدنيا ، قال أحلام النائم
 مثال آخر للدنيا ، فى عداوتها لأهلها ، وإهلاكها لبنيتها

اعلم أن طبع الدنيا التلطف فى الاستدراج أولا ، والتوصل إلى الإهلاك آخر . وهى
 كامرأة تزين للخطاب ، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام
 كوشف بالدنيا ، فرآها فى صورة عجوز هماء ، عليها من كل زينة ، فقال لها كم تزوجت
 قالت لا أحصيهم ، قال فكلمهم مات عنك أم كلمهم طلقك ؟ قالت بل كلمهم قتل . فقال
 عيسى عليه السلام ، يؤسأ لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين !
 كيف هلكينهم واحدا بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر !

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون : لم أجده أصلا

مثال آخر للدنيا ، في مخالفة ظاهرها لباطنها .

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر ، قبيحة السرائر . وهي شبه عجوز متزينة ، تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها ، وكشفوا القناع عن وجهها ، تمثل لهم قبائحها ، فندموا على اتباعها ، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها . وقال الملاء بن زياد ، رأيت في المنام عجوزا كبيرة ، متعصبة الجلد ، عليها من كل زينة الدنيا ، والناس عكوف عليها معجبون ، ينظرون إليها . فجئت ونظرت وتمجيت من نظرم إليها ، وإقبالهم عليها . فقلت لها ويلك من أنت ؟ قالت أو ما تعرفني ؟ قلت لا أدري من أنت ، قالت أنا الدنيا . قلت أعوذ بالله من شرك . قالت إن أحببت أن تعاذ من شري فابغض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش ، رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شطاء ، تصفق يديها ، وخلفها خلق يتبعونها بصفقون ويرقصون . فلما كانت بمحذائي ، أقبلت علي فقلت ، لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال ، رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض ، قال ابن عباس ، يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها فتشرف على الخلائق ، فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون نعموذ بالله من معرفة هذه . فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم . ثم يقذف بها في جهنم ، فتنادى أي رب ، أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل ، ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل ، بلغني أن رجلا عرج بروحه ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحدا إلا جرحته فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوزا شطاء ، زرقاء عمشاء . قال فقلت أعوذ بالله منك . قالت لا والله ، لا يمسك الله مني حتى تبغض الدرهم . قال فقلت من أنت ؟ قالت أنا الدنيا

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها

اعلم أن الأحوال ثلاثة ، حالة لم تكن فيها شيئا ، وهي ما قبل وجودك إلى الازل . وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا ، وهي ما بعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والازل ، وهي أيام حياتك في الدنيا . فانظر إلى مقدار طولها ، وانسبه إلى طرفي الأزل

والأبد ، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير ، في سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
 (١) « مَالِي وَلِلدُّنْيَا وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرَفِغَتْ لَهُ
 شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَ ظِلِّهَا سَاعَةٌ ثُمَّ زَاغَ وَتَرَكَهَا ، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها
 ولم يبال كيف انقضت أيامه ، في ضر وضيق ، أو في سعة ورفاهية . بل لا يبنى لبنة على لبنة
 توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، وما وضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة (٣)
 ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من حصص ، فقال أرى الأمر أعجل من هذا ، وأنكر ذلك
 وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال ، الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وهو
 مثال واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة واللحدهو
 الميل الآخر . وبينهما مسافة محدودة . فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم
 من قطع ثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلا بد له
 من العبور . والبناء على القنطرة ، وترتيبها بأصناف الزينة ، وأنت عابر عليها ، غاية الجهل والخذلان
 مثال آخر للدنيا في لين موردها ، وخشونة مصدرها

اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لين ، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض
 فيها ، وهيئات . فإن الخوض في الدنيا سهل ، والخروج منها مع السلامة شديد . وقد كتب
 على رضى الله عنه ، إلى سامان الفارسي بمثلها فقال ، مثل الدنيا مثل الحية ، لين مسها ، ويقتل سمها .
 فأعرض عما يعجبك منها . لقله ما يصحبك منها . وضع عنك همومها ، بما أيقنت من فراقها وكن أسر
 ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها . فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور شخصه عنه مكروه والسلام

(١) حديث مالى والدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب - الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم من

حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس

(٢) حديث ما وضع لبنة على لبنة - الحديث : ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث

عائشة بسند ضعيف من سأل عنى أسره أن ينظر إلى فليتنظر إلى أشعث شاحب مشعر لم

يضع لبنة على لبنة - الحديث

(٣) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من حصص فقال أرى الأمر أعجل من هذا : أبو داود والترمذى

من حديث عبدة الله بن عمرو وقال حسن صحيح

مثال آخر للدنيا ، في تعذر الخلاص من تبعثها بعد الخوض فيها
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَأَلْمَاشِي فِي الْمَاءِ هَلْ
يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمَشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لَا تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون
في نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم منها مطهرة ، وعلاقتها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة
من الشيطان . بل لو أخرجوا مما هم فيه ، لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها . فكما أن
المشي على الماء يقتضي بلالا لا محالة يلتصق بالقدم ، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة
وظلمة في القلب . بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام :
بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع ، كذلك صاحب
الدنيا ، لا يلتذ بالعبادة ، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا . وبحق أقول لكم ،
إن الدابة إذا لم تتركب وتمتن ، تصعب ويتغير خلقها . كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر
الموت ، ونصب العبادة ، تقسو وتغلظ . وبحق أقول لكم ، إن الزق مالم ينخرق أو يقحل
يوشك أن يكون وعاء للغسل . كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات ، أو يدنسها الطمع
أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّمَا بَقِيَ
مِنَ الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَغْلَاهُ طَابَ أَسْفَلُهُ
وَإِذَا خَبِثَ أَغْلَاهُ خَبِثَ أَسْفَلُهُ »

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ماسبق
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَثَلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شَقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى
آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

- (١) حديث إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء - الحديث : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب
من رواية الحسن وقال بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقي
في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس
- (٢) حديث إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة - الحديث : ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين وورجالة ثقات
- (٣) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم
في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك

قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ، ازداد عطشا حتى يقتله

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ، ولنضارة أوائلها ، وخبت عواقبها .

اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة ، كشهوات الأطعمة في المعدة . وسيجد العبد عند الموت . لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ، ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها : وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما ، وأكثر دسما ، وأظهر حلاوة كان رجيئه أقدر وأشد تننا ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى ، فتنها وكرهتها والتأذي بها عند الموت أشد . بل هي في الدنيا مشاهدة . فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد ، بقدر لذته به ، وحببه له . وحرصه عليه . فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ ، فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) قال للضحاك ابن سفيان الكلابي « أَلَسْتَ تُؤْتِي بِطَعَامِكَ وَقَدْ مُلِحَ وَقُرِحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّبَنَ وَالْمَاءَ » قال بلى . قال « فَأَلَيْمَ يَصِيرُ ؟ » قال إلى ما قد علمت يا رسول الله . قال « فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ » . وقال أبي بن كعب ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الدُّنْيَا ضَرِبَتْ مَثَلًا لِبْنِ آدَمَ فَانْظُرْ إِلَى مَا يُخْرَجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَذَحَهُ وَمَلَحَهُ إِلَى مَا يَصِيرُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا وَإِنْ قَزَحَهُ وَمَلَحَهُ » وقال الحسن ، قد

(١) حديث أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي ألسنت تؤتي بطعامك وقدم ملح وقرح - الحديث : وفيه فان الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم أحمد والطبراني من حديثه بخبر وفيه على بن زيد بن جعدان عتلف فيه

(٢) حديث أبي بن كعب ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث : الطبراني وابن حبان بلفظ أن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ جعل

(٣) حديث أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا - الحديث : الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان ان الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا

رَأَيْتَهُمْ يَطْبِئُونَهُ بِالْأَفْأُيَةِ وَالطَّيِّبِ ، ثُمَّ يَزْمُونَ بِهِ حَيْثُ رَأَيْتُمْ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،
(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ^(١)) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، إِلَى رَجِيعِهِ . وَقَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عُمَرَ ، إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ وَأَسْتَحْيِي . قَالَ فَلَا تَسْتَحْيِ وَأَسْأَلْ . قَالَ إِذَا قَضَى أَحَدُنَا حَاجَتَهُ ، فَقَامَ يَنْظُرُ
إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ . قَالَ لَهُمْ ، إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَا بَخَلْتُمْ بِهِ ، انْظُرْ إِلَى مَاذَا صَارَ . وَكَانَ
بِشَرِّ بَنِي كَعْبٍ يَقُولُ ، انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَذْهَبُ بِهِمْ إِلَى مَزْبَلَةٍ ، فَيَقُولُ انْظُرُوا
إِلَى ثَمَارِهِمْ ، وَدِجَاجِهِمْ ، وَعَسَلِهِمْ ، وَسَمْنِهِمْ
مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) « مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ
إِصْبَعَهُ فِي أَيْمِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمِمْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ »

مثال آخر للدنيا وأهلها ، في اشتغالهم بنعيم الدنيا ، وغفلتهم عن الآخرة . وخسرانهم العظيم بسببها
اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم ، مثل قوم ركبوا سفينة ، فأنهت بهم إلى جزيرة
فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة ، وحذرهم المقام ، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها
فتفرقوا في نواحي الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ، فصادف المكان خاليا
فأخذ أوسع الأماكن ، وألينها ، وأوقفها لمراده . وبعضهم توقف في الجزيرة ، ينظر
إلى أنوارها ، وأزهارها العجيبة ، وغياضها المتنفة ، ونفحات طيورها الطيبة ، وألحانها الموزونة
الفرية ، وصار يلحظ من يريتها أحجارها ، وجواهرها ، ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال
الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها ، وعجائب صورها
ثم تنبه لخطر فوات السفينة ، فرجع إليها ، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا ، فاستقر فيه
وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار ، وأعجبه حسنها ، ولم تسمع نفسه
بإعمالها ، فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا . وزاده ما حمله من الحجارة

(١) حديث ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع اليه : مسلم من
حديث الستور : بن شداد

ضيقا . وصار ثقيلًا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ، ولم يقدر على رميه ، ولم يجد مكانا لوضعه
فحملة في السفينة على عنقه ، وهو متأسف على أخذه ، وليس ينفعه التأنيب .
وبعضهم تولى الغياض ، ونسى المركب ، وبعد في متخرجه ومتزهره منه ، حتى لم يبلغه
نداء الملاح ، لاشتغاله بأكل تلك الثمار ، واستشام تلك الأنوار ، والتفرج بين تلك
الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ، وغير خال من السقطات والنكبات
ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه ، وغصن يخرج بدنه ، وشوكة تدخل في رجله . وصوت
هائل يفرع منه ، وعوسج يحرق ثيابه ، ويهتك عورته ، ويمنع عن الانصراف لو أراد
فلما بلغه نداء أهل السفينة ، انصرف مثقلا بما معه ولم يجد في المركب موصلا ، فبقى في
الشط حتى مات جوعا ، وبعضهم لم يبلغه النداء ، وصارت السفينة ، فمنهم من اقترسته السباع
ومنهم من تاه فهم على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من شهت
الحيات ، فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار
والأحجار ، فقد استرقته ، وشغله الحزن بحفظها ، والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه
مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار ، وكمدت تلك الألوان والأحجار ، فظهرت
رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه ، مؤذية له بنبتها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن
ألقاها في البحر هربا منها . وقد أثر فيه ما أكل منها ، فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت
عليه الأسقام بتلك الروائح ، فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا ، ما فاتته إلا مصعة المحال
فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح . ومن رجع أولا
وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بخططهم العاجلة ، ونسيانهم موردتهم ومصيدهم
وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض
وهي الذهب والفضة ، وهشيم النبات ، وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عنه
الموت ، بل يصير كلاً ووبالا عليه ، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه
حال الخلق كلهم ، إلا من عصمه الله عز وجل

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم

وقال الحسن رحمه الله ^(١) : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكَوا مَفَاذَةً غَبْرَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَذُرُوا مَسَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَوْ مَا بَقِيَ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمَفَاذَةِ وَلَا زَادَ وَلَا حِمْلَ فَأَيَّقُوا بِالْهَلَكَةِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا هَذَا قَرِيبٌ عَهْدٍ بِرَيْفٍ وَمَا جَاءَكُمْ هَذَا إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ يَا هَؤُلَاءِ فَقَالُوا يَا هَذَا فَقَالَ عَلَامَ أَنتُمْ؟ فَقَالُوا عَلَى مَا رَأَى فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءَ وَرِيَاضٍ خَضِرٍ مَا تَعْمَلُونَ؟ قَالُوا لَا نَعْمَلُ شَيْئًا قَالَ عُهودُكُمْ وَمَوَاقِفُكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطَوْهُ عُهودَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ بِاللَّهِ لَا يَعْصُونَ شَيْئًا قَالَ فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءَ وَرِيَاضًا خَضِرًا فَكَثَرَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ يَا هَؤُلَاءِ قَالُوا يَا هَذَا قَالَ الرَّحِيلُ قَالُوا إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَا لَكُمْ وَإِلَى رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَمَا بِأَصِحِّكُمْ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا هَذَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَمَا نَصْنَعُ بِعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ وَهُمْ أَقْلُهُمْ أَلَمْ نَمْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهودَكُمْ وَمَوَاقِفُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَعْصُوهُ شَيْئًا وَقَدْ صَدَقْتُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَاللَّهِ لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ فَرَّاحَ فِيمَنْ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بِقِيَّتِهِمْ فَبَدَرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ »

مثال آخر لتنعيم الناس بالدنيا ، ثم تجميعهم على فراقها .

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا ، مثل رجل هيا دارا وزينها ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد . فدخل واحد داره ، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، ليشمه ويتذكره لمن يلحقه ، لا ليمتلكه ويأخذه ، فجعل رسمه .

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفاذة غبراء - الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لاهم والبراز والطبراني من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث : وفيه فقال أي أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفلوا إلى مفاذة فذكر نحوه أنصر منه واسناده حسن

وظن أنه قد وهب ذلك منه، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له . فلما استرجع منه ضجرو وتفجع . ومن كان عالما برسمه ، انتفع به وشكره ، ورد به بطيب قلب وانشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا ، علم أنها دار ضيافة ، سبغت على المجتازين لاعلى المقيمين ، ليتزودوا منها ، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم ، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها .
فهذه أمثلة الدنيا وآفات غوائلها ، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

بيان

حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ماهي ، وما الذي ينبغي أن يجتنب منها ، وما الذي لا يجتنب . فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة ، المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهي فنقول : دنياك وآخرك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا ، وهو كل ما قبل الموت . والمتراخي المتأخر يسمى آخرة ، وهو ما بعد الموت . فكل مالك فيه حظ ، ونصيب ، وغرض ، وشهوة ، ولذة ، عاجل الحال قبل الوفاة . فهي الدنيا في حقتك إلا أن جميع مالك إليه ميل ، وفيه نصيب وحظ ، فليس بمذموم ، بل هو ثلاثة أقسام .

القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة ، وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيان ، العلم ، والعمل فقط . وأعني بالعلم العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وملوكوت أرضه وسماؤه ، والعلم بشريعة نبيه . وأعني بالعمل ، العبادة الخالصة لوجه الله تعالى . وقد يأنس العالم بالعلم ، حتى يصير ذلك ألد الأشياء عنده ، فيهجر النوم ، والمطعم . والمنكح في لذته ، لأنه أشهى عنده من جميع ذلك . فقد صار حظا عاجلا في الدنيا ، ولكننا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة ، لم نعد هذا من الدنيا أصلا ، بل قلنا إنه من الآخرة وكذلك العابد ، قد يأنس لعبادته فيستلذها ، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم

المقوبات عليه ، حتى قال بعضهم ، ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة ، والركوع ، والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة ، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه ، من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نغنى بالدنيا المذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ النَّسَاءِ وَالطَّيِّبُ وَفُرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحسن والمشاهدة فهو من عالم الشهادة ، وهو من الدنيا والتلذذ بتجريك الجوارح بالركوع ، والسجود ، إنما يكون في الدنيا ، ، فلذلك أضافها إلى الدنيا ، إلا أنا لسنا في هذا السكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى ، كل ما فيه حظ عاجل ، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً ، كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتتم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرغوات ، كالتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحراث ، والغلمان ، والجواري ، والخيول ، والمواشي ، والقصور ، والدور ، ورفع الثياب ، ولذائذ الأطعمة . فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة . وفيما يمد فضولا ، أوفى محل الحاجة ، نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه ، أنه استعمل أبا الدرداء على حمص ، فاتخذ كنيفاً أثق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر ، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ، ما نكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

القسم الثالث ، وهو متوسط بين الطرفين ، كل حظ في العاجل ، معين على أعمال الآخرة . كقدر القوت من الطعام ، والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأني للإنسان البقاء والصحة ، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم

(١) حديث حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وفرة عيني في الصلاة : النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث ونقدم في النسكاح

الأول ، لأنه معين على القسم الأول ، ووسيلة إليه فيها تناول العبد على قصص الاستعانة به على العلم والعمل ، لم يكن به متناولاً للدنيا ، ولم يصير به من أبناء الدنيا . وإن كان بعينه الحظ العاجل ، دون الاستعانة على التقوى ، التحق بالقسم الثاني ، وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات ، صفاء القلب ، أعني طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى ، وحب الله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالانكاف عن شهوات الدنيا . والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى ، والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعديات بعد الموت . أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا ، فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله ، كما ورد في الأخبار ^(١) « أن أعمال العبد تُنازل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه » الحديث

وأما الأنس والحب فهما من المسعديات ، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت ، إلى أن يدخل أواب الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة . وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ، ولم يكن له إلا محبوب واحد ، وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ، ومطالعة جماله فاز تفتت العوائق ، وأفلت من السجن ، وخلي بينه وبين محبوبه ، فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع ، آمناً من العوائق ، وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذباً ، ولم يكن له محبوب إلا الدنيا ، وقد غصب منه ، وحيل بينه وبينه ، وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه . ولذلك قيل

مما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

(١) حديث مناضلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه . الحديث : الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزيمى ضعفه البخاري وأبو حاتم ولاحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أخرجه عمله الصلوة والصيام الحديث : وإسناده صحيح

وليس الموت عدما - إنما هو فراق لحباب الدنيا ، وقدم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواصل على أسباب هذه الصفات الثلاث ، وهي الذكر ، والفكر ، والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا ، وينض إليه ملاذها ، ويقطعه عنها . وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن . وصحة البدن لا تنال إلا بقوت ، وملبس ، ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة ، إذا أخذ المبد من الدنيا للآخرة ، لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة . وإن أخذ ذلك لحظ النفس ، وعلى قصد التمتع ، صار من أبناء الدنيا ، والراغبين في حظوظها . إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ، ويعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب ، ^(١) فن نوقش الحساب عذب ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ » وقد قال أيضا « حَلَالُهَا عَذَابٌ » ، إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب ، لكان ما يفوت من الدرجات العلى في الجنة ، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيصة لا بقاء لها ، هو أيضا عذاب . . . وقس به حالك في الدنيا ، إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية ، كيف يتقطع قلبك عليها حسرات ، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها ، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها . فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بمعظمها ، وتنقطع الدهور دون غايتها فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر ، أو بالنظر إلى خضرة ، أو شربة ماء بارد ، فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه . وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه ^(٣) « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُ » أشار به إلى الماء البارد ، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل ، وخوف ، وخطر ، ومشقة ، وانتظار . وكل ذلك من نقصانها

(١) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفا على ابن أبي طالب

- بإسناد متقطع . بلفظ وحرامها النار . ولم أجده مرفوعا .

(٣) حديث هذا من النعيم الذي تسأل عنه تقدم في الإطعمة .

الحظ . ولذلك قال عمر رضى الله عنه ، اعزلوا عني حسايها ، حين كان به عطش ، فرض عليه ماء بارد يسيل ، فأداره في كفه ، ثم امتنع عن شربه .
فالدنيا قليلها وكثيرها ، حرامها وحلالها ، ملمونة إلا مأعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن ، كان حذره من نعيم الدنيا أشد . حتى أن عيسى عليه السلام ، وضع رأسه على حجر لما نام ، ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال ، رغبت في الدنيا . وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه ، كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ، وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة ، مع القدرة عليها ووجودها أشد . ولهذا روى أن الله تعالى ^(١) " زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فكان يطوى أياما ، " وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع . ولهذا سلط الله البلاء والحن على الأنبياء والأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظرا لهم ، وامتنانا عليهم ، ليتوفر من الآخرة حظهم . كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة ، شفقة عليه ، وحباله ، لا بخلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا

فإن قلت فما الذى هو الله ؟

فأقول الأشياء ثلاثة أقسام ، منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات ، وأنواع التمتع في المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ، ويمكن أن يجعل لغير الله ، وهى ثلاثة ، الفكر ، والذكر ، والكف عن الشهوات . فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر ، فهى لله ؛ وليست من الدنيا . وإن كان الغرض من الفكر ، طلب العلم للتشرف به ، وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة ، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال

(١) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أيام : محمد بن حفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يا رسول الله عجا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك - الحديث : وهو من طريق ابن اسحاق معننا ولا ترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله - الحديث : قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم

أو الحمية لصحة البدن. أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى ، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ما صورته لحظ النفس ، ويمكن أن يكون معناه الله . وذلك كالأسكل ، والنكاح ، وكل ما يرتبط به بقاءه وبقاء ولده . فإن كان القصد حظ النفس ، فهو من الدنيا . وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى ، فهو لله بمعناه ، وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفَا عَنْ الْمَسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد

فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل ، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ، ويمبر عنه الهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) ^(١) وجامع الهوى خمسة أمور ، وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ يَنْتَكُمُ وَتَكَارُفٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) ^(٢) والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة صبعة ، يجمعها قوله تعالى (زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ^(٣) . فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا . وقدر ضرورة القوت ، وما لا بد منه من مسكن وملبس ، هو لله إن قصد به وجه الله . والاستكثار منه تنعم ، وهو لغير الله . وبين التمتع والضرورة درجة يمبر عنها بالحاجة ، ولها طرفان وواسطة . طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر ، فإن الاقتصاد على حد الضرورة غير ممكن . وطرف يراحم جانب التمتع ويقرب منه ، وينبغى أن يحذر منه . وبينهما وسائط متشابهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والحزم فى الحذر والتقوى ، والتقرب من حد الضرورة ما يمكن ، اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى أن أويسا القبرى ، كان يظن أهله أنه مجنون ، لشدة تضيقه على نفسه ، فبنوا له بيتا

(٣) حديث من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرالقي الله وهو عليه غضبان - الحديث : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(١) البازعات : ٤١ (٢) الحديد : ٣٠ (٣) آل عمران : ١٤

على باب دارهم ، فكان يأتي عليهم السنة ، والسنتان ، والثلاث ، لا يرون له وجهاً . وكان يخرج أول الأذان : ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة . وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره ، وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى ، واشترى بثمانه ما يقوته . وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية ، فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ، ثم يلبسها . فكان ذلك لباسه . وكان ربما مر الصبيان ، فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ، يا إخوتاه ، إن كنتم ولا بدان ترموني ، فارموني بأحجار صغار ، فإني أخاف أن تدموا عقي ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء . فكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فقال ^(١) « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين » إشارة إليه رحمه الله .

ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : أيها الناس ، من كان منكم من العراق فليقم . قال فقاموا . فقال اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من مراد . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من قرن . فجلسوا كلهم إلا رجلاً واحداً . فقال له عمر ، أرني أنت ؟ فقال نعم . فقال أتعرف أويس بن عامر القرني ؟ فوصفه له ، فقال نعم ، وماذا تسأل عنه يا أمير المؤمنين ! والله ما فينا أحق منه ، ولا أجن منه ، ولا أوحش منه ، ولا أدنى منه . فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال ، ما قلت ما قلت إلا لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) يقول ، يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر . فقال هرم بن حبان ، لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب ، قدمت الكوفة . فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أويسا القرني ، وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالساً على شاطئ الفرات نصف النهار ، يتوضأ ويفسل ثوبه . قال فعرفته بالنعمة الذي نعت لي ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة ، مخلوق الرأس ، كث اللحية ، متغير جداً ، كرى الوجه ، متهيب المنظر . قال فسلمت عليه ، فرد علي السلام ونظر إلي . فقلت حيّاك الله من رجل . ومددت يدي لأصافه ،

(١) حديث إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين أشار به إلى أويس القرني تقدم في قواعد العقائد لم أحده أصلاً

(٢) حديث عمر يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أويسا ورويناه في جزء ابن السكيت من حديث

أبي أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر واساده حسن وليس فيه

ذكر لأويس بل في آخره فكان الشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان

فَأَنبَأَنِي أَن يَصَاحُنِي . فَقُلْتُ رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أُوَيْسَ وَغَفَرَ لَكَ ، كَيْفَ أَنْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ . ثُمَّ خَنَقَتْنِي الْعَبِيرَةُ مِنْ حَبِي إِيَاهُ ، وَرَقَّتْ عَلَيْهِ ، إِذْ رَأَيْتُ مِنْ حَالِهِ مَا رَأَيْتُ ، حَتَّى بَكَيتُ وَبَكَى . فَقَالَ وَأَنْتَ خَيْالُكَ اللَّهُ يَا هَرَمَ بْنَ حَبَانَ ، كَيْفَ أَنْتَ يَا أَخِي ؟ وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ . فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ ، إِنْ كَانَ وَعَدَ رَبُّنَا لِمَفْعُولَا . قَالَ فَمَجِيتُ حِينَ عَرَفَنِي ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا رَأَى . فَقُلْتُ مَنْ أَيْنَ عَرَفْتَ اسْمِي وَاسْمَ أَبِي ، وَمَا رَأَيْتُكَ قَبْلَ الْيَوْمِ ؟ قَالَ نَأْتِي الْعَلِيمَ الْخَبِيرَ ، وَعَرَفْتُ رُوحِي رُوحَكَ ، حِينَ كَلِمْتَ نَفْسِي نَفْسَكَ ، إِنْ الْأَرْوَاحُ لَهَا أَنْفُسٌ كَأَنْفُسِ الْأَجْسَادِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَيَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَحَابُونَ بِرُوحِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَلْتَقُوا ، يَتَعَارَفُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ وَإِنْ نَأَتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَتَفَرَّقَتْ بِهِمُ الْمَنَازِلُ . قَالَ قُلْتُ حَدَّثَنِي وَلَحَمَكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِحَدِيثِ أَسْمَعَهُ مِنْكَ . قَالَ إِنِّي لَمْ أَدْرِكْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ تَكُنْ لِي مَعَهُ صَحْبَةً . بِأَبِي وَأُمِّي رَسُولَ اللَّهِ . وَلَكِنْ رَأَيْتُ رِجَالًا قَدْ صَحَبُوهُ ، وَبَلَّغْنِي مِنْ حَدِيثِهِ كَمَا بَلَّغَكَ ، وَلَسْتُ أَحِبُّ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ ، أَنْ أَكُونَ مَحْدُثًا ، أَوْ مُفْتِيًا ، أَوْ قَاضِيًا . فِي نَفْسِي شُغْلٌ عَنِ النَّاسِ يَا هَرَمَ بْنَ حَبَانَ . فَقُلْتُ يَا أَخِي اقْرَأْ عَلَى آيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ أَسْمَعُهَا مِنْكَ ، وَادْعَ لِي بِدَعَوَاتٍ ؛ وَأَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ أَحْفَظُهَا عَنْكَ ، فَإِنِّي أَحْبَبْتُ فِي اللَّهِ حَبَابًا شَدِيدًا . قَالَ فَقَامَ وَأَخَذَ يَدِي عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ ، ثُمَّ قَالَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ بَكَى ، ثُمَّ قَالَ ، قَالَ رَبِّي ، وَالْحَقُّ قَوْلُ رَبِّي ، وَأَصْدَقُ الْحَدِيثِ حَدِيثُهُ ، وَأَصْدَقُ الْكَلَامِ كَلَامُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(١)) حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ^(٢)) فَشَقَّ شَهْقَةً ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ غَشَى عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ ، يَا ابْنَ حَبِيَّانَ ، مَاتَ أَبُوكَ حَبِيَّانَ ، وَيُوشِكُ أَنْ تَمُوتَ ، فَإِنَّمَا إِلَى جَنَّةٍ وَإِنَّمَا إِلَى نَارٍ . وَمَاتَ أَبُوكَ آدَمَ ، وَمَاتَتْ أُمُّكَ حَوَاءُ ، وَمَاتَ نُوحٌ ، وَمَاتَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، وَمَاتَ مُوسَى نَبِيُّ الرَّحْمَنِ ، وَمَاتَ دَاوُدُ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَمَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ ، وَهُوَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَمَاتَ أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَاتَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَخِي وَصِيفِي . ثُمَّ قَالَ يَا عَمْرَاهُ يَا عَمْرَاهُ . قَالَ فَقُلْتُ رَحِمَكَ اللَّهُ إِنْ عَمْرُ لَمْ يَمُتْ ، قَالَ فَقَدْ نَعَاهُ إِلَى رَبِّي ، وَنَعَى إِلَى نَفْسِي

ثم قال ، أنا وأنت في المونى كآته قد كان ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ،
ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال هذه وصيتي إياك يا هرم بن حبان ، كتاب الله ، وسهج الصالحين
المؤمنين ، فقد نعت إلى نفسى ونفسك ، عليك بذكر الموت ، لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت
وأندر قومك إذا رجعت إليهم ، وانصح للأمة جميعا . وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر ،
فتفارق دينك وأنت لا تعلم ، فتدخل النار يوم القيامة . ادع لى ولنفسك . ثم قال ، اللهم
إن هذا يزعم أنه يحبني فيك ، وزارني من أجلك ، فعرفني وجهه في الجنة ، وأدخله على في
دارك دار السلام ، واحفظه مادام في الدنيا حيثما كان ، وضم عليه ضيمته ، وأرضه من الدنيا
باليسير ، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا ، واجعله لما أعطيته من نعمائك من
الشاكرين ، وأجزه عنى خير الجزاء . ثم قال استودعك الله يا هرم بن حبان ، والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني ، فإني أكره الشهرة ، والوحدة
أحب إلي ، إني كثير الهم ، شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا ، فلا تسأل عنى
ولا تطلبني ، واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذا كرتني ، وادع لى ، فإني سأذكرك
وأدعوك إن شاء الله . انطلق أنت ههنا ، حتى أنطلق أنا ههنا . فخرصت أن أمشي معه
ساعة ، فأبى على ، وفارقت ، فبكى وأبكاني ، وجعلت أنظر في قفاه ، حتى دخل بعض
السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك ، فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء ، رحمه الله وغفرله
فكذبا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا . وقد عرفت مما سبق في بيان
الدنيا ، ومن سيرة الأنبياء والأولياء ، أن حد الدنيا كل ما أظلمته الخضراء ، وأظلمته الغبراء ،
إلا ما كان لله عز وجل من ذلك . وضد الدنيا الآخرة ، وهو كل ما أريد به الله تعالى ، مما
يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا ، لأجل قوة طاعة الله ، وذلك ليس من الدنيا . ويتبين
هذا بمثال . وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج ، لا يشتغل بغير الحج ، بل يتجرده
ثم اشتغل بحفظ الزاد ، وعلف الجمل وخرز الراوية ، وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه
ولم يكن مشغولا بغير الحج . فكذلك البدن مركب النفس ، تقطع به مسافة العمر ، فتعبد
البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل ، هو من الآخرة لا من الدنيا .

نعم إذا قصد نلذ البدن، وتنعمه بشئ من هذه الأسباب، كان منحرفاً عن الآخرة، ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنafsى، كنت على باب بنى شيبه فى المسجد الحرام سبعة أيام طابوا فسمعت فى الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم، ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا فى حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى

بيان

حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت هم الخلق حتى أنستهم أنفسهم

وخالقهم ومصدرهم وموردتهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظ، وله فى إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك

أما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها، فهى الأرض وما عليها. قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(١)) فالأرض فراش للآدميين، ومهاد، ومسكن، ومستقر، وما عليها لهم ملابس، ومطعم، ومشرب، ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات، فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى. وأما المعادن، فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، والنقد كالذهب والفضة، وغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان، فينقسم إلى الإنسان، والبهائم. أما البهائم، فيطلب منها لحومها للماكلى، وظهورها للمراكب والزينة، وأما الإنسان فقد يطلب الآدمى أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يفرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هى الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله تعالى فى قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ^(٢)) وهذا من الإنس (وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ^(٣)) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليوافيت وغيرها (وَالْخَلِيلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ^(٤)) وهى

(١) الكهف: (٢ و ٣ و ٤) آل عمران: ١٤

البهائم والحيوانات (وَالْحَرْثُ^(١)) وهو النبات والزرع

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين ، علاقة مع القلب ، وهو حبة لها وحظه منها ، وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد ، أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا ، كالكبر ، والغل ، والحسد والرياء ، والسمعة وسوء الظن ، والمداينة ، وحب الثناء ، وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها ، العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها . والخلق إنما نسوا أنفسهم ، ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا ، لهاتين العلاقتين ، علاقة القلب بالحسب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها ، علم أن هذه الأعيان التي سمينها دنيا ، لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى . وأعنى بالدابة البدن . فإنه لا يبقى إلا بمطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن . كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف ، وماء ، وجلال

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده ، مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ، ولا يزال يعلف الناقة ، ويتعهدا ، وينظفها ، ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ، ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة ، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة ، وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمل من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتعهد وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر الآخرة ، لا يشتغل بتعهد البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة . ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراج من البطن ، في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همه ما يدخل بطنه فقيمه ما يخرج منها . وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن . فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون . ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور ، واقتصروا عليه لم يستغرقهم أشغال الدنيا . وإنما استغرقهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها ، وحظوظهم منها . ولكنهم

(١) آل عمران : ١٠٤

جهلوا وغفلوا ، وتتابعت أشغال الدنيا عليهم ، واتصل بعضها ببعض ، وتدأعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا في كثرة الأشغال ، ونسوا مقاصدها . ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها ، حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى ، وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول :

الأشغال الدنيوية هي الحرف ، والصناعات ، والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها وسبب كثرة الأشغال ، هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث ، القوت ، والمسكن ، والملبس فالقوت للغذاء والبقاء ، والملبس لدفع الحر والبرد ، والمسكن لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت ، والمسكن ، والملبس ، مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه . نعم خلق ذلك للبهايم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه ، فيستغنى عن البناء ، ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فيستغنى عن اللباس . والإنسان ليس كذلك ، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات ، هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية : وهي الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناس ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر المنزل والحياطة ، فللملبس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للمواشي . والخيل أيضا للمطعم والركب . والاقتناس نعتي به تحصيل ما خلقه الله من صيد ، أو معدن ، أو وحشيش ، أو حطب فالفلاح يحصل النباتات ، والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها ، والمقتنص يحصل ما نبت ويتبع بنفسه من غير صنع آدمي . وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي . ونعني بالاقتناس ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات ، كالحياكة ، والفلاحة ، والبناء ، والاقتناس والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرها أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع آخر من الصناعات ، التجارة ، والحدادة والخز : وهؤلاء هم عمال الآلات . ونعني بالتجار كل عامل في الخشب كيفما كان . وبالحدادة كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والبرص وغيرها . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ، فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها .

فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده ، بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين ، أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما . والثاني : التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولترية الولد . فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة . والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه اجتماع مع الأهل والولد في المنزل ، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ، ليتكفل كل واحد بصناعة ، فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده ، وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز . وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس ، وهو يفقر إلى حراسة القطن ، وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة . فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده ، وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة ، لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ، ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبمأمنه من الآلات ، والأثاث ، والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر ، وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها . لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون ، والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل . فحدثت البلاد لهذه الضرورة

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا ، تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رئاسة ، وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة ، بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج ، والولد يخاصم الأبوين ، وهذا في المنزل وأما أهل البلاد أيضا ، فيتعاملون في الحاجات ، ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا . وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة ، يتواردون على المراعي ، والأراضي ، والمياه ، وهي لا تنق بآغراضهم ، فيتنازعون لا محالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة ، بمعنى ، أو مرض ، أو هرم ، وتعرض عوارض مختلفة ، ولو ترك ضائعا لهلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا . ولو خص واحد من غير سبب يخصصه لكان لا يدعن له . فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى ، فمنها صناعة المساجد

التي بها تعرف مقادير الأرض ، لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية ، لحراسة البلد بالسيف ، ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم ، والتوصل لفصل الخصومة . ومنها الحاجة إلى الفقه ، وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده ، حتى لا يكثر النزاع ، وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لا بد منها ، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم ، والتميز ، والهداية . وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ، ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم ، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلاً ، تعطلت الصناعات . ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت ، تعطلت البلاد عن الحراس ، واستضر الناس . فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت . أو تصرف الفنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار فإن كانوا أهل ديانة وورع ، قنعوا بالقليل من أموال المصالح . وإن أرادوا التوسع ، فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يعدم أهل البلد بأهوالهم ، ليدوم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخرى ، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال ، وهم العمال . وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون . وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة ، وهم الخزائن . وإلى من يفرق عليهم بالعدل ، وهو الفارض للمساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة ، انحرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم ، وأمير مطاع يمين لكل عمل شخصاً ، ويختار لكل واحد ما يليق به ، ويراعى النصفة في أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب ، وتوزيع أسلحتهم ، وتعيين جهات الحرب ، ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم ، إلى غير ذلك من صناعات الملك . فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح ، وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكائلة ويدبرهم ، الحاجة إلى الكتاب ، والجزان ، والحساب ، والجباة ، والعمال . ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى معيشة ، ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف ،

الفلاحون ، والرعاة ، والمحترفون . والثانية الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة المرددون بين
 الطائفتين في الأخذ والعطاء ، وهم العمال ، والجباة ، وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر
 من حاجة القوت ، والملبس ، والمسكن ، وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا ، لا يفتح
 منها باب ، إلا وينفتح بسببه أبواب آخر وهكذا تنتهي إلى غير حد محصور ، وكأنها
 هاوية لانهاية لعمقها ، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي
 فهذه هي الحرف والصناعات ، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات ، والمال عبارة عن
 أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلامها الأغذية ، ثم الأمكنة التي يأوى الإنسان
 إليها وهي الدور ، ثم الأمكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت ، والأسواق ، والمزارع ثم
 الكسوة ، ثم أثاث البيت وآلاته . ثم آلات الآلات وتكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب
 آلة الصيد والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب في الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع ، فإن
 الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن
 فيها الزراعة ، فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ، ويحتاجان إلى الفلاح . فيحتاج أحدهما أن
 يبذل ما عنده للآخر ، حتى يأخذ منه غرضه ، وذلك بطريق المعاوضة إلا أن النجار مثلا
 إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ، ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آله ، فلا يبيعه
 والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ، ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت ، فلا يحتاج
 إليه . فتتوق الأغراض . فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ، ليرصدها صاحبها
 لأرباب الحاجات . وإلى آيات يجمع إليها ما يحمله الفلاحون ، فيشتريه منهم صاحب الآيات
 ليرصده به أرباب الحاجات . فظهرت لذلك الأسواق والمخازن ، فيحمل الفلاح الحبوب ،
 فإذا لم يصادف محتاجا ، باعها بضمن رخيص من الباعة ، فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات
 طمعا في الربح . وكذلك في جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد
 والقرى تردد ، فيتردد الناس ، يشترون من القرى الأطعمة ، ومن البلاد الآلات وينقلون
 ذلك ويتعيشون به ، لتنظيم أمور الناس في البلاد بسببهم ، إذ كل بلد ربما لا توجد فيه
 كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام . فالبعض يحتاج إلى البعض ، فيجوز إلى النقل
 فيحدث التجار المتكفلون بالنقل ، ويبيعونهم عليه حرم جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول

الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لأعماله غيرهم إما قاطع طريق ، وإما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولوعقل الناس وارتفعت همهم زهدوا في الدنيا . ولو فعلوا ذلك ، لبطلت المعاش ولوبطلت لهلكوا ، ولهلك الزهاد أيضا ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها ، فتحتاج إلى دواب تحملها .

وصاحب المال فلا تكون له دابة ، فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة . ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا . ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدين ، فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب ، فن أين يدرى المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو . والمعاملة تجري في أجناس مختلفة ، كما يباع ثوب بطعام ، وحيوان بثوب . وهذه أمور لا تتناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين ، يعدل أحدهما بالآخر ، فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن ، فأتخذت النقود من الذهب ، والفضة ، والنحاس . ثم مست الحاجة إلى الضرب ، والنقش ، والتقدير ، فست الحاجة إلى دار الضرب والصارفة : وهكذا تتداعى الاشغال والأعمال بعضها إلى بعض ، حتى انتهت إلى ما تراه

فهذه أشغال الخلق ، وهي معاشهم . وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء . وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع ، فيبقى عاجزا عن الاكتساب ، لعجزه عن الحرف . فيحتاج إلى أن يأكل مما يسمى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان ، اللصوصية ، والكداية . إذ يجمعها أهما يأكلان من سعي غيرهما . ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم ، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير أما اللصوص ، فمنهم من يطلب أعوانا ، ويكون في يديه شوكة وقوة ، فيجتمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم ، فيفزعون إلى الجيبل ، إما بالنقب أو بالنسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طارارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص ، الحادثة بحسب ما تنتجها الأفكار المصروفة إلى استنباطها

وأما المكدي ، فإنه إذا طلب مأسى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة ، فلا يعطى شيئاً . فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال ، وتعيد العذر لأنفسهم في البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة ، كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ، ليعذروا بالعمى فيعطون . وإما بالتعامى ، والتفالج ، والتجانن ، والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل ، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالا ، يتعجب الناس منها ، حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخروا برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ، ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر ، والمحاكاة ، والشعبذة ، والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة ، والكلام المنشور المسجع ، مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيراً في النفس ، لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت . أو الذى يحرك دعاية العشق من أهل المجانة كصناعة الطبالين في الأسواق وصناعة ما يشبه العوض وليس بعوض ، كبيع التعويذات والحشيش ، الذى يخيل بأفعاله أنها أدوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل في هذا الجنس الوعاظ ، والمكدون على رءوس المنابر ؛ إذا لم يكن وراءهم طائل علمي ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع والفن ، وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة

فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها ، وجرم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ، ومقصودهم ، ومنقلبهم ، ومآبهم فتأهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ، خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدة أوجه . فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا . وهذا مذهب الفلاخين والمحترفين ، ومن ليس له تنعم في الدنيا ، ولا قدم في الدين . فإنه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ، ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً

وذلك كسير السواني، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت . وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا الأمر، وأنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم، وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان، وجمع لذائذ الأطعمة . يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة . فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال، والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم، وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة، ويكتسبون ويجمعون، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة، شحاً وبخلاً عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تبعه ووباله، وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء، والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش، ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة، والدواب النفيسة . ويصرفون أبواب الدور، وما يقع عليها أبصار الناس، حتى يقال إنه غنى، وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هي السعادة فهمتهم في نهارهم وليلهم، في تمهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا همهم إلى استجزار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات، وتقلد الأعمال السلطانية، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم، وانقادت لهم رعاياهم، فقد سعدوا وسعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله، وعن عبادته، وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم . ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . وإنما جرمهم إلى جميع ذلك حاجة المطم والملبس والسكن، ونسوا ما ترادله هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاد لم يمكنهم الرقي منها

فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل ، إلا وهو عالم بمقصوده ، وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك . وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه ، وفرغ القلب ، وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له . وإن تعدى به قدر الضرورة ، كثرت الأشغال ، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية . فتشعب به الهموم . ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، فلا يبالى الله في أى واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة ، فأعرضوا عن الدنيا ، فحسدوهم الشيطان ، ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضا ، حتى انقسموا إلى طوائف ، فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها ، سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم ، للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند ، فهم يتهجمون على النار ، ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا . وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص ، بل لابد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب . ثم أقبلوا على المجاهدة وشدوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجن ، وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية ، فظن أن ما كلفه الشرع محال ، وأن الشرع تليس لا أصل له ، فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد ، لا ينقصه عصيان طاعة ولا تزيده عبادة متعبد . فعادوا إلى الشهوات ، وسلكوا مسلك الإباحة ، وطوروا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم ، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد . وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة ، حتى يصل المبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيطة ، فتركوا السعى والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتنعوا بالتكاليف وإثبات التكليف على عوام الخلق . ووراء هذا مذاهب باطلة ، وضلالات هائلة ، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة . وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهى السالكة ما كان عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالسكينة . ولا يقيم الشهوات بالسكينة . أما الدنيا ، فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات ، فيقيم منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولا يتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة . بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا . بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ، ويحفظه على حدم مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكنهه همتة ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ، ومراقباً لها ، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى . ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالافتاء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام ^(١) لما قال « النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ » قالوا يا رسول الله . ومن هم ؟ قال « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ » فقيل ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل . فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين . وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالسكينة . وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط . بل كان أمرهم بين ذلك قواماً . وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع ، والله أعلم

تم كتاب ذم الدنيا ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) حديث افتراق الأمة وفيه الناجي منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة - الحديث : الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفريق أمي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار الاملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي ولا بني داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة . وأسانيدنا جياداً

فهرست الجزء التاسع

الصفحة	الصفحة
مطابته صلى الله عليه وسلم لخوات الانصارى ١٥٧٦	١٥٥١ الآفة الثالثة - الخوض في الباطل ١٥٥٢ خطر الكلمة التى يستهونها المرء
مزاحه صلى الله عليه وسلم مع نعيمان الانصارى ١٥٧٧	١٥٥٣ الآفة الرابعة - المرء والجدال ١٥٥٣ ماورد في ذم المرء والجدال ١٥٥٤ حد المرء - المجادلة الباعث على المرء والجدل علاج المرء والجدل ١٥٥٥
الآفة الحادية عشر - السخرية والاستهزاء ١٥٧٨	١٥٥٦ الآفة الخامسة - الخصومة الخصومة المدمومة - الخصومة لنيل الحق ١٥٥٨
متى لا تكون السخرية ذنباً ١٥٧٨	١٥٥٨ الخصام مبدأ الشرور ١٥٥٩ الآفة السادسة - التقعر في الكلام ١٥٦٠ ما ورد في التشديق والتصنع
افشاء السر عشرة - افشاء السر افشاء السر خيانة مظمى ١٥٧٩	١٥٦١ الآفة السابعة - الفحش والسب وبذاء اللسان ١٥٦١
الآفة الثالثة عشرة - الوعد الكاذب علامات النفاق ١٥٨٠	١٥٦٢ حد الفحش - كيف يتحدث المتأدبون ١٥٦٣ الباعث على الفحش
صاحب الثمانين والراعى ١٥٨١	١٥٦٣ الآفة الثامنة - اللعن تأديب الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ١٥٦٤
الآفة الرابعة عشرة - الكذب في القول واليمين ١٥٨٢	١٥٦٤ حد اللعن ١٥٦٥ مقتضيات اللعن - مراتب اللعن ١٥٦٦ الاحتياط الشديد في لعن شخص بعينه
الكذب في ملاعبة الصبيان ١٥٨٥	١٥٦٦ سياسته صلى الله عليه وسلم في فصل الخصومة ١٥٦٦
الآثار في ذم الكذب ١٥٨٧	١٥٦٦ خطر رمى المسلم بالكفر أو الفسق ١٥٦٧ النهى عن سب الأموات ١٥٦٨ لعن المؤمن كقتله ١٥٦٩ الآفة التاسعة - الغناء والشعر التصريح ببعض المبالغة في الشعر ١٥٧٠
بيان - ما رخص فيه من الكذب الكذب الواجب والكذب المباح ١٥٨٨	١٥٧١ الآفة العاشرة - المزاح خطر المداومة على المزاح والافراط فيه ١٥٧٢ كثرة الضحك تميته القلب ١٥٧٣ المزاح مسقط الوقار ١٥٧٣ القدر المسموح به من المزاح بعض أمثلة من مزاحه صلى الله عليه وسلم ١٥٧٤
أدلة الترخيص في الكذب المباح ١٥٨٩	١٥٧٤ مزاحه صلى الله عليه وسلم مع السيدة عائشة رضى الله عنها ١٥٧٥
ما يرخص فيه الكذب ١٥٩٠	
الكذب لدفع الضرر عن النفس والغير دقة الحد المبيح للكذب ١٥٩١	
خطر وضع الأحاديث لظن المصلحة ١٥٩٢	
بيان - الحذر من الكذب بالمعارض أمثلة التعريض ١٥٩٣	
المزاج والكذب فيه ١٥٩٤	
بعض الكذب المعتاد ١٥٩٥	
الكذب في الرؤيا ١٥٩٥	
الآفة الخامسة عشرة - الغيبة ١٥٩٦	
مذمة الغيبة في الكتاب والسنة ١٥٩٦	
أثر الغيبة في الصوم ١٥٩٧	
الغيبة وعذاب القبر ١٥٩٨	
الفرق بين الهمز والهمز ١٥٩٩	
بيان معنى الغيبة وحدودها حد الغيبة ١٦٠٠	
الغيبة في الدين ١٦٠١	
بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان ١٦٠١	

الصفحة	الصفحة
تكذيب الممام - نهيه - بغضه	طرق الغيبة المختلفة وأمثلتها
تحسين الظن بأخيه - التحرز عن التجسس	١٦٠٢ أخبت أنواع الغيبة
١٦٢٢ ملازمه النمام للصفات الذميمة	١٦٠٣ الأصغاء الى الغيبة غيبة
١٦٢٣ السعاية	١٦٠٤ بيان الاسباب الباعثة على الغيبة
١٦٢٤ تأثير النميمه في الفرقة بين الزوجين	الحقد والغضب
١٦٢٥ الآفة السابعة عشرة - كلام ذي اللسانين	مجاملة الاصحاب - المهاجمة للدفاع
مدمة ذي اللسان	١٦٠٥ عن النفس
١٦٢٦ تحديد ذي اللسانين	اتهام الغير لتبرئة النفس - المباهاة
١٦٢٧ الآفة الثامنة عشرة - المدح	والتصنع
آفات المدح - الكذب - الرياء	الحسد - الهزل والمطايبة
١٦٢٨ عدم جواز مدح الفاسق أو الظالم	السخرية والتحقير - اظهار التعجب من
احداث الكبر في المدح	١٦٠٦ حال المخطيء
فتور المدح وكسله	اظهار الرحمة والغضب لله تعالى
١٦٣٠ بيان ما على المدح - بيان واجبه	بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن
١٦٣١ الآفة التاسعة عشرة - الغفلة عن دقائق الخطأ في محو الكلام	الغيبة
أدب الرسول مع الله عز وجل	علاج الغيبة على الجملة
بعض مالا يجوز قوله مما اعتاده الناس	١٦٠٨ الغضب
١٦٣٢ الآفة العشرون - سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف	١٦٠٩ عدم موافقة الجلساء في معاصيهم
كتاب ذم الغضب والحقد	تنزيه النفس بإتهام الغير
والحسد	عدم الاقتداء بالغير في المعاصي
١٦٣٦ بيان ذم الغضب	المباهاة وتزكية النفس
١٦٣٧ ذم الغضب في القرآن - والغضب في الحديث	١٦١٠ الحسد - الاستهزاء بالغير
بعض الآثار في ذم الغضب - الحمق	الغيبة عن طريق الرحمة
١٦٣٩ يجلب الشرور	الغيبة عن طريق الغضب لله تعالى
١٦٤٠ اعقل الناس أقلهم غضبا	التعجل
بيان حقيقة الغضب	١٦١١ بيان تحريم الغيبة بالكتاب
١٦٤٠ طبيعة تكوين الجسم تقتضي فناؤه	١٦١٢ علامة عقد سوء الظن
الاسباب الخارجية عن الجسم التي	علاج الخاطر السيء - كيفية نصح
١٦٤١ : تهلك فناؤه	المسلم
١٦٤٢ ذم الافراط في الغضب	بيان الاعداد المخصصة في الغيبة
استجاب الافراط في الغضب	١٦١٤ التظلم - الاستعانة على تغيير المنكر
١٦٤٣ اثر الغضب في الظاهر	الاستفتاء - تحذير المسلم من الشر
	ذكر اللقب المعروف به - التجاهر
	١٦١٥ بالفسق
	بيان كفارة الغيبة - الاستحلال
	والاستغفار
	١٦١٦ التحليل وحكمه
	١٦١٧
	١٦١٨ الآفة السادسة عشرة الثمينة
	ذم النمام في الكتاب
	١٦٢٠ بيان - حد النميمه وما يجب في ردّها
	١٦٢١ الإيماث على النميمه - وإيجاب النميم له -

الصفحة	الصفحة
منع الحق	ابره في اللسان . ابره في الاعضاء
١٦٦٧ فضيلة العفو والاحسان	ابره في القلب
١٦٧٠ الآثار في فضل العفو	١٦٤٤ الغيرة من عزائم الأمور
١٦٧٢ فضيلة الرفق	الفصص المدوح
الاحاديث في فضله الرفق	بيان الغضب هل يمكن ازالة أصله
١٦٧٤ الآثار الواردة في الرفق	١٦٤٥ بالرياضة أم لا
القول - في ذم الحسد وفي حقيقته	افسام ما يحبه الانسان - الضرورات -
١٦٧٥ وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في	الكماليات
أرائته	الضرورات في حق البعض دون البعض
بيان ذم الحسد	١٦٤٦ تهذيب العصب لعوات الضرورات
١٦٧٦ الأحاديث الواردة في ذم الحسد	١٦٤٧ تهذيب الغضب لعوات الكماليات
١٦٧٨ الآثار الواردة في ذم الحسد	١٦٤٩ بيان الأسباب المهيجه للغضب
١٦٧٩ المسء مجزى بأساءته	١٦٥٠ لس الغضب شحاعة
بيان - حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه	١٦٥١ بيان علاج الغضب بعد هيجه
١٦٨٠ ومرابه	رجاء نواب كظم الغبط
حد الحسد - حد العبطة	الخوف من الله تعالى
١٦٨١ الدليل على تحريم الحسد	١٦٥٢ الحذر من الاكثار من الأعداء
١٦٨٢ المنافسة وحكمها	النفور من صورة الغصبان
١٦٨٣ المنافسة تعزيرها الاحكام الشرعية	١٦٥٣ الجلوس والاضطجاع عند الغضب
١٦٨٥ بيان - أسباب الحسد والمنافسة	الوضوء عند الغضب
أسباب المنافسة ، أسباب الحسد	السجود لله مذهب للغضب
١٦٨٦ العداوة والبغضاء	١٦٥٤ فضيلة كظم الغبط
١٦٨٧ التعزز - الكبر - التعجب	١٦٥٥ الأحاديث الدالة على فضيلة كظم
١٦٨٨ الخوف من فون المقاصد	الغبط
حب الرياسة - خبث النفس	١٦٥٦ الآثار الواردة في كظم الغبط
بيان - السبب في كثرة الحسد بين	بيان - فضيلة الحلم - كيفية الوصول
الأمنال والاقران والاخوة وبنى العم	الى الحلم
والاقراب وتأكده وقلته في غيرهم	١٦٥٧ الأحاديث في فضيلة الحلم
١٦٨٩ وضعفه	١٦٦٠ الآثار الواردة في فضل الحلم
١٦٩٠ ابن يكون الحسد - منشأ الحسد	حلم على بن الحسين . حكم غالية لابن
مقارنة بين العلم والمال - انتفاء الحسد	منبه
١٦٩١ في الجنة	١٦٦١ بيان - القدر الذي يجوز الانتصار
بيان - الدواء الذي ينفي مرض	والتسفى به من الكلام
١٦٩٢ الحسد عن القلب	١٦٦٢ امثلة مما يجوز الرد على الشانم به
١٦٩٣ ضرر الحسد على دين العاسد	دليل جواز الرد على الشانم
ضرر الحسد في الدنيا	درجات الناس في الغضب
عدم ضرر المحسود بالحسد في الدين	القول - في معنى الحققد ونتائجه
والدنيا	١٦٦٥ فضيلة العفو والرفق
انتفاع المحسود على حساب حاسده	مساوىء الحققد - الحسد - الشماتة
١٦٩٤ في الآخرة	الهجر
	الاعراض - الغيبة - الاستهزاء -
	الإيداء
	١٦٦٦

الصفحة

- نميلها بالسفينة واخلاف احوال
ركابها
١٧٣٢ مثال لضعف الایمان والاعتذار بالدنيا
الدسارارية لا يملكها أحد
بيان - حقيقة الدنيا وماهيها في حق
العد ١٧٣٣
ما يصحب الانسان في الآخرة من
حفظ الدنيا ١٧٣٤
حفظ الدنيا الى لانمرة لها في الآخرة ١٧٣٤
الخطوط العاجلة المعينة على الآخرة
شهادة ابن الخطاب في اويس القرني ١٧٣٩
زيارة ابن حبان الاويس القرني
بيان - حقيقة الدنيا في نفسها
وأشغالها الخ ١٧٤٢
أعيان الدنيا الموجودة بها
تفصيل أشغال الدنيا ١٧٤٤
أصول الصناعات - آلات الصناعات
حاجة الانسان الى الاجتماع ١٧٤٥
حاجة الانسان الى إنشاء البلاد
الحاجة الى أهل السياسة والحرف
وغيرها
الحاجة الى الخراج وعماله - الحاجة
الى الملك ١٧٤٦
الحاجة الى الأسواق والخوانيت ١٧٤٧
الحاجة الى التجار
حاجة الناس الى النقد - كيف ينشأ
قطاع الطريق واللصوص
والمسولون ١٧٤٨
التسول وفنونه - وجهة نظر الجهال
في الحياة ١٧٤٩
وجهة نظر أصحاب الشهوات ١٧٥٠
وجهة نظر جامعي المال - وجهة نظر
عباد الظاهر - وجهة نظر عباد الجاه
المتعبدون بقتل أنفسهم - سبب من
أسباب الإلحاد ١٧٥١
الإباحيون - المخسرون - الفرقة
الناجية

الصفحة

- المحسود يغبط باغمام حاسده
الوقوف في شباك الشيطان بالحسد ١٦٩٥
علاج الحسد بمخالفة نفسه ١٦٩٦
النساء في الصبر على مرارة الدواء ١٦٩٧
بيان - القدر الواجب في نفى الحسد
بيان القدر الواجب في نفى الحسد ١٧٠٠
عن القلب (حالة المرء مع أعدائه) ١٧٠٠
كتاب ذم الدنيا
١٧٠٢
بيان ذم الدنيا ١٧٠٣
الأحاديث الواردة في ذم الدنيا ١٧٠٤
تحذير سيدنا عيسى عليه السلام من
الدنيا ١٧٠٥
التكالب على الدنيا يورث الهموم ١٧٠٦
احتقار الله للدنيا منذ خلقها ١٧٠٧
مركز ابن آدم بين الدنيا والآخرة ١٧٠٨
حب الدنيا طريق الهلوكه ١٧١٠
تحذير أبي الدرداء من الدنيا ١٧١١
الأثار الواردة في ذم الدنيا ١٧١٢
بيان - المواعظ في ذم الدنيا وصفتها ١٧١٩
نصيحة الحسن البصري لعمر بن
عبد العزيز ١٧٢٠
خطبة على كرم الله وجهه في ذم الدنيا ١٧٢٢
خطبة عمر بن عبد العزيز ١٧٢٣
خطبة لعلى كرم الله وجهه ١٧٢٤
مظة لمحمد بن الحسين
بيان صفة الدنيا بالأمثلة
تمثيل الدنيا بالحلم - تمثيل الدنيا
بالمرأة الفادرة ١٧٢٥
تمثيلها بالعجوز المزينة المظهر القبيحة
المخبر ١٧٢٦
تمثيل الدنيا بالقنطرة
تمثيلها بالحية ١٧٢٧
تمثيل الدنيا بالماء لا بد أن يتل خائضه ١٧٢٨
تمثيلها بالنوب المشقوق بالمتعلق على
خيط
تمثيل طالب الدنيا بشارب ماء البحر ١٧٢٩
تمثيلها بالطعام اللذيذ اوله الخبيث
آخره
١٧٣٠ تمثيل الدنيا بالنسبة للآخرة

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء العاشر

دار الشعب

٩٥ شارع نصر، القاهرة ١١٠ ٣١٨١٠

کتاب فی تم البخل و ذم حب المال

كتاب قيم النخل وذم المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذي خلق الخلق
ووسع الرزق ، وأفاض على العاملين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ،
وردهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ،
والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف
على المفقود ، والإيثار والإتفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل
واستحقار الكثير . كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة
بذلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا .

والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه
الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف
ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطم مخنها . وأعظم فتنه فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم
إذا وجدت فلا سلامة منها . فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا .
وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا ، وبالجملة فهي لا تخلو من
الفوائد والآفات . وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتميز خيرها عن شرها
من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين ، من العلماء الراسخين ذوي
الترسمين المتقين . وشرح ذلك مهم على الأفراد ، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن
نظرا في المال خاصة ، بل في الدنيا عامة . إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض
أجزائها ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفروج بعضها ، ونشوة القبط بعضها .

النصب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها ، ولها أبعاد كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل : ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل ، وللإنسان من فقدته صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى ، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان ، القناعة ، والحرص ، وإحداها مذمومة والأخرى محمودة . وللحرص حالتان ، طمع فيما في أيدي الناس ، وتشمر للحرق والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد حالتان ، إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق وإحداها مذمومة ، والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان ، تبذير ، واقتصاد . والمحمود هو الاقتصاد . وهذه أمور متشابهة ، وكشف البطاء عن الغموض فيها مهم

ومحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى . وهو بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثم ذم الحرص والطمع ، ثم علاج الحرص والطمع ، ثم فضيلة السخاء ، ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء ، ثم الإيثار وفضله ، ثم حد السخاء والبخل ، ثم علاج البخل ، ثم مجموع الوظائف في المال ، ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى

بيان

ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(١)) وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ^(٢)) فن اختار ماله وولده على ما عند الله ، فقد خسر وغبن خسرانا عظيماً ، وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ^(٣)) الآية وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ^(٤)) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال تعالى (أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ ^(٥)) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٦) « حُبُّ أَمْوَالٍ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ فِي الْقُلُوبِ كَمَا

(كتاب ذم البخل وحب المال)

(١) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف

(١) المناقبون : ٩ (٢) التغابن : ١٥ (٣) هود : ١٥ (٤) الملقى : ٦ ، ٧ (٥) التكاثر : ٩

يُنَبِّتُ أَمْثَهُ الْبَقْلُ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) «مَا ذُنْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زُرِيَّةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرِ
إِفْسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
^(٢) «هَلاكُ الْمُكْتَرُونَ إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» ^(٣)
وَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أَمْتِكَ شَرٌّ؟ قَالَ «الْأَغْنِيَاءُ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٤) «سَيِّئَاتِي
بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطْيَابَ الدُّنْيَا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرَةَ الْخَيْلِ وَأَلْوَانَهَا وَيَنْكَحُونَ
أَجَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَهَا وَيَلْبَسُونَ أَجَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الْقَلِيلِ لَا تَشْبَعُ
وَأَنْفُسٌ بِالْكَثِيرِ لَا تَقْنَعُ عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرْوَحُونَ إِلَيْهَا اتَّخَذُوا هَاهُنَا مِنْ
دُونِ إِلَهُهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ إِلَى أَمْرِهَا يَنْتَهَوْنَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ . فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا أَدْرَكَهُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقَبِ عَقَبِكُمْ وَخَلْفِ خَلْفِكُمْ أَنْ لَا يُسَلَّمَ عَلَيْهِمْ
وَلَا يَمُودَ مَرْضَاهُمْ وَلَا يَتَّبِعَ جَنَازَتَهُمْ وَلَا يُوقَّرَ كَبِيرُهُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى

(١) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلتا في زرية غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه في دين الرجل
المسلم: الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جاعلان مكان ضاريان
ولم يقولوا في زرية وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذي حسن صحيح والطبراني في الأوسط
من حديث أبي سعيد ما ذنبان ضاريان في زرية غنم - الحديث : وللبراز من حديث أبي هريرة
ضاريان جاعلان واسناد الطبراني فيهما ضعيف

(٢) حديث هلك الأكترون الامن قال به في عباد الله هكذا وهكذا - الحديث : الطبراني من حديث
عبد الرحمن بن أبي بليظة المكنون ولم يقل في عباد الله ورواه أحمد من حديث أبي سعيد
بلفظ المسكتون وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظهم الأخسرون فقال أبو ذر من هم
فقال هم الاكترون أموالا إلا من قال هكذا - الحديث :

(٣) حديث قيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الأغنياء: غريب لم أجده بهذا اللفظ والطبراني في الأوسط
والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمي الذين ولدوا في النعم وغدوا به
بأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السري في الزهد
له من رواية عروة بن رويم مرسل وللبراز من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ان من شرار
أمي الذين غدوا بالنعم وتبنت عليه أجسامهم

(٤) حديث سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطيب الدنيا وألوانها وينكحون أجل النساء وألوانها - الحديث
بطوله الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة سيكون رجال من أمي يأكلون
ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتفقدون في الكلام أولئك
شرار أمي وسنده ضعيف ولم أجده لباقي أصلا

هَذِمَ الْإِسْلَامَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « دَعَا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » ^(٣) وقال رجل يارسول الله ، مالى لأحب الموت ؟ فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » قال نعم يارسول الله . قال « قَدِّمَ مَالَكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ إِنْ قَدَّبَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أُخْلَا ابْنُ آدَمَ ثَلَاثَةَ وَاحِدٍ يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ وَالثَّلَاثُ إِلَى تَحْشِرِهِ فَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى تَحْشِرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ » وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ، مالك تمتنى على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عنكم ؟ قالوا حسنة . قال لكنهما والمدر عندي سواء .

^(٥) وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ، يا أخى ، إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ اللَّهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَلَمًا تَكْفًا بِهِ الصَّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَيْتَ حَقَّ اللَّهِ فِي نَمِّهِ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ كَفْفِيهِ

(١) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر : البراز من حديث

أنس وفيه هاتى بن التوكل ضعفه ابن حبان

(٢) حديث يقول العبد مالى مالى - الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشيخ وأبي هريرة وقد تدم

(٣) حديث قال رجل يارسول الله مالى لأحب الموت - الحديث : لم أقف عليه

(٤) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثانى إلى قبره - الحديث : أحمد والطبرانى

في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه ورواه أبو داود والطيالسى

وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبرانى في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير

من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع

اثنان ويبقى واحد - الحديث :

(٥) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب

الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه - الحديث : قلت ليس هو من حديث سلمان

لأنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل

للدنيا المال وهو منقطع

كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصَّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ وَيُتْلَى أَلَا أُدَيْتَ حَقَّ اللَّهِ فِيَّ فَأَيَّ زَالٍ كَذَلِكَ حَتَّى
يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالْثُبُورِ . وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر ، في ذم الغنى ومدح
الفقر ، يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره . وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا
فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد في
المال خاصة . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ؟ وَقَالَ
النَّاسُ مَا خَلَّفَ؟ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُجِبُوا الدُّنْيَا »
الآثار : روى أن رجلاً نال من أبي الدرداء ، وأراه سوءاً ، فقال اللهم من فعل بي سوءاً
فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء ، مع
صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه
درهماً على كفه ، ثم قال ، أما إنك ملئم تخرج عني لا تنفعني . وروى أن عمر رضي الله عنه ،
أرسل إلى زينب بنت جحش بعهائها . فقالت ما هذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب
قالت غفر الله له . ثم سلت سترًا كان لها ، فقطعته وجعلته صرراً ، وقسمته في أهل بيتها
ورحمها وأيتامها . ثم رفعت يديها وقالت ، اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا . فكانت
أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقاً به

وقال الحسن ، والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل إن أول ما ضرب الدينار والدرهم
رفعهما إبليس ، ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما وقال ، من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال
سميط بن عجلان ، إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن
معاذ ، الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيقته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل ومارقيقته ؟
قال أخذه من حله ، ووضعته في حقه . وقال العلاء بن زياد ، تمثلت لى الدنيا وعليها من
كل زينة ، فقلت أعوذ بالله من شرك . فقالت إن شرك أن يعيذك الله منى ، فأبغض الدرهم
والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها . فن
صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل

(١) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم . الحديث : البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة
يلغ به وقد تقدم في آداب الصلوة

(٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتجربوا الدنيا : الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ آخر

إني وجدت فلا تظنوا غيره
فإذا قدرت عليه ثم تركته
و في ذلك قيل أيضا

لا يفرنك من المرء قيص رفته
أو إزار فوق عظيم ال ساق منه رفته
أوجبين لاح فيه أثر قد خلعه
أره الدرهم تعرف حبه أو وزعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين ، صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك . تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر ، أقموني ، فأقعدوه . فقال ، أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما ، فإنني لم أمنعهم حقهم ، ولم أعطيهم حقا لغيرهم . وإنما ولدي أحد رجلين ، إما مطيع لله فإله كافيه ، والله يتولى الصالحين . وإما عاص لله ، فلا أبالي على ما وقع وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيرا ، فقيل له لو أدخرته لولدك من بعدك قال لا ، ولكني أدخره لنفسى عند ربى ، وأدخر ربى لولدى . ويروى أن رجلا قال لأبى عبدربه يا أخى ، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبدربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته . قيل وماهما ؟ قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله

بيان

مدح المال والجمع بينه وبين الدم

اعلم أن الله تعالى قد سمي المال خيرا في مواضع من كتابه العزيز ، فقال جل وعز (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ »

(٢) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص

بسنن صحيح بلفظ نعم . وقال الله عز وجل

لَا تَتَّبِعُوا الْبَقَرَةَ : ١٨٥

لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج ، فهو ثناء على المال ، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى (وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ^(١)) وقال تعالى ممتنا على عباده (وَيُعِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ^(٢)) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » وهو ثناء على المال

ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح ، إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه ، وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . فإنه ليس بخير محض ، ولا هو شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً . وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ، ويذم أخرى . ولكن البصير المميز ، يدرك أن المحمود منه غير المذموم . وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه في كتاب الشكر ، من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه ، هو أن مقصداً لكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة ، التي هي النعيم الدائم ، والمملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، من أكرم الناس وأكيسهم فقال « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ أُسْتَعْدَاداً » ، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا ، وهي الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق ، والفضائل البدنية ، كالصحة ، والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن ، كالجمال ، وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة ، فالخارجة أخسها . والمال من جملة الخارجات . وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ، ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ، ولا يرادان لذاتهما . إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها . والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس ، والأعضاء . والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفراً : أبو مسلم البيثي في سنينه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس

وقد تقدم في كتاب ذم الغضب

(٢) حديث أكرم الناس وأكيسهم قال أكرمهم للموت ذكرنا الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر

بلفظ أي المؤمنين أكيس ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف واصحابه جيد

(٣) الكهف : ٨٢ (٢) نوح : ١٢

إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها ، وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب ، فقد عرف قدر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة الطعام والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتا إليها ، غير ناس لها ، فقد أحسن والنفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه . فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح . ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذا محمود مذموم . محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم ^(١) . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه ، فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر ، كما ورد به الخبر . ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها ، وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام ^(٢) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوَّتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللَّهُمَّ ^(٣) أَجْنِبْنِي مِسْكِينًا وَأُمِّتْنِي مِسْكِينًا وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فقال (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ^(٤)) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجازة ، إذ قد كفى قبل النبوة عبادتها مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما جبهما ، والاغترار بهما ، والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم ^(٥) « نَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَنَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهِمِ نَعَسَ وَلَا اتَّقَشَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا اتَّقَشَ » فبين أن محبهما عابد لهما . ومن عبد حبرافه عابد صنم . بل كل

(١) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر : تقدم قبله بسعة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا

(٢) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أجنبني مسكينا : الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٤) حديث نَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ نَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهِمِ - الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل واتقش وإنما علق آخره بلفظ نَعَسَ واتقش ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم ^(٥)

(١) إبراهيم : ٣٥

* أى إذا شاكته شوكه فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالانتقاش

من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ، فهو
كعابد صنم . وهو شرك ، إلا أن الشرك شركان ، شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار ، وقيل
ينفك عنه المؤمنون ، فإنه أخفى من ديب النمل ، وشرك جلى ، يوجب الخلود فى النار نعم ذاب الله من الجميع

بيان

تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق . فقوائده تزيقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف
غوائله وفوائده ، أمكنه أن يحتزم من شره ، ويستدر من خيره
أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية ، فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن
معرفة مشهورة ، مشتركة بين أصناف الخلق . ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها
وأما الدينية ، فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، أو فى الاستعانة على عبادة وأما فى
العبادة ، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من
أهميات القربات . والفقر محروم من فضلها . وأما فيما يقويه على العبادة ، فذلك هو مضم
والملبس ، والمسكن ، والمنكح ؛ وضرورات المعيشة . فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، كان
القلب مصروفاً إلى تدبيرها ، فلا يتفرغ للدين . وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة
فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين ، من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى
هذا التمتع والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط

النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام ، الصدقة ، والمروءة ، ووقاية
العرض ، وأجرة الاستخدام . أما الصدقة ، فلا يخفى ثوابها ، وإنها لتطفى غضب الرب
تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة ، فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء
والأشراف ، فى ضيافة ، وهدية ، وإعانة ، وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة
بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج . إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان
والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ولتحقق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود

إلا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضا مما بمعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا ، والضيافات ، وإطعام الطعام ، من غير اشتراط الفقير والفاقة في مصارفها . . . وأما وقاية العرض ، فنحن به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وتلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته في العاجلة ، من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا وَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صِدْقَةٌ » وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يشور من كلامه من العداوة ، التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة

وأما الاستخدام . فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان انهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر ، الذي هو أعلى مقامات السالكين . ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطحنه ، وكنس البيت ، حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه . وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك ، فأنت متعوب إذا اشتغلت به . إذ عليك من العلم والعمل . والذكر والفكر ، ما لا يتصور أن يقوم به غيرك . فتضييع الوقت في غيره خسران النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب الجباب في الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات . وهي من الخيرات المؤبدة ، الدارة بعد الموت ، المستجابة بركة داعية الصالحين إلى أوقات متمادية . وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال في الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والوصول إلى المزم والمجدين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب . فشكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية وأما الآفات فدينية ، ودنيوية . أما الدينية فتثلاث

الأولى : أن تجر إلى المعاصي ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن المعصية أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية ، لم تتحرك داعيته .

(١) حديث ماوقى للمرء عوضه به فهو صدقة : أي يوقى من حديث جابر وقد تقدم

فإذا استشعر القدرة عليها ، انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية المعاصي وارثكاب الفجور . فإن اتحم ما اشتهاه هلك . وإن صبر وقع في شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يجر إلى التمتع في المباحات ، وهذا أول الدرجات . فمَن يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ، ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليها الصلاة والسلام في ملكه ، فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ، ويعرن عليها نفسه ، فيصير التمتع مألوفاً عنده ، ومحبوباً لا يصبر عنه . ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض في المراءاة ، والمداهنة ، والكذب ، والنفاق ، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياء ، ويتيسر له تنعمه . فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقشهم ، ويعصى الله في طلب رضاهم . فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى ، وهي مباشرة الخطوط ، فلا يسلم عن هذه أصلاً . ومن الحاجة إلى الخلق تنور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، والكذب ، والنميمة ، والغيبة ، وسائر المعاصي التي تنخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضاً إلى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال ، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحد ، وهو أنه يلهمه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى . وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام ، في المال ثلاث آفات . أن يأخذه من غير جله . فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال يضمه في غير حقه . فقيل إن وضعه في حقه ؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ونحوها سرها ذكر الله ، والتفكير في جلاله . وذلك يستدعي قلباً فارغاً . وصاحب الضيعة يسمى ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفي خصومة الشركاء ومخازنهم في المساء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في العمارية ، وخصومة الفلاحين في بخائهم وسرقهم . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه ، وانفراده بالربح ، وتقصيره في العمل ، وتضييعه للمال . وكذلك

صاحب المواشى ، وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعدها عن كثرة الشغل ، النقد المكتور تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفي كيفية حفظه ، وفي الخوف مما يعثر عليه ، وفي دفع أطماع الناس عنه . وأدوية أفكار الدنيا لا نهاية لها . والذي منه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك .

فهذه جملة الآفات الدنيوية ، سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف ، والحزن ، والنم ، والهم ، والتعب في دفع الحساد ، وتجشم المضاعب في حفظ المال وكسبه . فإذا تروى المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقي إلى الخيرات . وماعدا ذلك سبب آفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير

بيان

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والياس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر . ولكن ينبغي أن يكون الفقير قائما منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان . ولا يتمكن ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم ، والملبس ، والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا ، وأخسه نوعا . ويرد أمله إلى يومه ، أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير ، أو طول أمله ، فانه عز القناعة ، وتدنس لاهلته بالطمع وذل الحرص . وجره الحرص والطمع إلى مساوى الأخلاق ، وارتكاب المنكرات المخارقة للمروآت . وقد جبل آدمى على الحرص والطمع ، وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَبْنِي لَهُمَا ثَلَاثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » ^(٢) وعن أبي واقد الليثي ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه ، أتينا به بعلمنا مما أوحى إليه . فحشته ذات يوم فقال « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبنى لهما ثلاثا - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس

(٢) حديث أبي واقد الليثي أن الله عز وجل يقول إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ - الحديث : أحمد

وَإِذٍ مِنْ ذَهَبٍ لِأَحَبٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لِأَحَبِّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١) وقال أبو موسى الأشعري ، نزلت سورة نوح براءة ثم رفعت . وحفظ منها ، إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . ولو أن لابن آدم واديين من مال لمتني واديا ثالثا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) « مَنْهُوَ مَنْ لَا يَشْبَعَانِ مِنْهُمُ الْعِلْمُ وَمَنْهُمُ الْمَالِ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٣) « يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشْبَعُ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْأَمَلُ وَحُبُّ الْمَالِ » أو كما قال . ولما كانت هذه جيلة للآدمي مضلة ، وغريزة مهلكة ، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة ، فقال صلى الله عليه وسلم^(٤) « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافًا وَقَنَعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٥) « مَا مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلَا غَنِيِّ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أَوْتَى قُوتَا فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم^(٦) « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب ، فقال^(٧) « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال ، أى عبادك أغنى ؟ قال أقنمهم بما أعطيتهم . قال فأيهم أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود . قال رسول الله

(١) حديث أنى موسى نزلت سورة نوح براءة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق

لهم لو أن لابن آدم واديين من مال - الحديث : مسلم مع اختلاف دون قوله إن الله يؤيد الدين ورواه هذه الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متكلم فيه

(٢) حديث منهومان لا يشبعان - الحديث : الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٣) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان - الحديث : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشة كفافا وقنع به : الترمذى وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد وسلم من حديث عبد الله بن عمر وقد أفلح من أسلم وورق كفافا وقنعه الله بما آتاه

(٥) حديث مامن أحد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة أنه كان أوتى في الدنيا قوتا : ابن ماجه من رواية نفع ابن الحارث عن أنس ونفع ضعيف

(٦) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث ألا أيها الناس اجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كُتِبَ لَهُ : الحديث جابر بنحوه وصححه إسناده وقد تقدم في آداب السكسب والعاش

صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » وقال أبو هريرة . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنَعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري ، أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله عظمي وأوجز . فقال ^(٣) « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ وَلَا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَاجْمَعْ أَلْيَاسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » وقال عوف بن مالك الأشجعي ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فلنا أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ » فبسطنا أيدينا فبايعناه . فقال قائل منا ، قد بايعناك ، فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الْخُمْسَ وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا » وأسر كلمة خفية « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه

الآثار : قال عمر رضي الله عنه ، إن الطمع فقر . وإن اليأس غنى . وإنه من يئس عما في أيدي الناس استغنى عنهم . وقيل لبعض الحكماء ، ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وفي ذلك قيل

- (١) حديث ابن مسعود أن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها - الحديث : ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف فيه وقد تقدم
- (٢) حديث أبي هريرة كن وزعا تكن أعبد الناس - الحديث : ابن ماجه وقد تقدم
- (٣) حديث أبي أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه ألياس مما في أيدي الناس : ابن ماجه وقد تقدم في الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص . وقال صحيح الاسناد
- (٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تباعون - الحديث : وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا قال سوط لأحدهم وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

المعيش ساعات تمر وخطوب أيام تكرر
افنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حر
فلرب عتف سافه ذهب ويافوت ودر

وكان محمد بن واسع ، يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول : من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد . وقال سفیان : خير دنيا كم مالم تبتلوا به ، وخير ما يليتيم به ما خرج من أيديكم . وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يطغيك وقال سميطة بن عجلان ، إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر ، فلم يدخلك النار ؛ وقيل للحكيم ما مالك ؟ قال التجمل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، واليأس مما في أيدي الناس ويروى أن الله عز وجل قال ، يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كاهلك ، لم يكن لك منها إلا القوت . وإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا إليك محسن وقال ابن مسعود ، إذا طلب أحدكم الحاجة ، فليطلبها طلبا يسيرا ، ولا يأتي الرجل فيقول ، إنك وإنك فيقطع ظهره ، وإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق . وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم ، يعزم عليه الإلرافع إليه حوائجه . فكتب إليه قد رفت حوائجي إلى مولائي ، فما أعطاني منها قبلت ، وما أمسك عني قنمت

وقيل لبعض الحكماء ، أي شيء أسر للعاقل ؟ وأبما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء ، وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهناهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع . وأخفهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنيه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق في دهره شيئا يورقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا في حل وترحال وطول سجي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مقربا عن الأحبة لا يدرون ما حالى

بعشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرص على المال
ولو قنعت أتانى الرزق في دعة إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه ، ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى ؟ هل تان لشتائى وقيظى
وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قرينى ، لست
بأرفهم ، ولا بأوضحهم . فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك في أن هذا القدر
هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها . وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال
يا أخى ، أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن
ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه . كأنك يا أخى لم ترحب بها
محروما ، وزاهدا مرزوقا . وفى ذلك قيل

أراك يزيدك الإثراء حرصاً على الدنيا كأنك لا تنوب
فهل لك غاية إن صرت يوماً إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي ، حكى أن رجلاً صاد قنبرة ، فقالت ما تريد أن تصنع بى ؟ قال أذبحك
وآكلك . قالت والله ما أشقى من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعملك ثلاث
خصال ، هى خير لك من أكلى . أما واحدة ، فأعملك وأنا فى يدك ، وأما الثانية ، فإذا
صرت على الشجرة ، وأما الثالثة ، فإذا صرت على الجبل . قال هات الأولى . قالت لا تلهفن
على ما فاتك . فخلاها ، فلما صارت على الشجرة ، قال هات الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون
أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت . يا شقى ، لو ذبحتنى لأخرجت
من حوصلى درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً . قال فعض على شفته وتلف وقال ، هات
الثالثة . قالت أنت قد نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ، ألم أقل لك لا تلهفن على
ما فاتك ؟ ولا تصدقن بما لا يكون ؟ أنا لخمى ، ودمى ، ورشى ، لا يكون عشرين مثقالاً
فكيف يكون فى حوصلى درتان كل واحدة عشرون مثقالاً ؟ ثم طارت فذهبت وهذا
مغال لفرط طمع الآدمى ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون .
وقال ابن السكيت ، إن الرجاء جبل فى قلبك ، وقيد فى رجلك . فأخرج الرجاء من قلبك
بمخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدي ، دخلت على الربيع ، فوجدته ينظر فى ورقة

مكتوب فيها بالذهب . فلما رآني تبسم . فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم . وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية . فاستحسنتهما . وقد أضفت إليهما ثالثاً . وأنشدني

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوات الأمور اجتنابها
ولا تنك مبداً للعرضك واجتنب ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ، ما يذهب المألوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها ؟ قال الطمع ، وشبهه النفس ، وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل ، فسر لي قول كعب . قال يطمع الرجل في الشيء يطلبه ، فيذهب عليه دينه : وأما الشره ، فشره النفس في هذا وفي هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شيء . ويكون لك إلى هذا حاجة ، وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له . فمن حبك للدنيا سامت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلم عليه الله عز وجل . ولم نعهده الله ، فلم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك من مائة حديث عن فلان عن فلان قال بعض الحكماء ، من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع ، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع ، وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زبد ، مررت براهب ، فقلت له من أين تأكل ؟ قال من يدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرحا يأتينا بالطحين . وأوماً يديه إلى رحا أضراسه . فسبحان القدير الخبير

بيان

علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان . الصبر ، والعلم ، والعمل . ومجموع ذلك خمسة أمور الأول : وهو العمل ، الاقتصاد في المعيشة ، والرفق في الإنفاق . فمن أراد عز القناعة ، فلينبني أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بدله منه . فمن كثرت خرجته ، واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة . بل إن كان وجهه ، فينبني أن يقنع بثوب

واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقلل من الأدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه . وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ، ويمكن معه الإجمال في الطلب ، والاقتصاد في المعيشة . وهو الأضل في القناعة ، ونعني به الرفق في الإنفاق ، وترك الخرق فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشِيَتهُ اللَّهُ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِي النَّحْيِ وَالْفَقْرُ وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالنَّصَبُ » وروى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض ، وهو يقول إن من فقهك رفقاك في معيشتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٤) « الْاِقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالْهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بَضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْأً مِنَ الثَّبُوءِ » وفي الخبر ^(٥) « التَّديِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « مَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَدَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٧) « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَعَمَلِكَ بِالثَّوْدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرَجًا وَتَحَرُّجًا » والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور . الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه ، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه

- (١) حديث أن الله يحب الرفق في الأمر كله : متفق عليه من حديث عائشة وتقدم
- (٢) حديث ما عال من اقتصد : أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد
- (٣) حديث ثلاث منجيات خشيته الله في السر والعلانية والقصد في النحْي والفقر والعَدْل في الرضا والعصب : البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف
- (٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة : أبو داود ومن حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة
- (٥) حديث التدبير نصف المعيشة : رواه أبو منصور انديلي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلل
- ابن عيسى جهله العقيلي وثقه ابن معين
- (٦) حديث من اقتصد أغناه الله - الحديث : البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكروى هذا الحديث ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله
- (٧) حديث إذا أردت أمراً فعملك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً وتحرُّجاً : رواه ابن المبارك في البر والصلوة وقد تقدم

ولم يشته حرصه . فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق . بل ينبغي أن يكون واتقا بوعده الله تعالى ، إذ قال عز وجل (وَمَا مِنْ دَآئِيَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ^(١)) وذلك لأن الشبقات يعمده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار ، فربما تمرض ، وربما تعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال . فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب ، خوفا من التعب ، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع العقلة عن الله ، لتوهم تعب في ثأني الحال ، وربما لا يكون . وفي مثله قيل

ومن ينفق الساعات في جمع ماله . مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقد دخل ابننا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها ^(١) ولا تبتأسا من الرزق ما تهزرت رؤسكم . فإن الإنسان تلدؤه أمه أحمرا ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين ، فقال له ^(٢) لا تكثر همك ما يقدر يكن وما ترزق يأتك . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « ألا أيها الناس أجهلوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتبت له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتية ما كتبت له من الدنيا وهي راقعة » . ولا ينفك الإنسان عن الحرص ، إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر . قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ^(٤)) فإذا انسد عليه باب كان يتنظر الرزق منه ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « أتى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » . وقال سفيان ، اتق الله فما رأيت

(١) حديث لا تبأسا من الرزق ما تهزرت رؤسكم - الحديث : ابن ماجه من حديث جبه وسواء ابن خالدة وقتقدم

(٢) حديث لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك . قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خاله جبراف

وقد اختلف في صحته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو والمعاذ بن

(٣) حديث ألا أيها الناس أجهلوا في الطلب - الحديث : تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا

(٤) حديث أتى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب : ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن

واه ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

(٥) هود : (٢) الطلاق : ٢ ، ٣

تقيا محتاجا . أى لا يترك التقي فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبي ، قلت لأعرابي ، من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت فإذا صدروا ؟ فبكى وقال ، لو لم نمش إلا من حيث ندرى لم نمش . وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين . شيئا منهما هولى ، فلن أعجله قبل وقته ، ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، وشيئا منهما هو لغيرى ، فذلك لم أنه فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى ، كما يمنع الذى لى من غيرى . ففى أى هذين أفنى عمرى ، فهذا دواء من جهة المعرفة ، لا بد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فإذا تحقق عنده ذلك ، انبعثت رغبته إلى القناعة ، لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس ، وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس ، والقدرة على متابعة الحق . فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس ، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة . وذلك يهلك دينه . ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن ، فهو ركبك العقل ، ناقص الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » فى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل ، استغن من شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره . الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود ، والنصارى ، وأراذل الناس ، والحمقى من الأكراد ، والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء ، والأولياء ، وإلى سمات الخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة والتابعين . ويستمتع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة

(١) حديث عن المؤمن استغناؤه عن الناس : الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه اسناده وأبو الشيخ فى كتاب

الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم

فى أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عينة وكلاهما يختلف فيه وجعله القضاعى فى بسنده

الشهاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم

لنراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك، والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن، فالحمار أكثر أكلًا منه. وإن تنعم في الوقاع، فلخنزير أعلى رتبة منه: وإن تزين في الملبس والخليل، ففي اليهود من هو أعلى زينة منه. وإن قنع بالقليل، ورضي به، لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وما فيه من خوف السرقة، والنهب، والضياع. وما في خلو اليد من الأمن والفراغ. ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه، ألحق بزمرة الأغنياء، وأخرج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه. فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تقتر عن الطلب، وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس. ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول، ولم تضيق على نفسك وتخاف الله، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله، والناس كلهم مشغولون بالتنعم، فلم تريد أن تتميز عنهم. قال أبوذر (١) أوصاني خليلي صلوات الله عليه، أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوق، أي في الدنيا. وقال أبو هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَمْوَالِهِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ يَمِّنْ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ» فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة. وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل، للتمتع دهرًا طويلاً، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء، لشدة طمعه في انتظار الشفاء.

بيان

فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص.

- (١) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق أحمد وابن جبان في أثناء حديث وقد تقدم
- (٢) حديث أبي هريرة إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه: منفق عليه وقد تقدم

وإن كان موجودا ، فينبغي أن يكون حانه لا يثار والسخاء ، واصطناع المعروف ، والتباعد عن الشح والبخل . فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) حيث قال « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ النَّصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ هَذَا دِينٌ أَرْتَضِيهِ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ » وفي رواية « فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » . وعن عائشة الصديقة رضي الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا جَبَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَلِيًّا لَهُ إِلَّا عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ » وعن جابر قال ، قيل يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ ^(٤) قال « الصَّبْرُ وَالسَّامَحَةُ » وقال عبد الله بن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) « خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يَبْغِضُهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ »

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة - الحديث : ابن جابر في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى في المستجاد من حديث أبى هريرة وسأى بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبى سعيد

(٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضىته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق : الدارقطنى في المستجاد وقد تقدم

(٣) حديث عائشة ما جعل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق : الدارقطنى في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبى السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا

(٤) حديث جابر أى الايمان أفضل قال الصبر والسامحة : أبويلى وابن حبان في الضعفاء . بلفظ شل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عتبة بلفظ ما الايمان قال الصبر والسامحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ أى الأعمال أفضل قال الصبر والسامحة وحسن الخلق واسناده صحيح

(٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحس الخلق والسخاء - الحديث : أبو منصور الديلمى دون قول فى آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى بن هازون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث ، وقوف على عبد الله بن عمرو وروى الديلمى أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صبر حوائج الناس اليه وفيه يحيى ابن شبيب ضعفه ابن حبان

وَأَمَّا اللَّذَانِ يَبْغِضُهُمَا اللَّهُ فَسَوْءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ » وروى المقدم بن شريح ، عن أبيه ، عن جده ، ^(١) قال ، قالت يارَسُولُ اللَّهِ دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ الطَّعَامِ وَإِمْشَاءَ السَّلَامِ وَحُسْنَ الْكَلَامِ » . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بُغْضُنَ مِنْهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْبُغْضُ حَتَّى يَدْخُلَهُ الْجَنَّةُ وَالشَّحْ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ مَنْ كَانَ شَحِيحًا أَخَذَ بُغْضُنَ مِنْ أَغْصَانِهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْبُغْضُ حَتَّى يَدْخُلَهُ النَّارُ » وقال أبو سعيد الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ااطْلُبُوا الْفَضْلَ مِنَ الرِّحْمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَةً وَلَا تَطْلُبُوهُ مِنَ الْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللَّهَ أَخَذَ بِيَدِهِ كُلَّمَا قَتَرَ » وقال ابن مسعود . قال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ أَسْرَعُ مِنَ السُّكَيْنِ إِلَى ذِرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَبْأِهُ بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ أُمْلَاءَ نِكَاهٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ »

(١) حديث المقدم بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن

الكلام: الطبراني بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام

وأفشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام

(٢) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة - الحديث : وفيه والشح شجرة في النار - الحديث: الدارقطني

في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جدا

(٣) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم - الحديث :

ابن حبان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان

السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي وقال انه مجهول وتابع

محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمز به ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار

ابن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي ورواه

الحاكم من حديث علي وقال انه صحيح الاسناد وليس كما قال

(٤) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر: الطبراني في الأوسط والخرائطي

في مكارم الأخلاق وقال الخرائطي أميلوا السخي زلته وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه

ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بأسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي

في الموضوعات من طريق الدارقطني

(٥) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير - الحديث : لم أجده

من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفافها ». وقال أنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . فزجج إلى قومه فقال ، يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة . وقال ابن عمر ، قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إن لله عبداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بثلث المنافع على العباد قلها الله تعالى عنه وحوهاً إلى غيره » . وعن الهلالى قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) بأسرى من بنى النضير ، فأمر بقتلهم ، وأفرد منهم رجلاً . فقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، يا رسول الله ، الرب واحد ، والدين واحد ، والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نزل على جبريل فقال أقتل هؤلاء وأترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « إن لكل شيء ثمرة وثمرته المعروف تعجيل السراج » وعن نافع ، عن ابن عمر قال ، قال رسول الله

الحبيب أسرع إلى البيت الذى ينشئ وفي حديث ابن عباس يؤكل فيه من الثمرة إلى سنام البعير ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث : وكلها ضعيفة

(١) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفافها : الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كرزى وهذا مرسل للطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد أن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور وفى الكبير والبيهقى معالي الأخلاق - الحديث : وأسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

(٢) حديث أنس لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأباه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث : مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٣) حديث ابن عمر إن الله عبداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد - الحديث : الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمعى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله ابن زيد الحمصى ضعفه الأزدي

(٤) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً الحديث : وفيه فإن الله شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلاً

(٥) حديث إن لكل شيء ثمرة وثمرته المعروف تعجيل السراج : لم أقف له على أصل

صلى الله عليه وسلم ^(١) « طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَوْنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ » فمن لم يحتمل تلك المونة ، عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام ، إستكثروا من شيء لاتأكله النار . قيل وما هو ؟ قال المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الْجَنَّةُ دَارُ الْأَسْخِيَاءِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ السَّخِيََّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَأُ الدَّاءِ الْبُخْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « أَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « إِنْ بَدَلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصِيحِ لِلْمُسْلِمِينَ »

(١) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء : ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وأنهم لمشاهير ثقات إلا مقدم بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه

(٢) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء . من حديث معاذ بلفظ ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره . وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمر بن أسد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدى يروى عن من وجوه كلها غير عفوفة

(٣) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الأدهى حديث منكرو ما آفته سوى حيدر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا

(٤) حديث أبي هريرة إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة - الحديث : الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدواء الداء البخل ورواه بهذه الزيادة : الدارقطنى فيه

(٥) حديث اصنع المعروف لى أهله ولى من ليس من أهله . الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا وتقدم فى آداب العيشة

(٦) حديث إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسباحة الأنفس - الحديث : الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له من أكبر وفى الميزان أنه ضعيف منكرو - الحديث : ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن سعيد نحوه وفيه صالح للرى متكلم فيه

وقال أبو سعيد الخدري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوهًا مِنْ خَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فَعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الْغَنِيَّةُ إِلَى الْبَلَدَةِ الْجَدْبَةِ فَيَجْهِيهِمْ أَوْ يُجْهِ بِهَ أَهْلَهَا» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا وَفَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ تَقَقُّعٍ فَقَلَى اللَّهُ خَلْفَهَا» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالْدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ وَاللَّهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْلَهْفَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) «كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنَى أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ» وروى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا تَقْتُلِ السَّامِرِيَّ فَإِنَّهُ سَخِيٌّ وقال جابر، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) بعثا، عليهم قيس بن سعد بن عبادَةَ، فجهدوا، فنحر لهم قيس تسع ركائب. فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الْجُودَ لِمَنْ شِيمَةُ أَهْلٍ ذَلِكَ أَلْيَتُ» الآثار: قال على كرم الله وجهه، إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفتنى. وإذا أدبرت عنك فأنفق منها، فإنها لا تبقى. وأنشد

(١) حديث أبي سعيد إن الله جعل للمعروف وحوها من خلقه حبب إليهم المعروف - الحديث: الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هارون العبدى عنه وأبو هارون ضعف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه

(٢) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة - الحديث: ابن عدى والدارقطني في المستجاد والحرائطى والبيهقى في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة

(٣) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللفهان: الدارقطني في المستجاد من رواية الحاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد التميمي ضعيف

(٤) حديث كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة: الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والحرائطى كلاهما في مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين

(٥) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادَةَ فجهدوا فنحر لهم الحديث: وفيه فقال إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم ، عن المروءة ، والنجدة ، والكرم . فقال
أما المروءة ، فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيافته ، وحسن المنازعة
والإقدام في الكراهية . وأما النجدة ، فالذب عن الجار ، والصبر في المواطن . وأما
الكرم ، فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل ، مع بذل النائل
ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة ، فقال حاجتك مقضية . فقيل له
يا ابن رسول الله ، لو نظرت في رقعة ، ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال ، يسألني
الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى اقرأ رقعة . وقال ابن السماك ، عجبت لمن يشتري
الممالك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب ، من سيدكم ؟ فقال
من احتمل شتمنا . وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وقال علي بن الحسين رضي
الله عنهما ، من وصف ببذل ماله لطلابه ، لم يكن سخيًا . وإنما السخي من يتبدى بمحقوق
الله تعالى في أهل طاعته ، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له ، إذا كان يقينه بثواب الله
تمامًا . وقيل للحسن البصري ، ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل
فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه . قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة

وقال جعفر الصادق رحمه الله عليه ، لا مال أعون من العقل ، ولا مصيبة أعظم من
الجهل ، ولا مظاهرة كالمشاورة . ألا وإن الله عز وجل يقول ، إني جواد كريم ، لا يجاورني
لثيم . واللؤم من الكفر ، وأهل الكفر في النار . والجود والكرم من الإيمان ، وأهل
الإيمان في الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه ، رب فاجر في دينه ، أخرج في معيشته ، يدخل
الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلاً في يده درهم ، فقال لمن هذا الدرهم ؟

فقال لي . فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . وفي معناه قيل

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الفرز ، لأنه كان يجلس إلى الفرزين ، فإذا رأى امرأة ضيفة
لعطائها شيئًا . وقال الأصمعي ، كتب الحسين بن علي ، إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم

يُعتب عليه في إعطاء الشعراء . فكتب إليه ، خير المال ماوقي به العرض . وقيل لسفيان ابن عيينة ، ماالسخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا إلى إخوانه وقال ، قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي ، أفأبخل عليهم بالمال ! وقال الحسن . بذل المجهود في بذل الموجود ، منتهى الجود وقيل لبعض الحكماء ، من أحب الناس إليك ؟ قال من كثرت أياديته عندي قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبدالمزيب بن مبروان ، إذا الرجل أمكنتي من نفسه ، حتى أضع معروفه عنده ، فيده عندي مثل يدي عنده . وقال المهدي لشبيب بن شبة ، كيف رأيت الناس في دارى ؟ فقال يأمر المؤمنين ، إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لدويع القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ، إن هذين البيتين ليخلان الناس ، ولكن أطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلا

حكايات الأخياء

عن محمد بن المنكدر ، عن أم درة ، وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها ، قالت ، إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ، ثمانين ومائة ألف درهم . فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس . فاما أمست ، قالت يا جارية ، هلمى فطوري . فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة ، ما استطعت فيما قسمت اليوم ، أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتي نبيي لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال ، أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس ، فأثني وجوه قريش فقال ، يقول لكم عبيد الله تغدوا عبيدي اليوم . فأثوه حتى ملأوا عليه الدار . فقال ما هذا ؟ فأخبر الخبر . فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا ، وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد ، فأكلوا حتى صيدروا . فقال عبيد الله لو كلاته ، أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم . قال فليغد عندنا هؤلاء في كل يوم وقال مصعب بن الزبير ، حجج معاوية ، فلما انصرف من المدينة . فقال الحسين بن علي

لأخيه الحسن ، لا تلقه ، ولا تسلم عليه . فلما خرج معاوية ، قال الحسن ، إن علينا ديناً ، فلا بد لنا من إتيانه . فركب في أثره ولحقه ، فسلم عليه ، وأخبره بدينه . فروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار ، وقد أعيا وتحلف عن الإبل ، وقوم يسوفونه . فقال معاوية ما هذا ؟ فذكر له . فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد . وعن واقد بن محمد الواقدي قال ، حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه . فوقع المأمون على ظهر رقعته ، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء ، والحياء . فأما السخاء فهو الذي أطلق مافي يديك ، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه . وقد أمرت لك مائة ألف درهم . فإن كنت قد أصبت ، فازدد في بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت ، فجنائتك على نفسك ، وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) قال للزبير بن العوام « يَا زَيْبُ أَعْلَمُ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ يَبْتَغِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ فَمَنْ كَثُرَ كَثْرَتُهُ وَمَنْ قَلَّ قَلَّتْ لَهُ » وأنت أعلم . قال الواقدي ، فوالله لهذا كرامة المأمون إياي بالحديث ، أحب إلي من الجائزة ، وهي مائة ألف درهم . وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة ، فقال له يا هذا ، حق سؤالك إياي يعظم لدى ، ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وفاء لشكرك . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عني . وثمة الاحتمال ، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك ، فقلت . فقال يا ابن رسول الله ، أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله ، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها . فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفاً . قال فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال هي عندي . قال أحضرها . فأحضرها . فدفعت الدنانير والدرهم إلى الرجل ، وقال هات من يحملها لك . فأتاه بجمالين ، فدفعت إليه الحسن رداه لكراء الجمالين . فقال له مواليه ، والله ما عندنا درهم فقال أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم

(١) حديث أنس يابن مالك أن مفااتيح أرزاق العباد بإزاء العرش - الحديث : وفي أوله قصة مع المأمون

الدارقطني فيه وفي أسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالضعف ولا يصح

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة . فقالوا لنا جارسوا ما فوأم ، يتعمى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده ما يجهزها به . فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقا . فأخرج منه ست بدر . فقال احملوا . فحملوا . فقال ابن عباس ، ما أنصفناه . أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه . ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا

وحكي أنه لما أجذب الناس بمصر ، وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال ، والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه . فعال محاو يجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حتى نساها ، وقيمتها خمسمائة ألف ألف . فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم يبيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنه صلواته وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا ، فقال له رجل ، بحق على بن أبي طالب لما وهبت لي نحلتي بموضع كذا وكذا . فقال قد فعلت . وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فدحه بعض الشعراء . فقال للشاعر ، والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي ، وادّع على بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم اجلسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا . ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملا على العرافين بالبصرة ، فحضر بابيه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن . فلم يتهيأ له . فقال يوما لبعض خدام معن ، إذا دخل الأمير البستان فعرفني . فلما دخل الأمير البستان أعلمه . فكتب الشاعر بيتا على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان . وكانت معن على رأس الماء . فلما بصر بالخشبة ، أخذها وقراها ، فإذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معن حاجتي فإلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل . فقال له كيف قلت ؟ فقال له . فأمر له بعشر بدر فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثاني ، أخرجها من تحت البساط

وقرأها ، ودها بالرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم . فلما أخذها الرجل ، تفكر ، وخاف
أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج . فلما كان في اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، ودعا بالرجل ، فطلب
فلم يوجد . فقال ممن ، حتى على أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالى درهم ولا دينار
وقال أبو الحسن المدائني ، خرج الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر حجاجا . فقاتهم
أثقالهم . فجاجوا وعطشوا . ففروا بعجوز في خباء لها ، فقالوا هل من شراب ؟ فقالت نعم
فأنا خوا إليها ، وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة . فقالت احلبوها ، وامتدقوا لبنها
ففعّلوا ذلك . ثم قالوا لها ، هل من طعام ؟ قالت لا إلا هذه الشاة . فليذبحها أحدكم ، حتى
أهيم لكم ما تأكلون . فقام إليها أحدهم ، وذبحها ، وكشطها . ثم هيأت لهم طعاما .
فأكلوا ، وأقاموا حتى أبردوا . فلما ارتحلوا ، قالوا لها ، نحن نفر من قريش يريد هذا
الوجه ، فإذا رجعنا سالمين ، فألمى بنا ، فإننا صانعون بك خيرا . ثم ارتحلوا . وأقبل زوجها
فأخبرته بنجر القوم والشاة ، فغضب الرجل ، وقال ويحك ، تدبجن شاتي لقوم لا تعرفينهم
ثم تقولين نفر من قريش أقال ثم بعد مدة ، أجاتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها
وجعلا يتقلان البعر إليها ويبيعانه ، ويتعيشان بثمنه . ففرت العجوز ببعض سكك المدينة
فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره ، فمرف العجوز ، وهي له منكرة . فبعث غلامه
فدعا بالعجوز ، وقال لها يأمة الله ، أتعرفيني ؟ قالت لا . قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا .
فقالت العجوز بأبي أنت وأمي أنت هو ؟ قال نعم . ثم أمر الحسن ، فاشترى لها من شياه
الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين . فقال لها
الحسين ، بكم وصلك أخي ؟ قالت بألف شاة وألف دينار . فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك
ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر . فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت
بألف شاة وألف دينار . فأمر لها عبد الله بألف شاة وألف دينار ، وقال لها لو بدأت بي
لأنتمبتهما . فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة ، وأربعة آلاف دينار
وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله ، وهو وحده . فقام إليه غلام
من ثقيف ، فمشى إلى جانبه . فقال له عبد الله ، ألك حاجة يا غلام ؟ قال صلاحك وفلاحك
وأيتك تمشي وحدك ، فقلت أيتك بنفسى ، وأعوذ بالله إن طار يمينك مكروه . فأخذ

عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار ، فدفنها إلى الغلام ، وقال استنفق هذه ، فتم ما أدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب ، جاؤا إلى قبر بعض أسخياءهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له ، هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين . فقال له في النوم نعم . فباعه في النوم بعيره بنجيبه . فلما وقع بينهما المقد ، عمد هذا الرجل إلى بعيره ، فنحره في النوم . فانتبه الرجل من نومه ، فإذا الدم يشج من نحر بعيره . فقام الرجل ، فنحره ، وقسم لحمه ، فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ، ثم رحلوا وساروا . فلما كان اليوم الثانى وهم في الطريق ، استقبلهم ركب . فقال رجل منهم ، من فلان بن فلان منكم ؟ باسم ذلك الرجل . فقال أنا . فقال هل بعث من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر . قال نعم ، بعث منه بعيرى بنجيبه في النوم . فقال خذ هذا نجيبه . ثم قال ، هو أبى ، وقد رأيته في النوم ، وهو يقول إن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان ، وسماه . وقدم رجل من قرش من السفر فر برجل من الأعراب على قارة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض . فقال يا هذا أعنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه ، مابق معك من النفقة فادفعه إليه . فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم . فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكي . فقال له الرجل ، ما يبكيك ، لعلك استقلت ما أعطيناك ؟ قال لا . ولكن ذكرت ماتا كل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر ، من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى في السوق ، بتسعين ألف درهم . فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله ، ما هؤلاء ؟ قالوا يكون لدارهم . فقال يا غلام ، انهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا وقيل بعث هارون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون وقال ، أعطيته خمسمائة ، ونعطيه ألفا ، وأنت من رعتى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إنى من غلتى كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة ، مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عسل . فأمر

لها بزر من عسل . فقليل له إنها كانت تقنع بدون هذا . فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطياها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم ، حتى يتصدق على ثلثائة وستين مسكينا . وقال الأعمش ، اشتكت شاة عندي ، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالفسادة والعشى ، ويسألني هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه ، فإذا خرج قال ، خذ ما تحت اللبد ، حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تقرأ

وقال عبد الملك بن مروان ، لأسماء بن خارجة ، بلقي عنك خصال ، فحدثني بها . فقال هي من غيري أحسن منها مني . فقال عرمت عليك إلا حدثتني بها . فقال يأمر المؤمنين مامدت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاما قط ، فدعوت عليه قوما ، إلا كانوا أمن على مني عليهم . ولا نصب لي رجل وجهه قط ، يسألني شيئا ، فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد ، على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا ، كتب لمن سأله صكا على نفسه ، حتى يخرج عطؤه . فلما نظر إليه سليمان تحلل بهذا البيت فقال

إني سميت مع الصباح مناديا يامن يمين على الفتى الموان
ثم قال ، ما حاجتك ؟ قال ديني قال وكم هو ؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال لك ديك ومثله
وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقليل له إنهم يستحيون مما
لَكَ عليهم من الدين ، فقال أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فادى
من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برى . قال فأنكسرت درجته بالعشى ،
لكثرة من زاره وعاده . وعن أبي إسحاق قال ، صليت الفجر في مسجد الأشعث
بالكوفة ، أطلب غريما لي . فلما صليت ، وضع بين يدي حلة ونملان . فقلت لست من
أهل هذا المسجد . فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندي ، قدم الباحة من مكة ،
فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونملين . وقال الشيخ أبو سعيد الحر كوشى النيسابوري
رحمه الله ، سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول ،
كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود . قال فجئت إليه ، وقلت

له ولدى مولود ، وليس معى شىء . فقام معى ، ودخل على جماعة ، فلم يفتح بشىء . فجاء إلى قبر رجل ، وجلس عنده ، وقال رحمك الله ، كنت تفعل وتصنع ، وإني درت اليوم على جماعة ، فكلفتهم دفع شىء لمولود ، فلم يتفق لى شىء . قال ثم قام ، وأخرج دينارا ، وقسمه نصفين ، وناولنى نصفه . وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشىء . قال فأخذته وانصرفت ، فأصلحت ما اتفق لى به ، قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه ، فقال سمعت جميع ما قلت ، وليس لنا إذن فى الجواب ، ولكن أحضر منزلى ، وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار ، فأحملها إلى هذا الرجل . فلما كان من الغد ، تقدم إلى منزل الميت ، وقص عليهم القصة ، فقالوا له اجلس . وحفروا الموضع ، وأخرجوا الدنانير ، وجاؤا بها ، فوضعوها بين يديه . فقال هذا مالكم ، وليس لرؤياى حكم . فقالوا هو يتسخى ميتا ، ولا يتسخى نحن أحياء ! فلما ألحوا عليه ، حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة . قال فأخذ منها دينارا ، فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذى أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء . فقال أبو سعيد ، فلا أدرى أى هؤلاء أسخى .

وروى أن الشافعى رحمه الله ، لما مرض مرض موته يعصر ، قال مروا فلانا يغسلنى . فلما توفى ، بلغه ، خبر وفاته ، فحضر وقال ، ائتونى بتذكرته . فأتى بها ، فنظر فيها ، فإذا على الشافعى سيعون ألف درهم دين . فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال هذا غسلى إياه . أسىء أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحر كوشى ، لما قدمت مصر ، طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلونى عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرته ، فرأيت فيهم سيبا الخير ، وآثار الفضل . فقلت بلغ أثره فى الخير اليهم ، وظهرت بركته فيهم ، مستدلا بقوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ^(١)) . وقال الشافعى رحمه الله ، لأزال أحب حماد بن أبى سليمان ، لشىء بلغنى عنه . أنه كان ذات يوم راكبا حماره ، فحركه ، فانقطع زره . فرعى خياط ، فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره . فقال الخياط ، والله لا نزلت . فقام الخياط إليه ،

قسوي زره . فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسامها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قتلها . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يا لطف قلبي على مال أجود به على المقلين من أهل المروآت
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال ، أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال ياربيع ، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه غنى . وقال الربيع ، سمعت الحميدي يقول ، قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ، ف ضرب خبائه في موضع خارج عن مكة ، وثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه ، يقبض له قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ، ونقض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال . أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال . وكان قلما يمسك شيئاً من سمأحته . فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك . قال فخرج ، ثم قدم علينا ، فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها ، لمعرفتي بأهلها ، وقد وقف أكثرها . ولكني بنيت بنى مضربا ، يكون لأصحابنا إذا حجبوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تنوق إلى أمور يقصر دون مبلغين مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلب ، دخل أبي علي المأمون ، فوصله بمائة ألف درهم . فلما قام من عنده تصدق بها . فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه ، عاتبه المأمون في ذلك . فقال يأمر المؤمنين ، منع الموجود سوء ظن بالمعبود . فوصله بمائة ألف أخرى

وقام رجل إلى سعيد بن العاص ، فسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم . فبكى . فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بآيات امتدحه بها ، فوجد عيلا . فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال عسي أن أقوم من مرضى فأكفنه . فأقام شهرين فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حرما قبول مدحتنا وترك ما نرجى من الصفت

كما الدراهم والدنانير في الب مع حرام إلا يدايسد
 فلما وصل البيتان إلى ابراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب ، قال شهرين . قال أعطه
 ثلاثين ألفا ، وجشني بدواة ، فكتب إليه :

أعجبتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نقول

وروى أنه كان لعمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوما
 إلى المسجد ، فقال له طلحة ، قد شئنا مالك فاقبضه . فقال هو لك يا أبا محمد ، معونة لك على مروءتك .
 وقالت سعدى بنت عوف ، دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلا . فقلت له مالك ؟
 فقال اجتمع عندي مال وقد غمني . فقلت وما ينعمك : أدع قومك . فقال يا غلام . على بقومي
 فقسمه فيهم . فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربعمائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة ، فسأله
 وتقرّب إليه برحم . فقال إن هذه الرحم ما سألتني بها أحد قبلك . إن لي أرضا قد أعطاني بها
 عثمان ثلثمائة ألف ، فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ، ودفعت إليك الثمن
 فقال الثمن . فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن . وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما . فقيل
 ما يبكيك ؟ فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانني .

وأتى رجل صديقا له ، فدق عليه الباب ، فقال ماجاء بك ؟ قال على أربعمائة درهم دين . فوزن
 أربعمائة درهم ، وأخرجها إليه ، وعاد يكي . فقالت امرأته لم أعطيه إذ شق عليك ؟ فقال إننا بكى
 لأنني لم أفقد حاله ، حتى احتاج إلى مفاتيحي . فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين

بيان

فم البخل

قال الله تعالى (وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال تعالى (وَلَا
 يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ
 مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِيَّاكُمْ وَالشَّعْ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَأَسْتَحَلُّوا حَرَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِيَّاكُمْ وَالشَّعْ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاَهُمْ فَاسْتَحَلُّوا حَرَامَهُمْ وَدَعَاَهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ » وفي رواية « وَلَا جَبَّارٌ » وفي رواية « وَلَا مَنَّانٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهُوَ يُتَّبَعُ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « إِنْ اللَّهُ يَبْغِضُ ثَلَاثَةَ الشَّيْخِ الرَّائِي وَالْبَخِيلَ الْمَنَّانَ وَالْمِعِيلَ الْمُخْتَالَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٧) « مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ نَذِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا سَبَعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوسَّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٨) « خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إياكم والشع - الحديث : مسلم من حديث جابر بلفظ واقفوا الشع فان الشع - الحديث :

ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن جبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو وإياكم والشع فانما هلك من كان قبلكم بالشع أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا

(٢) حديث إياكم والشع فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا حرامهم ودعاهم فقطعوا

أرحامهم : الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ حراماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث لا يدخل الجنة بخل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة وفي رواية ولا مَنَّان : أحمد والترمذي وحسنه

من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا مَنَّان ففيه عند الترمذي وله وابن ماجه لا يدخل الجنة سيئ الملكة

(٤) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : تقدم في العلم

(٥) حديث إن الله يبغض ثلاثا الشيخ الزائي والبخل المَنَّان والفقير المختال : الترمذي والنسائي من حديث

أبي ذر دون قوله البخل المَنَّان وقال فيه الغنى الظلوم وقد تقدم للطبراني في الأوسط من

حديث على أن الله يبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهور والمائل المختال وسنده ضعيف

(٦) حديث مثل المنفق والبخل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق : الترمذي من حديث أبي سعد وقال غيره

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَلَ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ»
وقال صلى الله عليه وسلم^(١) «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَلَا الْمُتَفَحِّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ
أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَّبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا»

وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحُّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ». وقاتل شهيد على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبكته بأكية، فقالت واشهيداه. فقال صلى الله عليه وسلم^(٣) «وَمَا
يُذْرِيكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْ يَنْخَلُ بِمَا لَا يَنْقِصُهُ» وقال جابر
ابن مطعم،^(٤) «بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه الناس مقفلة من خير
إذ عقلت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمره، فخطفت
رداءه. فوقف صلى الله عليه وسلم فقال «أَعْطُونِي رِدَائِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِي
عَدَدُ هَذِهِ الْعِصَاةِ نَعْمًا لَقَسَمْتُه يَنْتَكُمُ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِحِيلًا وَلَا كَذَابًا وَلَا جَبَانًا»

وقال عمر رضي الله عنه،^(٥) «قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما. فقلت غير هؤلاء كانوا
أحق به منهم. فقال «إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُيَخِّلُونِي وَلَسْتُ بِيَاخِلٍ»

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن - الحديث: البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار

(٢) حديث إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة - الحديث: الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ودون

قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما بالبخل فبخلوا وبالفجور

فجروا وكذا رواه أبو داود ومقتصر على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث

جابر اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش

(٣) حديث شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع: أبو داود من حديث جابر بسند جيد

(٤) حديث وما يذريك أنه شهيد فله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يخل بما لا ينقصه: أبو يعلى من حديث أبي هريرة

بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس إن أمه قالت لينك الشهادة وهو عند الترمذي

الأن رجلا قال له أبشر بالجنة

(٥) حديث جابر بن مطعم بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حين

عقلت الأعراب به - الحديث: البخاري وتقدم في أخلاق النبوة

(٦) حديث عمر رضي الله عنه - الحديث: وفيه وليت يا حنبل مسلم

وقال أبو سعيد الخدرى ، ^(١) دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن بعير . فأعطاهما دينارين . فخرجا من عنده ، فلقبهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتيا وقالوا معروفا ، وشكرا ما صنع بهما . فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوا . فقال صلى الله عليه وسلم : « لَكِنَّ فَلَانٌ أَعْطَيْتُهُ مَائَتَيْنِ عَشْرَةٍ إِلَى مِائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيْسَ لِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَابِّطَهَا وَهِيَ نَارٌ » فقال عمر ، فلم تعطيهما ما هو نار ؟ فقال « يَابُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْتِيَنِ اللَّهَ لِي الْبُخْلَ »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْجُودُ مِنْ جُودِ اللَّهِ تَعَالَى فَجُودُوا يَجِدِ اللَّهُ لَكُمْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ طَوْبَى وَشَدَّ أَغْصَانَهَا بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَمَلَّقَ بَعْضَ مِنْهَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَلَا إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَخَلَقَ الْبُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزُّقُومِ وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَمَلَّقَ بَعْضَ مِنْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ أَلَا إِنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَفْرُ فِي النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَلِجُ الْجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلَا يَلِجُ النَّارَ إِلَّا بُخِيلٌ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « لَوْ فُتِدَ بَنِي لُحْيَانَ مِنْ سَيِّدِكُمْ يَا بَنِي لُحْيَانَ » قالوا سيدنا جده بن قيس ، إلا أنه رجل فيه بخل . فقال صلى الله عليه وسلم « وَآيُ ذَا أَدْوَا مِنْ »

(١) حديث أبي سعيد في الرجلين الذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عمر فأتيا

وقال معروفا - الحديث : وفيه ويأتي الله إلى البخل رواء أحمد وأبو يعلى والبخار نخوة ولم يقل

أحمد اتها سألاه عن بعير ورواه البخار من رواية أبي سعيد عن عمرو ورجال أسانيدهم ثقات

(٢) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم - الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس

ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أقف له على اسناد

(٣) حديث السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلبج في الجنة الاسخي - الحديث : تقدم دون قوله فلا يلبج

في الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده

(٤) حديث أبي هريرة من سيدكم يا بني لحيان قالوا سيدنا جده بن قيس - الحديث : الحاكم وقال صحيح على

شرط صحيح بلفظ يا بني لحيان وقال سيدكم بغير بن البراء وأما الرواية التي قال فيها سيدكم عمرو

ابن الجوح فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن

الْبَخِيلِ وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ أَجْمُونٍ « وفي رواية ، أنهم قالوا سيدنا جند بن قيس فقال « بِمَ تُسَوِّدُونَهُ ؟ » قالوا إنه أكثرنا مالا ، وإنا على ذلك لنرى منه البخل . فقال عليه السلام « وَائِيَّ ذَا أَذْوَاءٍ مِنَ الْبَخِيلِ لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدَكُمْ » قالوا فن سيدنا يا رسول الله ؟ قال « سَيِّدُكُمْ بِشَرِّ بْنِ الْبَرَاءِ » . وقال علي رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللَّهَ يَنْفِضُ الْبَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « السَّخِيُّ الْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَاكِدِ الْبَخِيلِ » وقال أيضا ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) « الشَّعْثُ وَالْإِيمَانُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ عَبْدٍ » وقال أيضا (٤) « خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ ، الْبَخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « يَقُولُ قَائِلُكُمْ الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَائِيَّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشَّحِّ حَلَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ »

وروى أن رسول الله عليه وسلم (٧) كان يطوف بالبيت ، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول ، بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا ذَنْبُكَ ؟ صِفْهُ لِي » فقال هو أعظم من أن أصفه لك . فقال « وَيُحْكُ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ الْأَرْضُونَ ؟ » فقال بل ذنبي أعظم يا رسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ الْجِبَالُ ؟ » قال بل ذنبي أعظم

(١) حديث على أن الله لينفض البخل في حياته السخي عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مستنده ولم أجده اسنادا

(٢) حديث أبي هريرة السخي الجهول أحب الى الله من العاكد البخل الترمذي باقظ ولجاهل سخي وبقيه حديث أن السخي قريب من الله وقد تقدم

(٣) حديث أبي هريرة لا يجتمع الشع واليمان في قلب عبد النساء وفي اسناده اخلاق

(٤) حديث خصلتان لا يجتمعان في مؤمن - الحديث . الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٥) حديث لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً لم أره بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم من الشح - الحديث : وفيه لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده بتمامه وللترمذي من حديث أبي بكر لا يدخل الجنة بخيل وقد تقدم

(٧) حديث كان يطوف بالبيت فادار رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي الحديث : في ذم البخل وفيه قال إليك عني لا تحرقني ياربك - الحديث بطوله وهو باطل لأصل له

يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ الْيَحَارُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ السَّمَوَاتُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ أَلْعَرْشُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ اللَّهُ » قال بل الله أعظم وأعلى قال « وَيَنْحَكَ فَصِفْ لِي ذَنْبُكَ » قال يارسول الله ، إني رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتيني يسألني ، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكَ عَنِّي لَا تَحْرِقُنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهُدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ لَوْ قُفِّتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ثُمَّ مِتَّ وَأَنْتَ لَيْتِيْمٌ لَا كَبَّكَ اللَّهُ فِي النَّارِ وَيَنْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبَخْلَ كَفْرٌ وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيَنْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ) (١) (وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢)

الآثار : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما خلق الله جنة عدن ، قال لها تزيني . فتزينت ثم قال لها أظهرى أنهارك ، فأظهرت عين السلسبيل ، وعين الكافور ، وعين التسنيم . فتفجر منها في الجنان أنهار الحمر ، وأنهار العسل واللبن . ثم قال لها أظهرى سررك ، وحبالك وكراسيك ، وحليك ، وحلك ، وحور عينك . فأظهرت . فنظر إليها فقال تكلمي . فقالت طوبى لمن دخلني . فقال الله تعالى ، وعزتي لأأسكنك بخيلا

وقالت أم البنين ، أخت عمر بن عبد العزيز ، أف للبخل . لو كان البخل قيصا مالبسته ولو كان طريقا ماسلكه . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، إنا لنجد بأموالنا ما يمجد البخلاء ، لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر ، كان يقال إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم ، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم . وقال على كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض ، يمض الموسر على مافي يده ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى (وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) (٣) وقال عبد الله بن عمرو ، الشح أشد من البخل . لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ، ويشح بما في يده فيجبهه والبخل

(١) البقرة : ٢٦٧ (٢) التغابن : ١٦ (٣) البقرة : ٢٦٧

هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي ، لأدري أيهما أبعد غورا في نار جهنم . البخل أو الكذب
وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند ، وفيلسوف الروم . فقال للهندي تكلم . فقال خير
الناس من ألقي سخيا ، وعند الغضب وقورا ، وفي القول متأنيا ، وفي الرفعة متواضعا ، وعلى
كل ذي رحم مشفقا . وقام الرومي فقال ، من كان بخيلا ورث عدوه ماله ، ومن قل
شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل التهمة يموتون فقراء ، ومن
لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ^(١)) قال البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله ، فهم
لا يبصرون الهدى . وقال كعب ، ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يتاديان ، اللهم
عجل لمسك تلقا ، وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي ، سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا
فقال ، لقد صغر فلان في عيني ، لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا
أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، لا أرى أن أعذل بخيلا ، لأن البخل يحمله على الاستقصاء
فيأخذ فوق حقه ، خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة
وقال علي كرم الله وجهه ، والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى (عَرَفَ بَعْضُهُ
وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ^(٢)) وقال الجاحظ ، ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل
القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث ، البخل لا غيبة له . قال النبي صلى الله عليه وسلم
« إِنَّكَ إِذَا لَبَخِيلٌ » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ^(٣) فقالوا
صوامه ، قوامه ، إلا أن فيها بخلا . قال « فَا خَيْرُهَا إِذَا »

وقال بشر ، النظر إلى البخل يقسى القلب ، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين
وقال يحيى بن معاذ ، ما في القلب للأسخياء إلا حب ، ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا
أبرارا . وقال ابن المعتز ، أبخل الناس بماله أجودهم بمرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليها السلام
ابليس في صورته فقال له يا ابليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال أحب

(٢) حديث مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامه قوامه إلا أن فيها بخلا - الحديث :

تقدم في آفاق البيان

(١) يس : ٨ (٢) التحريم : ٣

الناس إلى المؤمن البخیل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخی . قال لأن البخیل قد كفاني
بضله ، والفاسق السخی أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله . ثم ولى
وهو يقول ، لو لا أنك يحى لما أخبرتك

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه ، وقدم إليه طباهجة بيض
فاكل منه ، فأكثر . وجعل يشرب الماء ، فانتفخ بطنه ، ونزل به الكرب والموت
فجعل يتلوى . فلما جهده الأمر ، وصف حاله للطبيب ، فقال لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت
فقال هاه ، أتقيأ طباهجة بيض ، الموت ولا ذلك . - وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلاً ،
وبين يديه تين ففطى التين بكسائه . فجلس الأعرابي ، فقال له الرجل ، هل تحسن من
القرءان شيئاً؟ قال نعم فقرأ (وَالرَّيْثُونَ وَطُورِ سَيْنِينَ ^(١)) فقال وأين التين؟ قال هو تحت كسائك
ودعا بعضهم أخاه ، ولم يطعمه شيئاً . فحبسه إلى العصر ، حتى اشتد جوعه ، وأخذ مثل
الجنون . فأخذ صاحب البيت العود ، وقال له بحياتي أى صوت تشتهى أن أسمعك؟ قال صوت المقل
ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان
يعرفه عنه . فقال له قائل ، صف لى مائدتك . فقال هى قتر فى قتر ، وصحافه منقورة من حب
الخشخاش . قيل فمن يحضرها؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فما يأكل معه أحد؟ قال بلى
الذباب : فقال سوائك بدت ، وأنت خلص به ، وثوبك مخرق . قال أنا والله ما أقدر على
إبرة أخيطه بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة ، مملواً إبراهيم ، ثم جاءه جبريل ،
وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إياها
ليخيط بها قيص يوسف الذى قد من دبر ، ما فعل . - ويقال كان مروان بن أبى حفصة
لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه ، فإذا قرم إليه ، أرسل غلامه ، فاشترى له رأساً . فأكله
فقيل له نراك لا تأكل إلا الرأس فى الصيف والشتاء . فلم تختار ذلك؟ قال نعم ، الرأس
أعرف سعره ، فأمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبننى فيه وليس يلجم يطبخه الغلام ،

فيقدر أن يأكل منه، إن مس عيناً، أو أذناً، أو خذاً، وقفت على ذلك، وآكل منه ألوانا عينه لو ناء، وأذله لو ناولسانه لو ناولصمته لو ناء، ودماعه لو ناء، وأكفى مؤنة طبعه. فقد اجتمعت لي فيه مرافق وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله، مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ فقال إن أعطيت مائة ألف، أعطيتك درهماً. فأعطى ستين ألفاً، فأعطاه أربعة دنانير. واشترى مرة لحماً بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دنانير، وقال أكره الإسراف وكان للأعمش جار، وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول، لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً، فيأتي عليه الأعمش. فعرض عليه ذات يوم، فوافق جوع الأعمش، فقال سربنا. فدخل منزله، فقرب إليه كسرة وملحاً. فجاء سائل، فقال له رب المنزل، بورك فيك فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك. فلما سأل الثالثة، قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالعصا، قال فناده الأعمش وقال. اذهب، ويحك، فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه، هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح، فلا والله ما زادني عليهما

بيان

الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار. وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لمحتاج، أو لغير محتاج. والبذل مع الحاجة أشد. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخر الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة. فكم من يبخل بمسك المال ويعرض، فلا يتداوى. ويشتهي الشهوة، فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة. وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا، يضمنها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثبت الله على الصجابة رضي الله عنهم به فقال (وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) «أَيْمَانِي أَشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفْرَانَهُ» وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ثلاثة أيام متواليات ، حتى فارق الدنيا . ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا (٣) . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى صَنِيعِكُمْ » ونزلت (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (٤) . فالسقاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السقاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما ، فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٥)

وقال سهل بن عبد الله التستري ، قال موسى عليه السلام ، يارب ، أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . فقال ياموسى ، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازلها ، جليلة عظيمة ، فضلتها بها عليك وعلى جميع خلقى . قال فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى . فقال يارب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال بخلق اختصاصته به من بينهم ، وهو الإيثار ياموسى ، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره ، إلا استحييت من محاسبتة ، وبوأنه من جنتي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم

(١) حديث أئمار جلأشهى شهوة فردشهوته وآثر على نفسه غفرله : ابن حيان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث عائشة ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا : البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبر حتى مضى لسبيله وللشيخين ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام

(٣) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله الحديث : في نزول قوله تعالى وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبي هريرة

(١) (٢) (٣) (٤) (٥)

وفيه غلام أسود يعمل فيه . إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه . فقال يا غلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت . قال فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائئاً ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فمأنت صانع اليوم ؟ قال أطوى يومى هذا . فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى منى . فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبه منه . وقال عمر رضي الله عنه ، أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخى كان أحوج منى إليه ، فيعت به إليه . فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة آيات ، ورجع إلى الأول .

وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،^(١) فأوحى الله تعالى إلى جبريل أنه يكائيل عليهما السلام ، إني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر . فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاخترارا كلاهما الحياة ، وأحبها ، فأوحى الله عز وجل إليهما ، أفلا كنتم مثل علي ابن أبي طالب ، آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجله . وجبريل عليه السلام يقول ، يخرج من مثلك يا ابن أبي طالب . والله تعالى يباهى بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)^(١) . وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً ، وكانوا في قرية بقرب الري ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم . فكسروا الرغفان

(١) حديث بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت

بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر - الحديث : في نزول قوله تعالى ومن الناس من

يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصراً من حديث ابن عباس شري على نفسه فلبس ثوب

النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه - الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه

الزيادة على أصل وفيه أبو بلج مختلف فيه - والحديث : منكر

وأطفؤا السراج ، وجلسوا للطعام . فلما رفع ، فإذا الطعام بحاله ، ولم يأكل أحد منه شيئا .
 إيثارا لصاحبه علي نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل ، وليس عنده شيء . فنزع خشبة
 من سقف بيته ، فأعطاه ، ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي ، انطلقت يوم اليرموك
 أطلب ابن عم لي ، ومعى شيء من ماء ، وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به
 وجهه . فإذا أنا به . فقلت أسقيك ؟ فأشار إلي أن نعم . فإذا رجل يقول آه . فأشار ابن عمي
 إلي أن انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فسمع به آخر
 فقال آه . فأشار هشام انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو قدماء . فرجعت إلى هشام ، فإذا
 هو قدماء . فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قدماء ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقال عباس بن دهقان ، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ، إلا بشر من الحارث ، فإنه أتاه
 رجل في مرضه ، فشكا إليه الحاجة ، فنزع قبضه وأعطاه إياه ، واستمار ثوبا فسات فيه .
 وعن بعض الصوفية ، قال كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ،
 فتبعنا كلب من البلد . فلما بلغنا ظاهر الباب ، إذا نحن بدابة ميتة ، فصعدنا إلى موضع
 عال ، وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة ، رجع إلى البلد ، ثم عاد بعد ساعة ، ومعه مقدار
 عشرين كلبا . فجاء إلى تلك الميتة ، وقعد ناحية ، ووقعت الكلاب في الميتة . فما زالت
 تأكلها ، وذلك الكلب قاعد ينظر إليهما ، حتى أكلت الميتة . وبقي العظم ، ورجعت
 الكلاب إلى البلد . فقام ذلك الكلب ، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ، ثم انصرف
 وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار ، وأحوال الأولياء ، في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة
 إلى الإعادة هنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

بيان

حد السخاء والبخل وحقيقتها

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ، أن البخل من المهلكات ، ولكن ما جد البخل
 وماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا هو يرى نفسه شيخيا ، وربما يراه غيره بخيلا
 وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم هذا بخل ، ويقول آخرون

ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويمجد من نفسه حبا للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا ، فإذا لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك ، فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول

قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخل وهذا غير كاف . فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب ، والخبز للخباز ، بنقصان حبة ونصف حبة ، فإنه يمد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يقرضه القاضي ، ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه ، أو تمرّة أكلوها من ماله ، يمد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيّف ، فحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفاه عنه ، عد بخيلا

وقال قائلون البخل هو الذي يستصعب العطية . وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكمن من بخيل لا يستصعب العطية القليلة ، كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك . وإن أريد به أنه يستصعب بعض المطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض المطايا ، وهو ما يستغرق جميع ماله ، أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا في الجود ، قليل : الجود عطاء بلامن ، وإسعاف من غير روية

وقيل : الجود عطاء من غير مسألة ، على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالمطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى ، والعبد لله عز وجل ، فيعطى عبد الله مال الله ؟ على غير رؤية الفقر . وقيل . من أعطى البعض ، وأبقى البعض ، فهو صاحب سخاء . ومن بذل الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئا . فهو صاحب جود . ومن قاسى الضر ، وآثر غيره بالبلغة ، فهو صاحب إيثار . ومن لم يبذل شيئا ، فهو صاحب بخل وجملة هذم الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل . بل نقول : المال خلق لحكمة ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق . ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ،

وبيهما وسط وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه، إذ لم يؤثر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء. وقد قيل له (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ^(١)) وقال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ^(٢)) . فالجود وسط بين الإصراف والإقتار، وبين البسط والقبض. وهو أن يقدر بذله وإستساكه بقدر الواجب، ولا يكتفي أن يفعل ذلك بجوارحه، ما لم يكن قلبه طيبا به، غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل، ونفسه تنازعه، وهو يصابر بها فهو متسخ. وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال، إلا من حيث يزداد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه. فإن قلت: فقد سار هذا موقوفا على معرفة الواجب، فما الذي يجب بذله. فأقول، إن الواجب قسمان، واجب بالشرع، وواجب بالروء والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع، ولا واجب الروء، فإن منع واحدا منهما، فهو بخيل. ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل. كالذي يمنع أداء الزكاة، ويعنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخي بالتكلف، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله، ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخيل. وأما واجب الروء، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات. فإن ذلك مستقبح، واستقبح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله، استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة. ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله، وأقاربه، ومما يملكه، ما لا يستقبح مع الأجانب. ويستقبح من الجار، ما لا يستقبح مع البعيد. ويستقبح في الضيافة من المضايقة، ما لا يستقبح في المعاملة. فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة، في ضيافة، أو معاملة. وبما به المضايقة، من طعام، أو ثوب. إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها. ويستقبح في شراء الكفن مثلا، أو شراء الأضحية، أو شراء خبز الصدقة، ما لا يستقبح في غيره من المضايقة: وكذلك بمن معه المضايقة، من صديق، أو أخ، أو قريب، أو زوجة، أو ولد، أو أجنبي. وبين منه المضايقة، من صبي أو امرأة، أو شيخ، أو شاب، أو عالم، أو جاهل، أو مؤسس، أو فقير.

(١) الإسراء: ٢٩ (٢) الفرقان: ٩٧

فالبخل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع ، وإما بحكم الشرع ، وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التخصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أم من حفظ المال . فإن صيانة الدين أم من حفظ المال . فإما الزكاة والنفقة ببخل : وصيانة المروءة أم من حفظ المال . والمضايق فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه ، هاتك ستر المروءة لحب المال ، فهو ببخل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ، ويحفظ المروءة ، ولكن معه مال كثير قد جمعه . ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ، ليكون له عدة على نوائب الزمان . وغرض الثواب ، ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض ببخل عند الأكياس ، وليس ببخل عند عوام الخلق . وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا ، فيرون إمساكهم لدفع نوائب الزمان مُهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ، إن كان فى جواره محتاج فنعمه وقال ، قد أدت الزكاة الواجبة ، وليس على غيرها : ويختلف استقبح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج ، وصالح دينه ، واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل .

نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك ، لطلب الفضيلة ، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال ، حيث لا يوجب الشرع ، ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد ، بقدر ما تنسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر . وبعض الناس أجود من بعض . فاصطناع المعروف وراء ما توجب العادة والمروءة ، هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة ، أو مكافأة أو شكر ، أو ثناء . فإن من طمع فى الشكر والثناء ، فهو يبيع ، وليس بجواد . فإنه يشتري الممدح بماله . والمدح لذيذ ، وهو مقصود فى نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض هنا هو الحقيقة ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى . وأما الأدنى ، فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض . ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب فى الآخرة ، أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل ، فيسمى جوادا . فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه ، فكل ذلك

ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعراض معجلة له عليه، فهو يعتاض
 لأجواد، كما روى عن بعض المتعبدات، أنها وقفت على حبان بن هلال، وهو جالس مع
 أصحابه، فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها سلى عما شئت، وأشاروا إلى حبان
 ابن هلال. فقالت ما السخاء عنكم؟ قالوا الطء، والبذل، والإيثار. قالت هذا السخاء
 في الدنيا؟ فما السخاء في الدين؟ قالوا أن نعبد الله سبحانه، سنخية بها أنفسنا، غير مكرهة
 قالت فتريدون على ذلك أجرا؟ قالوا نعم، قالت ولم؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر
 أمثالها. قالت سبحانه الله، فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة، فبأي شيء تسخيتم عليه؟
 قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت السخاء عندي، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين
 بطاعته، غير كارهين، لا تريدون على ذلك أجرا، حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء
 ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم، فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشيء؟ إن هذا في
 الدنيا لقبيح. وقالت بعض المتعبدات، أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط؟
 قيل فقيم؟ قالت السخاء عندي في المهيج. وقال المحاسبي، السخاء في الدين أن تسخو بنفسك
 تتلفها لله عز وجل، ويسخو قلبك ببذل مهجتك، وإهراق دمك لله تعالى، بإسماحة من
 غير إكراه، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا. وإن كنت غير مستغن عن الثواب
 ولكن ينقلب على ظنك حسن كمال السخاء، بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك
 هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك

بيان

علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال. ولحب المال سببان: أحدهما حب الشهوات التي لا وصول
 إليها إلا بالمال مع طول الأمل. فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، رجاء أنه كان لا يبخل
 بعاله، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم، أو في شهر، أو في سنة، قريب. وإن كان قصير
 الأمل، وليكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه،

فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام ^(١) « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر ، وقلة الثقة بمجىء الرزق ، قوى البخل لاحتالة .

السبب الثاني : أن يحب عين المال . فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره ، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته ، وتفضل آلاف ، وهو شيخ بلا ولد ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، بل صار محبا للدنانير ، عاشقا لها ، يلتذ بوجودها في يده ، وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض ، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة . وهذا مرض للقلب عظيم ، عسير العلاج ، لاسيما في كبر السن . وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا ، فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسي محبوبه ، واشتغل برسوله . فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات . فصارت محبوبه لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيد . ثم قد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه ، وهو غاية الضلال . بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل ، إلا من حيث قضاء حاجته به . فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة .

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير ، وبالصبر . وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر في موت الأقران ، وطول تعبه في جمع المال ، وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكمن ولد لم يرث من أبيه مالا ، وحاله أحسن ممن ورث . وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ، يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر . وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية ، وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ، ومدح السخاء ، وماتوعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم له . فإنه ما من بخيل إلا ويستبجح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه .

(١) حديث الولد مبخله زاد في رواية عزنة : ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله عزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبراز من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الاسود بن خلف واسناده صحيح

فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس ، مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن التفكير في مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق . ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يذخره لنفسه في الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عرف بنور البصيرة ، أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة حاجت رغبته في البذل إن كان عافلا . فإن تحركت الشهوة ، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ، ويخوفه ، ويصدده عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، وقال انزع عني القميص وادفعه إلى فلان . فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال لم آ من على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطر لي بذله

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا . كما لا يزول المشق إلا بفارقة المشوق ، بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا ، وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكذلك الذي يريد علاج البخل ، ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله . بل لورماه في الماء كان أولى به من إمساكه أياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه ، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل ، واكتسب بها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ، ويزيله بملاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالمصافير وغيرها ، لا يخلو واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، ينبغي أن يسلط بعضها على بعض ، كما تسلط الشهوة على الغضب ، وتكسر سورتها بها . ويسلط الغضب على الشهوة ، وتكسر رعوته بها . إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف . فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال ، فلافائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ، ويزيد في أخرى مثلها . إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء . فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه . فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء ، فينبغي أن يبذل ، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ، ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه وودا
ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها . ثم يأكل بعضها بعضا ، حتى ترجع
إلى اثنتين ، قويتين ، عظيمتين . ثم لا تزالان تتقاتلان ، إلى أن تغلب إحداها الأخرى ،
فتأكلها ، وتضمن بها . ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها ، إلى أن تموت . فكذلك هذه
الصفات الخبيثة ، يمكن أن يسلط بعضها على بعض ، حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا
للأقوى ، إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإزالتها بالمجاهدة ، وهو منع القوت عنها
ومنع القوت عن الصفات ، أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لأعمالا ، وإذا
خولفت خدمت الصفات وماتت . مثل البخل ، فإنه يقتضى إمساك المال . فإذا منع مقتضاها
وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ، ماتت صفة البخل ، وصار البذل طبعاً ، وسقط التعب
فيه . فإن علاج البخل بعلم وعمل . فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل ، وفائدة الجود ، والعمل
يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف . ولكن قديقوى البخل ، بحيث يعنى ويصم
فيمنع تحقق المعرفة فيه . وإذا لم تتحقق المعرفة ، لم تتحرك الرغبة ، فلم يتيسر العمل . فتبقى
الدالة مزمنة ، كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .
وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية ، فى معالجة علة البخل فى المريدين ، أن يمنهم من الاختصاص
بزواياهم . وكان إذا توهم فى مرید فرحه بزوايته وما فيها ، نقله إلى زاوية غير ها ونقل زاوية
غيره إليه ، وأخرجه عن جميع مملكه . وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح
بها ، يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوباً خالفاً ، لا يميل إليه قلبه . فهذا يتجافى القلب عن متاع
الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل ، أنس بالدنيا وأحبها . فإن كان له ألف متاع ، كان له ألف محبوب
والذلك إذا سرق كل واحد منه ، ألت به مصيبة بقدر حبه له . فإذا مات ، نزل به ألف مصيبة دفعة
واحدة ، لأنه كان يحب الكل ، وقد سلب عنه . بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك
حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج ، مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير . ففرح الملك
بذلك فرحاً شديداً . فقال لبعض الحكماء عنده ، كيف ترى هذا ؟ قال أراه مصيبة أو فقرا
قال كيف ؟ قال إن كسر كان مصيبة لا جبر لها . وإن سرق صرت فقيراً إليه ، ولم تجده مثله

وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر . ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه ، فقال صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدنيا . فإن الدنيا عدوة لأعداء الله ، إذ تسوقهم إلى النار . وعدوة أولياء الله إذ تنعمهم بالصبر عنها . وعدوة الله ، إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها ، فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس ، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال ، وهو بذل الدرام والدنانير . فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته ، حتى يفنى . ومن عرف آفة المال لم يأنس به ، ولم يفرح به ، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته . ومن قنع بقدر الحاجة فلا يخل ، لأن ما أمسكه الحاجة فليس يخل ، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه ، فيبذله . بل هو كالماء على شط الدجلة . إذ لا يخل به أحد ، لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

بيان

مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه ، خير من وجه ، وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراق ويستخرج منها الترياق . ويأخذها الغافل ، فيقتله سمها من حيث لا يدرى . ولا يخلو أحد عن سم المال ، إلا بالمحافظة على خمس وظائف الأولى : أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتاج إليه ، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجنب الجهات المكروهة ، القاذحة في المروءة ، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الدلة وهتك المروءة ، وما يجري مجراه

الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب . ومقياره الحاجة ، وليس ، ومسكن ، ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات ، أدنى وأوسط ، وأعلى . وما دام ما مثلاً إلى جانب القلة ومتقرباً من جد الضرورة ، كان حقاً ،

ويجىء من جملة المحققين . وإن جاوز ذلك ، وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ، ويقتصد في الإنفاق ، غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه . فإن الإثم في الأخذ من غير حقه ، والوضع في غير حقه ، سواء

الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك . فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة . ويترك ما يترك زهدا فيه ، واستحقارا له . إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال . ولذلك قال على رضي الله عنه ، لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض ، وأراد به وجه الله تعالى ، فهو زاهد . ولو أنه ترك الجميع ، ولم يرد به وجه الله تعالى ، فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسيكناتك لله ، مقصورة على عبادة ، أو ما يعين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة ، الأكل وقضاء الحاجة . وهما معينان على العبادة . فإذا كان ذلك قصدك بهما ، صار ذلك عبادة في حقتك . وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك ، من قيص ، وإزار ، وفراش ، وآنية . لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين . وما فضل من الحاجة ، ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا ينعمه منه عند حاجته . فمن فعل ذلك ، فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها ، فلا تضره كثرة المال . ولكن لا يتأني ذلك إلا لمن رسيخ في الدين قدمه ، وعظم فيه علمه . والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال ، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة ، شابه الصبي الذي يرى المنزم الحاذق يأخذ الحية ، ويتصرف فيها ، فيخرج ترياقها ، فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ، ومستلينا جلدها ، فأخذها اقتداء به ، فتقتله في الحال . إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية . فقيل

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعشى بالبصير ، في تخطي قلل الجبال ، وأطراف البحار ، والطرق

المشوقة ، فحال أن يتشبه العامي بالعالم الحكيم في تناول المال .

بيان

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر . وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكننا في هذا الكتاب ، نذل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات إلى تفصيل الأحوال . وتقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه ، في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبدالرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم . والمحاسبي رحمه الله خبر الأمة في علم المعاملة ، وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء ، بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام ، قال يا علماء السوء ، تصومون ، وتصلون ، وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لاتعلمون . فياسوء ما تحكمون . تترون بالقول والأمانى ، وتعلمون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبید الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ! بحق أقول لكم ، إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم . بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس أخسر منكم ؟ لو تعلمون ، ويلكم ، ختام تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في محل المتحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليترواكم . مهلا مهلا . ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة متعطلة . يا عبید الدنيا لا كعبید أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، تؤشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم

حتى تسلمكم إلى الملك الديان عرافة فرادى، فيوقفكم على سوا آتكم ثم يميزكم بسوء أعمالكم ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا . فهم في العاجل عاروشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون ، أوبقوا الكريم بفضله . وبعد ، فإنني رأيت الهالك المؤثر للدنيا ، سروره ممزوج بالتنغيص ، فيتفجر عنه أنواع الهوم ، وفنون المعاصي ، وإلى البوار والتلف مصيره . فرح الهالك برجائه ، فلم يتبق له دنياه ، ولم يسلم له دينه . خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فيالها من مصيبة ما أفظعها ، ورزية ما أجلبها . ألا فراقبوا الله إخواني ، ولا يفرنكم الشيطان وأوليائه ، من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال ، فيترن المغرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون ، إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف ، مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك قتهلك ، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للشكائر والشرف ، والزينة ، فقد اغتبت السادة ، ونسبتهم إلى أمر عظيم . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد ازدريت محمدا والمرسلين ، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك ، من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجبال إذ لم يجمعوا المال كما جمعت . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم^(١) عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كان للأمة ناصحا ، وعليهم مشفقا ، وبهم رؤفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده ، حين نهاهم عن جمع المال ،

(١) حديث النهي عن جمع المال : ابن عدى من حديث ابن مسعود ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من الناجرين - الحديث : ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث لا تجمعوا ما لا تأكلون وكلامها ضعيف

وقد علم أن جمع المال خير لهم ، أو زعمت أنت الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع ،
فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل ، فلذلك رغبت في الاستكثار ،
كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك أيها المفقون . تدبر بعقلك
مادهاك به الشيطان ، حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة . ويحك ، ما ينفعك الاحتجاج
بمال عبد الرحمن بن عوف ، وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يوث من الدنيا
إلا قوتا . ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال أناس من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب ، سبحان
الله ، وما تخافون على عبد الرحمن ، كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا . فبلغ ذلك أبازر ،
فخرج مغضبا يريد كعبا ، فربعظم لحي بعير ، فأخذه بيده ، ثم انطلق يريد كعبا . فقيل
لكعب ، إن أبازر يطلبك ، فخرج هاربا ، حتى دخل على عثمان يستغيث به ، وأخبره الخبر
وأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل . قام كعب
فجلس خلف عثمان ، هاربا من أبي ذر ، فقال له أبو ذر ، هيه يا ابن اليهودية ، ترعم أن لا بأس
بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد شخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوما نحو أحد
وأنا معه ، فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ » فقلت لبيك يا رسول الله ، فقال ^(١) « الْأَكْثَرُونَ هُمْ الْأَقْلُونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ »
ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت نعم يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال « مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي مِثْلَ
أَحَدٍ أَتَّفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ » قلت أو قنطارين
يا رسول الله ؟ قال « بَلْ قِيرَاطَانِ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْتَ تُرِيدُ الْأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الْأَقْلَّ »
فرسول الله يريد هذا ، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ،

(١) حديث أبي ذر الأكلون يوم القيامة الامن قال هكذا وهكذا - الحديث : متفق عليه وقد

تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كعب طيبا
وترك طيبا وانكار أبي ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا في قول البخاري بن أسد الخراساني
بلغني كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخضر من هذا . ولفظ كعب اذا كان قضي
عنه حق الله فلا بأس به فوقع أبو ذر عصاه فخرق كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ما أحب لو كان هذا الجليلي ذهابا . الحديث : وفيه ابن طيبة .

كذبت وكذب من قال . فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج . . . وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه غير من اليمن ، فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضي الله عنها ، ما هذا ؟ قيل غير قدمت لعبد الرحمن ، قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) يقول « إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيًا ولم أر أحدًا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف رأيت يدخلها معهم حبوا » فقال عبد الرحمن ، إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعل أن أدخلها معهم سعيًا .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كذت أن تدخلها إلا حبوا »

ويحك أيها المفتون ، فما احتجارك بالمال ، وهذا عبد الرحمن في فضله ، وتقواه ، وصنائه المعروف ، وبذله الأموال في سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ، وبشراه بالجنة أيضا ، يوقف في عرصات القيامة وأهوالها ، بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى في سبيل الله سمحا ، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين ، وصار يحب في آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا الفرق في فتن الدنيا وبعد ، فالعجب كل العجب لك يا مفتون ، تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتقلب في الشهوات ، والزينة ، والمباهاة ، وتقلب في فتن

(٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين شعثا - الحديث : في أن عبد الرحمن

ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا في كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر

فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن راذان مختلف فيه - الحديث :

(٣) حديث انه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كذت أن تدخلها الا حبوا : البراز من

حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف يا ابن عوف إنك من الأغنياء

ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور

(٤) حديث بشر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه

أبو بكر في الجنة - الحديث : وفيه وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وهو عند الأربعة من حديث

صعيد بن زبير قال البخاري والترمذي وهذا أصح

الدنيا ، ثم تجمع بيد الرحمن ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة ، كأنك
تسبب السلف وفيهم . ويحك ، إن هذا من قياس إبليس ، ومن فتياه لأوليائه
وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، لتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة
ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال ، أرادوها للتعفف ، والبذل في سبيل الله ،
فكسبوا خللا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا قصدا ، وقديروا فضلا ، ولم يتنصروا منها حقا ،
ولم يبتلوا بها ، لكنهم جادوا الله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجمعها ، وفي الشدة آثروا الله
على أنفسهم كثيرا . فبالله أكذاك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم . وبعد
فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آامين ، وبالله في أرزاقهم واثقين ،
وبمقادير الله مسرورين ، وفي البلاء راضين ، وفي الرضاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ،
وفي السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكائر ورعين ، لم ينالوا
من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ، وزجوا الدنيا ، وصبروا على مكارهاها ، وتجرعوا
مرارتها ، وزهدوا في نعيمها وزهراتها . فبالله أكذاك أنت ، ولقد بلغنا أنهم كانوا
إذا أبليت الدنيا عليهم حزنوا ، وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا
قالوا مرعبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء ،
أصبح كئيبا حزينا . وإذا لم يكن عندهم شيء ، أصبح فرحا مسرورا . فقل له إن الناس إذا
لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك . قال إني
إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت ، إذ كان لي برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة .
وإذا كان عند عيالي شيء ، اغتممت ، إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا
إذا سلك بهم سبيل الرضاء حزنوا وأشفقوا ، وقالوا مالنا والدنيا وما يراد بها فكأنهم
على جناح خوف . وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا ، وقالوا الآن تماهدنا ربنا
فهذه أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذاك
أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم ، وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم
وذلك أنك تطغى عند الفنى ، وتبطر عند الرضاء ، وتمرح عند البراء ، وتغفل عن
شكر ذى النعماء ، وتتنط عند الضراء ، وتمنح عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء .

نعم : وتبغض الفقر ، وتأنف من المسكنة ، وذلك فخر المرسلين . وأنت تأنف من فخرهم ، وأنت تدخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر ، وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه . وكفى به إثماً وعساک تجمع المال لنعيم الدنيا ، وزهرتها ، وشهواتها ، ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) قال « شَرَّارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُّوا بِالنَّعِيمِ قَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ليحییء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم ، فيقال لهم (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ^(١)) وأنت في غفلة ، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا ، فيالها حسرة ومصيبة . نعم وعساک تجمع المال للتكاثر والعلو ، والفخر ، والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر ، لقي الله وهو عليه غضبان . وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك ، حين أردت التكاثر والعلو . نعم : وعساک المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله ، والله للقائك أكره ، وأنت في غفلة . وعساک تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وقيل سنة . وأنت تأسف على ما فاتك ، غير مكترث بقربك من عذاب الله . نعم : ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك ، وتفرح بإقبال الدنيا عليك ، وترتاح لذلك سروراً بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ^(١) « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسَرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها . وأنت فرح بدنياك ، وقد سلبت الخوف من الله تعالى . وعساک تعنى بأمور دنياك ، أضعاف ما تعنى بأمور آخرتك . وعساک ترى مصيبتك في معاصيك ، أهون

(١) حديث شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم - الحديث : تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث

الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقتراب من النار مسيرة سنة

(٢) حديث من أحب الدنيا ومحبها ذهب خوف الآخرة من قلبه : لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد الحاشبي

كما ذكره المصنف عنه

من مصيبتك في انتقاص دنياك. نعم: وخوفك من ذهاب مالك. أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها، للعلو، والرفعة في الدنيا. وعساك ترضى المخلوقين، مساخطا لله تعالى، كيما تكرم وتعظم. ويحك، فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة، أهون عليك من احتقار الناس إياك. وعساك تخفى من المخلوقين مساويك، ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها، فكأن الفضيحة عند الله، أهون عليك من الفضيحة عند الناس، فكأن العيب أعلى عندك قدرا من الله تعالى. الله عن جهلك. فكيف تنطق عند ذوى الأبواب، وهذه المثالب فيك! أف لك، متلوثا بالأفذار، وتحتج بآل الأبرار! هيبات هيبات، ما أبعدك عن السلف الأخيار! والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم، أزهد منهم فيما حرم عليهم. إن الذى لا بأس به عندهم، كان من الموبقات عندهم، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر الماضى. فليت أطيب مالك وأحله، مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك، كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل. ليت صومك على مثال إفطارهم. وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم. وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم. وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال، غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا، ونهبتهم ما زوى عنهم منها. فمن لم يكن كذلك، فليس معهم في الدنيا، ولا معهم في الآخرة. فسبحان الله، كم بين الفريقين من التفاوت! فريق خيار الصحابة في العلو عند الله؛ وفريق أمثالكم في السفالة، أو يعفو الله الكريم بفضله. وبعد، فإنك إن زعمت أنك متأثر بالصحابة بجمع المال، للتعفف والبذل في سبيل الله، فتدبر أمرك. ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا؟ لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال، كنا ندع سبعين بابا من الحلال، مخافة أن تقع في باب من الحرام. أفنتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط؟ لا ورب الكعبة، ما أحسبك كذلك. ويحك، كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات، المزوجة بالسحت والحرام. وقد بلغنا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) قال « مَنْ اجْتَرَأَ عَلَى الشُّبُهَاتِ أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِي الْحَرَامِ » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات ، أعلى وأفضل ، وأعظم لقدرك عند الله ، من اكتساب الشبهات ، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال ، لأن تدع درهما واحدا ، مخافة أن لا يكون حلالا ، خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة ، لا تدري أيحل لك أم لا

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ، ويحك إن كنت كما زعمت بالغافي الورع ، فلا تعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال ، ما سرني أن أكتبسب كل يوم ألف دينار من حلال ، وأنفقها في طاعة الله ، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة . قالوا ولم ذاك رحمك الله ؟ قال لأنني غني عن مقام يوم القيامة ، فيقول عبدي من أين أكتبسب ؟ وفي أي شيء أنفقت . فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الإسلام ، والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب ، مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بنفاية الأمن ، والحلال في دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك ، أين الحلال فتجمعه . وبعد ، فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال ، فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفقطع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ، فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك ، لقد أحسنت الظن بنفسك الأمانة بالسوء ويحك ، إني لك ناصح ، أرى لك أن تقنع بالبلغة ، ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) أنه قال « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ » وقال عليه السلام^(٣) « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ

(١) حديث من اجتأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث :

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار : بطوله لم أقف له على أصل

فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ
فَيُقَالُ أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ
أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ لَهُ قِفْ لَعَلَّكَ
قَصُرْتَ فِي طَلَبِ هَذَا شَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلَاةٍ لَمْ تُصَلِّهَا لَوْ قَرَّبَهَا وَفَرَطْتَ فِي
شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوَضُوءِهَا فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ
فِي حَلَالٍ وَلَمْ أَضِيعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هَذَا الْمَالِ فِي شَيْءٍ
مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهِتٍ بِهِ فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ
مَنْعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ وَلَمْ أَضِيعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ
وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ وَلَمْ أَضِيعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرُكَ تَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ قَالَ فَيَجِيءُ أَوْلِيكَ فَيَخَاصِمُونَهُ
فَيَقُولُونَ يَارَبِّ أُعْطِيَتْهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمْرُكَ أَنْ يُعْطِيَنَا فَإِنْ كَانَ أُعْطَاهُمْ
وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيَقَانُ قِفْ أَلَا نَهَاتِ شُكْرَ
كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُمْ عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرِبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلَا يَزَالُ يُسْأَلُ ،

ويمك ، فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل ، الذي تقلب في الحلال
وقام بالحقوق كلها ، وأدى الفرائض بمحدودها ، حوسب هذه المحاسبة . فكيف ترى يكون
حال أمثالنا ، الفرق في فتن الدنيا ، وتخاليطها ، وشبهاتها ، وشهواتها ، وزينتها ،
ويمك لأجل هذه المسائل ، يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها
وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويمك . بهؤلاء الأخيار أسوة . فإن أبيت
ذلك وزعمت أنك بالغ في الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف ،
والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك
عما يحب الله ، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلايتك . ويمك ، فإن كنت
كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة ، وتعزل ذوي الأموال إذا وقفوا
للسؤال ، وتسبق مع الرغيل الأول في زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ،

فإسلامة، وإماعط، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) قال « يَدْخُلُ صَعَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَانِهِمُ الْجَنَّةَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وقال عليه السلام^(٤) « يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَانِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالْآخَرُونَ جُثَاةٌ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قَبْلَكُمْ طَلَبْتَنِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذَا صَنَعْتُمْ فِيمَا أُعْطِيتُكُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ما سرني أن لي حمر النمر ولا أكون في الرعي الأول ، مع محمد عليه السلام وحزبه ، ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين ، في زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانتقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل المتقين^(٥) . لقد بلغني أن بعض الصحابة-، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عطش ، فاستسقى فأثني بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلم ، فعاد في البكاء . فلما أكثر البكاء ، قيل له ، أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال نعم . بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما معه أحد في البيت غيري فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عني فقلت له فذاك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحدا ، فن تخاطب ؟ فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسُهَا فَقَالَتْ لِي يَا مُحَمَّدُ خُذْنِي فَقُلْتُ إِلَيْكَ عَنِّي فَقَالَتْ إِنْ تَنْجُ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَنْجُو مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ » فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني ، تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم ، فهو لاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة

(١) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام : الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة يدخل الفقراء الجنة - الحديث : ولمسلم من حديث عبد الله بن عمران فقراء المهاجرين يسقون ، الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا

(٢) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون - الحديث : لم أره أصلا

(٣) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأثني بشربة ماء وعسل - الحديث : في دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله إليك عني - الحديث : البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كئنا عند أبي بكر فدعا بشراب فأثني بماء وعسل - الحديث : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا في هذا الكتاب

من حلال ، ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات ، من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ! أف لك ، ما أعظم جهلك . ويحك ، فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد المصطفى ، تنتظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة ، لتصيرن إلى حساب عسير . ولئن لم تقنع بالقليل ، لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل . ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين . ولئن خالفت أحوال المتقين ، لتكونن من المحتسبين في أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت . وبعد فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف ، قنع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لعدك ، مبعض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى في أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف في المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبدل في سبيل الله ، ويحك . أيها المغرور ، فتدبر الأمر ، وأمعن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وفراغ القلب للذكر ، والتذكر ، والتذكُّر ، والفكر ، والاعتبار ، أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمسألة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للشواب ، وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً ، بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال ، لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها ، والآخري يذكر الله ، لكان أذكراً أفضل . وسئل بعض أهل العلم ، عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالاً فأصابها ، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه . وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها . فأيهما أفضل ، قال بعيد والله ما بينهما . الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها

ويحك . فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها . ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال ، أن ذلك أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنم لميشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهنومك . فما عذرک في جمع المال ، وأنت تترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشئنا بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله ، فاجتمع لك راحة العاجل ، مع السلامة والفضل في الآجل . وبعد ، فلو كان في جمع المال فضل عظيم ، لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تناسى بنبيك . إذ هداك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك ، تدبر ما سمعت ، وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى ، سابقا إلى جنة المأوى ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) قال « سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مَنْ إِذَا تَعَدَّى لَمْ يَجِدْ عِشَاءً وَإِذَا اسْتَقَرَّ ضَمَّ لَمْ يَجِدْ قَرَضًا وَلَيْسَ لَهُ فَضْلٌ كِسْوَةٍ إِلَّا مَا يُؤَارِيهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَكْتَسِبَ مَا يُغْنِيهِ يُحْسَبُ مَعَ ذَلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ » (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ^(٢)) : ألا يا أخى ، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ، فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعهم . لا ، ولكنك خوفا من الفقر تجمعهم ، وللتنعم ، والزينة ، والتكاثر ، والفخر ، والعلو ، والرياء ، والسمعة ، والتعظيم والتكرمة تجمعهم ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ، راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك ، إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا ، فكأن مقرا أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ، ومجانبة الفضول . نعم : وكن عند جمع المال زرياعلى نفسك معترفا بإساءتك ، وجلال الحساب . فذلك أنجى لك ، وأقرب إلى الفضل من طلب الحجاج لجمع المال إخواني : اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا ، وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في المباح لهم ، ونحن في دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال في دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم منه

وبعد ، فأين لنا مثل تقوى الصحابة وورعهم ، ومثل زهدهم واحتياطهم . وأين لنا مثل ضامرهم وحسن نياتهم . دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون

(١) حديث سادات المؤمنين في الجنة من ادانغدى لم يجد عشاء - الحديث : عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصرا بلفظ ساءة الفقراء في الجنة - الحديث : ولم أره في معاجم الطبراني

الورود . في مساعدة المحفين يوم النشور ، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين

هذا آخر كلامه ، وفيه كفايه في إظهار فضل الفقر على الغنى ، ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا . وفي كتاب الفقر والزهد . ويشهده أيضا ماروي عن أبي أمامة الباهلي ^(١) أن ثعلبة بن حاطب قال ، يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا . قال « يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ » قال يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا . قال « يَا ثَعْلَبَةُ أَمَّا لَكَ فِي أَسْوَأِ أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ تَعَالَى أَمَّا وَلَدِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال والذي بمثلك بالحق نبيا ، لئن دعوت الله أن يرزقني مالا ، لأعطين ، كل ذي حق حقه ، ولا فلان ولأفلان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا » فاتخذ غنما ، فنمت كما ينمو الدود ، فضافت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ، ويدع ماسواهما . ثم نمت وكثرت ، فتنحى ، حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، وطاف يلقى الركبان يوم الجمعة ، فيسألهم عن الأخبار في المدينة . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال « مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟ » فقيل يا رسول الله ، اتخذ غنما ، فضافت عليه المدينة . وأخبر بأمره كله فقال « يَا وَهَّجَ ثَعْلَبَةُ يَا وَهَّجَ ثَعْلَبَةُ » قال وأنزل الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ^(١)) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ، ورجلا من بني سليم على الصدقة . وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة ، وأمرهما أن يخرججا فيأخذا الصدقة من المسلمين . وقال « مُرَّا يَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؛ وَفُلَانٍ » رجل من بني سليم « وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما هذه إلا جزية ،

(١) حديث أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره

خير من كثير لا تطيقه = الحديث : بطوله الطبراني بسنده ضعيف .

(١) التوبة : ١٠٣

ما هذه الاجزية، ما هذه الاخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما، فقام إلى خيار أسنان إليه، فزلهما للصدقة، ثم استقبلهما بها. فلما رأوها، قالوا لا يجب عليك ذلك: و، انريد نأخذ هذا منك. قال بلى خذوها، نفسي بها طيبة، وإنما هي لتأخذوها. فلما فرغا من صدقاتهما، رجعا حتى مرّا بثعلبة، فسألاه الصدقة، فقال أروني كتابك. فنظر فيه، فقال هذه أخت الجزية: انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأها قال « يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قبل أن يكلمها، ودعا للسليمي. فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، وبالذي صنع السليمي. فأنزل الله تعالى في ثعلبة (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ^(١)) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة، فقال لأم لك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال « إِنْ اللَّهُ مَتَّعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَّتْ » فجعل يحثو التراب على رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَذَا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِيعْنِي » فلما أبى أن يقبل منه شيئا، رجع إلى منزله. فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه. وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه. وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان فهذا طغيان المال وشؤمه، وقد عرفته من هذا الحديث. ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى، آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته، حتى روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه أنه قال، كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) منزلة وجاء، فقال « يَا عُمَرُ إِنْ لَكَ عِنْدَنَا مَنَزِلَةٌ وَجَاهًا فَهَلْ لَكَ فِي عِبَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : بطوله وفيه لفدز وباك سيد في الدنيا سيدا في الآخرة لم أجده من حديث عمران ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار وضأت

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَأبَى أَنْتَ وَأُمِّي يَارَسُولَ اللَّهِ . فقام وقت معه ، حتى وقفت بباب منزل فاطمة ، ففرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارَسُولَ اللَّهِ . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟ » قالت ومن معك يارَسُولَ اللَّهِ فقال « عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ » فقالت والذي بعتك بالحق نبيا ، ما على إلا عباءة ، فقال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدي فقد واريته ، فكيف برأسي ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلفة فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكَ » ثم أذنت له فدخل . فقال « السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قالت أصبحت والله وجمعة ، وزادني وجعا على ما بي أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدتني الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ فَوَاللَّهِ مَا ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثِ وَارْنِي لَا كَرُمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها ، وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فقالت ، فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالِمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالِمِهَا وَآنتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالِمِكَ إِنْ كُنْ فِي يُبُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذَى فِيهَا وَلَا صَخَبٌ » ثم قال لها « أَفْنَمِي بَابَ عَمِّكَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكَ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ »

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها ، وهي بطنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر ، وتركته المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه مع أداء الحقوق ، والتوقى من الشبهات ، والصرف إلى الخيرات اشتغالهم بإصلاحه ، وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال وقد روى عن جرير ، عن ليث قال ، صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال أأكون معك وأصحبك . فانطلقا ، فاتميا إلى شط نهر ، جلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلوا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام إلى النهر ، فغرب ، ثم رجع

لأنه صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك في فاطمة تعودها - الحديث : وفيه أماتريين لأن زوجتك أقدم أمي سلما وأكثرم علما وأعظمهم حملا واسنادة صحيح .

فلم يجد الرغيف . فقال للرجل ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعه خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف قم بإذن الله ، فقام فذهب . فقال الرجل أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . ثم انتهى إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى يد الرجل ، فشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له ، أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . فأنهى إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ، ثم قال ، كن ذهباً بإذن الله تعالى ، فصار ذهباً . فقسمة ثلاثة أثلاث ، ثم قال ؛ ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف . فقال أنا الذى أخذت الرغيف . فقال كله لك . وفارقه عيسى عليه السلام ، فأنهى إليه رجلان فى المفازة ، ومعه المال ، فأرادا أن يأخذه منه ويقتلاه . فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدهم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله . قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث ، لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأتقتهما ، وأخذ المال وحدى . قال ففعل . وقال ذاك الرجلان ، لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا . قال فلما رجع إليهما قتلاه ، وأكلا الطعام فأتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى . ففر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه ، هذه فاحذروها

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ، ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور ، وكنسوها ، وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم . وقد قيض لهم فى ذلك معاش من نبات الأرض . وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له أجب ذا القرنين . فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى . فقال ذو القرنين صدق . فأقبل إليه ذو القرنين ، وقال له ، أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فيها أنا قد جئت . فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين ، مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناها ، لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال مابالكم قد احتفرتم قبورا ، فإذا أصبحتم

تعاهدتموها ، فكنستموها ، وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ، منعنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لسكم إلا البقل من الأرض . أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام ، فاحتلبتموها ، وركبتموها ، فاستمتعتم بها ، قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورالها ورأينا في نبات الأرض بلاغا . وإنما يكنى ابن آدم أدنى العيش من الطعام . وأيماما جاوز الخنك من الطعام لم نجد له طعاما ، كائنا ما كان من الطعام . ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال ياذا القرنين ، أنتدرى من هذا ؟ قال لا ، ومن هو ؟ قال ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فغشم ، وظلم ، وعتا . فلما رأى الله سبحانه ذلك منه ، حسمه بالموت ، فصار كالخجر الملقى . وقد أحصى الله عليه عمله حتى يحزبه به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال ياذا القرنين ، هل تدري من هذا ؟ قال لا أدري ، ومن هو ؟ قال هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم ، والظلم ، والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وأمر بالعدل في أهل مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يحزبه به في آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كهذين . فانظر ياذا القرنين ماأنت صانع فقال له ذو القرنين ، هل لك في صحبتي ، فأخذك أخا ، ووزيرا ، وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال ما أصلح أنا وأنت في مكان ، ولا أن نكون جميعا . قال ذو القرنين ولم ؟ قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال ولم ؟ قال يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجيد أحدا يعاديني لرفضى لذلك ، ولما عندى من الحاجة وقلة الشيء . قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ، ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قد مناه من قبل ، وبالله التوفيق

تم كتاب ذم المال والبخل محمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تخفيه الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات ، وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفق ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المؤمنين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليما كبيرا

لما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَرِبِ النَّفْلِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلِ الظَّامَاءِ ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها ساسة العلماء ، فضلا عن عامة العباد والأتقياء . وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها . وإنما يتلى به العلماء والعباد والمشركون عن ساق الجدل سلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم ، وجاهدوها ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات حجت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالتخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة ، إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظروا إليه بيمين الوفاق والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخلق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ،

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية ؛ ابن ماجه والحاكم من حديث محمد بن أوس وقالوا للشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت بل ضعيف وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات ، وتوقيه الشهات ، ونحمله مشاق العبادات ، أطلقوا
ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا في التقريظ والإطراء . ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام
وتبركوا بعشاهدته وإقائه ، ورغبوا في بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه ، وفاتحوه
بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه في البيع والمعاملات ،
وقدموه في المجالس ، وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين ، وانقادوا له
في أغراضه موقرين . فأصابته النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات ، وشهوة هي أغلب
الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات ، واستلانت خشونة المواظبة على
العبادات ، لإدراكها في الباطن لذة اللذات ، وشهوة الشهوات . فهو يظن أن حياته
بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تمنى عن دركها العقول النافذة
القوية . ويرى أنه مخلص في طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة
تزيينا للعباد ، وتصنعا للخلق ، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأجبت بذلك ثواب
الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين ، وهو يظن أنه عند الله من المقربين
وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون
ولذلك قيل . آخر ما يخرج من رهوس الصديقين حب الرياسة . وإذا كان الرياء هو الداء
الدفين ، الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه ، وحقيقته ، ودرجاته
وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه . ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين :
الشرط الأول : في حب الجاه والشهرة . وفيه بيان ذم الشهرة ، وبيان فضيلة الخمول ،
وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوبا
أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكامل حقيقي ، وبيان ما يحمده
من حب الجاه وما يذم وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم ، وبيان العلاج
في حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهية الذم ، وبيان اختلاف
أحوال الناس في المدح والذم . فهي اثنا عشر فصلا ، منها تنشأ معاني الرياء ، فلا بد من تقديمها ،
والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

ضم الشهرة وانتشار الصيت

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلامن عصمه أن يشر الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه : البهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢٧) حديث جابر بحسب امرئ من الشراء الحديث : مثله وزاد في آخره ان لا ينظر الى صوركم - الحديث : هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الاوسط واليهيقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التي في آخره وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عثمان بن حصين يلفظ كذا بالمواءن ورواه ابن نونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر يلفظ هلاك الزنجل وفيه دينه بالبدعة ودينهم بالفسق واسنادها ضعيف

وقال سليم بن خنظلة . بينا نحن حول أبي بن كعب نغشى خلفه ، إذ رآه عمر ، فملاه بالدره . فقال انظر بأمر المؤمنين ما تصنع . فقال إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع . وعن الحسن قال . خرج ابن مسعود يوما من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال : غلام تتبعوني ؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه باني ، ما اتبعني منكم رجالان . وقال الحسن . إن خفي النعال حول الرجال فلما تلبت عليه قلوب الحقي . وخرج الحسن ذات يوم ، فاتبعه قوم . فقال هل لكم من حاجة ؟ وإلا فاعسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن وروى أن رجلا صحب ابن محيرز في سفر . فلما فارقه قال أوصني . فقال إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف ، وتغشى ولا يعشى إليك ، وتسأل ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب في سفر ، فشيمه ناس كثيرون . فقال لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره ، لخشبت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قيصه ، فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله ، وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة ، إذ دخل عليه رجل عليه أكسية . فقال أياكم وهذا الحمار الناهق . يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الشباب الجيدة ، والشباب الرديئة ، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث أوصني ، فقال أخل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وكان حوشب يسكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضا : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

بيان

فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « رُبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرِ ذِي طَمَرَيْنِ * لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بَيْنُ مَا لَكَ » وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك : مسلم من حديث أبي هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره : وللاحكام رب أشعث أغبر ذي طمرين

الطمر : الثوب الخلق

« رَبِّ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا » وقال صلى الله عليه وسلم «^(١) دَأَلَا أَدْلَكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلِّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَاطِ* » وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم «^(٢) إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا لِلنِّسَاءِ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصِتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلَّخِلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قَسَمَ نُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوْ سَمِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم «^(٣) إِنَّ مِنْ لَأَمْتِي مَنْ لَوْ أَنِّي أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ إِلَّا يَأَهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دَرَاهِمًا لَمْ يُعْطِهِ إِلَّا يَأَهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلَسًا لَمْ يُعْطِهِ إِلَّا يَأَهُ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ إِلَّا يَأَهُ وَلَوْ سَأَلَ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِلَّا يَأَهُ وَمَا مَنَعَهَا إِلَّا هُوَ أَنَهَا عَلَيْهِ رَبِّ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ » وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد ، فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «^(٤) يَقُولُ «إِنَّ أَلْسِينَ مِنَ الرِّبَاءِ شَرْكَ» وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَاحِبُ الْهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلِمَةٍ »

تنبؤ عنه أعيان الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الإسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه

(١) حديث ابن مسعود رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لوقال اللهم انى أسالك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

(٢) حديث الأودلى على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف - الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب (٣) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الدين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم - الحديث :

(٤) حديث أن من أمتى من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه - الحديث : الطبرانى فى الأوسط من حديث ثوبان بأسناد صحيح دون قوله ولوسأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه لهوانه عليه

(٥) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من رياء شرك وإن الله يحب الاتقياء الأخفلاء - الحديث : الطبرانى والحاكم واللفظه وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك

هذا الجواز : الكثير اللحم المختال فى مشيته

وقال محمد بن سويد : فحط أهل المدينة ، وكان بهار رجل صالح لا يؤبه له ، لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فبينما هم في دعائهم ، إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، ثم بسط يديه ، فقال يارب أنسمت عليك ، إلا مطرت علينا الساعة . فلم يرديده ، ولم يقطع دعاءه ، حتى تفشيت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الفرق . فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم . وسكن . وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه ، فخرج إليه ، فقال إني أتيتك في حاجة ، فقال ماهي ؟ قال تخصني بدعوة . قال سبحان الله ! أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة ! ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت ؟ قال أطعت الله فيما أمرني ونهاني ، فسألت الله فأعطاني .

وقال ابن مسعود كونا ينابيع العلم ، مصاييح الهدى ، أحلاس البيوت ، سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتحفون في أهل الأرض . وقال أبو مامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^١ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَاءِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْخُلَاذِ * ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاحٍ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ » قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عَجَّلْتُ مَنِيَّتَهُ وَقَلَّ شُرَاؤُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما عين به على عبده : ألم أنم عليك ؟ ألم أترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك ، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري : وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة ، مع قوم غرباء ، أصحاب قوت وعناء ،

وقال إبراهيم بن آدم : ما قرأت عيني يوم ما في الدياقط إلا مرة ، بت ليل في بعض مساجد قري الشام ، وكان بي البطن ، فجرتي المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل إن قدرمت على أن لا تعرف فافعل ، وما عليك أن لا تعرف ؟ وما عليك أن لا يتنى عليك ؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى .

(١) حديث أبي أمامة أن أغبط أوليائي عندى مؤمن خفيف الحاد - الحديث : الترمذى وابن ماجه بإسنادين ضعيفين

* خفيف الحاد : خفيف الظهر من العيال .

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة، وفضيلة الخمول. وإعنا المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب. وحب الجاه هو منشأ كل فساد فإن قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء، فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة. فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم: فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء. وهم كالغريق الضعيف، إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به، فيضعف عنهم، فيهلك معهم. وأما القوي، فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به، فينجيهم ويثاب على ذلك

بيان

ذم حب الجاه

قال الله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ^(١)) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢)) وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَا ذُنْبَانِ ضَارِيَانِ أَرْسِلَا فِي زُرِّيَّةِ غَنَمٍ بِأَسْرَعِ إِفْسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه ^(٣) « إِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق - الحديث : تقدم في أول هذا الباب ولم أجده

(٢) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم - الحديث : تقدم أيضا هناك

(٣) حديث إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء، لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس ثلاث

مهلكات شح مطاع وهوى متبع - الحديث : ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس إجمعي ويصم

بيان

معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنان الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها . ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ، ليتوصل بهما إلى الأغراض ، والمقاصد ، وقضاء الشهوات ، وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه ، هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ، ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات . ولا نصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات . فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال ، انقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده . وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده . وقد يعتد ما ليس كمالا كمالا ، ويدعن قلبه للموصوف به ، انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده . فإن انقياد القلب حال للقلب ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتهما . وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا وينفى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية ، والطاعة له فإيطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعمت من نعمت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم . وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . وبقدر قدرته على القلوب يكون فرجه وحبه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات ، كالمدح والإطراء . فإن المعتد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده ، فيثنى عليه . وكالخدمة والإعانة ، فإنه لا يخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار ، وترك المنازعة ، والتعظيم

والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر في المحافل ، والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص ، إما بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال في صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقدونه الناس كمالاً ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب ، فتكون سبباً لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم

بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوباً . بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار . وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا تعرض في أعيانها ، إذ لا تصلح لمطعم ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ، ولا ملبس ، وإغماهى والحصباء بمثابة واحدة . ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب ، وذريعة إلى قضاء الشهوات فبذلك الجاه ، لأن معنى الجاه ملك القلوب . وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب ، لو قصد اكتساب المال تيسر له . فإن أموال أرباب القلوب مستخرة للقلوب ، ومبدولة لمن اعتقد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس ، الذي لا يتصف بصفة كمال ، إذا وجد كنزاً ، ولم يكن له جاه يحفظ ماله ، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له . فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال . فمن ملك الجاه فقد ملك المال . ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال . فلذلك صار الجاه أحب

للعالم ، هو أن المال معرض للبلوى والتلف ، بأن يسرق ، وينصب ، ويضع فيه

الملوك والظامة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة ، والحراس ، والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة . وأما القلوب إذ املككت ، فلا تعرض لهذه الآفات ، فهي على التحقيق خزائن عتيقة ، لا يقدر عليها السراق ، ولا تتناولها أيدي النهاب والنصاب . وأثبت الأموال العقار ، ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهي محفوظات محروسة بأنفسها . والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم : إنما تغصب القلوب بالتصريف ، وتقبيح الحال ، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ، ولا يتيسر على محاوله فعله

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد ، من غير حاجة إلى تمت ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذغت لشخص واعتقدت كماله ، بعلم أو عمل أو غيره ، أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقد له غيره ، ويقتنص ذلك القلب أيضاً له . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر ، لأزدك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ، ودعاهما إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له مردعين وأما المال : فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ، ولا يقدر على استئمانه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبداً في النماء بنفسه ، ولا مرد لموقعه ، والمال واقف . ولهذا إذا عظم الجاه ، وانتشر الصيت ، وانطلقت الألسنة بالثناء ، استحققت الأموال في مقاباته . فهذه مجاميع رجيحات الجاه على المال ، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح

فإن قلت : فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً ، فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه نعم : القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى اللباس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعمقوبة ، إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه للمال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطبائع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الدخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا ينبغي لهما ثالثا وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطرؤها ، ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليعبروه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه

ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاز ؛ وحب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل ، فإنه حب لما لا فائدة فيه لافي الدنيا ولا في الآخرة .
فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب ، وله سببان : أحدهما جلي تدركه الكافة ، والآخر خفي ، وهو أعظم السببين ، ولكنه أدقهما وأخفاهما ، وأبعدهما عن أفهام الأذكاء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس ، وطبيعة مستكنة في الطبع ، لا يكاد يقف عليها إلا النواصون .
فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشقيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا في الحال ، فإنه طويل الأمل ، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف ، فيحتاج إلى غيره . فإذا خطر ذلك بباله ، هاج الخوف من قلبه . ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمان الحاصل بوجود مال آخر . يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة . فهو أبدا لشقيقته على نفسه وحب الحياة ، يقدر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك ، فيطلب ما يدفع خوفه ، وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر .

وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مَنُومُ الْعَالَمِ وَمَنُومُ الْمَالِ » ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المصلحة والجاء في قلوب الأبعد عن وطنه وبلده . فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن ، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستغاثة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا لحالة ظاهرة ، كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاء في قلوبهم ، لما فيه من الأمن من هذا الخوف .
وأما السبب الثاني : وهو الأقوى ، أن الروح أمر رباني ، به وصفه الله تعالى : إذ قال سبحانه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ^(٢)) ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ، ولا رخصة في إظهاره ، ^(٣) إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث منهومان لا يشبعان - الحديث : الطبراني من حديث أبي مسعود بن سعد ضعيف والبرقي

في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

(٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر أمر الروح : البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(٣) الأسرار : ١٥

ولكنك قبل معرفة ذلك ، نعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية ، كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية ، كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ، كالكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوية ، كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء . وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوية بالطبع . ومعنى الربوية التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال .

فصار الكمال من صفات الإلهية ، فصار محبوبا بالطبع للإنسان . والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة . فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية . والتفرد بالوجود هو الله تعالى ، إذ ليس معه موجود سواء ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به . فلم يكن موجودا معه ، لأن المية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال . بل الكامل من لا نظيره في رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة ، مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافي العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعا ولا يكون متبعا . فإذا معنى الربوية التفرد بالوجود ، وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه يحب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ^(١)) ولكنه ليس يجد له مجالا . وهو كما قال . فإن العبودية قهر على النفس ، والربوية محبوبة بالطبع . وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ^(٢)) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال ، لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي محبة للكمال ، ومشتهية له ، وملتذذة به لذاته لا لمنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ، ولكمال ذاته ، وبمفرض لئلا الذي هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود ، في الاستيلاء على كل الموجودات ، فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك ، فإن لم يكن منك

فإن تكون مستولياً عليه . فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته ، فإنه يحب ذاته ، ويحب كمال ذاته ويلتذ به . إلا أن الاستيلاء على الشيء ، بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة ، وكونه مسخرًا لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه ، كذات الله تعالى وصفاته ، وإلى ما يقبل التغيير ، ولكن لا يستولى عليه قذرة الخلق ، كالأفلاك ، والكواكب ، وملكوت السموات ونفوس الملائكة ، والجن ، والشياطين ، والجبال ، والبحار ، وما تحت الجبال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد ، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن ، والنبات ، والحيوان ومن جعلها قلوب الناس ، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات ..

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه ، كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه ، كذات الله تعالى ، والملائكة ، والسموات . أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم ، والإحاطة ، والاطلاع على أسرارها ، فإن ذلك نوع استيلاء ، إذ المعلوم المحاط به كالدخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه . فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى ، والملائكة ، والأفلاك ، والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها ، لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة ، إلى معرفة طريق الصنعة فيها . كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به ، وأنه كيف وضع . وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة ، أو الشعبذة ، أو جر الثقيل أو غيره ، وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ، ولكنه يشاق إلى معرفة كيفيته ، فهو متألم ببعض العجز ، متلذذ بكمال العلم إن علمه

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد ، وهي قسمان : أجساد ، وأرواح

أما الأجساد ، فهي الدراهم ، والدنانير ، والأمتعة ، فيجب أن يكون قادراً عليها ، يفعل فيها ما يشاء من الرفع ، والوضع ، والتسليم ، والنزع ، فإن ذلك قدرة ، والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع . فلهذا أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها

في ملبسه ومطعمه ، وفي شهوات نفسه . وكذلك طلب استرقاق العبيد ، واستعباد الأشخاص الأحرار ، ولو بالقهر والغلبة ، حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ، ويقوم القهر منزله فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذينة لما فيها من القدرة

القسم الثاني : نفوس الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفس ماعلى وجه الأرض . فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها ، لتكون مسخرة له ، متصرفه تحت إشارته وإرادته ، لما فيه من كمال الاستيلاء ، والتشبه بصفات الربوبية . والقلوب إنما تسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب ، لأن الكمال من الصفات الإلهية ، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع ، للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يليه الموت فيعده ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة ، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فإذا معنى الجاه تسخر القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال ، وهو من أوصاف الربوبية . فإذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولانهاية للمعلومات ، ولانهاية للمقدورات . وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن ، والتقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنَّهُو مَانٍ لَا يَشْبَعَانِ » ، فإذا مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة ، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم ، والمال ، والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض . بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات . ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع الجوانب والمشكلات لأن في العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية ، فكان محبوبا بالطبع . إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليظ لابد من بيانها إن شاء الله تعالى

بيان

الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة . ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي . ويبانه أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى

الثاني : من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفاً به كشافاً تاماً فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهي عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن ، وأصدق ، وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم ، كان أقرب إلى الله تعالى الثالث : من حيث بقاء العلم أبداً الآباد ، بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانتقال ، كان أقرب إلى الله تعالى والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد في الدار . فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ، ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان ، فينقلب جهلاً ، فيكون نقصاناً لا كمالاً . فكما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته ، كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ، ويعود علمك جهلاً . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كمالك مثلاً بارتفاع جبل ، ومساحة أرض ، وبعدد البلاد ، وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكرك في المسالك والممالك وكذلك العلم باللغات ، التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأُمم والعادات . فهذه علوم معلوماً مثل الزئبق ، تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية ، وهو جواز الجائزات ، وجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات . فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ، ولا الجائز محالاً ، ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله . وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويحوز في أفعاله . فالعلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته في ملكوت

السّموات والأرض ، وترتيب الدنيا والآخرة ، وما يتعلق به ، هو الكمال الحقيقي ، الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ، وتسكون هذه المعرفة نورا للمعارفين بعد الموت ، يسمى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . أى تكون هذه المعرفة رأس مال ، يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى ، فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقبس منه ، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام . ومن ليس معه أصل السراج ، فلا مطمع له في ذلك . فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى ، لم يكن له مطمع في هذا النور ، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، بل كظلمات في بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . فإذا لاسعادة إلا في معرفة الله تعالى . وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً ، كمعرفة الشعر ، وأنساب العرب وغيرها ، ومنها ماله منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى ، كمعرفة لغة العرب ، والتفسير والفقه ، والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات ، والأعمال التي تفيد تركيبة النفس ، ومعرفة طريق تركيبة النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ^(١)) وقال عز وجل (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ^(٢)) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى . وإنما الكمال في معرفة الله ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهي من تكملة معرفة الله تعالى . وهذا حكم كمال العلم ، ذكرناه وإن لم يكن لانفاً بأحكام الجاه والرياء ، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال وأما القدرة ، فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى ، وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله . وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد ، وقدرته وحركته ،

(١) الشمس : ٢٩ (٢) النكبات : ٢٩

فهي حادثة بإحداث الله ، كما قررناه في كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفي مواضع شتى من ربيع المنجيات . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى . فأما كمال القدرة فلا . نعم : له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهي وسيلة له إلى كمال العلم ، كسلامة أطرافه ، وقوة يده للبطش ، ورجله للمشي ، وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم . وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه ، للتوصل به إلى المطعم والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله ، فلاخير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية ، التي تنقضى على القرب . ومن ظن ذلك كما لا فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل . فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال . فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ، ولما طلبوه شغلوا به ، وتهالكوا عليه ، ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية . أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى . وأما الحرية فالتخلص من أسر الشهوات وغموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ، تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفهم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال ، الذي هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد ، كان إلى الله تعالى أقرب ، وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة . وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان ، إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص في الذات وفي صفات الكمال . فإذا الكمال ثلاث ، إن عدنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالاً ، ككمال العلم ، وكمال الحرية ، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية . وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال ، وعلى استسخار القلوب والأبدان ، تنقطع بالموت . ومعرفة وحرية لا ينعدمان بالموت ،

بل يبقيان كما لا فيه ، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان ، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذي لا يسلم ، وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم ، الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له . وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ^(١)) فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كما لا في النفس . والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ^(٢)) الآية ، وقال تعالى (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ^(٣)) إلى قوله (فَاصْبَحَ هَشِيبًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ^(٤)) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي . اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

بيان

ما يحمد من حب الجاه وما يندم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب ، والقدرة عليها ، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ما خلق في الدنيا ، فيمكن أن يتزود منه للآخرة . وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة الطعام ، والمشرب ، والملبس ، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق . والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله . فيجوز أن يحجب الطعام ، أو المال الذي يتنازع به الطعام ، فكذلك

(١) البقرة : ٦٦ (٢) يونس : ٢٤ (٣) البقرة : ٢٥ (٤) البقرة : ٢٥

لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعو إلى الخدمة ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحسنه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم . فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال . فلا فرق بينهما . إلا أن التمتع في هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء ، لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته . ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء . فهذا على التحقيق ليس بحاليت الماء . فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب ، فالمحسوب هو المقصود المتوصل إليه . وتذكر التفرقة بمثال آخر ، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع بيت الماء فضلة الطعم . ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به . وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب الشاق ، ولو كفى الشهوة لبقى مستصحباً لنسكاحها . فهذا هو الحب دون الأول . وكذلك الجاه والمال ، قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين . فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم . وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم . ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان . ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية ، وما يتوصل به إلى اكتساب كذب وخداع وارتكاب محظور ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة . فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين ، وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي . فإن قلت ، طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه ، وخادمه ، ورفيقه ، وسلطانه ، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص ، على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان منه مباحان ، ووجه محظور . أما الوجه المحظور ، فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منك ضرها . مثل العلم ، والورع ، والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى ، أو عالم ، أو ورع ، وهو لا يكون كذلك

فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة
وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف صلى الله
عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم ^(١))
فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا إليه ، وكان صادقا فيه
والثاني : أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ، ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، فلا تزول
منزلته به . فهذا أيضا مباح . لأن حفظ السر على القبايح جائز . ولا يجوز هتك السترو وإظهار
القبیح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به . كالذى يخفى
عن السلطان أنه يشرب الخمر ، ولا يلتقى إليه أنه ورع . فإن قوله إني ورع تلبيس ، وعدم
إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع ، بل يمنع العلم بالشرب . . . ومن جملة المحظورات
تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ، إذ يخيل إليه
أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مرء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ! فطلب الجاه
بهذا الطريق حرام . وكذلك بكل معصية . وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام
من غير فرق . وكما لا يجوز له أن يملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره ، فلا يجوز
له أن يملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال

بيان

السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه

وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن حب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأول : وهو الأقوى ، شعور النفس بالكمال : فإننا بينا أن الكمال محبوب ،
وكل محبوب فإدراكه لذيد . فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ،
والمدح يشعر نفس المدوح بكمالها . فإن الوصف الذى به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا
ظاهرا ، أو يكون مشكوكا فيه . فإن كان جليا ظاهرا محسوسا ، كانت اللذة به أقل . ولكنه

لا يخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون . فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته : فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك ، فاللذة فيه أعظم : كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاك في كمال حسنه ، وفي كمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك ، بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور ، إذ تطمئن نفسه إليه . فإذا ذكره غيره ، أورت ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال ، فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خبير بها ، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق . وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكماسة ، والذكاء ، وغزارة الفضل ، فإنه في غاية اللذة . وإن صدر ممن يجازف في الكلام ، أو لا يكون بصير بذلك الوصف ، ضعفت اللذة . وبهذه العلة يبعض الذم أيضا ويكرهه ، لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت والشعور به مؤلم . ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه في المدح السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مماوئك للممدوح ، وأنه مريد له ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته . وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيد . وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ، كالملوك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ، ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم ، لأن الفأنت به أعظم

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه . لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ، ويمتد بثنائه . وهذا يختص بثناء يقع على الملأ . فلا جرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألد ، والذم أشد على النفس السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح ، إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضا لذيدة ، لما فيها من القهر والقدرة . وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يقتقد في الباطن مامدح به ، ولكن

كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد . فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد ، فيعظم بها الالتذاذ . وقد تفرق ، فتتقص اللذة بها أما العلة الأولى ، وهي استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم المدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب ، أو سخي ، أو عالم بعلم ، أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ، ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب ، بطلت اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصلا لذة لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة . فإن ما لا يعرف سببه ، لا يمكن معالجته . إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى

بيان

علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوبا بالتودد إليهم ، والمرااة لأجلهم . ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويحذر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات ، والمرااة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال ، وإفسادهما للدين ، بذئبين ضارين ، وقال عليه السلام إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس ، فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال

عجدة هو خال عنها. وذلك هو عين النفاق. فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس، وعلى قلوبهم. وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات. بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له. ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق، صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، ويستحق العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز. أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل، وقدره كائنا. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. فهو لاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى، إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا تمتد نورها إلى مشاهدة العواقب. ولذلك قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(١)) وقال عز وجل (كَلَّا * بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ^(٢)) فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا. فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب. والقلوب أشد تغيرا من القدر في غلباتها. وهى مترددة بين الإقبال والإعراض. فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمرام القلوب، وحفظ الجاه، ودفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء،

(١) الأهل: ١٦، ١٧ (٢) القيامة: ٢٥

كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه . فلا يني في الدنيا مرحوها بخوفها ،
فضلا عما يفوت في الآخرة . فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضميمة ، وأما من نفذت
بصيرته ، وقوى إيمانه ، فلا يلتفت إلى الدنيا . فهذا هو العلاج من حيث العلم
وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق ، بمباشرة أفعال يلام عليها ، حتى
يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأانس بالتحول وبرد الخلق ، ويقنع بالقبول
من الخلق . وهذا هو مذهب الملامية ، إذ اتحموا الفواحش في صورتها ، ليستقوا
أنفسهم من أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه . وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن
الدين في قلوب المسلمين . وأما الذي لا يقتدى به ، فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل
ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ، كما روى أن بعض الملوك قصد
بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه ، استدعى طعاما وبقلا ، وأخذ يأكل بشره ، ويعظم
اللحمة . فلما نظر إليه الملك سقط من عينه . وانصرف فقال الزاهد . الحمد لله الذي صرفك عنى
ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر ،
فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه . إلا أن أرباب الأحوال
ربما يمالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، مهما رأوا الإصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما فرط
منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل
حماما ، ولبس ثياب غيره وخرج ، فوقف في الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ،
واستردوا منه الثياب ، وقالوا إنه طرار ، وهجروه . وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال
عن الناس ؛ والهجرة إلى موضع التحول . فإن المعتزل في بيته . في البلد الذي هو به مشهور
لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته . فإنه ربما يظن أنه ليس
محباً لذلك الجاه ، وهو مغرور . وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها . ولو تغير
الناس عما اعتقدوه فيه ، فذموه ، أو نسبوه إلى أمر غير لائق به ، جزعت نفسه وتألمت ،
وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم . وربما يحتاج في إزالة
ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس . ولا يبالى به . وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة .
ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال ، بل هو شر منه ، فإن فتنه الجاه أعظم ،

ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس . فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأسا ، أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق ، لأنه لا يراهم ، ولا يطمع فيهم . ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة . فمن قنع استغنى عن الناس ، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن . ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل ، مثل قولهم : المؤمن لا يخلو من ذلة ، أو قلة ، أو علة . وينظر في أحوال السلف ، وإثارهم للذل على العز ، ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين .

بيان

وجه العلاج لحب المدح وكراهة الدم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم . فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفا من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك ، وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها ، فهي إمامة تستحق بها المدح ، كالعلم والورع ، وإمامة لا تستحق المدح ، كالتروة والجاه والأعراض الدنيوية . فإن كانت من الأعراض الدنيوية . فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض ، الذي يصير على القرب هشيما تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل . بل العاقل يقول كما قال المتنبي :

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا . وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها . بل بوجودها . والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها ، كالعلم والورع ، فينبغي أن لا يفرح بها ، لأن الخاتمة غدير معلومة ، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفي . وخطب الخاتمة باقية ، ففي الخوف من سوء الخاتمة

شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا . بل الدنيا دار أحزان وغموم ، لا دار فرح وسرور . ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ؛ فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى ، لا بمدح المادح . فإن اللذة في استشعار الكمال ، والكمال موجود من فضل الله لا من المدح ، والمدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول : سبحان الله ! ما أكثر العطر الذي في أحشائه ، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأتبان . ثم يفرح بذلك . فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ، ففرحت به ، والله مطلع على خبايا باطنك ، وغوائل سريرتك ، وأقذار صفاتك ، كان ذلك من غاية الجهل فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك ، التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح ، وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب . وقد سبق وجهه مما لجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس ، وفرحك به ، يسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به !

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ، ولا تستحق الفرح . بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرمه وتغضب به ، كما نقل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ، كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل : وروني في بعض الأخبار ، فإن صح فهو قاصم للظهور ، ^(١) أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِي الَّذِي قُلْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديثان رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار ، لم أجده أصلا

(١) مرة للمادح «وَبِحُكِّكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وقال عليه السلام
(٢) «أَلَا لَا تَمَادِحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْشُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»

فلماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته، وما يدخل
على القلب من السرور العظيم به، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء،
فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم. فغضب وقال: إني لم آمرك بأن
تزكيني. وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله. فغضب وقال: أنى
لأحسبك عراقيا. وقال بعضهم لما مدح. اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك، فأشهدك على
مقتك. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، فكان
اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله ينعض إليهم مدح الخلق لأن المدوح هو المقرب عند الله،
والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار. فهذا المدوح إن كان عند الله
من أهل النار، فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره. وإن كان من أهل الجنة، فلا ينبغي
أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم الأرزاق والآجال بيد
الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حب المدح، واشتغل
بما يهيمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

بيان

علاج كراهة الدم

قد سبق أن العلة في كراهة الدم، هو ضد العلة في حب المدح. فعلاجه أيضا يفهم
منه. والقول الوجيز فيه، أن من ذمك لا يخالو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون قد صدق
فيما قال، وقصده به النصيح والشفقة، وإما أن يكون صادقا، ولكن قصده الإيذاء والتغنت
وإما أن يكون كاذبا. فإن كان صادقا وقصده النصيح، فلا ينبغي أن تذهمه، وتغضب عليه
وتحقد بسببه. بل ينبغي أن تتقلد منته. فإن من أهدى إليك عيوبك، فقد أرشدك

(١) حديث: وبحك قطعت ظهره - الحديث: قاله للمادح تقدم

(٢) حديث: ألا لا تمدحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب: تقدم دون قوله ألا لا تمدحوا

إلى المهلك حتى تنقيه . فينبني أن تفرح به ، وتشغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه ، وكرامتك له ، وذمك إياه ، فإنه غاية الجهل وإن كان قصده التعمت ، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك ، إن كنت جاهلا به ، أو ذكرت عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قيحه في عينك ، لينبت حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سمادتك ، وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السمادة ، فقد أتيج لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك ، وثوبك ملوث بالعدرة ، وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعدرة ، فقال لك قائل : أيها الملوث بالعدرة طهر نفسك ، فينبني أن تفرح به ، لأن تنبيهك بقوله غنية . وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبني أن تفتنمه . وأما قصد العبدو التعمت لخناية منه على دين نفسه ، وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت ، وتضرر هو به .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى ، فينبني أن لا تكره ذلك ، ولا تشغل بذهمه . بل تتفكر في ثلاثة أمور

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك ، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه . والثاني : أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك ، فكأنه رمالك بعيب أنت بريء منه ، وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها . وكل من اعتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فإياك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى . وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله

وأما الثالث ، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه باقترائه ، وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبني أن تغضب عليه مع غضب الله عليه . فتشبهت به الشيطان ، وتقول اللهم أهلكه ، بل ينبني أن تقول اللهم أصلح ، اللهم تب عليه ،

اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوِيَّ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوِيَّ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » لما أن كسروا ثنيته ، وشجوا وجهه ، وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيم بن آدم لمن شجر رأسه بالمغفرة ، فقبل له في ذلك ، فقال علمت أني مأجور بسببه ، وما نالني منه إلا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع . فإن من استغفنت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه وأصل الدين التناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه . وما دام الطمع قائما ، كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جدا

بيان

اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمباح
الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ، ويشكر المادح ، وينضب من الذم ، ويحقد على الذام ، ويكافئه أو يحب مكافأته . وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب
الحالة الثانية : أن يتمض في الباطن على الذام ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال

الحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تنميه المذمة ، ولا تسره المدحة . وهذا قد يظنه بعض العبّاد بنفسه ، ويكون مغرورا إن لم يتمحن نفسه ، بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد في نفسه استقلالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده ، أكثر مما يجده في المادح . وأن لا يجد في نفسه زيادة هزلة ونشاط في قضاء شؤون المادح ، فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام . وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه ، أهون عليه

(١) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون له لما صرح به قومه بالبيشقي في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبي من الانبياء حين ضرب به قومه

من انقطاع المادح . وأن لا يكون موت المادح المطرى له ، أشد نكايه في قلبه من موت الزام . وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه ، أكثر مما يكون بمصيبة الزام . وأن لا تكون زلة المادح ، أخف على قلبه وفي عينه من زلة الزام . فهما خف الزام على قلبه كما خف المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون . حيث لا يتحنون أنفسهم بهذه العلامات . وربما شعر العابد بعيل قلبه إلى المادح دون الزام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الزام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ! وإنما استثقالك للزام من الدين المحض . وهذا محض التليس . فإن العابد لو تفكر ، علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الزام في مذمته ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم . ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ، ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه . والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المغرور لنفسه بغضب ، وهواه يمتنع ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه ، فيزيده ذلك بعدا من الله . ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس ، فأكثر عباداته تعب ضائع ، يفوت عليه الدنيا ، ويخسر في الآخرة . وفيهم قال الله تعالى (قُلْ هَلْ تُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ^(١))

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة ، أن يكره المدح ويعت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه ، قاصمة للظهر ، مضرة له في الدين . ويحب الزام ، إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ، ومهد له إلى مهمه ، ومهد إليه حسناته . فقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « رَأْسُ التَّوَّاضِعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذَكَّرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم ^(٣) قال « وَبِلُصَّائِمٍ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ

(١) حديث رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى : لم أجده أصلا

(٢) حديث ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف - الحديث : لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس

عن حديث أنس وويل لمن ليس بالصوف يخالف فيه قوله ولم يخرجوه واه في مسنده .

(٣) التكميل : ١٠٣

الصُّوفِ إِلَّا مَنْ» فقيل يا رسول الله إلا من ؟ فقال « إِلَّا مَنْ تَزَهَّتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ الْمَدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ الْمَذْمَةَ » وهذا شديد جدا

وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية : وهو أن يضمر الفرح والكرامة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل . فأما الحالة الثالثة : وهي التسوية بين المادح والذام ، فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية ، دُئِبَها لا تفي بها ، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتأفل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه . ولا تقدر على أن نسوى بينهما في الفعل الظاهر ، كما لا تقدر عليه في سريرة القلب . ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل ، فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد ، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين

وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح ، فهو أن من الناس من يمتنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن ، حتى يرأى بالعبادات ، ولا يبالي بمقارفة المحظورات ، لاسمالة قلوب الناس ، واستنطاق ألسنتهم بالمدح : وهذا من الهالكين ومنهم من يريد ذلك ، ويطلبه بالمباحات ، ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات . وهذا على شفا جرف هار . فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب ، وحدود الأعمال ، لا يمكنه

أن يضبطها . فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد . فهو قريب من الهالكين جدا . ومنهم من لا يريد المدحة ، ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه . فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ، ولم يتكلف الكراهية ، فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها . وإن جاهد نفسه في ذلك ، وكلف قلبه الكراهية ، وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليأس ، وتارة تكون عليه

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسره به ، ولم يفتخر به ، ولم يؤثر فيه ، وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ، ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه . وأقصى درجاته أن يكرهه ، ويغضب ، ويظهر الغضب وهو صادق فيه . لأن يظهر الغضب وقلبه محب له ، فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق ، وهو مفلس عنه . وكذلك بالضد من هذا تفاوت الأحوال في حق الذام .

وأول درجاته إظهار الغضب ، وآخرها إظهار الفرح . ولا يكون الفرح . وإظهاره إلا بمن في قلبه حنق وحقد على نفسه لئلا يردّها عليه ، وكثرة عيوبها ، ومواعيدها السكاذبة ، وتليساتها الخبيثة ، فيغضها بنض العدو . والإنسان يفرح بمن يذمّ عدوه . وهذا شخص عدوه نفسه ، فيفرح إذا سمع ذمها ، ويشكر الذام على ذلك ، ويعتقد فطنته وذكاه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفي لمن نفسه ، ويكون غنيمته عنده ، إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس ، حتى لا يتلى بفتنة الناس . وإذا سبقت إليه حسنات لم ينصب فيها ، فعساه يكون خيرا لميوبه التي هو عاجز عن إماتها . ولوجاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة ، وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، لكان له شغل شاغل فيه ، لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة ، هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل

الشر الثاني من الكتاب

في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء . وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء ، وما يرائي به ، وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخلق ، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات ، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قبل الطاعة وبمدها ، وهي عشرة فصول ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الرياء

اعلم أن الرياء جرم ، والمرائي عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار أما الآيات . فتقوله تعالى (قَوْلِ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ^(١)) وقوله عز وجل (وَالَّذِينَ يَمُكِّرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ ^(٢))

(١) للماعون ٤ ، ٦٠ ، ٥٠ (٢) فاطر : ١٠

قال مجاهد . هم أهل الرياء . وقال تعالى (إِنَّمَا نُنَظِّمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ^(١)) فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله . والرياء ضده . وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ^(٢)) نزل ^(١) ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يا رسول الله ، فيم النجاة؟ فقال « أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللَّهِ يُرِيدُ بِهَا النَّاسَ » ^(٢) وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ، المقتول في سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الإخلاص . وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم . وقال ابن عمر رضي الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ » وفي حديث آخر طويل ، ^(٤) أن الله تعالى يقول للملائكة ، إن هذا لم يردني بعمله ، فاجعلوه في سجين . وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث نزول قوله تعالى من كان يرجو لقاءه به الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعبادته وأعماله الحاکم من حديث طاوس قال رجل أنى أقف الموقف أبغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا في نسختي من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك - الحديث : وفيه أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

(٢) حديث أبي هريرة في الثلاثة المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتابه فإن الله يقول لكل واحد منهم كذبت : رواه مسلم وسبأني في كتاب الإخلاص

(٣) حديث ابن عمر من رأى رأى الله به ومن سمع سمع الله به : متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وإنما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفي الزهد لابن المبارك ومسنده أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث أن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين : ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلًا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

(١) «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْفَرَ» قالوا وما الشرك الأصفر يا رسول الله؟ قال: «الرِّبَا» يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوِنُ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا أَهْلَ مَجْدُونٍ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءُ» وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: «وَادِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَاءِ الْمُرَائِينَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَأَنَا أَغْنِي الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشِّرْكِ» . وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم صوم أحدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، ثلاثا يرى الناس أنه صائم . وإذا أعطى يمينه ، فليخف عن شماله . وإذا صلى فليرخ ستر بابه ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ» وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم (٥) يقول: «إِنْ أَدَّى الرَّيَاءُ شِرْكَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٦) «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءَ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ» وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «إِنْ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِبَيْعِيهِ فَكَادَ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ»

(١) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصفر - الحديث : أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود

ابن لبيدولة رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج

(٢) حديث استعيدوا بالله من جب الحزن قيل وما هو قال وادى جهنم أعد للقرء المرأين: الترمذى وقال

غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدى

(٣) حديث يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله - الحديث : مالك واللفظ له من حديث

أبي هريرة دون قوله وأنا منه برى ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهى عند ابن ماجه بسند صحيح

(٤) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء : لم أجده هكذا

(٥) حديث معاذ ان أدنى الرياء شرك: الطبراني هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الرياء شرك وقد تقدم

قبل هذه الورقة

(٦) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء - الحديث : تقدم فى أول هذا الكتاب

(٧) حديث ان فى ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله: متفق عليه

من حديث أبي هريرة بنحوه فى حديث سبعة بظلمهم الله فى ظله

ولذلك ورد ^(١) أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ الْمُرَائِيَّ يُنَادِي عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَا غَادِرُ يَا مُرَائِي مِثْلَ عَمَلِكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ أَذْهَبَ فَخُذْ أَجْرَكَ مِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ » ^(٣) وقال شداد بن أوس ؛ رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي ، فقلت ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال « إني تخوفتُ على أمتي الشُّركَ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَمُودُونَ صَنَاءً وَلَا شُمْسًا وَلَا قَرًّا وَلَا حَجَرًا وَلَكِنَّهُمْ يُرَاوُنَ بِأَنْعَمِهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَيَّرَهَا أَوْتَادًا لِلْأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا خَلَقَ رَبُّنَا خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللَّهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى قَالُوا يَا رَبِّ مَا أَشَدُّ مَا خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ يَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهَذَا أَشَدُّ خَلْقٍ خَلَقْتُهُ » وروى عبد الله بن المبارك ، بإسناده عن رجل ، أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكي معاذ ، حتى ظننت أنه لا يسكت ، ثم سكنت . ثم قال ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي « يَا مُعَاذُ » قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال « إني مُخَدِّثُكَ حَدِيثًا إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ تَفَعَّلَكَ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَعْتَهُ »

- (١) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين : ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضاعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الحفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة
- (٢) حديث ان المرأى ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرأى ضل عملك وحبط أجره - الحديث : ابن أبي الدنيا من رواية جيلة اليحصي عن صحابي لم يسم وزاد يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرأى واسناده ضعيف
- (٣) حديث شداد بن أوس اني تخوفت على أمتي الشُّرك - الحديث : ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا
- (٤) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها - الحديث : وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب

وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مَعْزُومٌ (١) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاقَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكًا يَوَّابًا عَلَيْهَا قَدْ جَلَّهَا عِظَمًا فَتَصَعَّدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إِلَى حِينَ أَمْسَى لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتُهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ الْمَلِكُ لِلْحَفَظَةِ اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ النَّبِيِّ أَمَرَني رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلٍ مِنْ أَعْتَابِ النَّاسِ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتَزَكِّيهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ اأْمُوا كُلُّكُمْ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا أَمَرَني رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصَعَّدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَنْتَهِجُ نُورًا مِنْ صِدْقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفَظَةَ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ اأْمُوا كُلُّكُمْ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلِكُ الْكِبَرِ أَمَرَني رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصَعَّدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ لَهُ دَوَى مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ اأْمُوا كُلُّكُمْ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ أَنَا صَاحِبُ الْعَجَبِ أَمَرَني رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَدْخَلَ الْعَجَبَ فِي عَمَلِهِ قَالَ وَتَصَعَّدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْقُرُوسُ الْمَرْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ اأْمُوا كُلُّكُمْ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلِكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسَدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ

(١) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا يواب عليها - الحديث : بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك غزاه الصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كقَالَ رواه في الزهد وفي اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

وَيَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلًا مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمْرِي
رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ
وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ
بَهَا قُفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لَا يَرْحَمُ إِنْسَانًا قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ
أَصَابَهُ بَلَاءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضْرَبَ بِهِ بَلٌّ كَانَ يَشْتَبُ بِهِ أَنَا مَلِكُ الرَّحْمَةِ أَمْرِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ
عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ
وَصَلَاةٍ وَتَفَقُّهِ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ الرَّعْدِ وَصَوْبُهُ كَضَوْءِ الشَّمْسِ
مَعَهُ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مَلَكٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ
بَهَا قُفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ أَقْبِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي
أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهَ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ
رَفْعَهُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْرَهُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيَّتَا فِي الْمَدَائِنِ أَمْرِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ
يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَ الْمُرَائِي
قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلِقَ حَسَنٌ
وَصُنَّتِ وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمَخْلُصِ لِلَّهِ قَالَ فَيَقُولُ
اللَّهُ لَهُمْ أَنْتُمْ الْحَفْظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرَدْ بِي بِهَذَا الْعَمَلِ
وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا وَتَقُولُ السَّمَوَاتُ
كُلُّهَا عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا « قَالَ مَعَاذُ
قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا مَعَاذُ : قَالَ « اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ تَقْصُرُ
يَا مَعَاذُ حَافِظَ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقْفَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَانْحِلْ ذُنُوبَكَ
عَلَيْكَ وَلَا تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلَا تُؤْكَلْ نَفْسُكَ بِذَمِّهِمْ وَلَا تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَدْخُلْ
عَمَلُ الدُّنْيَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَلَا تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ

وَلَا تُنَاجِ رَجُلًا وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلَا تَتَعَطَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلَا تَمُزِّقِ
النَّاسَ فَتَمُزِّقَكَ كِلَابُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ تَعَالَى (وَالنَّاسِطَاتُ نَشَاطٌ^(١)) أَتَدْرِي
مَنْ هُنَّ يَا مُعَاذُ ؟ « قلت ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال « كِلَابُ فِي النَّارِ تَنْشُطُ
اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ » قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطبق هذه الخصال ؟ ومن ينجو
منها ؟ قال « يَا مُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يُسَرُّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » قال فما رأيت أكثر تلاوة
للقرآن من معاذ ، للحذر مما في هذا الحديث

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رأى رجلاً يطأ طمىء رقبته فقال
يا صاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب ، إنما الخشوع في القلوب . ورأى
أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده ، فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك ؟
وقال على كرم الله وجهه : للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان
في الناس . ويزيد في العمل إذا أثنى عليه ، وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت
أقاتل بسبني في سبيل الله ، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس ؟ قال لا شيء لك . فسأله ثلاث مرات ،
كل ذلك يقول لا شيء لك ، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، الحديث
وسأل رجل سميد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمده ويؤجر
فقال له أتحب أن تمقت ؟ قال لا . قال فإذا عملت لله عملاً فأخلصه . وقال الضحاك : لا يقولن
أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك . ولا يقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لا شريك له .
وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له : انتص مني . فقال لا بن أدعها لله ولك . فقال له عمر :
ما صنعت شيئاً ، إما أن تدعها لي فأعرف ذلك ، أو تدعها لله وحده . فقال ودعها لله وحده
فقال فنعم اذن . وقال الحسن ، لقد صحبت أقواماً إن كان أحدكم لتعرض له الحكمة لو نطق
بها لنفعته ونفعت أصحابه ، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة . وإن كان أحدكم ليمر فيرى الأذى
في الطريق ، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة . . . ويقال إن المرائي ينادي يوم القيامة
يا ربمة أسماء : يا مرائي ، يا غادر ، يا خاسر ، يا فاجر ، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا .

وقال الفضيل بن عياض كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون . وقال عكرمة . إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله ، لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه . المرأى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح . وكيف يقولون وقد حل من ربه حل الأردياء ! فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة . إذا رآى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة . قراء الرحمن ، وقراء الدنيا ، وقراء الملوك . وإن محمد ابن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل . من أراد أن ينظر إلى مرء فليتنظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمات بالليل ، فإنه أشرف من سمات النهار ، لأن السمات بالنهار للمخلوقين ، وسمات الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . . وقال ابن المبارك . إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فقليل له وكيف ذلك ؟ قال يحب أن يذكر أنه مجاور مكة . وقال إبراهيم بن آدم ما صدق الله من أراد أن يشهر

بيان

حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإبرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها . فجد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله . فالمرأى هو العابد ، والمرأى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم والمرأى به هو الخصال التي قصد المرأى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك . والمرأى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يترين به العبد للناس : وهو البدن ، والزى ، والقول ، والعمل ، والأتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة . إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات ، أهون من الرياء بالطاعات

القسم الأول : الرياء في الدين بالبدن . وذلك بإظهار النحول والصفار ليوم بذلك شدة
الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة
الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن على الدين . وكذلك
يرائي بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر .
وهذه الأسباب مهما ظهرت ، استدل الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمراقبتهم
فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت ،
وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم . وأن وقار
الشرع هو الذي خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته . وعن هذا
قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه
وكذلك روى عن أبي هريرة . وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء . ولذلك
قال ابن مسعود . أصبحوا أصياما مدهنين . فهذه مراعاة أهل الدين بالبدن فأما أهل الدنيا ، فيراءون
بإظهار السمن ، وصفاء اللون واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن . وقوة الأعضاء وتناسبها
الثاني : الرياء بالهيئة والزى أما الهيئة . فتشعيث شعر الرأس ، وحلق الشارب ، وإطراق
الرأس في المشي ، والهدوء في الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس
الصوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمات وترك تنظيف الثوب ، وتركه
مخرقا ، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين
ومن ذلك لبس المرقعة ، والصلاة على السجادة ، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية
مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال
الرداء على العينين ، ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف
إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان ، يلبسه من هو خال
عن العلم ، ليوم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزى على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة
عند أهل الصلاح بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ،
اليرائي بغلظها ، ووسخها ، وقصرها ، وتخرقها ، أنه غير مكترث بالدنيا . ولو كلف أن يلبس
ثوبا وسطا نظيفا ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . وذلك لخوفه أن يقول

الناس قد بدله من الزهد ، ورجع عن تلك الطريقة ، ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك ، والوزراء ، والتجار . ولولبسوا الثياب الفاخرة ، ردهم القراء . ولولبسوا الثياب المخرقة البذلة ، أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء . فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة ، والرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة فليبسونها . ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء ، ولونه وهيبته لون ثياب الصلحاء . فيلتسمون القبول عند الفريقين . وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء . ولو كلفوا لبس الديق ، والكتان الدقيق الأبيض ، والمقصب العلم ، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ، لمظم ذلك عليهم ، خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه ، أو إلى ما فوقه ، وإن كان مباحا . خيفة من المذمة

وأما أهل الدنيا : فراآتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الرفيعة ، وأنواع التوسع والتجمل في اللبس ، والمسكن ، وأثاث البيت ، وفره الخيول . وبالثياب المصبغة ، والطيايسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس ، فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ، مالم يبالغوا في الزينة

الثالث الرياء بالقول . ورياء أهل الدين بالوعظ ، والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاوراة ، وإظهارا للزارة العلم ، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف ، والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ، ولقاء الشيوخ ، والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ، ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح ، لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إغتمام الخصم ، لينظر للناس قوته في علم الدين . والرياء بالقول كثير ، وأنواعه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا، فمرا آتهم بالقول بحفظ الأسماء والأمثال، والتفاسيح في العبارات، وحفظ النحو
 الغريب، وللأغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب
 الرابع : الرياء بالعمل . كمرآة المصلي بطول القيام، ومد الظهر، وطول السجود والركوع
 وإطراق الرأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين
 وكذلك بالصوم، والفزو، والحج، وبالصدقة، وبإطعام الطعام، وبالإحبات في المشي عند
 اللقاء، كإرخاء الجفون، وتنكيس الرأس، والوقار في الكلام . حتى أن المرائي قد يسرع
 في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين، رجع إلى الوقار وإطراق الرأس
 خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار . فإن غاب الرجل عاد إلى مجلته، فإذا رآه عاد إلى
 خشوعه، ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لا اطلاع إنسان عليه،
 يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء . ومهم من إذا سمع هذا استنحياً من
 أن تحالف مشيته في الخلوة، مشيته برأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في
 الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف
 به رياءؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرئياً فإنه إنعما يحسن مشيته في الخلوة، ليكون كذلك
 في الملأ، لا خوف من الله وحياء منه . وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبخر، والاختيال وتحريك
 اليدين، وتقريب الخطأ، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة
 الخامس : المراآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من
 العلماء . ليقال إن فلانا قد زار فلانا . أو عابداً من العباد، ليقال إن أهل الدين يتبركون
 بزيارته، ويترددون إليه . أو ملكاً من الملوك، أو عاملاً من عمال السلطان، ليقال إنهم
 يتبركون به لعظم رتبته في الدين . وكالذي يذكر الشيوخ، ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة
 واستفاد منهم، فيباهي بشيوخه . ومباهته ومراآته تترشح منه عند مخاطبته فبقول لغيره
 من لقيت من الشيوخ، وأنا قد لقيت فلانا وفلانا، ودرت البلاد، وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه
 فهذه مجامع ما يرائي به المراءون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد
 ومنهم من يفتن بحسن الاعتقادات فيه . فكم من راهب اتزوى إلى دير سنين كثيرة
 وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خباياته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق .

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته ، لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعل
الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ، ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع
قطع طمعه من أموالهم ، ولكنه يحب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ، فإنه
نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال ، لا يغتر به إلا الجاهل . ولكن أكثر الناس جهال
ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته ، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد
ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد ، لتكثر الرحلة إليه . ومنهم يريد الاشتهار
عند الملوك ، لتقبل شفاعته ، وتنجز الحوائج على يده ، فيقوم له بذلك جاه عند العامة

ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام ، وكسب مال ، ولو من الأوقاف
وأموال اليتامى ، وغير ذلك من الحرام وهو لأشر طبقات المرائين ، الذين يراءون بالأسباب التي
ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء . فإن قلت : فالرياء حرام أم مكروه أم مباح أو فيه تفصيل
فأقول : فيه تفصيل ، فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، فإن كان
بغير العبادات ، فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد . ولكن
كما يمكن كسب المال بتليسات ، وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه . وكما أن كسب قليل من
المال ، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكسب قليل من الجاه ، وهو ما يسلم به عن الآفات
أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال (إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ^(١)) وكما أن المال
فيه سم نافع ، ودرياق نافع ، فكذلك الجاه . وكما أن كثير المال يلهي ويطنى ، وينسى ذكر الله
والدار الآخرة ، فكذلك كثير الجاه بل أشد . وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال . وكما أننا نقول
تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة
المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ،
كانصراف الهم إلى كثرة المال . ولا يقدر حب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها
وأما سعة الجاه ، من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله إن زال . فلا ضرر
فيه ، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم
من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ، ولا يوصف بالتحريم

فعلی هذا نقول . تحسین الثوب الذی یلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراآة . وهو ليس بحرام ، لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا . وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدلیل علیه ما روى عن عائشة رضی الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة ، فكان ينظر في حب الماء ، ويسوي عمامته وشعره . فقالت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال « نَعَمْ إِنْ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يُتَزَيَّنَ لِأَخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ » نعم : هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة ، لأنه كان مأمو را بدعوة الخلق ، وترغيبهم في الاتباع ، واستمالة فلو بهم . ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه . فكان يحب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله ، لئلا ترد به أعينهم . فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر . فكان ذلك قصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لو قصد قاصده أن يحسن نفسه في أعينهم ، حذر من ذمهم ولو منهم ، واستروا حاله إلى توقيرهم واحترامهم ، كان قد قصد أمرا مباحا . إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ، ويطلب راحة الأنس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم فإذا المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة . وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء ، لا في معرض العبادة والصدقة ، ولكن ليعتقد الناس أنه سخي ، فهذا مراآة ، وليس بحرام . وكذلك أمثاله . أما العبادات ، كالصدقة ، والصلاة ، والصيام والغزو ، والحج ، فللمرائي فيه حالتان : إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ، لأن الأعمال بالنيات . وهذا ليس يقصد العبادة . ثم لا يقتصر على إحباط عبادته ، حتى نقول صار كما كان قبل العبادة ، بل يعصى بذلك ويأثم ، كما دلت عليه الأخبار والآيات . والمعنى فيه أمران :

أحدهما : يتعلق بالعباد وهو التليس والمكر ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين وليس كذلك . والتليس في أمر الدنيا جرام أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة ، وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به ، لما فيه من التليس وتملك القلوب بالخداع والمكر

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب الماء ويسوي عمامته وشعره - الحديث : ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الطهارة

والثاني : يتعاقى بالله ، وهو أنه مهبا قصد بعبادة الله تعالى خلق الله ، فهو مستهزى بالله
ولذلك قال قتادة : إذا رأى العبد ، قال الله للملائكة انظروا إليه كيف يستهزى به .
ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ، كما جرت عادة الخدم ، وإثما وقوفه
لملاحظة جارية من جوارى الملك ، أو غلام من غلمانها ، فإن هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد
التقريب إلى الملك لمخدمته ؛ بل قصد بذلك عبدا من عبيده . فأى استحقاق يزيد على أن
يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف ، لا يملك له ضرا ولا نفعا ! وهل ذلك
إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله ؟
إذ آثره على ملك الملوك ، فيجعله مقصود عبادته . وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق
المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) الشرك الأصغر
نعم : بعض درجات الرياء أشد من بعض ، كما سيأتى بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى .
ولا يخلو شئ منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراآة . ولو لم يكن في الرياء
إلا أنه يسجد ويركع لغير الله ، لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله ، فقد
قصد غير الله . ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا . إلا أن الرياء هو الكفر
الخفي ، لأن المرائى عظم في قلبه الناس ، فاقترضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، فكان
الناس هم المعظمون بالسجود من وجه . ومهما زال قصد تمظيم الله بالسجود ، وبقي تمظيم
الخلق ، كان ذلك قريبا من الشرك ، إلا أنه قصد تمظيم نفسه في قلب من عظم عنده ،
بإظهاره من نفسه صورة التتمظيم لله . فعن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية
الجهل . ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ،
ونفقه ، وورقه ، وأجله ، ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى . فلذلك عدل بوجهه
عن الله إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ، ليستميل بذلك قلوبهم . ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا
والآخرة ، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ،

(١) حديث سعى الرياء للشرك الأصغر : أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود
ابن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقديم قريبا وللحاكم وصححه إسناده من حديث
شداد بن أوس كنانة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

لا يعلكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يعلكون لغيرهم هذا في الدنيا ! فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ! بل تقول الأنبياء فيه نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ، ونيل القرب عند الله ، ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ، فلا ينبغي أن نشك في أن المرائى بطاعة الله في سخط الله ، من حيث النقل والقياس جميعا . هذا إذا لم يقصد الأجر . فأما إذا قصد الأجر والمجد جميعا في صدقته أو صلاته ، فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص ، وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ويدل على ما نقلناه من الآثار ، قول سعيد بن المسيب ، وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلا

بيان

درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض . واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء . وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب . فإن كان كذلك ، فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب ، أو أضعف ، أو مساوية لإرادة العبادة . فتكون الدرجات أربعة الأولى : وهى أغلظها ، أن لا يكون مراده الثواب أصلا . كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى . بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس . فهذا جرد قصده إلى الرياء ، فهو المعقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس ، وهو لا يقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما أداها . فهذه الدرجة العليا من الرياء

الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضا ، ولكن قصدا ضعيفا ، بحيث لو كان في الخلو لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل . ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل . فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل ، لا ينفي عنه المقت والإثم الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يعمسه على العمل . فإنا اجتمعنا انبثت الرغبة . أو كان كل واحد

منها لو انفرد لاستقل بحمله على العمل . فهذا قد أفسد مثل ما أصلح . فترجو أن يسلم رأسا برأس ، لاله ولا عليه . أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب . وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة : ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه . فالذي نظنه واللم عند الله ، أنه لا يمحط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِّكَ » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أو كان قصد الرياء أرجح

الركن الثاني : المراسى به وهو الطساعات . وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها

القسم الأول : وهو الأغلط ، الرياء بالأصول . وهو على ثلاث درجات :

الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلط أبواب الرياء . وصاحبه غلغلة في النار . وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة ، وباطنه مشحون بالكذب ، ولكنه يرأى بظاهر الإسلام . وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى ، كقوله عز وجل (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ أَرْسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ^(١)) أى في دلائلهم بقولهم على ضمائرهم . وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجِيبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ^(٢)) الآية وقال تعالى (وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ^(٣)) وقال تعالى (يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبٌ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ ^(٤)) والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ، ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض . وذلك مما يقل في زماننا . ولكن يكثر نفاق من ينسب إلى الدين بأطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ، ميلا إلى قول الملحدة .

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ١٧٩ (٣) آل عمران : ٧٨ (٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ، ميلا إلى أهل الإباحة . أو يعتقد كفرا أو بدعة، وهو يظهر خلافه . فهو لا آمن المنافقين والمرائين المخلدين في النار . وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر الثانية : الرياء بأصول العبادات ، مع التصديق بأصل الدين . وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل في يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجه . أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع ، وعادته ترك الصلاة في الخلوة . وكذلك يصوم رمضان ، وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر . وكذلك يحضر الجمعة ، ولو لا خوف المذمة لكان لا يحضرها . أو يصل رحمه أو وير والدیه ، لا عن رغبة ، ولكن خوفا من الناس ، أو يفزو ، أو يحج كذلك . فهذا مرء معه أصل الإيمان بالله . يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ، وينشط عند اطلاع الناس . فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله . وهذا غاية الجهل ، وما أجدر صاحبه بالمقت ، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد

الثالثة : أن لا يرأى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرأى بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى : ولكنه يكسل عنها في الخلوة ، لفتور رغبته في ثوابها ، ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب . ثم يعيش الرياء على فعلها . وذلك كحضور الجماعة في الصلاة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وغسل الميت . وكالتجهد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ، ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ، ولكنه دون ما قبله . فإن الذي قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق ، وهذا أيضا قد فعل ذلك . واتفق ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله . وأما هذا فلم يفعل ذلك ، لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على الشطر من الأول ، وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لأصولها ، وهو أيضا على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرأى بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وتم القعود بين السجدين . وقد قال ابن مسعود . من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بهاربه عز وجل . أى أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة . ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا ، فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة ، كان ذلك منه تقدما للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرأى بتحسين الصلاة في الملاء دون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الرديء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصوم عن الغيبة والرفث لأجل الخلق ، لا إكالا لعبادة الصوم ، خوفا من المذمة . فهذا أيضا من الرياء المحذور ، لأن فيه تقدما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات . فإن قال المرأى إنما فعلت ذلك صيانة لأستهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود ، وكثرة الالتفات ، أطلقوا اللسان بالذم والغبية ، وإنما قصدت صياتهم عن هذه المعصية ، فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتليس . وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك ، وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغبية غيرك . فلو كان باعذك الدين ، لكان شفتك على نفسك أكثر . وما أنت في هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك ، لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلماناه امتنع خوفا من مذمة غلماناه . وذلك محال . بل من يرأى جانب غلام الملك ، ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للمرأى فيه حالتان : إحداهما . أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعا . والثانية أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خفت كانت صلاتى عند الله نافعة ، وأذانى الناس يذمهم وبعيتهم ، فاستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجوا عليه ثوبا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة ، فيفوت الثواب وتحصل المذمة . فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح

أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تخضره النية ، فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمرآة بطاعة الله ، فإن ذلك استهزاء كما سبق .

الدرجة الثانية : أن يرأى بفعل مالا نقصان في تركه ، ولكن فعله في حكم التكملة والتمتع لعبادته . كالتطويل في الركوع والسجود ، ومد القيام ، وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة في القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان ، وطول الصمت . واختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

الثالثة : أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا . كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، وما يجري مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ، ومتى يحرم بالصلاة .

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به ، وبعضه أشد من بعض ، والكل مذموم الركن الثالث : المرائى لأجله . فإن للمرائى مقصودا لا محالة ، وإنما يرأى لإدراك المال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة . وله أيضا ثلاث درجات .

الأولى : وهي أشدها وأعظمها ، أن يكون مقصوده التمكن من معصية . كالذى يرأى بعبادته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة ، أو الصدقات ، ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويبيحدها . أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج ، فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيح ، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم زى التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة ، على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وخلق القرآن ، يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن ، وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ، ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهو لاء بفض المرائين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سائما إلى معصيته ، واتخذوها آلة ومتجرا ، وبضاعة لهم في فسقهم

ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ، من هو مقترف جريمة اتهم بها ، وهو مصر عليها . ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فيظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذى جحد وديعة ، واتهمه الناس بها ، فيتصدق بالمال ، ليقال إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحل مال غيره . وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام ، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى

الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا ، من مال ، أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة . كالذى يظهر الحزن والبكاء ، ويشغل بالو عظم والتذكير ، لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء . فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة .

وكالذى يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد ، فيظهر له العلم والعبادة ليروغب في تزويجه ابنته . فهذه آراء محظورة ، لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ، ولكنه دون الأول ، فإن المطالب بهذا مباح في نفسه

الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ ، وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ، ولا يمد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة . كالذى يعيش مستعجلاً ، فيطلع عليه الناس ، فيحسن المشى ويترك العجلة ، كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك إن سبق إلى الضحك ، أو بدامنه المزاح ، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه . والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لمسا كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير .

وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو تهجدون ، أو يصومون الخميس والإثنين ، أو يتصدقون ، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى السكسل ، ويلحق بالعوام . ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك .

وكالذى يمتطش يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم ، فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم . فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله . أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم ، وقد لا يصرح بأني صائم ، ولكن يقول لي عذر . وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ، ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحتجز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرأثياً ، فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته . ثم إن اضطر إلى شرب ، لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً ، تصرحاً أو تعريضاً ، بأن يتعمل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم

أو يقول أفطرت تطيبيا لقلب فلان. ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه ، كي لا يظن ، به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ، ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا ، مثل أن يقول إن فلانا محب للإخوان ، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألح على اليوم ولم أجديدا من تطيب قلبه . ومثل أن يقول إن أمي ضعيفة القلب ، مشفقة على ، تظن أنني لو صمت يوما مرضت ، فلا تدعني أصوم . فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص ، فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه . فإن لم يكن له رغبة في الصوم ، وقد علم الله ذلك منه ، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله ، فيكون ملبسا . وإن كان له رغبة في الصوم لله ، قنع بعلم الله تعالى ، ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به ، وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور ، وسيأتي شرح ذلك وشروطه

فهذه درجات الرياء ، ومراتب أصناف المرائين ، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات . وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من ديب النمل ، كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء ، فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب ، والله أعلم

بيان

الرياء الخفى الذى هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء جلى وخفى فالجلى هو الذى يبعث على العمل ، ويحمل عليه ، ولو قصد الثواب . وهو أجلاء . وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرد ، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ، ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له ، وخف عليه ، وعلم أنه لو لارجاء الثواب لكان لا يصلى لمجرد رياء الضيفان ، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب . ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل ، لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته . فرب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد

الرياء إلى بركه ويرده ، ويتم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك ،
 وأرتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفي ، منه يرشح
 السرور . ولولا التفات القلب إلى الناس ، لما ظهر سروره عند اطلاع الناس . فلقد كان
 الرياء مستكنًا في القلب ، استكنان النار في الحجر ، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح
 والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ، ولم يقابل ذلك بكرهية ، فيصير ذلك
 قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء ، حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ،
 فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه ، بالتعريض والقاء الكلام عرضا
 وإن كان لا يدعو إلى التصريح . وقد يخفى فلا يدعو إلى الأظهار بالنطق تعريضا وتصريحا
 ولكن بالشمال ، كأظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، وبيس الشفتين ، وجفاف
 الريق ، وآثار الدموع ، وغلبة النماس الدال على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن
 أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ، ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذارأى الناس
 أحب أن يبدوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا
 في قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه في البيع والشراء ، وأن يوسعوا له في المكان . فإن قصر
 فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام مع
 الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه . ولولم يكن قد سبق منه تلك الطاعة ، لما كان
 يستبعد تقصير الناس في حقه . ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق
 لم يكن قد قنع بعلم الله ، ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء ، " أخفى من ديب
 النمل ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة
 ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟
 وفي الحديث لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم . وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه

(١) حديث في الرياء شوائب أخفى من ديب النمل : أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري انقوا هذا

الشرك فانه أخفى من ديب النمل ورواه ابن جبان في الضعفاء من حديث أبي بصير الصديق
 وضعفه هو والدارقطني

أنه قال : إن رجلا من السواح قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة
الطغيان . فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على
أهل الأموال في أموالهم . إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا
أحب أن يرخص عليه لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم ، فركب في موكب من الناس ،
فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك . فقال
للغلام . انتنى بطعام . فأثاه ببقل ، وزيت ، وقلوب الشجر . فجعل يحشو شدقه ويأكل
أكلا عنيقا . فقال الملك . أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا . قال كيف أنت ؟ قال كالناس . وفي
حديث آخر بخير . فقال الملك ما عند هذا من خير . فأنصرف عنه . فقال السائح الحمد لله
الذي صرفك عني وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون
لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس
على إخفاء فواحشهم . كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله في القيامة
بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة
حاجتهم وفاتهم في القيامة ، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يحزى والد عن ولده
ويشتغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد نفسى نفسى ، فضلا عن غيرهم . فكانوا
كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة ، فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص
لعلهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنهرج ، والحاجة تشتد في البادية ، ولا
وطن يفرع إليه ، ولا حميم يتمسك به ، فلا ينجى إلا الخالص من النقد . فكذا يشاهد
أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذى يتزودونه له من التقوى .

فإذا شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته
إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم ، لم يبال حضرة البهائم أو الصبيان
الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا . فلو كان مخلصا قانما يعلم الله ، لاستحقر عقلاء
العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على وزق ، ولا أجل ،
ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب . كما لا يقدر عليه البهائم ، والصبيان ، والمجانين . فإذا لم يجد
ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، مفسدا للعمل ، بل فيه تفضيل

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله ؟
أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول أولا : كل سرور فليس بمذموم . بل السرور منقسم
إلى محمود ، وإلى مذموم : فأما المحمود ، فأربعة أقسام .

الأول : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق ، علم أن الله
أعلمهم ، وأظهر الجليل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ، ونظرة إليه ، وإطائه به ، فإنه
يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة . ولا لطف أعظم من ستر القبيح
وأظهار الجليل فيكون فرحه يجمّل نظر الله له ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم . وقد قال تعالى
(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ^(١)) فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول وفرح به
الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجليل ، وستره القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل
في الآخرة . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا
إِلَّا سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ » فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال ، من غير ملاحظة
المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المظلمين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ،
فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا ، وأجر السر بما قصده أولا . ومن اقتدى به في طاعة
فله مثل أجر أعمال المقتدين به ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . وتوقع ذلك جدير
بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور غايل الربح لذيذ ، وموجب للسرور لا محالة .

الرابع : أن يحمده المظلمون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ، وبمحبهم للمطيع
ويعمل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده ، أو يذمه
ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه . فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة
الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمد غيره ، مثل فرحه بحمدهم إياه
وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ،

(١) حديث ما ستر الله على عبد في الدنيا لا يستر عليه في الآخرة . مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) يونس : ٥٨

حتى يمدحوه، ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده، فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان

ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

ف نقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ، ثم ورد عليه وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل ، أو قبل الفراغ . فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل . إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص ، سالماً عن الرياء ، فإي طراً بعده فترجو أن لا ينقطع عليه أثره ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ، ولم يتمن إظهاره وذكره ، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم : لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار ، فتحدث به وأظهره ، فهذا يخوف في وفي الآثار والأخبار : ما يدل على أنه يحبط . فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول : قرأت الباردة البقرة ، فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له « مَا صُمْتَ وَلَا أَفْطَرْتَ » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ابن مسعود ، استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له ، لما أن ظهر منه التحدث به . إذ بعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل . بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى ، وبمعاقب على صرا أنه بطاعة الله بعد الفراغ منها . بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء

(١) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ما صمت ولا أفطرت : يعلم من حديث أبي قتادة قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لا صام ولا أفطر . والطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال لرجل أتى صائم قال بعض القوم أنه لا يفطرانه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم لا صام ولا أفطر من صام إلا به ولم أجده باللفظ المطاب

قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولسكن ورد في أثناءها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل ، وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل ، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به ، حبط أجره ومثاله أن يكون في تطوع ، فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهي أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفاً من مذمة الناس ، فقد حبط أجره . وعليه الإعادة إن كان في فريضة . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَلْعَمَلُ كَالْوِعَاءِ إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ » ، أي النظر إلى خاتمته . وروى أنه ^(٢) « من رأى بعمله ساعة ، حبط عمله الذي كان قبله . وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لأعلى الصدقة ، ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فإبطراً يفسد الباقي دون الماضي والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنع من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً ، فهذا رياء قد أثر في العمل ، وانتهى باعثاً على الحركات . فإن غلب حتى انعقد معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه . لأننا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلِبها ويغيرها . ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، يعني سرورا هو كحُب المنزلة والجاه ، قال قد اختلف الناس في هذا ، فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن إلى حمد المخلوقين ، ولم يحتم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته

(١) حديث العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله : ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ إذا طاب

أستعمله طاب أعلاه وفيه تقدم

(٢) حديث من رأى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله : لم أجده بهذا اللفظ والشيخين من حديث جندب

من سمع الله به ومن رأى ما رأى الله به حبط عمله مسلم من حديث ابن عباس

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنها حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا رسول الله ^(١) ، أسر العمل لأحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرني . قال « لك أجران أجر السر وأجر العلانية » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لا يضره أي لا يدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ الثاني : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أنف للسرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يفي عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللرئائي أجران ! والثالث . أنه قال أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالمعومات الواردة في الرياء أولى . هذا ما ذكره ، ولم يقطع به ، بل أظهر ميلا إلى الإحباط . والأقين عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل ، بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين ، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع ، فلا يفسد العمل ، لأنه لم ينعدم به أصل نيته ، وبقيت تلك النية باعثة على العمل ، وحاملة على الإتمام . وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق . وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كانت قصد الرياء مساويا لقصد الثواب ، أو أغلب منه . أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه ، فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال . ولا ينبغي أن يفسد الصلاة . ولا يبعد أيضا أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ، والخالص ما لا يشوبه شيء ، فلا يكون مؤديا للواجب

(١) حديث ابن رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيسرني فقال لك أجران - الحديث : البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسر عليه أعجب قال له أجر السر والعلانية

مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة ، إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد ، بأن يتبدى الصلاة على قصد الرياء . فإن استمر عليه حتى سلم ، فلا خلاف فى أنه يقضى ، ولا يمتد بصلاته . وإن ندم عليه فى أثناء ذلك ، واستغفر ورجع قبل التمام ، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه . قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف . وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة ، لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا . وقالت فرقة لا يلزمه إعادة شيء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة ، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله . وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة ، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل . فقلوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله . ولو سجد لغير الله لكان كافرا . ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم ، فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا ، خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود ، دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة ، تفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدر فى النية ، وأولى الأوقات بمراجعة أحكام النية حالة الافتتاح فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال . إن كان باعته مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ، لم ينعقد افتتاحه ، ولم يصح ما بعده . وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل . ولما رأى الناس تحرم بالصلاة ، وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها ، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلي ، إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أوفى عقد صلاة وصح . فإن كان فى صدقة ، فقد عصى بإجابة باعث الرياء ، وأطاع بإجابة باعث الثواب

(فَنَ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١)) (فهو ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية ، فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً . فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة . فقد عصي من وجه ، وأطاع من وجه إذ اجتمع في قلبه الباعثان . ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة ، والاقتداء به باطل . حتى أن من صلى التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء ، بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه ، وخلا في بيت وحده لما صلى ، لا يصح الاقتداء به . فإن المصير إلى هذا بعيد جداً . بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان ، وكان كل واحد لا يستقل ، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما ، فهذا لا يسقط الواجب عنه . لأن الإيجاب لم يتهض باعثاً في حقه بمجرد استقلاله . وإن كان كل باعث مستقلاً ، حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ولولم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء ، فهذا محل النظر ، وهو محتمل جداً فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ، ولم يؤد الواجب الخالص . ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه . كما لو صلى في دار مغصوبة ، فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة ، فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه . وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة ، مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ؛ ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولو لا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء ، فهذا مما يقطع بصحة صلاته ، وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يمارضه غيره . بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدح في النية هذا في رياء يكون باعثاً على الفعل ، وحاملاً عليه . . . وأما مجرد السير وباطلاع الناس

عليه ، إذالم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل ، فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لا نقا ، بقانون الفقه . والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه . والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات ، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه ، والعلم عند الله عز وجل فيه ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الرحمن الرحيم

بيان

دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات . وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجذ في إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشعة . وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم . إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك في نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله ، وقد انغمس الرياء في قلبه وترسخ فيه ، فلا يقدر على قمعه إلا بالمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا . وفي علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه ، والثاني : دفع ما يخطر منه في الحال

المقام الأول : في قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول . وهي لذة المحمدة ، والفرار من ألم الدم ، والطمع فيما في أيدي الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب ، وأنها الباعثة للمرائي ، ما روى أبو موسى أن أعرايا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) فقال . يا رسول الله : الرجل يقاتل حمية . ومعناه أنه يأنف أن يقهر ، أو يذم بأنه مقهور مغلوب . وقال : والرجل يقاتل ليري مكانه . وهذا هو طلب لذة الجاه

(١) حديث أبي موسى أن أعرايا قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية . الحديث : متفق عليه

والقدر في القلوب . والرجل يقاتل للذكر . وهذا هو الحمد باللسان . فقال صلى الله عليه وسلم
« مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهِ هِيَ الْعُلَمَاءُ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وقال ابن مسعود . إذا التقى
الصفان نزلت الملائكة ، فكتبوا الناس على مراتبهم . فلان يقاتل للذكر . وفلان يقاتل للملك
والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه . يقولون فلان شهيد ،
ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ غَزَا
لَا يَبْنِي إِلَّا عَقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد
ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الدم ، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال
الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كي لا يخل . وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره .
وكالبيان بين الشجعان ، لا يفر من الزحف خوفا من الدم ، وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم
غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الدم . وكالرجل بين قوم يصلون
جميع الليل ، فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع في الحمد . وقد
يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على ألم الدم . ولذلك قد
يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ، خيفة من أن يذم بالجهل . ويقتى بغير علم ، ويدعى
العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الدم

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء . وعلاجه ما ذكرناه في الشطر
الأول من الكتاب على الجملة . ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء . وليس يخفى أن الإنسان
إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال ، وإما في المآل . فإن علم
أنه لذيق في الحال ، ولكنه صار في المآل . سهل عليه قطع الرغبة عنه . كمن يعلم أن العسل لذيق ،
ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه . فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المفسدة
ومها عرف العبد مفسدة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه في الحال من
التوفيق ، وفي الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب العظيم ، والمقنت
الشديد ، والحزى الظاهر ، حيث ينادى على رؤوس الخلائق يا فاجر ، يا غادو ، يا مرائي ،
أما استحسنت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب المباد ، واستهزأت بطاعة الله

(١) حديث من غزا لا يبني الا عقالا فله ما نوى: النساء وقد تقدم

وتجبت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله . أما كان أحد أبهون عليك من الله ؟ فهما تفكر المبدى هذا الخزى ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا ، بما يفوته في الآخرة ، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ، ويهوى إلى النار . فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره . وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهمة بسبب ملاحظة قلوب الخلق . فإن رضا الناس غاية لا تدرك . فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق . ورضا بعضهم في سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم في سخط الله يسخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له في مدحهم ، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة . وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله . ومن طمع في الخلق لم يخل من الدل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة . فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ، وهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ ؟ وإذا أصاب فلا تنفى لدته بألم منته ومذلتة . وأما ذمهم فلم يحذر منه ، ولا يزيده ذمهم شيئا مالم يكتبه عليه الله ، ولا يجعل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا ينفذه إلى الله إن كان محمدا عند الله ، ولا يزيده مقنا إن كان ممقوتا عند الله ؟ فالعباد كلهم عجرة لا يعلكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ، ولا يعلكون موتاً ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها ، قترت رغبته ، وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ، لمقتوه . وبكشف الله عن سره حتى ينفذه إلى الناس ، ويعرفهم أنه وراء ممقوت عند الله .

ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم . ولا نقصان في ذمهم ، كما قال شاعر من تميم (١) إن مدحى زين ، وإن ذمى شين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَذَبْتَ ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » إذ لا زين إلا في مدحه ، ولا شين إلا في ذمه . فأى خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس ، وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين فن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله ، استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، منع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذلة الرياء ، ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ، ينشرح بها صدره ، ويفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ، ووحشته من الخلق ، واستحقاره للدينا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر الأول ، هى الأدوية العلمية القالعة لمغارس الرياء

وأما الدواء العملى . فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله ، وإطلاعه على عباداته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه ، لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص في إظهار هذا القدر ، لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها . فلا دراء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق في بداية المجاهدة . وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل الطاف الله ، وما يمده عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد . ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فمن العبد المجاهدة ، ومن الله الهداية . ومن العبد قرع الباب ، ومن الله فتح الباب . والله لا يضيع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما

(١) حديث قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين . إن ذمى شين فقال كذبت ذلك الله . يحسن من حديث الأقرع ابن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات . الا أنى لا أعرف . لابي سلمة بن عبد الرحمن بن سباع من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ قال رجل ان حمدى

المقام الثاني : في دفع العارض منه في أثناء العبادة . وذلك لابد من تعلمه أيضا . فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم ، فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات ، بل يعارضه بمخاطر الرياء . ولا تنقطع عنه نزغاته . وهوى النفس وميلها إلا ينمحي بالسكينة . فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء . وخاطر الرياء ثلاثة . قد تخطر دفعة واحدة كالحاطر الواحد ، وقد تترادف على التدرج

فالأول : العلم باطلاع الخلق ، ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له ، والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول معرفة . والثاني حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث فعل يسمى العزم وتصميم المقدم . وإنما كمال القوة في دفع الحاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، أو رجاء اطلاعهم ، دفع ذلك بأن قال مالك والخلق علموا لو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ؟ فأى فائدة في علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ، يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرضه للمقت عند الله في القيامة ، وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله . فكأن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة . إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإيذاء والنفس تطاوع لا محالة أقواها وأغلبها فإذا لابد في رد الرياء من ثلاثة أمور . المعرفة ، والكراهة ، والإيذاء . وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منظويا عليها . وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد ، واستيلاء الحرص عليه ، بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته ، إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم . وهو كالأذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه ، فينسى السابقة عزمه ، ويعتلى قلبه قهظا يمنع من تذكر آفة الغضب ، ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب ،

وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله .^(١) ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ، ولم نبأ به على الموت ، فأسيناها يوم حنين حتى نودى يا أصحاب الشجرة ، فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف ، ففسدت العهد السابق ، حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان ومهماني المعرفة لم تظهر الكراهة . فإن الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر الإنسان ، فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ، إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته ، وكونه مذموماً عند الله . ولا تنفعه معرفته ، إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به ، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة : وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل

فإذاً لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث ، وهي المعرفة ، والكراهة والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وقلة التفكير فيما عند الله ، وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة . وبعض ذلك ينتج بعضاً ويشمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا ، هي التي تغضب القلب وتسلبه ، وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة ، والاستضاءة بنور الكتاب ، والسنة ، وأنوار العلوم . فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء ، وحملته الكراهة على الإباء ، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه ، وجهله ، ومنازعة إياه ، إلا أنه كاره لحبه وليله إليه ، وغير محبب إليه فهل يكون في زمرة المرئيين؟

(١) حديث جابر بإينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر من الحديث : مسلم مختصراً

دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس

فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق ، وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ، ولا قمع الطبع حتى لا يعيل إلى الشهوات ولا ينزع إليها . وإنما غاية أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين ، وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر . فإذا فعل ذلك فهو النجاة في أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) شكوا إليه وقالوا . تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير ، أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق ، أحب إلينا من أن نتكلم بها . فقال عليه السلام « أَوْ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا نعم قال « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » ولم يجحدوا إلا الوسواس والكراهة له . ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة . والرياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى . فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة ، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال ^(٢) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك ، وكرهته نفسك لنفسك ، فلا يضرْك ما هو من عدوك . وما كان من نفسك ، فرضيته نفسك لنفسك ، فمات بها عليه . فإذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لاتضرْك ، مهما رددت مرادها بالإباء والكراهة . والخواطر التي هي الملوذ ، والتذكرات ، والتخييلات للأسباب المبهجة للرياء ، هي من الشيطان . والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس . والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن للشيطان ههنا مكيدة ، وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء ، خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال ، حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب . لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعة انصراف عن سر المناجاة مع الله ، فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله

(١) حديث شكوى الصحابة ما تعرض في قلوبهم وقوله ذلك صريح الإيمان : مسلم من حديث ابن مسعود مضمراً .
سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الإيمان والنسلى في اليوم والليلة .
وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة .

(٢) حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتغل بمجادلة الوسوسة بأبوابه والنسلى في اليوم والليلة بلفظ كيد

والمخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب

الأولى : أن يردده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه ، بل يشتغل بمجادلته ، وبطيل الجدال منه ، لظنه أن ذلك أسلم لقلبه . وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله ، وعن الخير الذي هو بصدده ، وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك .

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك ، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ، ولا يشتغل بمجادلته

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا ، لأن ذلك وقفة . وإن قلت بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان ، فيستمر على ما كان عليه مستصحيا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالخاصة

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما ترغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص ، والاشتغال بالله ، وإخفاء الصدقة والعبادة ، غيظا للشيطان . وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ، ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانا يذكرك . فقال والله لأغيظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان . اللهم اغفر له . أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه المادة ، كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعمه ، وليحدث عند ذلك خيرا . فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك وإذا رآك مداوما ملئك وقلاك . وضرب الحارث المحاسب رحمه الله لهذه الأربعة مثلا أحسن فيه فقال : مثاهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ، لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا . فحسدهم على ذلك ضال مبتدع ، وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد منهم وصرفة عن ذلك ، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة ، فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر

تأخره . فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه فوقف ، فدفع في نحر الضال ، ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومربه الثالث ، فلم يلتفت إليه ، ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجأؤه بالكلية . فر الرابع ، فلم يتوقف له ، وأراد أن يفيظه فزاد في عجلته ، وترك الثاني في المشى . فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير ، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن بزغانه ، فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه ؟ انتظار الوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والنفقة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان ، لأنهم انقطعوا إلى الله ، واشتغلوا بحبه ، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم ، وخنس عنهم ، كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا ، فصارت ملاذ الدنيا عندهم ، وإن كانت مباحة ، كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية ، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل ، فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهب فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ، ونقص توكله . فمن أيقن بأن لا شريك لله في تديره فلا يحذر غيره . ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ، ولا يكون إلا ما أراه الله ، فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره . فاليقين بالوحدانية يفيئ عنه الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان . وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر ، وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية ، فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا . إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزغانه فكيف يتخلص غيرهم ! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا . بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطر فيه . ولذلك قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْتَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) (وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) « إِنَّهُ لَيَفَانُ عَلَى قَلْبِي » (٢) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير . فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور . ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان . ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور ، بعد أن قال الله لهما (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَطْمَأْنِنُ فِيهَا وَلَا تَضْحَكُ) (٣) ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة ، وأطلق له وراء ذلك ما أراد . فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان ، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا ، وهي منبع المحن والفتن ، ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ! وقال موسى عليه السلام ، فيما أخبر عنه تعالى (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) (٤) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ) (٥) وقال عز وجل (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) (٦) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان . فكيف يدع الأمن منه ؟ . وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله . فإن من الحب له إمتثال أمره . وقد أمر بالحذر من العدو ، كما أمر بالحذر من الكفار . فقال تعالى (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) (٧) وقال تعالى (وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) (٨) فإذا ألزمتك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تطفر به . وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يطفر بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في النفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة ؛ وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل . فإن أخذ الترس والسلاح ، وجمع الجنود ، وحفر الخندق ، لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكيف يقدح

(١) حديث أنه ليغان على قلبي : تقدم

(٢) حديث أن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير : تقدم أيضا .

(١) طه : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ . (٢) القصص : ١٥٠ (٣) (٤) الأعراف : ٢٧ (٥) النساء : ١٠٢ (٦) الانعام : ٦٠

في التوكل الخوف مما خوف الله به ، والحذر مما أمر بالحذر منه ! . وقد ذكر نافي كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية . وقوله تعالى (وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ^(١)) لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع ، والحبي ، والميت هو الله تعالى . فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله ، وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم . وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام ، وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر . فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى ، العدو ، فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره ، والحذر منه ، والترصده فإننا إن غفلنا عنه لحظة ، فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله ، واشتغالهم كله بالشيطان ، وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ، ولا ننسى الشيطان وعداوته ، والحاجة إلى الحذر منه . فنجمع بين الأمرين فإننا إن نسيناها ربما عرض من حيث لا نحسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله . فالجمع أولى وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان . أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله ، فلا يخفى غلظه . وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر ، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا ، وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى . فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب ، وليس فيه ور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به ، فيوشك أن يظفر به ، ولا يقوى على دفعه . فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ، ولا بإدامان ذكره . وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى ، إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبغدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله . وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ، إبليس وغيره . فالخلق أن يلزم العبد قلبه بالحذر من الشيطان ، ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به ، وسكن الحذر فيه ، فيشتغل بذكر الله ، ويكسب

(١) الانفال : ٦٠

عليه بكل الهمة ، ولا يخطر بباله أمر الشيطان . فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ، ثم خطر الشيطان له تنبه له : وعند التنبه يشتغل بدفعه . والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان . بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر ، وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت ، فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه ، لما أسكن في قلبه من الحذر . مع أنه بالنوم غافل عنه . فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبيهه ! ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو ، إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمت منه الهوى ، وأحيا فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وأزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي . فالاشتغال بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر . والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد ترح الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر ، فيطول تبعه ، ولا تجف البئر من الماء القذر . والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا ، وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ، ومؤنة ، وزيادة تعب

بيان

الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص ، والنجاة من الرياء . وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير . ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسامعون أن السر أحرز العاملين . ولكن في الإظهار أيضا فائدة . ولذلك أثنى الله تعالى على السر والملاينة فقال (**إِنْ تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ**)^(١) والإظهار قسمان . أحدهما في نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل القسم الأول : إظهار نفس العمل ، كالصدقة في الملاء لترغيب الناس فيها . كما روى عن الأنصاري

الذي جاء بالصرة ، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
 « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ » وتجرى سائر
 الأعمال هذا المجرى من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والنزو وغيرها ، ولكن الاقتداء
 في الصدقة على الطباع أغلب . نعم النازي إذا هم بالخروج ، فاستعد وشد الرحل قبل القوم ،
 تحريضا لهم على الحركة ، فذلك أفضل له . لأن النزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن
 إسراره . فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد . وكذلك الرجل قد يرفع
 صوته في الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد
 والجمعة ، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء
 وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة ، فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ،
 ويرغب الناس في الصدقة ، فالسر أفضل . لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء ، فقد
 اختلف الناس في الأفضل . فقال قوم السر أفضل من العلانية ، وإن كان في العلانية قدوة
 وقال قوم السر أفضل من علانية لاقدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السر .
 ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة
 ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام « لَهُ أَجْرُهَا
 وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » وقد روى في الحديث ^(١) أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية
 سبعين ضعفا . وبضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا . وهذا
 لاوجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجهه

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه : وفي أول قصة مسلم من حديث

جرير بن عبد الله البجلي

(٢) حديث أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استن به على عمل

للسبعين ضعفا : البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال
 هذا من أفراد بقية عن شيوخه الجهوليين وقد تقدم قبل هذا بنحوين ولهم حديث ابن عمر
 عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن
 عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أضعاف الذكر الحنفى الذي لا يسمعه الحفظة على
 الذي تسمعه سبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف

واحد في الحالتين ، فإقتدى به أفضل لاحالة . وإنما يخاف من ظهور الرياء ؛ ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان

إحداها : أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به ، أو يظن ذلك ظنا . ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محله . وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا ظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ، وذموه ولم يقتدوا به . فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ، ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به

والثانية : أن يراقب قلبه . فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي ، فيدعوه إلى الإظهار بمعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل ، وبكونه يقتدى به . وهذا حال كل من يظهر أعماله ، إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل مأم . فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر . فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الفريق فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك . والفرق بالماء في الدنيا أمله ساعة . وليت كان الهلاك بالرياء مثله . لا بل عذابه دائم مدة مديدة . وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتعبط أجورهم بالرياء . والتفطن لذلك غامض . ومحك ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعباد آخر من أقرانك ، ويكون لك في السر مثل أجر الإعلام . فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل ، فباعته الرياء دون طلب الأجر ، واقتداء الناس به ، ورغبتهم في الخير . فإنهم قدر غبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع أسراره ، فبال قلبه يميل إلى الإظهار ، ولو لملاحظته لأعين الخلق ومرآاتهم . فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة في الإخفاء وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا ويجمع الضعفاء

القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه . والخطر في هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، لم يؤثر في إفساد العبادة الماصية بعد الفراغ منها . فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة في الخير بسببه ، فهو جائز . بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسامت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ . ماصليت صلاة منذ أسامت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق

وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر ، لأني لأدري أيها خير لي وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتعنتيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه " ما تعنتيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال شداد بن أوس : ما تكلمت بكلمة منذ أسامت حتى أزمها وأخطمها غير هذه . وكان قد قال لعلامة : اثنتا بالسفرة لتبعث بها حتى ندرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا علي ، فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسامت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره . وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المראה إذا صدرت ممن يراني بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها . فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع بمحيلة على حب التشبه والاقتداء . بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكنه شر للمرائي .

(١) حديث عثمان قوله ما تمنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو يعلى الموصلي في معجمه بأسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثنا . حديث وإن عثمان قال يا رسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذلك يا عثمان .

فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرء عند الله . وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرءان من البيوت . فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف . فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه .^(١) وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم ، كما ورد في الأخبار . وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم

بيان

الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية ، كما قال عمر رضى الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية . قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الخولاني : ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه ، إلا إتياني أهلي ، والبول ، والفائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا يتأهلها كل واحد . ولا يخلوا الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه ، وهو يخفيها ، ويكره إطلاع الناس عليها ، لاسيما ما تحتلج به الخواطر في الشهوات والأمانى . والله مطلع على جميع ذلك . فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور ، وليس كذلك . بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، مع أنه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائي . وأما الصادق الذي لا يرائي ، فله ستر المعاصي ، ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه بإطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه

الأول : أن يفرح بستر الله عليه . وإذا اقتضح اغتم بهتك الله ستره ، وخاف أن يهتك ستره في القيامة . إذ ورد في الخبر^(٢) أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبا ، ستره الله عليه في الآخرة . وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم : هما جميلان فالأول متفق عليه

من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضا

(٢) حديث أن من ستر الله عليه في الدنيا يستر الله عليه في الآخرة : تقدم قبل هذا بمررتين

الثاني : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ، ويجب سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلَيْسَتْ تَرَى بِسِتْرِ اللَّهِ » فهو وإن عصى الله بالذنوب ، فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكرهية الله لظهور المعاصي . وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضاً ، ويتم بسببه الثالث : أن يكره ذم الناس له به ، من حيث أن ذلك يغمه ، ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى . فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل عن الطاعة . وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضاً من قوة الإيمان . إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكرهته لذنم الناس من حيث يتأذى طبعه . فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن . وخوف تألم القلب بالذم ليس بجرام ، ولا الإنسان به عاص . وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ، ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم . وليس يجب على الإنسان أن لا يتم بدم الخلق ولا يتألم به ، نعم : كمال الصدق في أن تقول عنه . رؤيته للخلق ، فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعلمه أن الضر والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون . وذلك قليل جدا . وأكثر الطبائع تتألم بالذم ، لما فيه من الشعور بالنقصان . فرب تألم بالذم محمود ، إذا كان الذم من أهل البصيرة في الدين ، فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى ، وعلى نقصان في الدين . فكيف لا يتم به ! نعم : النعم المذموم هو أن يتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمد بالورع . ولا يجوز أن يجب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره . فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكرهية والرد . وأما كراهية الذم بالمعصية من حيث الطبع ، فليس بمذموم . فله الستر حذرا من ذلك . ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يجب الحمد ، ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما . فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ، إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم . وأما الذم فإنه مؤلم . فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال . وأما كراهية الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد

(١) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر به الله : الحاكم في المستدرک وقد تقدم

وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله . فإن ذلك غاية نقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر

الخامس : أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله تعالى به . وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا ، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره ، بخلاف التوجع من جهة الطبع السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه . وهذا وراء ألم الذم . فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته ، وإن كان ممن يؤمن شره . وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه

السابع : مجرد الحياء ، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر . وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل ، فيستحي من الفبايح إذا شوهدت منه . وهو وصف محمود ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ » فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس ، جمع إلى الفسق التهلك ، والوقاحة ، وفقد الحياء . فهو أشد حالا ممن يستر ويستحي . إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ، ومشتبه به اشتباها عظما ، قل من يتفطن له . ويدعى كل مرء أنه مستحي ، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب . بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم ، وتهيج عقبيه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ، ويتصور أن يراني معه . ويبانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ، ونفسه لا تسخو بإفراضه ، إلا أنه يستحي من رده . وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب . فله عند ذلك أحوال أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي ، فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لاهياء له

(١) حديث الحياء خير كله : مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٢) حديث الحياء شعبة من الإيمان : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث الحياء لا يأتي إلا بخير : متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث إن الله يحب الحي الحليم : الطبراني من حديث فاطمة والبرار من حديث أبي هريرة إن الله يحب الغنى

الحليم التعفف وفيه لث بن أبي سليم مختلف فيه

فإن المستحي إما أن يعمل أو يقرض . فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال . أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء ، بأن يهيج الحياء فيقبل عنده الرد ، فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثني عليك ، ويحمدك ، وينشر اسمك بالسخاء . أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء ، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء . ويبقى في نفسه البخل ، فيتعذر الإيعاء . فيهيج داعي الإخلاص ويقول له . إن الصدقة واحدة ، والقرض ثمان عشرة ، ففيه أجر عظيم ، وإدخال سرور على قلب صديق . وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخر النفس بالإيعاء لذلك ، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ، ولا خوف من مذمته ، ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يطيعه ، فأعطاء بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولو لا الحياء لردده . ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل ، لكان يردده وإن كثرت الحمد والثواب فيه . فهذا مجرد الحياء ، ولا يكون هذا إلا في القبائح ، كالبخل ومقارفة الذنوب . والرأى يستحي من المباحات أيضا ، حتى أنه يرى مستجلا في المشى فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى التقاض ، ويزعم أن ذلك حياء ، وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف ، وهو صحيح . والمراد به الحياء مما ليس بقبيح ، كالحياء من وعظ الناس ، وإمامة الناس في الصلاة . وهو في الصبيان والنساء محمود ، وفي العقلاء غير محمود وقد شاهد معصية من شيخ ؛ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه ، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشبهة المسلم . وهذا الحياء حسن . وأحسن منه أن تستحي من الله ، فلا تضع الأمر بالمعروف ، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس ، والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب

الثامن : أن يخلف من ظهور ذنبه أن يستجريء عليه غيره ويقتدى به . وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة ، وهو القدوة . ويختص ذلك بالأنفة أو بمن يقتدى به . وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا معصيته من أهله وولده ، لأنهم يتعلمون منه في ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية . وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ونحوه قصد ستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه موعظ وكان من أينا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ، وجبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ^(١) . دلتني على ما يحبني الله عليه ، ويحبني الناس ، قال « ازهد في الدنيا يُحبك الله » وَابْتَذِلْهُمْ هَذَا الْخُطَامَ يُحِبُّوكَ »
فنعول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا ، وقد يكون محمودا ، وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك . فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حبك ، وغزوك ، وصلاتك ، وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة . فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال ، فلا فرق بينهما

بيان

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرئياً به . وذلك غلط وموافقة للشيطان . بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما ذكره وهو أن الطاعات تنقسم إلى مالا لذة في عينه ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والغزو ، فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذية من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذية ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى ما هو لذية ، وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق ، كالخلافة ، والقضاء ، والولايات ، والحسبة ، وإمامة الصلاة ، والتذكير والتدريس ، وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ، ولما فيه من اللذة القسم الأول ، الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ، ولالذة في عينها كالصوم ، والصلاة ، والحج . فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل ، فيبعث على الابتداء لرؤية الناس ، وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه يعصبة لاطاعة فيه .

(١) حديث قال رجل دلتني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله - الحديث : ابن ماجه

من حديث سهل بن سعد بلفظ « ازهد في أيدي الناس » وقد تقدم

فإنه تدرج بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة . فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك ، لانسخين بالعمل لأجله ، وتسخين بالعمل لأجل عبادته ، حتى يندفع باعث الرياء ، وتسخو النفس بالعمل لله ، عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ، فليشتغل بالعمل

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها . فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع في العمل ، وليجاهد نفسه في دفع الرياء ، وتحصيل الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها ، من إلزام النفس كراهة الرياء والإياء عن القبول الثالثة : أن يعقد على الإخلاص ، ثم يطرأ الرياء ودواعيه . فينبغي أن يجاهد في الدفع ، ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص . ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل . لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت ، فيدعوك إلى الرياء . فإذا لم تجب ودفعت ، بقي يقول لك . هذا العمل ليس بخالص ، وأنت مرء ، وتعبك ضائع فأى فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل . فإذا تركته فقد حصلت غرض ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرأيا ، كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ، ويقول أخاف إن اشتعلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله ، وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلامعنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مرء ، فيعصون الله به فهذا من مكاييد الشيطان . لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قولهم ، ويفوته ثواب العبادة . وترك العمل خوفا من قولهم إنه مرء هو عين الرياء ، فلو لاجبه لمحمدتهم ، وخوفه من ذمهم ، فماله ولقولهم قالوا إنه مرء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مرء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ، بل ترك العمل أشد من ذلك

فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال . ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان لا يخليه ، بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتبهى الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب . فإن هربت ودخلت

مربات تحت الأرض ، ألقي في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم ، وتمظيمهم لك بقلوبهم على ذلك . فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر في الآخرة ، ولا نفع فيه في الدنيا ، لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي ، وإن نزع العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لا ينقطع . وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات

فما دمت تجدد باعثاً دينياً على العمل ، فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وأزم قلبك الحياء من الله إذا دعيتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حدمهم لمقتوك . بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك ، وعقوبة لنفسك ، فافعل . فإن قال لك الشيطان أنت مرء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء ، وإيائه ، وخوفك منه ، وحيائك من الله تعالى . وإن لم تجد في قلبك له كراهية ، ومنه خوفاً ، ولم يبق باعث ديني ، بل مجرد باعث الرياء ، فترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال ، لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت . وإذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن : إن كان أحدم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة . وكان أحدم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة

قلنا هذا يمارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ ، أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه . وبالجملة ترك النوافل جائز . والكلام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء : فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ، ولا يتركه . وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف . فالاعتداء ينبني أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف ، فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سينتاج إلى ترك القراءة عند دخوله ، واستثنائه بعد خروجه للاستغلال بمكلمته . فرأى أن لا يراه في القراءة

أبعد عن الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق . فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها ، لا مجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي إذا أعجبتك الكلام فاسكت ، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ، كالفصاحة في الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور . فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني . وإنما كلامنا في العبادات الخاصة بيد العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات . ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإمالة الأذى لخوف الشهرة ، ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة ، وزجراً عن طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار . وأعظمها الخلافة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إفتاق المال .

أما الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَخَدَهُ سِتِّينَ عَامًا » فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةَ إِمَامٍ الْمُقْسَطُ » أحدهم . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي يَوْمَ تَجْلِسُ يَوْمَ انْقِيَامَةِ إِمَامٍ عَادِلٍ » رواه أبو سعيد الخدري

(١) حديث ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً : الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الإمام المقسط : مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث

ذو سلطان مقسط - الحديث : ولم أرفقه ذكر الأولية

(٣) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل : تقدم

(٤) حديث أبي سعيد الخدري أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل : الاضطهاني في الترغيب والترهيب

من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه . وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم الديلمي ضعيف أيضاً

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات . ولم يزل المتقون يتركونها ، ويحتزون منها ، ويهربون من تقلدها ، وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ، ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر ، وهو أعظم ملاذ الدنيا . فإذا صارت الولاية محبوبة ، كان الوالى ساعيا في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه ، فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا . ويقدم على ما يزيد في مكاته وإن كان باطلا . وعند ذلك يهلك : ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة ، بفهوم الحديث الذى ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول ما يأخذها بما فيها . وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا مِنْ وَالى عَشْرَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولٌ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ » رواه معقل بن يسار . وولاه عمر ولاية ، فقال يأمر المؤمنين أشر على ، قال اجلس واكتم على وروى الحسن ، أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، فقال للنبي خرى ، قال « أَجْلِسْ » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا » وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر . لا تأمر على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها . فقال له رافع

(١) حديث مامن والى عشرة الاجاء يوم القيامة يده مغلوله الى عنقه لا يمكنها إلا عدله : أحمد من حديث عبادة ابن الصامت ورواه أحمد والبخاري من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبخاري وأبو يعلى والطبراني فى الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث بريدة والطبراني فى الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والى ثلاثة إلا لقي الله . مغلوله يمينه - الحديث : وقد عذى المصنف هذا الحديث : لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرج رائحة الجنة : متفق عليه

(٢) حديث الحسن . أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خرى قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكورة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق

(٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة - الحديث : متفق عليه

لَمْ تَقُلْ لِي لَا تُأْمَرْ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَأَنْتَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرَ أُمَّةٍ تُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ بَلَى
وَأَنَا أَقُولُ لَكَ ذَلِكَ ، فَمَنْ لَمْ يَمْدُلْ فِيهَا فَعَلَيْهِ بَهْلَةُ اللَّهِ . يَعْنِي لَعْنَةُ اللَّهِ . وَلَعَلَّ الْقَائِلَ الْبَصِيرَةَ
يَرَى مَا وَرَدَ مِنْ فَضْلِ الْإِمَارَةِ مَعَ مَا وَرَدَ مِنَ التَّهْيِ عَنْهَا مُتَنَاقِضًا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلِ الْحَقُّ
يُخْبِرُ أَنَّ الْخَوَاصَّ الْأَقْوِيَاءَ فِي الدِّينِ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّبِعُوا مِنْ تَقْلِيدِ الْوَلَايَاتِ . وَأَنَّ الضَّعْفَاءَ
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَدُورُوا بِهَا فِيهِلِكُوا . وَأَعْنَى بِالْقَوَى الَّذِي لَا تَمِيلُهُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَسْتَفْزُهُ الطَّمَعُ
وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَهُمْ الَّذِينَ سَقَطَ الْخَلْقُ عَنْ أَعْيُنِهِمْ ، وَزَهَدُوا فِي الدُّنْيَا ، وَتَبَرَّمُوا
بِهَا ، وَبِمُخَالَطَةِ الْخَلْقِ ، وَقَهَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَمَلَكُوهَا ، وَقَعَمُوا الشَّيْطَانَ فَأَيْسَ مِنْهُمْ . فَهَؤُلَاءِ
لَا يَجْرُكُهُمُ إِلَّا الْحَقُّ ، وَلَا يَسْكُنُهُمْ إِلَّا الْحَقُّ ، وَلَوْ زَهَقَتْ فِيهِمْ أَرْوَاحُهُمْ . فَهُمْ أَهْلُ نَيْلِ الْفَضْلِ
فِي الْإِمَارَةِ وَالْخِلَافَةِ . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيَحْرِمُ عَلَيْهِ الْخَوَاصَّ فِي الْوَلَايَاتِ
وَمَنْ جَرَّبَ نَفْسَهُ فَرَأَاهَا صَابِرَةً عَلَى الْحَقِّ ، كَافَّةً عَنِ الشَّهَوَاتِ فِي غَيْرِ الْوَلَايَاتِ ، وَلَكِنْ
يَخَافُ عَلَيْهَا أَنْ تَتَغَيَّرَ إِذَا ذَاقَتْ لَذَّةَ الْوَلَايَةِ ، وَأَنْ تَسْتَحِلَّ الْجَاهَ ، وَتَسْتَلْذِقَ نَقَازَ الْأَمْرِ ، فَتُكْرَهُ
الْعَزْلُ ، فَيَدَاهِنُ خِيفَةً مِنَ الْعَزْلِ ، فَهَذَا قَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّهُ هَلْ يُلْزِمُهُ الْمَرْبُ مِنْ تَقْلِيدِ
الْوَلَايَةِ . فَقَالَ قَائِلُونَ لَا يَجِبُ ، لِأَنَّ هَذَا خَوْفٌ أَمْرٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَهُوَ فِي الْحَالِ لَمْ يَمْدُدْ نَفْسَهُ
إِلَّا قُوَّةً فِي مَلَازِمَةِ الْحَقِّ وَتَرْكِ لَذَاتِ النَّفْسِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَلَيْهِ الْإِحْتِرَازَ ، لِأَنَّ النَّفْسَ
خَدَاعَةً ، مَدْعِيَةً لِلْحَقِّ ، وَاعْدَةً بِالْخَيْرِ . فَلَوْ وَعَدَتْ بِالْخَيْرِ جَزْمًا لَكَانَ يَخَافُ عَلَيْهَا أَنْ تَتَغَيَّرَ
عِنْدَ الْوَلَايَةِ . فَكَيْفَ إِذَا أَظْهَرَتْ التَّرَدُّدَ ؟ وَالْإِمْتِنَاعُ عَنْ قَبُولِ الْوَلَايَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْعَزْلِ بَعْدَ
الشَّرْعِ . فَالْعَزْلُ مَوْثُومٌ . وَهُوَ كَمَا قِيلَ : الْعَزْلُ طَلَاقُ الرِّجَالِ . فَإِذَا شَرَعَ لَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِالْعَزْلِ
وَتَمِيلُ نَفْسُهُ إِلَى الْمَدَاهِنَةِ وَإِهْمَالِ الْحَقِّ ، وَتَهْوِي بِهِ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ . وَلَا يَسْتَطِيعُ النِّزْوَعُ مِنْهُ
إِلَى الْمَوْتِ ، إِلَّا أَنْ يَمُوتَ فِيهَا . وَكَانَ فِيهِ عَذَابٌ عَاجِلٌ عَلَى كُلِّ مَحِبٍّ لِلْوَلَايَةِ . وَمَهْمَا مَالَتْ
النَّفْسُ إِلَى طَلَبِ الْوَلَايَةِ ، وَحَمَلَتْ عَلَى السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ ، فَهُوَ إِمَارَةُ الشَّرِّ . وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) « إِنَّا لَا نُؤَلِّي أَمْرًا مَنْ سَأَلَنَا » فَإِذَا فَهَمْتَ اخْتِلَافَ حُكْمِ الْقَوَى وَالضَّعِيفِ ،
عَلِمْتَ أَنَّ نَهْيَ أَبِي بَكْرٍ رَافِعًا عَنِ الْوَلَايَةِ ، ثُمَّ تَقْلِيدَهُ لَهَا لَيْسَ بِمُتَنَاقِضٍ

(١) حَدِيثُ إِبْنِ الْأَنْوَلِيِّ أَمْرًا مَنْ سَأَلَنَا : مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة ، فهو في معناها . فإن كل ذي ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمارة محبوبة بالطبع . والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام ^(٢) « مَنْ اسْتَقْضَى فَقَدْ ذَبَحَ بِغَيْرِ سَكِينٍ » فخكمه حكم الإمارة ، ينبغى أن يتركه الضعفاء ، وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه . ولينقلده الأقوياء ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظالمة ، ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بعداهنتهم ، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ، ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . فليس له أن يتقلد القضاء . وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت المهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى الله . فإن لم تسمح نفسه بذلك ، فهو إذاً يقضى لاتباع الهوى والشیطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ، وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار ؟ . وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر ، فأفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات . وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا . ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بشر كذا وكذا قطر من الحديث ، وقال يعنى من الحديث أنى أشهى أن أحدث ولو اشتبهت أن لا أحدث لحديث والواعظ يحد في وعظه وتأثر قلوب الناس به ، وتلاحق بكائهم ، وزعقاتهم ، وإقبالهم عليه ، لذة لا توازيها لذة . فإذا غلب ذلك على قلبه ، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام ، وإن كان باطلا . ويفر عن كل كلام يستثقله العوام ، وإن كان حقا . ويصير مصروف الهمة بالسكينة إلى ما يحرك قلوب العوام ، ويعظم منزلته في قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر . وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة ، وطريق سلوك سبيل الدين ، ليعمل به أولا

(١) حديث القضاء ثلاثة - الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم في العلم وإسناده صحيح

(٢) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين : أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ من جعل قاضيا

وفي رواية من ولي القضاء . وإسناده صحيح

ثم يقول : إذا أنعم الله على هذه النعمة ، ونفعني بهذه الحكمة ، فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون . فهذا أيضا مما يعمم فيه الخوف والفتنة ، فتحكمه حكم الولايات . فن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة ، والأكل بالدين ، والتفاخر والتكاثر . فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه . إلى أن ترأض نفسه ، وتقوى في الدين همته ، ويأمن على نفسه الفتنة . فعند ذلك يعود إليه ^١ فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست ، وعم الجاهل كافة الخلق فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) عن طلب الإمارة ، وتوعد عليها ، حتى قال ^(٢) « إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا » وقال ^(٣) « نِعِمَّتِ الْمُرْضِعَةُ وَبُسَّتِ الْفَاطِمَةُ » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ، وخربت البلاد وتعطلت المعاش . فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب حين رأى قوما يتبعونه ، وهو في ذلك يقول أبى سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ، ومذلة على التابع . وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح ، فنهى . فقال أمتنعني من نصيح الناس ؟ فقال أخشى أن تنفخ حتى تبلغ الثريا ، أذرى فيه تخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم ، كالوعظ والتدريس والفتوى . وفي كل واحد منهما فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما

فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم ، فهو غلط . إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء . بل الرياسة وجها يضطر الخلق

(١) حديث النهى عن طلب الإمارة : وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسئل الإمارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث

(٢) حديث إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة أخذها بحقها : البخارى من حديث

أبي هريرة دون قوله إلا من أخذها بحقها وزاد في آخره فنعمت المرصعة وبسَّت الفاطمة ودون

قوله حسرة وهي في صحيح ابن حبان

(٣) حديث نعمت الرضعة وبسَّت الفاطمة : البخارى من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله

ورواه ابن حبان بلفظ فيبسَّت الرضعة وبسَّت الفاطمة

(٤) حديث النهى عن القضاء : مسلم من حديث أبي ذر لا تؤمرن على اثنين ولا ثلثين مال يتيم

إلى طلبها . وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تدرس . بل لوجس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة ، لأفتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فلا تشغل قلبك بأمر الناس ، فإن الله لا يضيعهم . وانظر لنفسك . ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً ، فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم . وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ، ولا يتركون لذة الرياسة . فإن لم يكن في البلد إلا واحد ، وكان وعظه نافعه للناس من حيث حسن كلامه . وحسن سمته في الظاهر ، وتحويله إلى العوام أنه إن ما يريد الله به وعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها ، فلا تمنعه منه ، ونقول له اشتغل وجاهد نفسك . فإن قال لست أقدر على نفسي ، فنقول اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك للناس كلهم إذ لا قائم به غيره . ولو واظب وعرضه الجاه ، فهو الهالك وحده . وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ، ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ » . ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا بكلامه ، وبظواهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار ، من الكلمات المزخرفة ، والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار ، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ، وتخويف للمسلمين ، بل فيه الترجية والتجربة على المعاصي بطيرات النسكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ ، جميل الظاهر ، يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره . وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ، ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام : يا علماء السوء ، تصومون وتصلون ، وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون ما لا تعملون ، فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يفنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم: النسائي وقد تقدم قريباً

كذلك أتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم . بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم . فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأي ناس أخس منكم ؟ لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدجلين ، وتقيمون في محلة التجبرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا لينزكوها لكم ، مهلا مهلا ويلكم ماذا يفنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يفنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة معطلة . يا عبيد الدنيا ، لا كسيدا تقياء ، ولا كأحرار كرام . توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى . فيوقفكم على سواترهم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ، ثم قال . هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذاوا الدين للدنيا . فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ، ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتَّبَعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واركز مراعاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ، ولكن أتم العمل واجهد نفسك فاعلم أن فضل العلم كبير ؛ وخطره عظيم . كفضل الخلافة والإمارة . ولا نقول لأحد

(١) حديث لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها متفق عليه من حديث سهل بن سعد

بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه: ابن ماجه من حديث أنس بزيادة

في أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه الحديث :

من عباد الله ترك العلم ، إذ ليس في نفس العلم آفة . وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث . ولا نقول له أيضا تركه مادام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء . أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها . أما إذا خطر له وسوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره ، فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات ، وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم ، وبالجمل فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة . وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة . الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والغزو . وقد تعرض لها أتوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبين ، وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى ، والرواية والتدريس . والآفات فيها أقل مما في الولايات ، وأكثر مما في الصلاة . فالصلاة ينبنى أن لا يتركها الضعيف والقوى ، ولكن يدفع خاطر الرياء . والولايات ينبنى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء . ومناصب العلم بينهما . ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم ، والله أعلم

وهنا رتبة رابعة ، وهي جمع المال ، وأخذ للفرقة على المستحقين . فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس . والآفات فيها أيضا كثيرة . ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال القاعد أفضل . لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يسرني أني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أنصدق بها . أما إنى لأحرم البيع والشراء ، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وقد اختلف العلماء ، فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال ، وسلم منها ، وتصدق بها ، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل . وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله .

وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبر . وقال : أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله ، وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات فأما من يتعرض لآفة الرياء ، فتركها لها أبر ، والاستغفال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل وبالجملة ما يتعلق بالخلق والنفس فيه لذة فهو مثار الآفات . والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن عجز فلينظر ، وليجتهد ، وليستفت قلبه ، وايزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشير إلا بالشر ، ولما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال . وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنى وإثبات . فهو موكل إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ، ويدع ما يريه إلى ما لا يريه

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل ، فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ، وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال ، فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس ؟ . فاعلم أن لذلك علامات

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا ، أو أغزر منه علما ، والناس له أشد قبولا فرخ به ولم يحسده . نعم : لا يأس بالغيطة ، وهو أن يتعنى لنفسه مثل علمه

والأخرى : أن الأكاثر إذا حضروا مجلسه ، لم يتغير كلامه . بل بقي كما كان عليه . فينظر إلى الخلق بعين واحدة . والأخرى أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشى خلفه في الأسواق ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها . وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال

كنت جالسا إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على بردون أصفر . فدخل المسجد على بردونه ، فجعل يلتفت في المسجد ، فلم ير خلفه أحقل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثني وركة فزل ومشى نحو الحسن . فلما رآه الحسن متوجها إليه ، تجأف له عن ناحية مجلسه . قال سعيد : وتجايفت له أيضا

عن ناحية مجلسي ، حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج . فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فاقطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي لأبذل الحسن اليوم ، ولأنظر هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه ينقرب إليه ، أو يحمل الحسن هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه . فتكلم الحسن كلاما واحدا ، نحو مما كان يتكلم به في كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه . فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب به على منكب الحسن ثم قال . صدق الشيخ وبر . فعليكم بهذه المجالس وأشباهها ، فاتخذوها حلقا وعادة ، فإنه يلقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ^(١) أن مجالس الذكر رياض الجنة . ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس ، لمعرفتنا بفضلها . قال ثم اقتر الحجاج ، فتكلم حتى عجب احسن ومن حضر من بلاغته . فلما فرغ طفق ققام . فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال عباد الله المسلمين ، ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأنني أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء ، وأن لي سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه ، والحسن مكب . فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه ، فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ، وما ل الله دولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم . فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة ، وعلى البغال السبابة . وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا . فاقتر الحسن حتى ذكرهم بأفجع العيب وأشدّه . فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن ، فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه . فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ، فقالوا أجب الأمير . فقام الحسن ، وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به . فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، ولما رأيته فاغرا فاه يضحك ، إنما كان يتبسم . فأقبل حتى قعد في مجلسه ، فنظم الأمانة ، وقال إنما تجالسون بالأمانة ، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم . إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن إلى جانبه ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار

(١) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة تقدم في الاذكار والدعوات

إني أتيت هذا الرجل ، فقال أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ، لأبالك ، تحرض علينا الناس ؟ أما إنا على ذلك لا تنهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك . قال فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل ، فينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه ، فوقف فقال : هل لكم من حاجة ؟ أو تسألون عن شيء ؟ وإلا فارجموا ، فما يبق هذا من قلب العبد . فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ، ولا يتوانسون ولا يتعاونون ، فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين

بيان

ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع ، فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده . أو يصلى ، مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا . وكذلك قد يقع في موضع يضوم فيه أهل الموضع ، فينبعث له نشاط في الصوم ، ولو لا هم لما انبعث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء ، وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى ، وفي قيام الليل وصيام النهار . ولكن قد تموقه العوائق ، ويمنعه الاشتغال ، ويغلبه التمكن من الشهوات . أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله ، فتقطعه الأسباب عن التهجد ، مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجه ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده ، أو مطالعة حساب له مع معامليه . فإذا وقع في منزل غريب ، اندفعت عنه هذه الشواغل التي تقتر رغبته عن الخير ، وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إيام وقد أقبلوا على الله ، وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله ، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء . أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ،

أو سبب آخر ، فيفتنم زوال النوم ، وفي منزله ربما يغلبه النوم . وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائما ، وتسمح بالتهجد وقتا قليلا ، فيكون ذلك سبب هذا النشاط ، مع اندفاع سائر العوائق . وقد يعسر عليه الصوم في منزله وسعه أطايب الأطعمة ، ويشق عليه الصبر عنها . فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه ، فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين . فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ، ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم . والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرائيا ، إذ كنت لا تعمل في بيتك ، ولا ترد على صلاتك المعتادة

وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم ، وخوفا من ذمهم وتسببهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم ، فيريد أن يحفظ منزلته . وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ، ولست تصل لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لا تصل كل ليلة لكثرة العوائق ، وإنما دعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبّه إلا على ذوى البصائر . فإذا عرف أن المحرك هو الرياء ، فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمد والناس بطاعة الله . وإن كان انبعاثه لدفع العوائق ، وتحرك القبطة والمنافسة بسبب عبادتهم ، فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه ، بل من وراء حجاب ، وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه ، فإن سخطت نفسه فليصل ، فإن باعته الحق وإن كان ذلك يشغل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعته الرياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط لصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمد ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم ، وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ، ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد . فهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين ، فلا ينبغي أن يترك العمل بما يحمد من حب الحمد ، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالسكرامية ، ويشغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى ، لا من الرياء ، ولو سمع

ذلك الكلام وحده لما بكى . ولكن بكاء الناس يؤثر في تريق القلب . وقد لا يحضره
البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ، إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون
ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفا . وذلك محمود ، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه
أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه ، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟
فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم ، فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب
فينبئ أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك
وقلبك فاجر . وكذلك الصبغة ، والتنفس ، والأنين عند القراءة أو الذكر ، أو بعض مجارى
الأحوال ، تارة تكون من الصدق ، والحزن والخوف ، والندم ، والتأسف ، وتارة تكون
لمشاهدته حزن غيره ، وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن . وذلك محمود .
وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ، ليعرف بذلك . فإن تجردت هذه
الداعية فهى الرياء . وإن اقترنت بداعية الحزن ، فإن أباها ولم يقبلها وكرها سلم بكاءؤه
وتباكيه . وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به .
وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمدد وي زيد في رفع الصوت . فتلك الزيادة
رياء ، وهو محذور . لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء . فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد
معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت ، أو رفع له
أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لحشية الله ، ولكن يحفظ أثرها
على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم
يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعم ويتواجد تكلفا ، ليرى
أنه سقط لكونه مغشيا عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق . وقد يزول عقله ،
فيسقط ، ولكن يفيق سريعا ، فتجزع نفسه أن يقال حاله غير ثابتة ، وإنما هى كبرق
خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله . وكذلك قد يفيق بعد الضعف
ولكن يزول ضعفه سريعا ، فيجزع أن يقال لم تكن غشيتة صحيحة ، ولو كان لدام ضعفه .
فيستديم إظهار الضعف والأنين ، فيتكى على غيره ، يرى أنه يضعف عن القيام . ويتمايل
فى المشى ، ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكاييد الشيطان .

ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن ، واطلموا على ضميره لمقتوه ، وأن الله مطلع على ضميره ، وهوله أشد مقتا . كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف ، فقال يا شيخ الذى يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين . وقد جاء في الخبر « تَعَوَّدُوا ^(١) بِاللَّهِ مِنْ خُشُوعِ النَّفَاقِ » ، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لحاطر خوف ، وتذكر ذنب وتندم عليه : وقد يكون للمرأة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة . فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ماهو ، ومن اين هو . فإن كان لله فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شىء من الرياء الذى هو كديب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أسمى مقبولة أم لا ؟ لخوفك على الإخلاص فيها . واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا . فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ، ومقته لك ، وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام ، إذ قال يا أيوب : أما علمت أن العبيد تضل عنه علانيته التى كان يجتادع بها عن نفسه ، ويجزى بسريره ؟ وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما اللهم إني أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى ، وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى ، ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى ، أبدي للناس أحسن أمرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقربا إلى الناس بحسناتى ، وفرارا منهم إليك بسينئاتى فيحلبنى مقتك ، ويحب على غضبك . أعذنى من ذلك يارب العالمين

وقد قال أحد الثلاثة نقر لأيوب عليه السلام : يا أيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأصنعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن ، تسود وجوههم ؟

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق : البيهقى فى الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد

الأيادى ضعفه أحمد وابن معين

فهذه جل آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها، ففي الخبر^(١) إن للرياء سبعين باباً، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض، حتى أن بعضه مثل ديب النمل، وبعضه أخفى من ديب النمل. وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة. وليته أدرك بعد بذل الجهود. فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب، وامتحان للنفس، وتفتيش عن خدعها، تسأل الله تعالى العافية بجنه وكرمه وإحسانه

بيان

ما ينبغي للعبد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المرید قلبه في سائر أوقاته، القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله. فأما من خاف غيره وارتجاه، اشتهى اطلاعه على محاسن أجواله. فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان، لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصاً على الإفشاء، وتقول مثل هذا العمل العظيم، أو الخوف العظيم، أو البكاء العظيم، لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك. فاف في الخلق من يقدر على مثله. فكيف ترضى بإخفائه. فيجهل الناس محلك، وينكرون قدرك، ويحرمون الاقتداء بك! ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة، ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طالب بطاعته ثواباً من عباده. ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه، وسقوط عند الله،

(١) حديث الرياء سبعون باباً هكذا ذكر المصنف هذا - الحديث : هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه الرياء بالمتناهة وانما هو الرياء بالوحدة والرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الرياء سبعون جواباً يسرها أن ينكح الرجل أمه وفي إسناده أبو معشر وأسمه نجيب مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرياء ثلاثة وسبعون باباً وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البراء حديث ابن مسعود بلفظ الرياء بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه الرياء بالمتناهة لا اقترانه مع الشرك والله أعلم

وإحباط للعمل العظيم . فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق ، وهم عاجزون لا يقدرُونَ لي على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغي أن ييأس عنه ، فيقول إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم . فيترك المجاهدة في الإخلاص . لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي ، لأن المتقي إن فسدت نوافله . بقيت فرائضه كاملة تامة . والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان ، والحاجة إلى الجبران بالنوافل . فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض ، هلك به . فالمخلط إلى الإخلاص أحوج وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) أنه قال « يُجَاسَبُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنْ تَقَصَّ فَرَضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرَضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفِيهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ » فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص ، وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات ، ولا يمكن ذلك إلا بمخلوص النوافل . وأما المتقي ، فجهده في زيادة الدرجات . فإن حبط تطوعه بقي من حسناته ما يرجح على السيئات ، فيدخل الجنة . . فإذا ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه ، لتصح نوافله . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ ، حتى لا يظهره ولا يتحدث به . وإذا فعل جميع ذلك . فينبغي أن يكون وجلاً من عمله ، خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ، ما لم يقف عليه ، فيكون شاكاً في قبوله ورده ، مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مكنه بها ، ورد عمله بسببها . ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده ، لا في ابتداء العقد . بل ينبغي أن يكون مثيقاً في الابتداء أنه مخلص ، ما يريد عمله إلا الله ، حتى يصح عمله . فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان ، كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله ، من رياء أو عجب أولى به . ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص ، وشك في أنه هل أفسده رياء ، فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات ، فالإخلاص يقين والرياء شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ، ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور

(١) حديث تميم الداري في كمال فريضة الصلاة بالطوع: أبو داود وابن ماجه. وتقدم في الصلاة

على قلب من قضى حاجته فقط . ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ، ومكافأة
 وحمد ، وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة
 في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشى في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه في حاجة
 فقد أخذ أجره ، فلا ثواب له غيره . نعم . إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه
 ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فترجو أن لا يحبط ذلك أجره
 إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء
 يحذرون هذا ، حتى أن بعضهم وقع في يثر ، فجاء قوم فأدلوأ حبلا ليرفعوه ، فحلف عليهم
 أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن ، أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره .
 وقال شقيق البلخي : أهديت لسقيان الثوري ثوبا فرده عليّ . فقلت له يا أبا عبد الله لست
 أنا ممن يسمع الحديث حتى تردده عليّ . قال علمت ذلك ، ولكن أخوك يسمع مني الحديث
 فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين
 وكان أبوه صديقا لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيرا . فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من
 أبي شيء ؟ فقال يرحم الله أباك ، كان وكان ، وأثنى عليه . فقال يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف
 صار هذا المال إلي ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك . قال فقبل سفيان ذلك . قال
 فلما خرج قال لولده : يا مبارك ، ألحقه فرده عليّ . فرجع فقال أحب تأخذ مالك . فلم يزل به
 حتى رده عليه ، وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى ، فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده
 فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك ، أي شيء قلبك هذا حجارة ! عد أنه
 ليس لك عيال ، أما ترجمني ؟ أما ترجم إخوتك ؟ أما ترجم عيالك ؟ فأكثر عليه . فقال
 لي يا مبارك ، تأكلها أنت هنيئا مريئا ، وأسئل عنها أنا . فإذا يجب على العالم أن يلزم
 قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله
 وطلب ثوابه ، ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أنه أن يراني بطاعته
 لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه . وهو خطأ . لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال
 وتعلم . وربما يفيد وربما لا يفيد . فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على ثوب علم ! وذلك غير
 جائز . بل ينبغي أن تعلم الله ، ويعبد الله ، ويخدم المعلم الله ، لا يكون له في قلبه منزلة !

إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة . فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ، ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه ، لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما ، إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين . ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين . فإن ذلك معصية في الحال ، وسيكشف الله عن زيائه ، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا . وأما الزاهد المعتزل عن الناس ، فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعماله ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله . فإن ذلك يغرس الزياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به . وإعاسكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله ، وهو لا يدري أنه الخفيف للعمل عليه . قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت يا سمان منذ كم أنت في صومعتك ؟ قال منذ سبعين سنة . قلت فما طعامك ؟ قال يا حنفي وما دعائك إلى هذا ؟ قلبي أحببت أن أعلم . قال في كل ليلة حمصة . قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير الذي بمحذاثك ؟ قلت نعم : قال إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتي ، ويطوفون حواها ويعظموني . فكلما تشاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد ساعة لعز ساعة . فاحتمل يا حنفي جهد ساعة لعز الأبد . فوفر في قلبي المعرفة . فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال انزل عن الصومعة . فنزلت . فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير اجتمع على النصاري فقالوا يا حنفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا ساوم . قلت عشرون دينارا . فأعطوني عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ، فقال يا حنفي ما الذي صنعت ؟ قلت بعته منهم . قال بكم ؟ قلت بعشرين دينارا . قال أخطأت ، لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك . هذا عز من لا تعبده . فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنفي أقبل على ربك ، ودع الذهب والجيئة . والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة ، وقد لا يشعر العبد به . فينبغي أن يلزم نفسه الخلو منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهايم بمثابة واحدة . فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يخرجوا ، ولم يضحقوا به ذرعا ، إلا كراهة ضئيلة . إن وجدها في قلبه فليزدها في الحال بقله وإيمانه ،

فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه ، لم يزد ذلك خشوعا ، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ، ولكن إذا قدر على رده بكمراهة العقل والإيمان ، وبأدب إلى ذلك ، ولم يقبل ذلك السرور بالكون إليه ، فيرجى له أن لا ينجب سعيه ، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كي لا ينسطوا إليه ، فذلك لأبأس به ، ولكن فيه غرور . إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتملأ بطلب الانقباض ، فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا ، أو يضحك كثيرا ، أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك . فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة ، فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا لخطرات ضئيلة لا يشق عليه إزالتها . فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان ، أحدهما غني والآخر فقير ، فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزرة في نفسه لا كرامة ، إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع ، فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالثني . فن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر ، فهو مرء أو طماع . وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ، ويحبب إلى القلب المسكنة . والنظر إلى الأغنياء بخلافه . فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير !

وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء ، حتى كانوا يمتنون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصدقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير ، لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغني فأشارك له لا يكون إلا طمعا في غناه ، ورياء له . ثم إذا سويت بينهما في المجالسة ، فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفي ، أو طمع خفي . كما قال ابن السماك لجارية له : مالى إذا أتيت بفدا فتحت لي الحكمة ؟ فقالت الطمع يشجذ لسانك . وقد صدقت . فإن اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك محضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير

ومكاييد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينحيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة ، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات ، وساعدته اللذات ، ولكن في بدنه سقم ، وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات . وعلم أنه لو احتسى وجاهد شهوته ، عاش ودام ملكه . فلما عرف ذلك جالس الأطباء ، وحارف الصيادلة ، وعود نفسه شرب الأدوية المرة ، وصبر على بشاعتها وهجر بيع اللذات ، وصبر على مفارقتها . فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلّة أكله ، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدة احتمائه . ففهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالى الأوجاع والآلام عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشماتة الأعداء به . ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء ، الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، في عيش هنىء ، وبدن صحيح ، وقلب رضى ، وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة . احتنى عن كل مهلك له في آخرته ، وهى لذات الدنيا وزهرتها ، فاجتزى منها بالقليل ، واختار النحول والذبول ، والوحشة ، والحزن ، والخوف ، وترك الموانسة بالخلق ، خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه . فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه ، وإيمانه بعاقبة أمره ؛ وبما أعدّه من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد . ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المرئدين لمرضاة عوناً ، وبهم رءوفاً ، وعليهم عطوفاً . ولو شاء لأغنام عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ، حكمة منه وعدلاً ثم إذا تحمل التعب في بدايته ؛ أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء ، وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ، ويتولى سياسته وتقويته ، وأمدّه بمعونته . فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ، ولا يخيب أمل المحب ، وهو الذى يقول . من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذارعا : ويقول تعالى . لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وإنى إلى لقائهم أشد شوقاً . فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه ، فلا يعوزهم من الله تعالى على القرب ما هو اللائق ، بجوده ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته . ثم كتاب ذم الجاه والرياء ، والحمد لله وحده

فهرست الجزء العاشر

الصفحة	الصفحة
	كتاب ذم البخل
١٧٧٣	عز النفس في القناعة
	السبب بالصالحين
	صرف النظر عن هو ووجه الى من
١٧٧٤	هو دونه في المال
	بيان فضيلة السخاء
	الاحاديث الواردة في الحث على
١٧٧٥	السخاء
١٧٧٦	السخاء سجرة في الجنة
١٧٧٧	سخاء المرء يحقق دمه
١٧٧٩	الآثار الواردة في فضل السخاء
	منهى الكرم كرم الحسن بن علي
١٧٨٠	رضي الله عنهما
١٧٨١	حكايات الاسخياء
	سخاء عائشة رضي الله عنها
	سخاء عبيد الله بن عباس
	سخاء معاوية
١٧٨٢	سخاء المأمون
	سخاء الحسن
١٧٨٣	سخاء ابن عباس وتواضعة
	سخاء عبد الحميد بن سعد
	سخاء أبي طاهر بن كثير
	سخاء أبي مرثد
	سخاء معن بن زائدة
	سخاء الحسن والحسين وعبد الله
١٧٨٤	ابن جعفر
	سخاء عبد الله بن عامر
١٧٨٥	سخاء الليث بن سعد
١٧٨٩	بيان ذم البخل
١٧٩٠	الاحاديث في ذم البخل
١٧٩١	تعوذ صلى الله عليه وسلم من البخل
١٧٩٢	البخل يذهب كرامة المرء بين قومه
١٧٩٣	سخاء البخيل عند موته لا ينفع
	وذم حب المال
١٧٥٣	بيان ذم المال وكراهة حبه
١٧٥٥	الاحاديث الواردة في ذم المال
١٧٥٦	الآثار الواردة في ذم المال
١٧٥٨	بيان مدح المال والجمع بينه وبين
١٧٥٩	الدم
١٧٦٠	منزلة المال في الدنيا
١٧٦٢	بيان تفصيل آفات المال وفوائده
	فوائد المال الدينية
	الاسعانة به على العبادة
	الصدقة
	المروءة
	وقاية العرض
١٧٦٣	الاستخدام
	الخيرات العامة
	آفات المال
	تسهيل سبل المعاصي
١٧٦٤	التنعم وما يترتب عليه
	الانسغال بالمال عن ذكر الله تعالى
	بيان ذم الحرص والطمع ومدح
	القناعة والياس مما في ايدي
١٧٦٥	الناس
	طمع الانسان
١٧٦٦	مدح القناعة
	النهى عن شدة الحرص
١٧٦٧	النهى عن الطمع
	الآثار الواردة في الطمع والقناعة
١٧٦٩	مثال لطمع الآدمي على لسان الطيور
١٧٧٠	طمع العالم يذهب علمه
	بيان علاج الحرص والطمع والدواء
	الذي يكتسب به صفة القناعة
	الافساد في المعيشة باب للقناعة
١٧٧١	عدم التفكير في رزق القدر

الصفحة	الصفحة
١٨٩٩ بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات	١٨٧٠ حكم الرياء
١٩٠٢ التحدث بالعمل بعد الفراغ منه	١٨٧٣ بيان درجات الرياء - قصة الرياء
١٩٠٣ وكراهه اطلاق الناس عليه وذمهم له	١٨٧٤ الرياء بأصل الابدان
١٩٠٤ المرح بالسر وكراهية الفضيحة	١٨٧٥ الرياء بالعبادات المفروضة
١٩٠٥ كراهية الدم لعصيان الذام به	الرياء بالنوافل
ستر الذنب خوفا من عاقبته	١٨٧٦ الرياء بأوصاف العبادات
ستر الذنب حياء	١٨٧٧ الرياء بالكمالات في العبادة
بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء	الرياء بالزيادات في العبادة
١٩٠٧ ودخول الآفات	الرياء بالطاعة لتبيل حظ مباح من
١٩١٣ القضاء	١٨٧٨ حظوظ الدنيا
الوعظ والفتوى	الرياء بالطاعة دفعا للمذمة
١٩١٥ صفة الواعظ	بيان الرياء الخفى الذى هو اخفى من
١٩١٨ علامات الواعظ الصادق	١٨٧٩ ديبب التمل
الحسن والحجاج	بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى
بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة	١٨٨٣ والجلى وما لا يحبط
١٩٢٠ بسبب رؤية الخلق وما لا يصح	وارد الرياء بعد الفراغ من العمل
١٩٢١ أمثلة من خشوع النفاق	بيان دواء الرياء وطريق معالجة
بيان ما ينبغى للمريد ان يلزم نفسه	١٨٨٨ القلب فيه
١٩٢٤ قبل العمل وبعده وفيه	استئصال الرياء
	١٨٨٩ علاج طلب المحمدة عند الناس
	١٨٩٠ علاج الطمع فيما فى ايدى الناس
	علاج خوف مذمة الخلق

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الحادي عشر

دار الشعب

٩٩ شارع مصر - القاهرة ١١٨١٠

كتاب ذم الكبر والعجب

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق ، الباري ، المصور ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع . فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصار الخلاق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه . فاعترف بالعجز هن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أبدى القياصرة عظمته وكبرياؤه . فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه . جل جلاله وتقدست أسماؤه . والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفيائه ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَصْتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فالكبر والعجب دأب مهلكان . والمتكبر

(كتاب ذم الكبر والعجب)

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء رداي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصصته : الحاكم في المستدرک دون

ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر

(٢) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : البرار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند

ضعيف وتقدم فيه أيضا .

والمعجب سقيان مريضان ؛ وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات ، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من فبائح المرديات ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين . شطر فى الكبر ، وشطر فى المعجب

الشر الأول

من الكتاب فى «الكبر»

وفيه بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان مابه التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر ، وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

بيان

ذم الكبر

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(١)) وقال عز وجل (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ^(٢)) وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^(٣)) وقال تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ^(٤)) وقال تعالى (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا^(٥)) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ^(٦)) وذم الكبر فى القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل فى قلبه مثقال

حبة من إيمان : مسلم من حديث ابن مسعود

(١) الاعراف : ١٤٦ (٢) غافر : ٣٥ (٣) إبراهيم : ١٥ (٤) النحل : ٢٣ (٥) الفرقان : ٢١ (٦) غافر : ٦٥

« يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَنَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا الْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أَبَالِي » وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقي عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا ، فتواقفا ، فضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يكي . فقالوا ما يكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال هذا ، يعني عبد الله بن عمرو ، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) يقول « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ أَسْكَبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ . عَلَى وَجْهِهِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكْتَبَ فِي الْجَبَارِينِ قَيْصِيْبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس ، والجن ، والبهائم اخرجوا . فخرجوا في مائتي ألف من الانس ، ومائتي ألف من الجن . فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ وَكُنْتُ بِثَلَاثَةِ بَكَلٍ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَيَكُلُّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا جَبَّارٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَاطُهُمْ وَعَجْزُهُمْ »

(١) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظه وقال أبو داود قدفته في النار وقال مسلم حدثته وقال أبو داود وأزاره بالقبية وزاد مع أبي هريرة أباسعيد أيضا

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبركه الله في النار على وجهه : أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح

(٣) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين - الحديث : الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

(٤) حديث يخرج من النار عنق له أذنان - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٥) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخل ولا سيئ الملكة : تقدم في أسباب التكسب والعاش والغزو في خاتم مكان جبار

(٦) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين - الحديث : متفق عليه

من حديث أبي هريرة

قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مَلَأُهَا ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « يَبْسُ الْعَبْدُ عَبْدًا تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَبَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى يَبْسُ الْعَبْدُ عَبْدًا تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَبَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ يَبْسُ الْعَبْدُ عَبْدًا غَفَلَ وَسَهَا وَبَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى يَبْسُ عَبْدًا عَتَا وَبَسِيَ وَبَسِيَ الْمُبْدَأُ وَالْمُنْتَهَى ، وعن ثابت أنه قال ^(٢) : بلغنا أنه قيل يا رسول الله ، ما أعظم كبر فلان ! فقال « أليس بعده الموت ؟ » وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) قال « إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ وَقَالَ إِنِّي أَمْرُكُمْ كَمَا بَاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَا كَمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ أَنَّهَا كَمَا عَنْ الشَّرِّ وَالْكَبِيرِ وَأَمْرُكُمْ كَمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكَفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتَا حَاقَّةً فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهَا لَقَصَصَتْهَا وَأَمْرُكُمْ كَمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَافَةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ » . وقال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطِئُ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعَ مَنَاجٍ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضَّعَفَاءُ الْمُقِلُّونَ »

(١) حديث بئس العبد عبد تجبر واعتدى - الحديث : الترمذى من حديث أسماء بنت عميس زيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ورواه البيهقى في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه

(٢) حديث ثابت بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت : البيهقى في الشعب هكذا مرسلًا بلفظ تجبر

(٣) حديث عبد الله بن عمرو أن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال اني امركم كما باثنتين وانها كما عن اثنتين أنها كما عن الشرك والكبر - الحديث : أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم في زيادة في نقله قال صحيح الاسناد

(٤) حديث أهل البار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناج : وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخواص الأجلجركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرَثَارُونَ الْمُتَشَدُّقُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ »
 قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشددون ، فما المتفهيون ؟ قال « الْمُتَكَبِّرُونَ »
 وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُورِ الذَّرِّ تَطَوُّهُمْ النَّاسُ ذَرَّافِي مِثْلِ صُورِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُؤْسٌ يَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ » . وقال أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الذَّرِّ تَطَوُّهُمْ النَّاسُ لَهُوَ أَنَّهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » وعن محمد بن واسع قال . دخلت على بلال بن أبي بردة ، فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٤) أنه قال « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبَبٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ » فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ »

(١) حديث أن أحكم البنا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا - الحديث : أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني

بلفظ طالي ومعنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث

(٢) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في صور الرجال - الحديث : الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب

(٣) حديث أبي هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر - الحديث : البراز هكذا مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن

(٤) حديث أبي موسى أن في جهنم واديا يقال له هبيب حق على الله أن يسكنه كل جبار : أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث

(٥) حديث أن في النار قصرًا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم : البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال نوايبت مكان قصرًا وقال فيقول مكان يطبق وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف

(٦) حديث اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء : لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وأبو ماجه من حديث جابر ابن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخة ونفته وهمزة قال نفخة الشعر ونفخة الكبر وهمزة الموتة ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب .

وقال^(١) «مَنْ فَارَقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَهُوَ يَرَى مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْكَبِيرَ وَالَّذِينَ وَالْقُلُوبُ»
 الآثار : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه • لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإنه
 صغير المسلمين عند الله كبير • وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن ، نظر إليها فقال •
 أنت حرام على كل متكبر • وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سرير
 فجاء يوما ومصعب مائة رجله ، فلم يقبضها ، وقعد الأحنف فزحمه بمض الزحمة ، فرأى أثر
 ذلك في وجهه ، فقال : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين • وقال
 الحسن : العجب من ابن آدم يفصل الخمر بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات
 وقد قيل في (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ^(٢)) هو سبيل الغائط والبول • وقد قال
 محمد بن الحسين بن على • ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر
 ما دخل من ذلك ، قل أو أكثر • وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة ، فقال
 الكبر • وقال النعمان بن بشير على المنبر • إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى
 الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى
 في غير ذات الله • نسأل الله تعالى المفو والمافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

بيان

ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطْرًا» وقال صلى الله
 عليه وسلم^(٤) «يَنْتَمَا رَجُلٌ يَتَّبِعُهُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ»

(١) حديث من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة الكبير والدين والقلوب : الترمذى والنسائى

وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق المشهور في الرواية

فانه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزى في جامع السانيد عن الدارقطنى قال انما هو الكنز

بالنون والزاي وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه بالحديث في تفسير والدين يكرزون الذهب والفضة

(٢) حديث لا ينظر الله الى من جر ازاره بطرا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث بينا رجل يتبعه في بردية قد أعجبت نفسه بالحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

فَهُوَ يَجْلِبُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر ، فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد ، فسمعتة يقول . أى بنى ارفع إزارك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) يقول « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلًا » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) بصق يوما على كفه ، ووضع أصبعه عليه وقال « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ابْنُ آدَمَ أُنْعِزْنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَثِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَا أَوْانُ الصَّدَقَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطِيطَاءُ وَخَدَمَهُمْ فَارِسٌ وَالرُّومُ سَلَطَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال ابن الأعرابي . هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ تَعَطَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشْيِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ » الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر علينا ابن الأهمم يريد المقصورة ، وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى بتبختر . إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثانى عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفه . أى حميق أنت ، تنظر فى عطفك ، فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ! والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون ، فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفة . فسمع ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه . فقال لا تعذر إلى وتب إلى ربك . أما سمعت قول الله تعالى

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلا : رواه مسلم مقتصرا على الرفع دون ذكر مرور

عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بنى ايث غير مسمى

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أنعجنى

وقد خلقتك من مثل هذه - الحديث : ابن ماجه والحاكم وصححه اسناده من حديث بشر بن حجاج

(٣) حديث اذا مشت أمي المطيطاء - الحديث : الترمذى وابن جبان فى صحيحه من حديث ابن عمر - المطيطاء

بضم اليم وفتح الطاء بنى الملهطين بينهما كثرة من تحت مصفرا ولم يعمل مكبرا

(٤) حديث من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقي الله وهو عليه غضبان : أحمد والطبرانى والحاكم وصححه

والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ^(١))

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة ، فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه ، محب لشماله ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأنك قد لاقيت عمك . ويحك داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حجب قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته ، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من في بطنه خراء . فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أنك فأشترتها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله . ورأى ابن عمر رجلا يجز إزاره فقال : إن للشيطان إخوانا كررها مرتين أو ثلاثا . ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خزر ، فقال : يا عبد الله ، هذه مشية يبغيها الله ورسوله . فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك ، أولك نطفة مذرة . وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل المذرة . فضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ^(٢)) أى يتبختر

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال ، فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

بيان

فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدُهُ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حِكْمَةٌ يُمَسِّكَانِهِ ، بَهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَدَاهَا ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ ضَعْفُهُ وَإِنْ وَضَعَّ

(١) حديث مازاد الله عبدا بعفو الاعزا - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث ما من أحد الاومعه ملكان وعليه حكمة يمسانه بها - الحديث : التقيلى فى الضعفاء والبيقى فى النعب من حديث أبي هريرة والبيقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

نَفْسُهُ قَالَا اللَّهُمَّ ارْفَعْنَاهُ ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُسْكَنَةٍ وَأَتَقَى مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَجِمَ أَهْلَ الدُّلِّ وَالْمُسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » وعن أبي سلمة المديني ، عن أبيه ، عن جده قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) عندنا بقاء ، وكان صائما . فأتيناه عند إفطاره بقدر من لبن ، وجعلنا فيه شيئا من عسل . فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل ، فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل . فوضعه وقال « أَمَا إِنِّي لَا أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَذَرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللَّهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون ، فقام سائل على الباب ، وبه زمانة يتكره منها . فأذن له . فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ، ثم قال له « اطعم » ، فكان رجلان من قريش اشمازمنه وتكره فامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « خَيْرَ نِي رَّبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا فَلَمْ أَذَرِ أَيُّهُمَا اخْتَارُ وَكَانَ صَفِيًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ تَوَاضَعَ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْدًا رَسُولًا »

(١) حديث طوبى لمن تواضع في غير مسكنة - الحديث : البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبراز من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان

(٢) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائما - الحديث : وفيه من تواضع رفعه الله - الحديث : رواه البراز من رواية طلحة بن يحيى ابن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقاء وقال الذهبي في الميزان انه خبر متكرر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر من لبن وعسل - الحديث : وفيه أمانى لا أرعم أنه حرام - الحديث : وفيه من أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكرنا فيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله ونقدم في ذم الدنيا

(٣) حديث السائل الذي كان به زمانة متكررة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم - الحديث : لم أجده أصلا والوجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب

(٤) حديث بخيرني ربي بين أمرين عبدا رسولا ومليكا نبيا - الحديث : أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، إنما أقبل صلاة من تواضع له عظمتى ، ولم يتعظم على خاتى ، وألزم قلبه خوفاً ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجل وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُّعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم - بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم ^(٢) قال « إِذَا هَدَى اللَّهُ عَبْدًا لِلْإِسْلَامِ وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُّعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَرْبَعٌ لَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ : الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَالتَّوَاضُّعُ وَالتَّزَهُدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « التَّوَاضُّعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمْكُمْ اللَّهُ » ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلًا وأسنده

الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد

(٢) حديث إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته - الحديث : الطبرانى موقوفاً على ابن مسعود نحوه

وفيه السعوى مختلف فيه

(٣) حديث أربع لا يعطين الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادات والتوكل على الله والتواضع والزهد

فى الدنيا : الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبىن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادات والتواضع

وذكر الله وقلة الشئ . قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان

يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة : البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة

ابن صالح ضعفه الجمهور

(٥) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة - الحديث : الأصفهاني فى الترغيب والترهيب من حديث أنس

وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن

عبد الرحمن الاجتياصى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيفان

(١) كان يطعم ، فجاء رجل أسود به جذرى قد تقشر ، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه . فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ ارْجُلُ الشَّيْءِ فِي يَدِهِ يَكُونُ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ السَّكْبَرُ عَنْ نَفْسِهِ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) لأصحابه يوما « مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ » قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال « التَّوَاضُّعُ » قال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا رَأَيْتُمْ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ ، الْآثَارُ : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته . وقال انتعش رفعك الله . وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض ، وقال اخسأ خسأك الله . فهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس حقير ، حتى أنه لأحققر عندهم من الخنزير . وقال جرير ابن عبد الله . أنهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم ، قد استظل بنطع له ، وقد جاوزت الشمس النطع ، فسويته عليه . ثم إن الرجل استيقظ ، فإذا هو سامان الفارسي . فذكرت له ما صنعت . فقال لي : يا جرير ، تواضع لله في الدنيا ، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . يا جرير ، أتدرى ما ظامة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفرون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يحزى قليل الورع من كثير العمل ، ويحزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد ، وقال الفضيل ، وقد سئل عن التواضع ما هو فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلم أنه ليس لك بدنياك

(١) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جذرى فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه : لم أجده هكذا والمعروف أنه كله مع عبدوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم

(٢) حديث إنه يعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنه لأهله يدفع به السكبر عن نفسه : غريب

(٣) حديث ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع : غريب أيضا

(٤) حديث إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار : غريب أيضا

عليه فضل . وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياء عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا ، أو جمالا ، أو ثيابا ، أو علما ، ثم لم يتواضع فيه ، كان عليه وبالايوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتمها عليك ، وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله ، وتواضع بها لله ، إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ، ورفع بها درجة في الآخرة . وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ؛ ولم يتواضع بها لله ، إلا منعه الله نفعها في الدنيا ، وفتح له طبقا من النار ، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان ، أى الرجل أفضل ؟ قال من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة ، ودخل ابن النعمان على هارون فقال يا أمير المؤمنين ، إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك . فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين ، إن أمرا آناه الله جمالا في خلقته ، وموضعا في حسبه ، وبسط له في ذات يده ، فغف في جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع في حسبه ، كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سلمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح ، تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجرى إلى المساكين فيقعد بهم ويقول مسكين مع مسكين . وقال بعضهم . كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ، فقال لهم الحسن . أندرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام . شمخت الجبال وتطاوت ، وتواضع الجودي ، ورفع الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان . إن الله عن وجل اطلع على قلوب الآدميين ، فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام ، فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد ، وقد انصرف من عرفات . لم أشك في الرحمة لولا أنى كنت معهم أى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال . أرفع ما يكون المؤمن عند الله ، أوضع ما يكون عند نفسه . وأوضع ما يكون عند الله ، أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر . وقال مالك بن دينار . لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم

وجلا ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب ، إلا رجلا بفضل قوة أوسعى . قال فلما بانغ
 للين الميارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل . من أحب الرياسة لم يفلح أبدا
 وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت إلى محمد بن مقاتل
 فقالت يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا . فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سبب
 هلاككم . قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع
 عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكانت
 هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التي تحت الباء . فقال له الشبلي . أباد الله شاهدك
 أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلي عطل ذل اليهود . ويقال من
 يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت
 على بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام ، فقلت له يا أبا الحسن عظمي . فقال لي : ما أحسن
 التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبة منهم في ثواب الله . وأحسن من ذلك تيه الفقراء
 على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه
 وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر . فقليل
 له فتى يكون متواضعا ؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر
 معرفته بربه عز وجل ، ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان . لو اجتمع الخلق على أن يضعوني
 كاتنصاعى عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف
 وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي . الشريف إذا تنسك
 تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ . التكبر على ذوى التكبر عليك بما له تواضع
 ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن . والتكبر في الخلق
 كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال لا عز إلا من تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن
 تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه
 من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني . النفس معجونة بالكبر ، والحرص ،
 والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة . وإذا أراد
 الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك . فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع ،

مع نصرة الله تعالى . وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل
وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة ، مع عون الله عز وجل .

وعن الجنيـد رحمه الله ، أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه ، لولا أنه روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم ^(١) أنه قال « يَكُونُ فى آخِرِ الزَّمانِ زَعِيمُ القَوْمِ أرْذَلُهُمْ » ما تكلمت عليكم
وقال الجنيـد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . ولعل مراده أن التواضع يثبت
نفسه ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها

وعن عمرو بن شبيب قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة ، فرأيت رجلا راكبا بئلة
وبين يديه غلمان ، وإذا هم يمنفون الناس . قال ثم عدت بعد حين ، فدخلت بغداد ، فكنت
على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر ، قال فجعلت أنظر إليه وأنا ممل ،
فقال لى مالك تنظر إلى ؟ فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة . فقال له
أنا ذلك الرجل . فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال إني ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس
فوضعت الله حيث يرفع الناس . وقال المفيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير
وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء ، وكان عطاء السامى إذا سمع صوت
الرعد قام وقعد ، وأخذ بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات
عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الخافى يقول : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم
ودعوا رجل لعبد الله بن المبارك فقال : أعطاك الله ما ترجوه . فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة
فأين المعرفة ؟ وتفاخرت فريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما ، فقال سلمان :
لكنتى خلقت من نطقة قدرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم ،

(١) حديث يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم : الترمذى من حديث أبى هريرة إذا اتخذ النىء دولا

الحديث : وفيه كان زعيم القوم أرذلهم - الحديث : وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب
إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبى لعيم
فى الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة أثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيهما
فخرج بن فضالة ضعيف

وإن خف فأننا لنم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى ،
والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق

بيان

حقيقة الكبر وآلته

أعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خالق في النفس ، والظاهر هو
أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق . وأما الأعمال فإنها ثمرات
لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال . ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر
وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس ، وهو الاسترواح
والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه . فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ، ومتكبرا به
وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتى . فإن العجب لا يستدعى غير المعجب . بل لو لم
يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن
يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون
متكبرا . ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه
يرى غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه . ولا يكفي أن يستحق غيره
فإنه مع ذلك لورأى غيره مثل نفسه لم يتكبر . بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره
مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل
فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر . بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تفتح
فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد ، وهزة ، وفرح ، وركون إلى ما اعتقده ، وعز في نفسه بسبب
ذلك . فتلك العزة ، والهزة ، والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ، ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم ^(١) «أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبَرِيَاءِ» وكذلك قال عمر . أخشى أن
تفتخ حتى تبلغ الثريا ، للذي استأذنه أن يخطب بعد صلاة الصبح

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء تقدم فيه

فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ، وهو الاستعظام ، كبر وانتفخ وتعزز :
 قال كبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أبضاعة وتعظما
 ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى (إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَالْفِيهِ ^(١))
 قال عظمة لم يبلغوها . ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه المزة تقتضى أعمالا في الظاهر
 والباطن هي عمرات . ويسمى ذلك تكبرا . فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره
 حقر من دونه ، وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، وزفرع عن مجالسته ومؤاكلته
 ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره . فإن كان أشد من ذلك استنكف
 عن استخدامه ، ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ، ولا بخدمة عتبته . فإن كان دون ذلك فيأنف
 من مساواته ، وتقدم عليه في مضائق الطرق ، وارتفع عليه في المحافل ، وانتظر أن يبدأ
 بالسلام ، واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه . وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد
 عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول . وإن وعظ عنف في النصيح ، وإن رد عليه شيء
 من قوله غضب ، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين ، واستذلهم ، واتهمهم ، وامتن عليهم ، واستخدمهم
 وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر ، استجها لا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة
 من خلق الكبر كثيرة ، وهي أكثر من أن تحصى ، فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة
 فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما
 ينفك عنه العباد ، والزهاد ، والعلماء ، فضلا عن عوام الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد
 قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » وإنما
 صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق
 هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يعلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب
 للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز . ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين
 وفيه العز . ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز . ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز
 ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز . ولا يقدر على كظم النغيظ وفيه العز . ولا يقدر على

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر يخدم فيه

ترك الحسد وفيه العز . ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز . ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز . ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيالهم وفيه العز . ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه ، خوفاً من أن يفوته عزه . فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والالتقياده . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والتكبرين . قال الله تعالى (وَأَلَّا يَكُنْ لِابْنِكَ أَسْطُورًا يُدْيِيهِمْ ^(١)) إلى قوله (وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ^(٢)) ثم قال (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْ شُرَكَاءَ الْمُتَكَبِّرِينَ ^(٣)) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدُّهم عتياً على الله تعالى فقال (ثُمَّ لَنُنَزِّرَنَّ عَنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَمْطَرًا ^(٤)) وقال تعالى (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ^(٥)) وقال عز وجل (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ^(٦)) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ^(٧)) وقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^(٨)) قيل في التفسير سأرفع فهم القراءان عن قلوبهم . وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريح سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام . إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا . كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر . ألا ترون أن من شمع برأسه إلى السقف شجبه ، ومن طأطأ أظله وأكبه ؟ فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يجرمون الحكمة . ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في جد الكبر والكشف عن حقيقته وقال ^(٩) « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ »

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال بطر الحق وغميط الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن زباجة هكذا

(٢ ، ١) الانعام : ٩٣ (٣) الزمر : ٧٣ (٤) مريم : ٦٩ (٥) النحل : ٢٢ (٦) سبأ : ٣١ (٧) تافه : ٦٠ (٨) الاعراف : ١٤٣

بيان

للتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

للعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى ، أو رساله ، أو سائر خلقه . وقد خلق الإنسان ظلوما جهولا . فتارة يتكبر على الخلق ، وتارة يتكبر على الخالق . فإذا التكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام . الأول : التكبر على الله . وذلك هو أخش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطفيان . مثل ما كان من عمروذ ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن جماعة من الجهلة ، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية ، مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ^(١)) إذ استنكف أن يكون عبدا لله . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ^(٢)) وقال تعالى (لَبَنُ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ^(٣)) الآية وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ثُورًا ^(٤))

فالقسم الثانى : التكبر على الرسل ، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه حق فيه . وتارة يمتنع مع المعرفة ، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق ، والتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قولهم (أَنُؤْمِنُ مِنْ بَشَرَيْنِ مِثْلَنَا ^(٥)) وقولهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ^(٦)) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ^(٧)) (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَمْ أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ^(٨)) (وَقَالُوا لَوْ لَمْ أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ ^(٩)) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أَوْجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ^(١٠)) وقال الله تعالى (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجِنُّوهُ فِي الْأَرْضِ بَغْيَ الْحَقِّ ^(١١)) فتكبر هو على الله وعلى رساله جميعا . قال وهب . قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك . قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان

^(١) النازعات : ٣٤ (غافر : ٦) (النساء : ١٧٢) (الفرقان : ٦٠) (المؤمنون : ٤٧) (إبراهيم : ١٠)

^(٢) المؤمنون : ٣٤ (الفرقان : ٢١) (الانعام : ٨) (الزخرف : ٥٣) (القصص : ٣٩)

ينما أنت رب تمبداً صرت عبداً تمبداً فاستنكف عن عبودية الله، وعن اتباع موسى عليه السلام
 وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (كَوَلَّا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ
 الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ ^(١)) قال قتادة . عظيم القرينين هو الوليد بن المغيرة وأبي مسعود الثقفي
 طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه
 الله إلينا . فقال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ^(٢)) وقال الله تعالى (لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ
 مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ^(٣)) أي استحقاقهم واستبعادا لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم . ^(٤) كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ! أشاروا إلى فقراء المسلمين ،
 فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ^(٥)) إلى قوله (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ ^(٦)) وقال تعالى
 (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
 عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ^(٧)) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ، إذ لم
 يروا الذين ازدروهم ، فقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نمدحهم من الأشرار ؟ قيل يعنون عمارا
 وبلالا ، وصهيبا ، والمقداد رضي الله عنهم . ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة
 فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا . ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف . قال
 الله تعالى نخبرا عنهم (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ^(٨)) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
 أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ^(٩)) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل ، وإن كان
 دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله ، والتواضع لرسوله

القسم الثالث : التكبر على العباد . وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويستحققر غيره ، فتأبى
 نفسه عن الانقياد لهم ، وتدعوهم إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من
 من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثاني ، فهو أيضا عظيم من وجهين .

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء . - الحديث :
 في نزول قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم - مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الأتمة
 قال فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش

(٢) الزخرف : ٣١ (٣) الزخرف : ٣٢ (٤) الانعام : ٥٣ (٥) (٦ ، ٥) الانعام : ٥٢ (٧) الكهف : ٢٨
 (٨) البقرة : ٨٩ (٩) النحل : ١٤٠

أحدهما : الكبر ، والعز ، والمظمة ، والملاء ، لا يليق إلا بالملك القادر . فأما العبد المملوك الضعيف ، العاجز ، الذى لا يقدر على شئ ، فمن أين يليق بحاله الكبر ! فيها تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله . ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك ، فيضعها على رأسه ، ويجلس على سرير . فما أعظم استحقاقه للمقت أو ما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه ! وما أقبح مانعاه . وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيها قصمته . أى أنه خاص صفتى ، ولا يليق إلا بى . والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى . وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ، ويستخدمهم و يترفع عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سرير ، والاستبداد بملكه . فالخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نروذ وفرعون ، ما هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته فى أصل الملك

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر ، إنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أمره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله ، وتشمر لجحده . ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ، ثم إنهم يتجادلون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التليس . وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ^(١)) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا يفتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ ، كما قال الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِيمِ ^(٢)) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف قتل ، فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس

(١) فصلت : ٢٦ (٢) البقرة : ٢٠٦

فقتل المتكبر الذى خالفه ، والذى أمره كبراً . وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) «لرجل كل يمينك» قال لا أستطيع . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم «لَا اسْتَطَعْتَ» ، فامنعهُ إلا كبره . قال فإرفعها بعد ذلك أى اعتلت يده . فإذا تكبره على الخلق عظيم ، لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله . وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا ، وما حكام من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ^(٢)) وهذا الكبر بالنسب ، لأنه قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ^(٣)) فحمله ذلك على أن يتنعم من السجود الذى أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤه الكبر على آدم ، والحسد له . فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبداً . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين ، إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يا رسول الله ، ^(٤) إني امرؤ قد حجب إلى من الجلال ما ترى ، أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم «لَا وَلَكِنَّ الْكِبَرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ» وفى حديث آخر ^(٥) «مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ» وقوله وغمص الناس ، أى ازدراهم واستحققهم وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى . وسفه الحق هو رده ، وهى الآفة الثانية .

فكل من رأى أنه خير من أخيه ، واحتقر أخاه وازدراه ، ونظر إليه بعين الاستصغار ، أورد الحق وهو يعرفه ، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسوله ، فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسوله

بيان

ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال

(١) حديث قال لرجل كل يمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت - الحديث : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حجب إلى من الجلال ما ترى - الحديث : وفيه الكبر

من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين

(٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : تقدم معه

وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى . فالدينى هو العلم والعمل . والدنيوى هو النسب ، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب

الأول : العلم . وما أسرع الكبر الى العلماء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « آفةُ العلم الخيلاء » فلا يلبث العالم أن يتميز بعزة العلم ، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره الى البهائم ، ويستجملهم ، ويتوقع أن يبدوه بالسلام . فإن بدأ واحدا منهم بالسلام ، أورد عليه يبشر ، أو قام له ، أو أجاب له دعوة ، رأى ذلك صنيعه عنده ، ويداعليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه ، شكراله على صنيعه . بل الغالب أنهم يرونه فلا يبرهم ، ويزورونه فلا يزورهم ، ويعودونه فلا يعودهم ، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره ، كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكأن تعليمه العلم صنيعه منه إليهم ، ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعاق بالدينا . أما في أمر الآخرة ، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما . بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتى في طريق معالجة الكبر بالعلم . وهذا العلم يزيد خوفا ، وتواضعا ، وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ، ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجعا . وهو كما قال

فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ، فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما حقيقيا . وإنما العلم الحقيقى ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، والأمن . قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ^(٢)) فأما وراء ذلك

(١) حديث آفة العلم الخيلاء : قلت هكذا ذكره المصنف والعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه الفضاعي في مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء . وفيه الحسن بن عبد الحميد السكونى لا يدري من هو حديث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب البرهان

كعلم الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلا منها ، امتلا بها كبراً ونفاقاً . وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً . بل العلم هو معرفة العبودية ، والربوبية ، وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالباً .

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، ردى النفس ، سيء الأخلاق . فإنه لم يشتغل أولاً بتهديب نفسه ، وتركيب قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه في عبادة ربه ، فبقى خبيث الجوهر . فإذا خاض في العلم أي علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً . فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال . العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه الأشجار بعمقها ، فتحوله على قدر طعمها . فيزداد المرمرارة ، والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً ، والمتواضع تواضعاً . وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به ؟ فازداد كبراً . وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله ، فازداد علماً ، علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً ، وذلاً وتواضعاً .

فألم من أعظم ما يتكبر به . ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢)) وقال عز وجل (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ^(٣)) (ووصف أوليائه فقال (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١)) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فيما رواه العباس رضي الله عنه^(١) «يَكُونُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ إِنْ قَرَأْنَا قَرَأْنَا وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا» ثم التفت إلى أصحابه وقال «أُولَئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ أُولَئِكَ هُمْ وَقَوْمُ النَّارِ» . ولذلك قال عمر رضي الله عنه . لا تكونوا جبابرة العلماء . فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص ، فأبى أن يأذنه ، وقال له : إنه الذبح . واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم ، فقال . إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم ، فلما سلم من صلاته قال . لتلمسبن إماماً غيري ، أو لتصلن وحدانا ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن من أقرأنا الحديث :

ابن المبارك في الزهد والرقائق

(١) الشعراء : ٢١٥ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣)

فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة . فأعز على بسيط الأرض طالما يستحق أن يقال له عالم، ثم إنه لا يجره عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة، فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله . لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه ، رجاء أن تشملنا برحمته ، وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيماته، فأتى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول، قد انقضىوا فى القرن الأول ومن يليهم . بل يمز فى زماننا عالم مختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضا إمام مدموم وإمام عزير . ولو لا بشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مِّنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بَعْشَرٌ مَّا أَنتُمْ عَلَيْهِ نَجَاءً، لَكَانَ جَدِيرًا بِأَنْ تَقْتَحِمَ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرِطَةُ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ ، مَعَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِنَا . وَمِنْ لَنَا أَيْضًا بِالتَّمَسُّكِ بِبَعْشَرٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ؟ وَلِيَتَنَا عَسْكَرُ بَعْشَرٍ عَشْرُهُ، فَتَسْأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمْلَأَنَا عَاهُو أَهْلِهِ وَيُسْتَرِ عَلَيْنَا قِبَاحَ أَعْمَالِنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ كَرَمُهُ وَفَضْلُهُ

الثانى : العمل والعبادة . وليس يخلو عن رذيلة العز ، والكبر ، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد . ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا . أما فى الدنيا ، فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقمون قيام الناس بقضاء حوائجهم ، وتوقيدهم ، والتوسع لهم فى المجالس ، وذكرهم بالورع والتقوى ، وتقديعهم على سائر الناس فى الحظوظ ، إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين ، فهو أن يرى الناس هالكين ، ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا لما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم " إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُمْ هُمْ ، وَإِنَّا قَالُوكَ لَأَنْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُزْدَرٍ بِخَلْقِ اللَّهِ ، مُغْتَرِبٌ بِاللَّهِ ، آمِنٌ مِنْ مَكْرِهِ ، غَيْرُ خَائِفٍ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ لَا يَخَافُ وَيَكْفِيهِ شَرُّ اخْتِقَارِهِ لغيره . قال صلى الله عليه وسلم " كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْفَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، وَكَمْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ ، وَيُعْظِمُهُ لِعِبَادَتِهِ وَيُسْتَظِمُهُ ، وَيَرْجُو لَهُ مَا لَا يَرْجُوهُ لِنَفْسِهِ فَالْخَلْقُ يَدْرُكُونَ النِّجَاةَ بِتَعْظِيمِهِمْ إِيَادَةَ اللَّهِ ، فَهُمْ يَقْرَبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّنُومَةِ ، وَهُوَ يَتَمَقَّتْ إِلَى اللَّهِ بِالتَّزَرُّعِ وَالتَّبَاعَدِ مِنْهُمْ ، كَأَنَّهُ مَتَرَفِعٌ عَنْ مَجَالِسِهِمْ فَأَجْدَرُهُمْ إِذَا أَحْبَبَهُ

(١) حديث سياتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجاة أحمد من رواية رجل عن أبي ذر

(٢) حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم : مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث كفى بالمرء شرا أن يحفر أخاه المسلم : مسلم من حديث أبي هريرة . بلنظروا من الشر

فصلاحه ، أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل ، وما أجدره إذا أزدارهم بعينه ، أن ينقله الله إلى حد الإهمال ، كما روي أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليع بن إسرائيل ، لكثرة فساده مرّ برجل آخر يقال له عابده بن إسرائيل . وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به ، فقال الخليع في نفسه : أنا خليع بن إسرائيل ، وهذا عابده بن إسرائيل . فلو جلست إليه لعل الله يرحمي . فجلس إليه . فقال العابد : أنا عابده بن إسرائيل ، وهذا خليع بن إسرائيل ، فكيف يجلس إلي ؟ فأنف منه ، وقال له قم عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان ، مرهما فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحببت عمل العابد . وفي رواية أخرى ، فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يبرك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة الله ، وذل خوفه منه ، فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر ، والعابد المعجب . وكذلك روي أن رجلا في بني إسرائيل ، أتى عابدا من بني إسرائيل ، فوطى على رقبته وهو ساجد . فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألي على ، بل أنت لا يغفر الله لك . وكذلك قال الحسن . وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ، ويرى الفضل له ، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه . وهذه الآفة أيضا فلما ينفك عنها كثير من العباد هو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ ، استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك في أنه صار محقرا عند الله . ولو آذى مسلما آخر لم يستكر ذلك الاستنكار . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل ، وجمع بين الكبير ، والمعجب ، والاعتزاز بالله . وقد ينتهي الحق والنبوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجري عليه . وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله أراد به الإشفاء غلبه ، والانتقام له منه . مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ، قتلهم من قتلهم ، ومنهم من ضربهم ثم إن الله أهمل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة . ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين

(١) حديث الرجل من بني إسرائيل الذي وطى على رقبة عابده من بني إسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك - الحديث : أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي والله لا يغفر الله لك أبنا وهو ينير هذه السبابة وإسناده حسن

وأما الأكياس من العباد، فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي، ولومات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لبيهم لولا كوني فيهم. فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقى الله ظاهراً وباطناً، وهو وجل على نفسه، مزدور لعمله وسعيه، وذلك ربما يضمن من الرياء، والكبر، والحسد، والغلب، ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله، فقد أحبط بحبله جميع عمله. فإن الجبل أنفخ المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك روى أن رجلاً ذكر بحجر للنبي صلى الله عليه وسلم^(١) فأقبل ذات يوم، فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك. فقال «إني أرى في وجهه سفة من الشيطان» فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ؟»، قال اللهم نعم. فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله. لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه، يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه. وهذا قدر سيخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالسكينة

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله، بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه. وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خده للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه؛ ويقطب جبينه، كأنه متنزه عن الناس، مستدّر لهم، أو غضبان عليهم. وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصغر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) «التَّقْوَى هَهْنَا» وأشار إلى صدره. فقد كان رسول الله

(١) حديث أن رجلاً ذكر بحجر للنبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال إني أرى في وجهه سفة من الشيطان... الحديث: أحمد والبراز والناظر في قطبي من حديث أنس

(٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

صلى الله عليه وسلم^(١) أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبشيراً وانبساطاً ولذلك قال الحارث بن جزء الزيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعجبني من القراء كل طلق مضحك. فأما الذى تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس، يعن عليك بعلمه، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين^(٢))

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم، فأحوالهم أخف حالاً ممن هو فى الرتبة الثالثة، وهو الذى يظهر الكبر على لسانه، حتى يدعو إلى الدعوى، والمفاخرة، والمباهاة ونزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لقلبة الغير فى العلم والعمل أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثنى على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كنا وكذا ولا أنام الليل، وأختم القراءان فى كل يوم، وفلان ينام سحراً، ولا يكثر القراءة. وما يجرى مجراه. وقد يزكى نفسه ضمناً فيقول: قصدنى فلان بسوء فهلك ولده، وأخذماله، أو مرض أو ما يجرى مجراه، يدعى الكرامة لنفسه. وأما مباهاة، فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل، قام وصلى أكثر مما كان يصلى. وإن كانوا يصبرون على الجوع، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم. وكذلك يشتد فى العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه، أو أقوى منه فى دين الله. وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفان فى العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلاتا. ومن أنت؟ وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذى سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصنره ويمظم نفسه. وأما مباهاة فهو أنه يهتم فى المناظرة أن يغيب ولا يُغاب. ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل، كالمناظرة، والجدل وتحسين العبارة. وتسجيع الألفاظ. وحفظ العلوم القريبة ليغرب بها على الأقراء، ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها. فيظهر فضله وتقصان أثرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم

(١) حديث كان لأكرم الخلق وأتقاهم - الحديث: تقدم فى كتاب أخلاق النبوة

ليرد عليه ، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه
 فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل . وأين من يخلو من
 جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من للذي عرف هذه الأخلاق من نفسه ، وسمع
 قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ
 خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ » كيف يستعظم نفسه ، ويتكبر على غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول إنه من أهل النار . وإعنا العظيم من خلا عن هذا . ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم
 وتكبر . والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر نفسك قدرا
 فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ،
 ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

الثالث . التكبر بالحسب والنسب . فالذي له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك
 النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ، ويألف
 من مخالطتهم ومجالستهم . وتمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره يا بنطي ، ويا هندی ،
 ويا أرمني ، من أنت ؟ ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ، وأين لثلك أن يكلمني أو ينظر إلى أومع
 مثلي تتكلم ! وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس ، لا ينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا
 وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال . فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور
 بصيرته ، وترشح منه ، كما روى عن أبي ذر أنه قال : قال رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢)
 فقلت له يا ابن السوداء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا ذَرٍّ طَفُّ الصَّاعِ طَفُّ الصَّاعِ
 لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل
 قم فطأ على خدي ، فانظر كيف نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه
 ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم
 من تكبر عليه ، إذ عرف أن العز لا يقيمها إلا الذل . ومن ذلك ما روى أن رجلا تفاقرا

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر : تقدم

(٢) حديث أبي ذر قال قلت لرجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء . الحديث : البر الباركة
 في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فقلت لست
 بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى

عند النبي صلى الله عليه وسلم ،^(١) فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لأأم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلاً عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فخماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدرف بآنفها القذر »

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ؛ ويدعو ذلك إلى التنقص ، والثلب ، والغيبة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم ،^(٣) فقلت يدي هكذا ، أي إنها قصيرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد اغتبت بها » وهذا من شوه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكانها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة في جنب نفسها ، فقالت ما قالت

الخامس : الكبر بالمال . وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم ، وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين المتجملين في لباسهم ، وخبولهم ، ومراكبهم . فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكدر ومسكين ، وأنا لو أردت لا اشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك . ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأساس بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة . وكل ذلك لاستمظامه للغنى واستحقاره للفقير وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً^(١)) حتى أجابه فقال (إن ترنا أنا أقل منك مالا وولداً

(١) حديث ابن جريرين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت

لا أب لك - الحديث : عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه

أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط

(٢) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فخماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان - الحديث :

أبو داود والترمذي وحسنه وأبو حنبل من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا ، أي إنها قصيرة - الحديث :

تقدم في آفات اللسان

(١) الكهف : ٣٤

فَقَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا* أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا^(١) وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد . ثم بين الله عاقبة أمره بقوله (يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا^(٢)) .

ومن ذلك تكبر قارون ، إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(٣))

السادس : التكبر بالقوة وشدة البطش ، والتكبر به على أهل الضعف

السابع : التكبر بالأتباع ، والأنصار ، والتلامذة ، والعلماء ، وبالمشيخة ، والأقارب ، والبنين ويمجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين

وبالجملة فكل ما هو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن فى نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به . حتى أن الخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة الخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلا نكالا . وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والعلماء ، ويتكبر به ، لظنه أن ذلك كمال ، وإن كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده ، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعلم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه ، لظنه أنه هو الأعلم ، ولحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته ، إنه على كل شيء قدير

بيان

البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة . وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استمطام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير . وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالتكبر كما سيأتى معناه

(١) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ (٢) الكهف : ٤٢ (٣) القصص : ٧٩

فإنه إذا أعجب بنفسه ، وبعلمه ، وبعمله ، أو بشيء من أسبابه ، استعظم نفسه وتكبر .
وأما التكبر الظاهر ، فأسبابه ثلاثة . سبب في التكبر ، وسبب في المتكبر عليه ، وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذي في المتكبر ، فهو العجب . والذي يتعلق بالتكبر عليه ، هو الحقد والحسد . والذي يتعلق بغيرهما ، هو الرياء . فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . أما العجب ، فقد ذكرنا أنه يورث التكبر الباطن ، والتكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر . في الأعمال ، والأقوال والأحوال . . . وأما الحقد ، فإنه يحمل على التكبر من غير عجب ، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه ، فأورثه الغضب حقدا ، ورسخ في قلبه بغضه . فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له ، وإن كان عنده مستحقا للتواضع . فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ، أو بغضه له . ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ، وعلى الأنفة من قبول نصحه . وعلى أن يجتهد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه . فلا يتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به . . . وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود ، وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد . ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق ، حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم . فكم من جاهل يشاق إلى العلم ، وقد قى في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه ، حسدا وبغيا عليه ، فهو يعرض عنه ، ويتكبر عليه ، مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل عامه . ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .
وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى أن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه ، وليس بينه وبينه معرفة ، ولا محاسبة ، ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ، ولا يتواضع له في الاستفادة ، خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه . فيكون باعثة على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلاصه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب : أو الحسد ، أو الحقد ، فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معها ثالث . وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا ، وهو يعلم أنه كاذب . ثم يتكبر به على من ليس ينتمى إلى ذلك النسب ، ويرفع عليه في المجالس ، ويتقدم عليه في الطريق ، ولا يرضى بمساواته في البكرامة والتوقير ، وهو عالم

باطناً بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر فى باطنه ، لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب . ولكن بحمله
الرياء على أفعال المتكبرين . وكأن اسم المتكبر إنما يطلق فى الأكثر على من يفعل هذه الأفعال
عن كبر فى الباطن ، صادر عن العجب ، والنظر إلى الغير بعين الاحتقار . وهو إن سمي متكبراً
فلاجل التشبه بأفعال الكبر ، نسأل الله حسن التوفيق . والله تعالى أعلم

بيان

أخلاق المتواضعين ، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل ، كصعق وجهه ، ونظره شزراً ، وإطرافه رأسه
وجلوسته متربعا أو متكئاً . وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغته فى الإيراد . ويظهر فى
مشيته وتبخره ، وقيامه وجلوسه ، وحركانه وسكناته . وفى تعامله لأفعاله ، وفى سائر تقلباته
فى أحواله ، وأقواله ، وأعماله . فن التكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر فى بعض
ويتواضع فى بعض . فمنها التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله
وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فليتنظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام .
وقال أنس ^(١) لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم
يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء
لا يزال العبد يزاد من الله بعدما مامشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذا
كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فنعهم وقال ما يبق هذا من
قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب
فيأمرهم بالتقدم ، ويمشى فى غمارهم ، إما لتعليم غيره ، أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له
الحديث : تقدم فى آداب الصلوة وفى أخلاق النبوة

(٢) حديث كان فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس
من حديث أبى امامة بسند ضعيف جداً أنه خرج يمشى إلى البقيع فنهض أصحابه فوققه فأمرهم أن يتقدموا
ومشى خلفهم فسل عن ذلك فقال انى سمعت خفك نالكم فلشفت أن يقع فى نفسى شئ من التكبر
وهو منكرو فيه جماعة ضعفاء

والعجب ^(١) كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة ، وأبدله بالخلع ، لأحد هذين المعنيين . ومنها أن لا يزور غيره ، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين . وهو ضد التواضع . روى أن صفيان الثوري قدم الرملة . فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا . فجاء صفيان . فقيل له . يا أبا اسحق ، تبعث إليه بثل هذا ! فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه . . ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه ، إلا أن يجلس بين يديه . والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فس نخذى فخذى ، فنحيت نفسي عنه . فأخذ ثيابي فجرتني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلوني بي ما تفعلون بالجبابرة ؟ وإني لأعرف رجلا منكم شرا مني . وقال أنس ^(٢) كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت . . ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ، ويتحاشى عنهم وهو من الكبر ^(٣) دخل رجل وعليه جذرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فاجلس إلى أحد لإقام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوما ، ولا أبرص . ولا مبتلى إلا أقدم على مائدته . . ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف ، وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . قال أفأنبه الغلام ؟ فقال هي أول نومة نامها . فقام وأخذ البطة ، وملا المصباح زيتا . فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ! فقال ذهب وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص مني شيء . وخير الناس من كان عند الله متواضعا . . ومنها أن لا يأخذ متاعه ^(٤) ويحمله إلى بيته . وهو خلاف عادة المتواضعين . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال على كرم الله وجهه . لا ينقص الرجل الكامل

(١) حديث أخرجه الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخلع : قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك

الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنجارية وكلاهما تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث :

تقدم في آداب العيشة

(٣) حديث الرجل الذي به جذرى واجلسه إلى جنبه : تقدم قريبا

(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته : أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله : وتقدم

من كماله ما حمل من شىء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير ، يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك . وعن الأصمعي بن نباتة قال : كأننى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحافى يده اليسرى ، وفى يده اليمنى الدرة ، يدور فى الأسواق حتى دخل رحله ، وقال بعضهم . رأيت عليا رضى الله عنه قد انقضت لحابدرهم . فحمله فى ملحفته . فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، أبو العيال أحق أن يحمل

ومنها اللباس ، إذ يظهر به التكبر والتواضع . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَلْبَذَاةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » فقال هارون : سألت معناه عن البذاذة ، فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ، ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم . وعوتب على كرم الله وجهه فى إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ، ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام . جودة الثياب خيلاء فى القلب . وقال طاوس : إني لأغسل ثوبى هذين ، فأنكر قلبى ماداما تقيين ، ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها . فلما استخلف ، كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم . فيقول ما أجوده لولا لينه . فقليل له أين لباسك ، ومركبك ، وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إنلى نفسا ذوافة ، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تافت إلى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا ذافت الخلافة ، وهى أرفع الطباق ، تافت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد . صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس رأسه مليا ، ثم رفع رأسه فقال ، إن أفضل القصد عند الجدة ، وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ تَرَكَ زِينَةَ اللَّهِ وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِرَ لَهُ عَمَقَرِي الْجَنَّةِ »

(١) حديث البذاذة من الإيمان : أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم

(٢) حديث من ترك زينة الله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله - الحديث : أبو سعيد المالبني فى مسند الصوفية وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة الله - الحديث وفى اسناده نظر

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم ^(١) عن الجمال في الثياب ، هل هو من الكبر ؟ فقال : لا وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْخَلْقَ وَغَمِصَ النَّاسَ فَكَيْفَ طَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا ؟ . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال . وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) من حال ثابت ابن قيس ، إذ قال إني امرؤ جيب إلى من الجمال ما ترى ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب ، لا يتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر . كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجل إذا رآه الناس ، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته ، وحتى في سنور داره . فذلك ليس من التكبر .

فإذا انقسمت الأحوال . نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال . على أن قوله خيلاء القلب يعني قد تورث خيلاء في القلب . وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعني أن الكبر لا يوجب . ويجوز أن لا يوجب الكبر ، ثم يكون هو مورثا للكبر .

وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا ، والمحجوب الوسط من اللباس ، الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) : كَلُّوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا خِيَلَةٍ ^(٤) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَنْزَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وقال بكر بن عبد الله المزني : البسوا ثياب الملوكة ، وأميتوا قلوبكم بالخشية . وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري . البسوا ثياب الملوكة ، وأميتوا قلوبكم بالخشية

- (١) حديث سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال لا - الحديث : تقدم غير مرة
- (٢) حديث ابن ثابت بن قيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم إني امرؤ جيب إلى الجمال - الحديث : هو الذي قبله
- سعى فيه السائل وقد تقدم
- (٣) حديث كَلُّوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ اسْرَافٍ وَلَا خِيَلَةٍ : السائى وابن ماجه من روايه عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده
- (٤) حديث ان الله يحب أن يرى أنزَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ : الترمذى وحبينا من روايه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده
- أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه . فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى فى كتاب الغضب والحسد .
وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدرى : ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس ، والمشرى ، والمركب ، والمطعم ؟ فقال يا ابن أخى ، كل لله ، واشرب لله ، والبس لله . وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة ، فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة ^(١) ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يملف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النمل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشئ من السوق ، ولا يمنعه من الحياه أن يعلقه بيده ، أو يجعله فى طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير ، والكبير والصغير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير ، أسوداً وأحمره ، حرأوعبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى ، وإن كان أشمت أغبر ، ولا يحقر مادعى إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الدقل . لا يرفع غداءه لعشاء ، ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسام من غير ضحك ، محزون من غير عبوس ، شديد فى غير عنف ، متواضع فى غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق لم يشتم قط من شيع ، ولا يمد يده من طمع . قال أبو سلمة . فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر ، إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ، ولم يبت إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأجيب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعاً يلتوى ليلته حتى يصبح ، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه . ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بسكنوز

(١) حديث أبي سعيد الخدرى وعائشة قال الخدرى لأبي سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يملف الناضح - الحديث : وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً الحديث : بطوله لم أقف له ما على اسناد

الأرض ونغارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها افعل . وربنا بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع ، فأمسح بطنه يدي ، وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما بقوتك ويمنحك من الجوع ؟ فيقول يا عائشة ، إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، وقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجذنى استحي إن ترفهت فى معيشتى ، أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شئ أحب إلى من اللحق بإخوانى وأخلائى . قالت عائشة رضى الله عنها . فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل . فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن يطلب التواضع فليقتد به . ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فكلنا نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بداذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن الله عبادا يقال لهم الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض . فلما انقضت النبوة . أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله ، بصبر من غير تجبن ، وتواضع فى غير مذلة . وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، أو ثلاثون رجلا ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من خلفه واعلم يا أختي أنهم لا يلعنون شيئا ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتطاولون عليه ، ولا يحسدون أحدا ، ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا ، وألينهم عريكة ، وأسخام نفسا . علامتهم السخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة . ليسوا اليوم فى خشية ، وغد فى غفلة . ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيها بينهم وبين ربهم لا تذكركم الرياح العواصف ، ولا الخليل المجرأة . فلو بهم تصمدارتياحا إلى الله ، واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات . أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون .

قال الراوى: فقلت يا أبا الدرداء ، ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة ، وكيف لى أن أبلغها؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا . فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة . وبقدر حبك للآخرة تزهى فى الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة . واعلم يا ابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ بِمُحْسِنُونَ ^(١)) قال يحيى بن كثير . فنظرنا فى ذلك ، فما تلهذه التلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محب المحبين لك يارب العالمين ، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضىته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بيان

الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات . ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه . وإزالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القائمة له . وفى معالجته مقامان أحدهما: استئصال أصله من سنخه ، وقلع شجرته من مغرسها فى القلب
الثانى : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره
المقام الأول : فى استئصال أصله . وعلاجه علمى وعملى . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعها . أما العلمى ، فهو أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر . فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، وأقل من كل قليل . وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة . وإذا عرف ربه ، علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله

أما معرفته ربه وعظمته ومجده ، فالقول فيه بطول ، وهو منتهى علم المكاشفة وأما معرفته نفسه ، فهو أيضا بطول ، ولسكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والمذلة . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله ، فإن فى القوامات علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته . وقد قال تعالى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ^(١) فقد
 لَشَارَهِ الْآيَةِ إِلَى أَوَّلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وإلى آخِرِ أَمْرِهِ ، وإلى وسطِهِ . فليُنظر الإنسان ذلك
 ليفهم معنى هذه الآية . أما لَوَلِ الْإِنْسَانِ فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ وقد كان في حيز العدم
 دهوراً ، بل لم يكن لعدمه أول . وأى شيء أخس وأقل من المحو والعدم ؟ وقد كان كذلك
 في القدم . ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أفذرها ، إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من
 علقه ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظماً ، ثم كسا العظم لحماً . فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان
 شيئاً مذكوراً . فإصار شيئاً مذكوراً إلهو هو على أخس الأوصاف والنعوت ، إذ لم يخلق
 في ابتدائه كاملاً ، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يحس ، ولا يتحرك ولا ينطق
 ولا يبطش ، ولا يدرك ولا يعلم . فبدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل
 علمه ، وبماه قبل بصره ، وبصممه قبل سميحه ، وببيكمه قبل نطقه ، وبضلالاته قبل هدايه ،
 وبفقره قبل غناه ، وبمجزه قبل قدرته ، فهذا معنى قوله (مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ
 خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ^(٢)) . ومعنى قوله (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً
 مَذْكُوراً *) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ^(٣) كذلك خلقه أولاً . ثم امتن عليه
 فقال (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ ^(٤)) وهذا إشارة إلى ما ييسره له في مدة حياته إلى الموت . وكذلك
 قال (مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً *) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً
 وَإِمَّا كَفُوراً ^(٥) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً ، تراباً أولاً ، ونطفة ثانياً ، وأسمه بعد
 ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق
 له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع
 وكساه بعد العرى ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره ، وإلى السبيل كيف يسره
 وإلى طغيان الإنسان ما كفره ، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال (أَوَلَمْ يَرِ
 الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ^(٦) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ
 ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ ^(٧)) . فانظر إلى نعمة الله عليه ، كيف يخلق من تلك الذلة ، والقلّة
 والخساسة والقدارة ، إلى هذه الرفعة والكرامة ، فإصار موجوداً بعد العدم ، وحيّاً بعد الموت

وغيثا بعد الفقر . فكان فى ذاته لاشئ ، وأى شئ أخس من لاشئ ، وأى قلة أقل من العدم المحض ، ثم صار بالله شيئاً . وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالأقدام ، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً ، ليعرفه خسة ذاته ، فيعرف به نفسه ، وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمتها وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلاه . ولذلك امتن عليه فقال (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا * وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(١)) وعرف خسته أولاً فقال (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ^(٢)) ثم ذكر مته عليه فقال (فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ^(٣)) ليدوم وجوده بالتناسل ، كما حصل وجوده أولاً بالاختراع

فمن كان هذا بداءه ، وهذه أحواله ، فمن أين له البطر والكبرياء ، والفخر والجلال ، وهو على التحقيق أخس الأخصاء ، وأضعف الضعفاء ! ولكن هذه عادة الخسيس ، إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطفى ؛ رينسى المبدأ والنتهى ، ولكنه سلب عليه فى درام وجوده الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطباع المتضادة من المرة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، أم سخط ، فيجوع كرها ، ويمطش كرها ويمرض كرها ، ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا خيراً ولا شراً ، يريد أن يعلم الشئ فيجهله ، ويريد أن يذكر الشئ فينساه ، ويريد أن ينسى الشئ ويفعل عنه فلا يفعل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول فى أودية الوسواس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشئ وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشئ وربما تكون حياته فيه . يستلذ الأطعمة ويهلك وترده ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحبسه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ، ويختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه فى دياره فهو مضطرب ذليل ، إن ترك بقى ، وإن اختطف نفى . عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ، ولا شئ من غيره . فأبى شئ أدل منه . لو عرف نفسه وأبى يليق الكبر به لولا جهله . فهذا الوسط أحواله فليتامه

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١٠) ومعناه أنه يسلب روحه، وسمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسه، وإدراكه وحركته، فيعود جثاذا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حس فيه ولا حركة. ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قدرة، كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويصير رميا رفانا، ويأكل البود أجزاءه فيبتلى، ويحرقه فيقلعها، ويحجده فيقطعها، وبسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف اللبدين، ويكون حقيقة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الاتقان. وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان، ويمر منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا، وصار كأن لم يكن بالأمس حصيدا، كما كان في أول أمره أمدا منيدا. وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو ترك ترابا. لا بل يحجيه بعد طويان البلى اليقاسى شديد البلاء، فيخرج من قبره يعدج أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أحوال القيامة، فينتظر إلى قيامة قاعة، وسماء مشقة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة ونجوم منكذرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظامة، وملائكة غلاظ شداد، وجنهم ترقق وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر. ويرى صحائف منشورة، فيقال له اقرأ كتابك، فيقول وما هو؟ فيقال كان قد وكل بك في حياتك. التي كنت تفرح بها، وتكبر بنعيمها، وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيان، يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله، من قليل وكثير، وتقر وقطير، وأكل وشرب، وقيام وقعود. قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك. فلم إلى الحساب، واستعد للجواب. أو تساق إلى دار العذاب. فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب، فيل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه. فإذا شاهده قال: يا ويلتنا، ما لهذا الكتاب لا يتأدر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) (١١). قال لمن هذا حاله والتكبر والتعظم، بل ماله وللفرح في لحظة واحدة، فضلا عن البطر والأشر، فقد ظهر له أول حاله، ووسطه، ولو ظهر آخره والعباد بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا، ليصير مع اليهايم ترابا، ولا يكون إنسانا.

يسمع خطابا ، أو يلقى عذابا . وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب ، وآخره التراب ، وهو يعزل عن الحساب والعذاب . والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ، ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته ، وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لما توا من نذنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يستقى منه فى بحار الدنيا لسارت أنثى من الجيفة . فمن هذا حاله فى العاقبة ، إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ، كيف يفرح وييطر ، وكيف يتكبر ويتجبر ، وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا . وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة ؟ إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ، ويجبر الكسر عنه . والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ، ولا قوة إلا بالله . أريت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنائته ضرب ألف سوط ، فحبس فى السجن . وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض ، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدري أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ وما من عبد مذنّب إلا والدنيا سجنه ، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ، ولا يدري كيف يكون آخر أمره . فيكفيه ذلك حزنا ، وخوفا ، وإشفاقا ، ومهانة ، وذلا . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر . وأما العلاج العلمى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ مِمَّا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » . وقيل لسامان لم لا تبلس ثوبا جديدا ؟ فقال : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا . أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جيما ، وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا . ومن جعلها مافيهما من التواضع بالمثل قائما ، وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأتفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكسر رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام

(١) حدثت كان يأكل على الأرض ويقول إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ مِمَّا يَأْكُلُ الْعَبْدُ : تقدم فى آداب المعيشة

(١) يايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لاأخراً إلا قائماً ، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل إيمانه بعد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعف ، أمروا به لتكسر بذلك خيالهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع في قلوبهم . وبه أمروا بالخلق فإن الركوع ، والسجود ، والمثول قائماً ، هو العمل الذي يقتضيه التواضع . فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال ، فليواظب على تقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقاً ، فإن القلوب لا تتخلى بالأخلاق الحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً ، وذلك خلفاء الملافة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت المقام الثاني : فما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة . وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل . فأما ما عداها مما يفنى بالموت فكمال وهمي . فمن هذا يمسر على العالم أن لا يتكبر ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة الأولى : النسب ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل

لئن نفرت بأبائك ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بنس ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ! بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول : الفضل لي ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولي . أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيئات ، بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة

الثاني : أن يعرف نسبه الحقيقي ، فيعرف أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قيذرة وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (١)) فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ، ثم حمر طينه حتى صار حامسناً ، كيف يتكبر

(١) حديث حكيم بن حزام يايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لاأخراً إلا قائماً - الحديث : رواه

أحمد مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي

وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال : يأذل من التراب ، ويأنتن من الحمأة ، ويأفذر من المضغة . فإن كان كونه من أيه أقرب من كونه من التراب ، فنقول افتخر بالقرب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه ، فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعتة ؟ وإذا لم يكن له رفعة ، فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذا أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب . فالأصل بوطاً بالأقدام ، والفصل تفصل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان . ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله ، كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم ، وقد أخبره بذلك والده فلم يزل فيه نحوه الشرف ، فينما هو كذلك إذا أخبره عدول لا يشك في قولهم ، أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبس عليه ، فلم يبق له شك في صدقهم أفترى أن ذلك يبق شيئاً من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم . فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة ، والمضغة ، والتراب . إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب ، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها ، لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أيه للتراب والدم . فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو في نفسه .

السبب الثانى : التكبر بالجمال . ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يقدر عليه تعززه بالجمال ، فإنه وكل به الأقدار فى جميع أجزائه ، الرجيع فى أمعائه ، والبول فى مثانته ، والمخاط فى أنفه ، والبزاق فى فيه ، والوبسخ فى أذنيه ، والدم فى عروقه ، والصديد تحت بشرته . والصنان تحت إبطه ، يغسل الفائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره ، فضلاً عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليصرف قذارته وذله . هذا فى حال توسطه . وفى أول أمره خلق من الأقدار الشبهة الممودة ، من النطفة ، ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقدار ، إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ، ثم من الرحم مبيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى القدر

قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقول : خذوا من أنفسنا ويقول : خذوا من أنفسكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من في بطنه خرة . إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه . ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعدها بالتنظيف والنسل ، لثارت منه الأتتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهمة التي لا تتعده نفسها قط

فإذا نظر أنه خلق من أقذار ، وأسكن في أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار ، لم يفتخر بجماله الذي هو نخضرء الدمن ، وكلون الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيما تذروه الرياح . كيف ولو كان جماله باقيا ، وعن هذه القبائح خاليا ، لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبيح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمد عليه . كيف ولا بقاء له ، بل هو في كل حين يتصور أن يزول عرض ، أو جدري ، أو قرحة ، أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء التكبر بالجمال لمن أكثر تأملها السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى . ويعتبه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من الملل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل حاجز ، وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه . وأن بقعة لو دخلت في أنفه ، أو غلغلة دخلت في أذنه لقتلته . وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . وأن حمى يوم تحال من قوته مالا ينجير في مدة . فن لا يطيق شوكة ، ولا يقاوم بقعة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته . ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار ، أو بقرة أو فيل ، أو جل . وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم

السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال . وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر بولاية السلاطين ، والتمكن من جهنهم . وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع التكبر . فإن المتكبر بجماله كأنه متكبر بفرسه وداره : ولومات فرسه وأنه دمت داره لعاد ذليلا . والمتكبر بتكبير السلطان وولايته لا بصفة في نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غلانا من القدر . فإن تغير عليه كان أذل الخلق .

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل . كيف والمتكبر بالفتى لو تأمل
 رأى فى اليهود من يزيد عليه فى الفنى والثروة والتجمل . فأف لشرف يسبقك به اليهودى
 وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة ، فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً . فهذه أسباب
 ليست فى ذاته . وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو فى الآخرة وبال ونكال
 فالتفاخر به غاية الجهل . وكل ما ليس إليك فليس لك . وشيء من هذه الأمور ليس إليك
 بل إلى واهبه ، إن أبقاه لك ، وإن استرجعه زال عنك . وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر
 على شيء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره . ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله
 وماله ، وحريته ، واستقلاله ، وسعة منازله ، وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان
 عدلان عند حاكم منصف ، بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم
 به الحاكم ، فجاء مالكة فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به
 لتفريطه فى أمواله ، وتقصيره فى طلب مالكة ليعرف أن له مالكة ، ثم نظر العبد فرأى
 نفسه محبوساً فى منزل ، قد أحقت به الحيات والعقارب والهموم ، وهو فى كل حال على
 وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف طريقاً فى الخلاص
 أبته . أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته ، وثروته ، وقوته ، وكماله ؟ أم تذلل نفسه
 ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير . فإنه يرى نفسه كذلك ، فلا يملك رقبته ، وبدنه
 وأعضائه ، وماله ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات ، وأمراض ، وأسقام ، هي كالعقارب
 والحيات ، يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته ، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة
 فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم
 والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع
 من الجهل خفى كما سنذكره

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعد ما عن قبول
 العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جيهيد . وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند
 الناس . وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما . بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل

ولذلك قال كعب الأحبار : إن للعلم طنينا كطنيان المال . وكذلك قال عمر رضي الله عنه : العالم إذ زلزل بزلته عالم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بعرفة أمرين ، أحدهما : أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لم يحتمل غيره من العالم . فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنايته أخش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَا فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَمْرُ بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيَهُ » وقدمثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل (مَثَلُ الَّذِينَ يُحْمَلُوا النَّارَ فِيهَا كَتُبٌ مُرْسَاهٌ لَمْ يَقْضُوا شَيْئًا وَمَا يَشْعُرُونَ) (٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوتي بلعم كئابا ، فأخلد إلى شهوات الأرض ، أي سكن حبه إليها ، فثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته

ويكفي العالم هذا الخطر . فأى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه ؟ فبها خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل ، فليتكفر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه . فإنه إذا أخذ وقهر انتهى أن يكون قد كان فقيرا . فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه

فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه - الحديث : متفق عليه من حديث أسامة

ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم في العلم

(٢) الجمه : ٥ (٢ ، ٣) الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أمى . وبأخذ الآخرة تبنة من الأرض ويقول :
يا ليتنى كنت هذه التبنة . ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أو كل . ويقول الآخر : ليتنى
لم أكن شيئا مذكورا . كل ذلك خوفا من خطر العقاب . فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من
الطير ومن التراب ، ومنها أطال فكره فى الخطر الذى هو بصده زال بالسكينة كبره ،
ورأى نفسه كأنه شر الخلق ، ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها ، فترك بعضها
وأدخل التقصان فى بعضها ، وشك فى بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا . فأخبره
نخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج من كل ما هو فيه عربانا ذليلا ، ويلقيه على باب فى الحر
والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر ، وبلغ به الجهد ، أمر برفع حسابه ، وقتل
عن جميع أعماله قليلا وكثيرها ، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروح عنه ساعة
وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك ، وعفا عن بعضهم ، وهو لا يدري
من أى الفريقين يكون . فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل ، وبطل عزه وكبره ،
وظهر حزنه وخوفه ، ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من
شفاعته عند نزول العذاب . فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامره ، ببخايات على
جوارحه ، وبذنوب فى باطنه من الرياء ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والنفاق وغيره ،
وعلم مما هو بصده من الخطر العظيم ، فارقه كبره لالحالة

الأمر الثانى : أن العالم يعرف أن التكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا
تكبر صار مموتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وقال له إن لك عندي
قدرا ما لم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي . فلا بد وأن يكلف
نفسه ما يحبه مولاه منه ، وهذا يزبل التكبر عن قلبه ، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا
أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى
فى رداء الكبرياء قصمه . وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محملهم . فهذا
أيضا مما يبعث على التواضع لالحالة

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم
وهو عالم عابد ، وكيف يجمل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يعنيه أن يخطر بباله

خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟
 فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة . بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر
 عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر ، فيختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ، فيختم له بالكفر
 والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكاتب والتحزير أعلى رتبة ممن هو عند الله
 من أهل النار وهو لا يدري ذلك . فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه ،
 فاستحققه وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده
 فالمواقب مطوية عن العباد ، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة . وجميع الفضائل في الدنيا تتراد للعاقبة
 فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال . هذا عصي الله
 بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر مني : وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم ، فكيف
 أكون مثله . وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال . هذا قد أطاع الله قبلي ، فكيف
 أكون مثله . وإن نظر إلى صغير قال . إني عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله . وإن نظر
 إلى مبتدع أو كافر قال . ما يدريني لعله يحتم له بالإسلام ، ويحتم لي بما هو عليه الآن ، فليس
 دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداؤها إلى . فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي التكبر عن
 نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله ، لا فيما يظهر في
 الدنيا مما لا بقاء له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه . ولكن حق على
 كل واحد أن يكون مصروف الهممة إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته . لأن يشتغل
 بخوف غيره . فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس
 جماعة في جنسية ، ووعدا بأن تضرب رقابهم ، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ،
 إذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره
 فإن قلت . فكيف أنقض المبتدع في الله ، وأنقض الفاسق ، وقد أمرت بنقضهما ، ثم
 مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متنافض .

فاعلم أن هذا أمر مشبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة
 والفسق بكبر النفس ، والإدلال بالعلم والورع . فكم من عابد جاهل ، وعالم مغرور ، وإذ رأى
 فاسقا جلس بجانبه أزجه من عنده ، وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه ، وهو ظان أنه قد غضب لله

كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم . وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحد من منه ممكن . والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله ، وهو خير . فإن الغضب ان أيضا يتكبر على من غضب عليه ، والتكبر يغضب . وأحدهما يشر الآخر ويوجهه ، وهما متميزان ملتبان لا يعز بينهما إلا الموفقون . والذي يخلصك من هذا ، أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق ، أو عند أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ثلاثة أمور . أحدها : التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ، ليصغر عند ذلك قدرك في عينك ، والثانى : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم ، واعتقاد الحق ، والعمل الصالح ، من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لآلك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر ، والثالث : ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته ، أنه ربما يحتم لك بالسوء ويحتم له بالحسنى ، حتى يشغل الخوف عن التكبر عليه

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك . أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول إذا كان للملك غلام وولد هو قرعة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه ، فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه ، فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء لأدب . وإنما يغضب عليه لمولاه ، ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه ، من غير تكبر عليه . بل هو متواضع له ، يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام ، فإذا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع : فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل ، وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر بحبة لمولاك ، إذ جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة .

فهكذا يكون بعض العلماء والأكياس، فينضم إليهم الخوف والتواضع. وأما الغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره، مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة. وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كمن كان، لما عيرفه من فضيلة العلم. وقد قال تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١)) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى لَدُنِّي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم. فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه، وهذا عالم فاجر، فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكأن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن. وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك. وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه، لم يحزله أن يحتقر عالما، بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد، لقوله عليه السلام « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى لَدُنِّي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق، لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم، وقد مقتته به. وإذا كان هذا ممكنا، كان على نفسه خائفا. فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف. وفي حق غيره الرجاء. وذلك يمنع من التكبر بكل حال. فهذا حال العابد مع العالم.

فأما مع غير العالم، فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين. فينبغي أن لا يتكبر

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي؛ الترمذي من حديث أبي أمامة وقد تقدم في العلم

على المستور فلمله أقل منه ذنوبا ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حبا لله . وأما المكشوفه حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تريد عليه ذنوبك فى طول عمرك ، فلا ينبغي أن تتكبر عليه . ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك ، وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل ، والشرب ، والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ، إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة فى صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله . فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا . وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم : ما أنت خال عنه . وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإحتمال البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك . فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف فى حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك . فإذا تفكرت فى هذا الخطر ، كان عندك شغل شاغل عن التكبر ، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك . وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال : فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ، بها ساد محبده وبها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وإنما الناس عنده فرقان فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . إن رأى من هو خير منه سره ذلك ، وتغنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفا من العقوبة . ويقول لعل بر هذا باطن ، فذلك خير له ، ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال . ويرى ظاهر فذلك شرى ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . ثم قال : فيثبت كمل عقله : وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فن جو زان يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته . فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال . نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه . وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا أدى إلى جبل

فقليل له في النوم أنت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب فيتصدق ببعضه ، ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول : إن هذا لحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله ، فأتى في النوم ثانيا فقليل له . أنت فلانا الإسكاف فقل له ما هذا الصغار الذي بوجهك . فأتاه فسأله فقال له . مارأيت أحدا من الناس إلا وقع على أنه سينجو وأهلك أنا . فقال العابد بهذه . والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ^(١)) أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ^(٢)) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ^(٣)) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ، مع تقدسهم عن الذنوب ، ومواظبتهم على العبادات ، على الدوب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ^(٤)) (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ^(٥)) فتنى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل ، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر ، وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن ، والأمن سهل . والتواضع دليل الخوف ، وهو مسعد . فإذا نسي ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، والنظر إليهم بعين الاستصغار ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال .

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير . إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمن التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة . فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ، ونسيت وعدما فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في مداواة مجرد المعرفة ، بل ينبغي أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس . ويانه أن يمتحن النفس بخمسة امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن ، وإن كانت الامتحانات كثيرة

الامتحان الأول : أن ينظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه ، فثقل عليه قبوله ، والالتقياد له ، والاعتراف به ، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دينا ، فليتيق الله فيه ويستغل بملاجه

(١) المؤمنون : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٥٧ (٣) الطور : ٢٩ (٤) الأنبياء : ٢٠ (٥) الأنبياء : ٢٨

أما من حيث العلم فإن يذكر نفسه خسة نفسه ، وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فإن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه ، فجزاك الله خيرا كما نهى له ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا اضطرب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيه ، ففيه كبر . فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ، ويثقل عليه في الملاء ، فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء ؛ فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعمته في كماله في ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه في الخلوة والملاء جميعاً ، ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثانى ، فليعالج كلا الداءين ، فإنهما جميعاً مهلكان

الامتحان الثانى . أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً ، حتى يسقط عنه ثقله . فبذلك يرايه الكبر . ومهنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخفف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ، ويجلس بينهم بمنهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر . فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جزيل فتقو النفس عنها ليس إلا خبث في الباطن ، فليشتغل بإزالتها بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر .

الامتحان الرابع . أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يشغل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر . وإن كان لا يشغل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء . وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تتدارك . وقد أهمل الناس طب القلوب ، واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها ، إذ قال تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(١)) . ويروى عن عبد الله بن سلام ، أنه حمل حزمة حطب ، فقبل له يا أبا يوسف ، قد كان في غلمانك وبناتك ما يكفيك . قال أجل ، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك . فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأثرة ، حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة وفي الخبر^(٢) « مَنْ حَمَلَ الْفَاكِهَةَ أَوْ الشَّيْءَ فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الْكِبَرِ » .

الامتحان الخامس . أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن تقور النفس عن ذلك في الملاذرياء ، وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، له مسح يلبسه بالليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم^(٣) « مَنْ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبَسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الْكِبَرِ » وقال عليه السلام^(٣) « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَالْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْفِلُ الْبَعِيرَ وَالنَّقْصُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ قَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عبادة فصلى فيها بالناس .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فليختص بالملاذرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

(١) حديث من حمل الشيء والفاكهة فقد برى . من السبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته

(٢) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى . من السبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة في إسناد القاسم البعري ضعيف جداً

(٣) حديث إنما أنا عبد آكل بالأرض واللبس الصوف - الحديث : تقدم بعينه ولم أجده بغيره .

بيان

غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة . فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس . فإن كلا طرفى الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوسطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنتجى له عن مجلسه ، وأجلسه فيه ، ثم تقدم وسوى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه ، فقد تخاسس وتذلل . وهذا أيضا غير محمود . بل المحمود عند الله العدل . وهو أن يعطى كل ذى حق حقه . فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته . فأما تواضعه للسوق قبل القيام ، والبشر فى الكلام ، والرفق فى السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعى فى حاجته ، وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره . فلا يحقره ، ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

فإذا سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولن دونهم ، حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ، ليزول به الكبر عنه . فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع . وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع . بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ، ومن غير روية . فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره ، حتى أحب التملق والتخاسس ، فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن من أن تذلل نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر . كما أن الميل إلى طرف التهذير فى المال أحمَد عند الناس من الميل إلى طرف البخل . فنهاية التهذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أخس

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذهباً ، وأحدهما أقيح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة . ولنتقصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

الشرط الثاني من الكتاب

في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال ، وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب ، وتفصيل علاجه

بيان

ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً^(١)) ذكر ذلك في معرض الإنكار . وقال عز وجل (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْمُهُمْ خُصُوفُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّا هُمُ مِّنْ حَيْثُ لَمْ يُحْسِبُوا^(٢)) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى (وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً^(٣)) وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطيء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم^(١) « ثَلَاثٌ مُّهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُّطَاعٌ وَهَوًى مُّتَّبَعٌ وَإِعْجَابٌ ائْتَرَهُ بِنَفْسِهِ » وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال^(٢) « إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُّطَاعًا وَهَوًى مُّتَّبَعًا وَإِعْجَابًا كُلٌّ ذِي رَأْيٍ يَرَاهُ فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ »

(١) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي ثعلبة إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفك: أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم

(١) التوبة : ٢٥ (٢) الحشر : ٢ (٣) الكهف : ٤٠١

وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنتين : القنوط والمعجب : وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي ، والطلب ، والجد ، والتشمير . والقناط لا يسعى ، ولا يطلب . والمعجب يمتد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالوجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب . والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب ، حاصلة له ، ومستحيلة فى اعتقاد القناط . فن هنا جمع بينهما وقد قال تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)^(١) قال ابن جريج . معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم : لا تبروها ، أى لا تعتقدوا أنها بارة ، وهو معنى المعجب ، ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه . فكأنه أعجبه فعله العظيم ، إذ فداه بروحه حتى جرح . فتفرس ذلك عمر فيه فقال : ما زال يعرف فى طلحة نأ ومنذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنأ هو المعجب فى اللغة ، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما . ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس . أين أنت من طلحة ؟ قال ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من المعجب أمثالهم ، فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم !

وقال مطرف : لأن أبيت نائما ، وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما ، وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم^(٣) « كَوَيْلٌ لِمَنْ تَدْبِيرُوا لِحَاشَتِ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْمُعْجَبُ » فجعل المعجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذ رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ، لموانبته على العبادة . فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر . ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبك ما رأيت منى . فإن ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ، ثم صار إلى ما صار إليه .

(١) حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وأدكب عليه حتى أصيبت كفه : البخارى من رواية

فيس بن أبي حارم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) حديث لولم تدبوا الحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى

فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى مكر الحديث وقال

أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد

بسند ضعيف جدا

وقيل لما شئ رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت إذا ظن أنه محسن . وقد قال تعالى (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ^(١)) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً

بيان

آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة . فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى . هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدوها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينسأها . وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه . بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمى عن آفات . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائماً فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإعنا يتفقد من يقلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب . والمعجب يفتقر بنفسه وبرأيه ، ويؤمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه ، وعطية من عطايه . ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها . وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ، ويستكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصيح ناصح ، ولا وعظ واعظ . بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه . فإن كان رأيه في أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان في أمر ديني لاسيما فيما يتق بأصول المقائد فيهلك به . ولو آتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب

(١) البقرة : ٢٦٤

على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آيات للمعجب . فلذلك كان من المهلكات . ومن أعظم آياته أن يفتّر في السعى لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه ، نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

بيان

حقيقة العجب والإدلال وخدمتهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال ، وغيره حالتان : إحداهما : أن يكون خائفا على زواله ، ومشققا على تكدره أو سلبه من أصله . فهذا ليس بمعجب . والأخرى : أن لا يكون خائفا من زواله ، لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه . وهذا أيضا ليس بمعجب . وله حالة ثالثة هى العجب ، وهى أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحاً بمطعمنا إليه ، ويكون فرحاً به من حيث إنه كمال ، ونعمة ، وخير ، ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه . فيكون فرحاً به من حيث إنه صفة ، ومنسوب إليه بأنه له . لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه . فهم أغلب على قلبه أنه نعمة من الله ، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استعظام النعمة ، والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى النعم . فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه ، استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق ، سعى هذا إدلالا بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويعين عليه ، فيكون معجبا . فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه . وقال قتادة فى قوله تعالى (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ^(١)) أى لا تدل بعملك . وفى الخبر ^(٢) « إِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلَا أَنْ يَضَعَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِدُنْيِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْسُكِي وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ »

(١) الحديث أن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه - الحديث : لم أجده أصلا

١. والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب . ورب معجب لا يدل . إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقع جزاء عليه . والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته ، واستنكر ردها بباطنه ، وتعجب منه ، كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتمعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتمعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال ، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم

بيان

علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل آفة هو مقابلة سببها بضده . وعلّة العجب الجهل المحض ، فمعالجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فقط . فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد ، كالعبادة والصدقة ، والغزو ، وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة ، والنسب ، وما لا يدخل تحت اختياره ، ولا يراه من نفسه فنقول

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب ، إنما يعجب به من حيث إنه فيه ، فهو محله ومجراه . أو من حيث إنه منه وبسببه ، وبقدرته وقوته . فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه ، وهو محله ومجراه ، يجري فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل . لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والنحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ! وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه ، وباختياره حصل ، وبقدرته تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته ، وإرادته ، وأعضائه ، وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه ، من غير حق سبق له ، ومن غير وسيلة يدلى بها ، فينبغي أن يكون إعجابه بحمود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق . وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فهما برز الملك لغلمانه ، ونظر إليهم ، وخلع من جملتهم على واحد منهم ، لالصفة فيه ، ولا لوسيلة ، ولا لجمال ، ولا لخدمة ، فينبغي أن يتمعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه ، وإشاره من غير استحقاق . وإعجابه بنفسه من أين وما سببه . ولا يبغي أن يعجب هو بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول . الملك حكيم عادل

لا يظلم ، ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلو لا أنه تقطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة ، لما اقتضى الإيثار بالخلعة ، ولما آثرنى بها . فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته ، التى خصصك بها من غيرك من غير وسيلة . أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا ، لم يكن لك أن تعجب بها . بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له . فيقال وهو الذى أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا ، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر . فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك وأما إن كانت تلك الصفة من غيره ، فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة . وهذا يتصور فى حق الملوك ، ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة . فإنك إن أعجبت بعبادتك ، وقلت وقفتى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فستقول هو . فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بمجوده ، إذ أنم بوجودك ووجود صفاتك ، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بملئه ، وعجب الجليل بجلاله ، وعجب الثنى بثناءه ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده . فإن قلت : لا يمكننى أن أجعل أعمالى ، وأنى أنا صملت ، فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عمل لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب . وإن كانت الأعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها فأعلم أن جوابك من وجهين . أحدهما هو صريح الحق ، والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك ، وإرادتك وحركتك ، وجميع ذلك من خلق الله واختراعه . فما صملت إذ عملت ، وما صليت إذ صليت ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى . فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب ؛ بمشاهدة أوضح من أبصار العين . بل خلقك وخلق أعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك

الإرادة . ولو أروت . أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في
 في أعضائك ، مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع ، إلا أنه خلقه
 على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في المصنوعة ، وفي القلب إرادة . ولم يخلق إرادة
 ما لم يخلق لها بالمراد . ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم . فتدريج في
 الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك ، وقد غلطت . وإيضاح ذلك
 وكيفية القواب على عمل هو من خلق الله ، سيأتي تقريره في كتاب الشكر ، فإنه أليق به ، فارجع إليه
 ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني ، الذي فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن
 العمل حصل بقدرتك . فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ، ووجود عملك
 وإرادتك ، وقدرتك ، وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك . فإن كان العمل
 بالقدرة ، فالقدرة مفتاحه . وهذا المفتاح بيد الله . ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل
 فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهي
 بيد الله لا محالة . أرايت لورايت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ، ومفتاحها بيد خازن
 ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى ديار ممافيها ولو أعطاك
 المفتاح لأخذته من قريب ، بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط . فإذا أعطاك الخازن المفاتيح
 وسلطك عليها ، وممكنك منها ، فمدت يدك وأخذتها ، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح
 أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ، لأن المؤنة
 في تحريك اليد بأخذ المال قريبة . وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح : فكذلك مهما خلقت
 القدرة وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعي والبواعث ، وصرف عنك الموانع
 والمصارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك ، فالعمل هين عليك
 وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها إليك
 فمن المعجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تفجب بجموده وفضله
 وكرمه في إشارته إليك على الفساد من عباده ، إذ سلط دواعي الفساد على الفساد ، وصرفها
 عنك ، وسلط أصدقاء السوء ودعاة الشر عليهم ، وصرفهم عنك ، ومنعكهم من أسباب
 الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه ، وسلطها عليك

حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر . فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا بجزية سابقة من الفاسق العاصى . بل آثرك ، وقدمك ، واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصى ، وأشقاه بعده . فما أعجب أعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !

فإذا لائنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذى اضطررك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لالك . وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من يبان تسلسل الأسباب والمسببات ماتستبين به أنه لا فاعل إلا الله ، ولا خالق سواه . والمعجب ممن يتمجب إذا رزقه الله عقلا ، وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم ، فيقول كيف منعتى قوت يوسى وأنا العاقل الفاضل ! وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو النافل الجاهل ! حتى يكاد يرى هذا ظالما . ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا ، لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال . إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتى منهما ؟ فهلا جمعتما لى أو هلا رزقتنى أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له . ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والمعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه . ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك ؟ لا تمتنع عنه . فإذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتمجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة ، فتتمجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ؟ ويخصص مثل ذلك القبح ! ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها ، وأنها لو خبرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال . فإذا نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم التقيير العاقل بقلبه . يارب لم حرمتى الدنيا وأعطيتها الجهال ، كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول . أيها الملك لم لا تمطينى الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول كنت لا تتمجب من هذا لو لم أعطك الفرس . فهب أنى ما أعطيتك فرسا ، أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة ، تطلب بها نعمة أخرى . فهذه أو هام لا تخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ومن ذلك العلم المحقق بأن العبد ، وعمله ، وأوصافه ، كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق ؛ وهذا ينبنى المعجب والإدلال ، ويورث الخضوع ، والشكر ،

والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعمله وعمله ، إذا يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام : يا رب ما أتاني ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم . ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفي رواية ، ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود بميدك ، إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه يا داود ، ومن أين لهم ذلك ؟ إن ذلك لم يكن إلا بي . ولولا عوني إياك ما قويت ، وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله ، إذ أضافه إلى آل داود مدلا به ، حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود يا رب إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب . فقال : إني ابتليتهم فصبروا فقال يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت . فأدل بالعمل قبل وقته . فقال الله تعالى : فإني لم أخبرهم بأى شيء ابتليهم ، ولا في أى شهر ، ولا في أى يوم . وأنا مخبرك في سنتك هذه ، وشهرك هذا ، ابتليك غدا بامرأة . فأحذر نفسك . فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم ، وقالوا لا تغلب اليوم من قلة ، وكلوا إلى أنفسهم . فقال تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ^(٢)) وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آتت هواك على هواي . فنودي من غمامة بمشرة آلاف صوت يا أيوب ، أتى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك . قال : فأخذ رمادا ووضعته على رأسي وقال : منك يا رب ، منك يا رب . فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ^(٣)) وقال النبي

(١) حديث قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة : البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسل أن رجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين إذا عجبتكم كثرتكم ولا بن مردويه في تفسيره من حديث أنس لما لقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم تقال ففروا فيه : الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور

(٢) التوبة : ٢٥ (٣) النور : ٢٥

صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس^(١) «ما منكم من أحدٍ يُنجيه عمله» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال «ولأنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته» ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا، وتبنا، وطيرا، مع صفاء أعمالهم وقلوبهم. فكيف يكون لدى بصيرة أن يعجب بعمله، أو يدل به، ولا يخاف على نفسه. فإذا هذا هو الملاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب، شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها. بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية، ويعطى من غير وسيلة، لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء، وهذا لا يبق معه عجب بحال. والله تعالى أعلم

بيان

أقسام ما به العجب وتفصلا. علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه. وقد يعجب بما لا يتكبر به، كمجبه بالرأى الخطأ الذي يزين له بجهله. فإيه العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله، وهيبته، وصحته، وقوته، وتناسب أشكاله، وحسن صورته، وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته. فإلتفت إلى جمال نفسه، وينسى أنه نعمة من الله تعالى. وهو بعرض الزوال في كل حال. وعلاجه ما ذكرناه في التكبر بالجمال وهو التفكير في أقدار باطنه، وفي أول أمره، وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب، وأنتنت في القبور، حتى استقدرتها الطباع الثاني: البطش والقوة، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (من أشد منأقوة^(١)) وكما انكسر عوج على قوته وأعجب بها فاقطع جبلا ليطبقه على عسكره

(١) حديث ما منكم من أحدٍ يُنجيه عمله - الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة

موسى عليه السلام ، فتقرب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بقدر هدهد ضعيف المنقار ، حتى صارت في عنقه . وقد يتكلم المؤمن أيضا على قوته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال ^(١) : لأطوفن الليلة على مائة امرأة . ولم يقل إن شاء الله تعالى . فحرم ما أراد من الولد . وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت . وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويورث العجب بالقوة المهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصد بالسوء . وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربعا سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلبها عليه .

الثالث : العجب بالعقل والكنيسة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح المدين والدنيا وغيرته الاستبداد بالرأى ، وترك المشورة ، واستجهاال الناس المخالفين له ولرأيه . ويخرج إلى قلة الاصفاء إلى أهل العلم ، إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل ، واستحقاقا لهم وإهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويحن ، بحيث يضحك منه . فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقيم بشكره . وليستقص عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا ، وإن اتسع علمه . وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله . وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن العاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يشنى عليه ، فيزيده عجبا ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ، ولا يظن للجهل نفسه فيزداد به عجبا .

الرابع : العجب بالنسب الشريف . كعجب الهاشمية . حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له . ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد . وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أخلاقهم وأخلاقهم ، ووطن أنه ملحق بهم ، فقد جهل . وإن اقتدى بآبائه ، فما كان من أخلاقهم العجب ، بل الخوف والإزرار على النفس ،

(١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة - الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة

واستعظام الخلق ، ومذمة النفس . ولقد شرفوا بالطاعة ، والعلم ، والخصال الحميدة ، لا بالنسب
فليتشرف بما شرفوا به . وقد ساوهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم
الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب ، وأخس من الخنازير . ولذلك قال تعالى (يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ) (١) أى لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل
واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (٢) ثم بين أن
الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٣) ولما قيل لرسول الله
صلى الله عليه وسلم (٤) من أكرم الناس ؟ من أكرس الناس ؟ لم يقل من ينتمى إلى نسي
ولكن قال « أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِمَوْتٍ ذِكْرًا وَأَشَدُّهُمْ لَهْ أُسْتَعْدَادًا » ولما نزلت هذه
الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة ، فقال الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو
وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن ! فقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٥)
وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ » أى كبرها
« كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٧) « يَامَعْشَرَ
قُرَيْشٍ لَا تَأْتِنِ النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ
تَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا » أى أعرض عنكم . فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا
لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى (٨) (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (٩) ناداهم
بطنا بعد بطن ، حتى قال « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ

(١) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكرس الناس قال أكرمهم للموت ذكرا - الحديث : ابن ماجه

من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة وعند ابن أبي الدنيا في ذكر

الموت آخر الكتاب

(٢) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية - الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة

ورواه الترمذى أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب

(٣) حديث يامعشر قريش لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم - الحديث :

الطبرانى من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يامعشر بني هاشم وسنده ضعيف

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد

يا صافية بنت عبد المطلب - الحديث : منفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْمَلًا لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
فن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آباءه التواضع ،
افتدى بهم في التقوى والتواضع . وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله ، مهما انتهى إليهم
ولم يشبههم في التواضع ، والتقوى ، والخوف ، والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «بمد قوله لفاطمة وصفية» «إِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكُمَا مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَجَاءً سَأَبْلُهَا بِبِلَالٍ هَآءُ*» وقال عليه الصلاة والسلام ^(٢) «أَتَرْجُوا
سَلِيمٌ شَفَاعَتِي وَلَا يَرْجُوهُمَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة
فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنسيب أيضا جدير
بأن يرجوها ، لكن بشرط أن يتق الله أن يغضب عليه . فإنه إن يغضب عليه . فلا يأذن
لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له ،
وإلى ما يعني عنه بسبب الشفاعة . كالذنوب عند مالوك الدنيا ، فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر
على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك . فمن الذنوب ما لا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة
بقوله تعالى (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) ^(١) وبقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ^(٢)
وبقوله (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) ^(٣) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) ^(٤)
وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه ، وجب الخوف والإشفاق
لأحالة ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة ، لما أمر قريشا بالطاعة ، ولما نهى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، وكان يأذن لها في اتباع الشهوات
لتكمل لذاتها في الدنيا ، ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة .
فالإنهاك في الذنوب وترك التقوى ، اتكالا على رجاء الشفاعة ، يضاهي إنهاك المريض في شهواته ،

(١) حديث قوله بعد قوله التقديم لفاطمة وصفية إلا أن لكما رحما سأبلها ببلاها : مسلم من حديث أبي هريرة

بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها ببلاها

(٢) حديث أرجوا سليم شاءت ولا ترجوها بنو عبد المطلب : الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله

ابن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

(١) الأنبياء : ٢٨ () البقرة : ٢٥٥ (٢) سبأ : ٢٣ () الدثر : ٤٨

* سأبلها ببلاها : أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا

اعتماداً على طيب حاذق ، قريب ، مشفق ، من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل . لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه ، تنفع فى إزالة بعض الأمراض لا فى كلها . فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب . بل للطبيب أثر على الجملة . ولكن فى الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغى أن تفهم عناية الشفاء من الأنبياء والصلحاء ، للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعاً . وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمام بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة . ولم يتكلموا عليه ، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم . فكيف يعجب بنفسه ، ويتكلم على الشفاعة ، من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم !

الخامس : العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعدائهم ، دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر فى مخازيهم ، وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد فى دين الله ، وأنهم المقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صورهم فى النار ، وأنتانهم وأقذارهم . لاستنكف منهم ، ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسب إليه ، استقذاراً واستحقاراً لهم ولو انكشف له ذلمهم فى القيامة ، وقد تعلق الخصماء بهم ، والملائكة آخذون بنواصيرهم ، يجرؤهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد ، لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم . نفخ أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفروا لأبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب بنسبهم فجبل محض .

السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد ، والخدم ، والعلمان ، والعشيرة ، والأقارب والأنصار ، والأتباع . كما قال الكفار (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً ^(١)) وكما قال المؤمنون يوم حنين ، لانقلب اليوم من قلة . وعلاجه ما ذكرناه فى الكبر ، وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . وكم من فئة

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ثم كيف يعجب بهم، وإنهم سيفترقون عنه لإذامات، فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد، ولا قريب، ولا حميم، ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى، والحيات، والعقارب، والديدان، ولا يغنون عنه شيئاً، وهو في أحوج أوقاته إليهم. وكذلك يهربون منه يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ^(١)) الآية. فأى خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر، والقيامة، وعلى الصراط، إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تشكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك، وموتك وحياتك

السابع: العجب بالمال. كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا^(٢)) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) رجلاً غنياً جالساً بجانبه فقير، فاتقبض عنه وجمع ثيابه. فقال عليه السلام «أَخْشَيْتُ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَفَرُّهُ» وذلك للعجب بالنفي وعلاجه أن يتفكر في آفات المال، وكثرة حقوقه، وعظم غوائله. وينظر إلى فضيلة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام^(٤) «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ فَذُاعَجَبَتُهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهَوَّ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥) فدخل المسجد فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جواد. ثم قال «ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة. فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال، يبين حقارة

(١) حديث - رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جالساً بجانبه فقير فاتقبض منه - الحديث : رواه أحمد في الزهد
(٢) حديث - بينا رجل في حلة قد أعجبت نفسه - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم
(٣) حديث أبي ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي - الحديث : وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه .

الأغنياء ، وشرف الفقراء عند الله تعالى . فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟
 بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال ، في أخذه من حله ، ووضعه
 في حقه . ومن لا يفعل ذلك فقصيره إلى الخزي والبوار ، فكيف يعجب بماله
 الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(١)
 وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)^(٢) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افرقت فرقا ،
 فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وجميع أهل البدع والضلال إناأصروا عليها
 لمعجبهم بآرائهم . والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة ، مع ظن كونه حقا
 وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ، ولوعرفه
 لتركه . ولا يعالج الداء الذى لا يعرف . والجهل داء لا يعرف ، فتعسر مداواته جدا . لأن
 العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ، فإنه
 لا يصنى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه ، وهو يظنها نعمة . فكيف يمكن
 علاجه ، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده . وإنا علاجه على الجملة أن
 يكون متهما لرأيه أبدا ؛ لا يفتقر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل
 عقلى صحيح ، جامع لشروط الأدلة : ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ،
 ومكاسن الغلط فيها ، إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد وتشمر في الطلب ، وممارسة
 للكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم ، طول العمر ، ومداولة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن
 عليه الغلط في بعض الأمور . والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم ، أن
 لا يخوض في المذاهب ، ولا يصنى إليها ، ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد
 لا شريك له ، وأنه ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، وأن رسوله صادق فيما أخبر به .

(١) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاعجاب بالرأى : هو حديث أبي ثعلبة المتقدم فاداريأت شحا مطاعا

وهو متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وهو عند أبي داود والترمذى

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف ١٠٤

ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجماعة ماجاء به الكتاب والسنة ، من غير بحث وتنقيح ، وسؤال عن تفصيل . بل يقول آمنا وصدقنا . ويشغل بالتقوى ، واجتناب المعاصي ، وأداء الطاعات ، والشفقة على المسلمين ، وسائر الأعمال . فإن خاض في المذاهب والبدع ، والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم فأما الذي عزم على التجرد للعلم ، فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه . وذلك مما يطول الأمر فيه . والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد ، لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى ، وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى المعصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال

تم كتاب ذم الكبر والعجب ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتاب ذم الغرور

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور . مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور . والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور . وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على عمر الدهور ، ومكر الساعات والشهور

أما بعد ، ففتاح السعادة التيقظ والفتنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما سوى عمي القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم (كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ^(١)) والمفترون قلوبهم (كظلمات في بحر لجي ، يشأه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور ^(٢)) .

فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى . والمفترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقي في العمي فاتخذ الهوى قائدا والشیطان دليلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات ، فلا بد من شرح مداخله

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٤٠

ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المرید بعد معرفته فيتيقنه . فالوفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره ، وبنى على الحزم والبصيرة أمره . ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور ، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بعبادى الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها . ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تبغى عن الاستقصا . و فرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العباد . الصنف الثالث من المتصوفة . الصنف الرابع من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة : وجهات غرورهم مختلفة . فمنهم من رأى المنكر معروفا . كالذى يتخذ المساجد ويزخر بها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى ، كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأثم ويشغل بغيره . ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة . ومنهم من يترك الباب ويشغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف . إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ، ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحده .

بيان

ذم الغرور وحقيقته وأمثله

اعلم أن قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) (١) وقوله تعالى (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) (٢) الآية ، كاف فى ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حَبِذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يُغَيَّبُونَ سَهْرَ الْحَقِّ وَاجْتِهَادَهُمْ وَلِمَشْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَبِقَيْنِ أَفْضَلُ »

(كتاب ذم الغرور)

(١) حديث حَبِذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ - الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات أبى الورد موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا

(١) لقمان : ٣٣ (٢) الحديد : ١٤

مِنْ مِثْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَثَمُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » وكل ماورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور . لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور . بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذي يغره . فهما كان المجهول المعتق شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة وخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا ، سمي الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير ، إما في العاجل أو في الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فتورد لها أمثلة لحقيقة الغرور

الأمثال الأولى : غرور الكفار . فمنهم من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فهم الذين قالوا . النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، فهي إذا خير ، فلا بد من إشارتها . وقالوا . اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ، فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس حيث قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ^(١)) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْمَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ^(٢)) . وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ ^(٣)) وفي قوله عز وجل (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ^(٤)) وقوله (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ^(٥))

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(١) م : ٧٦ (٢) البقرة : ٨٦ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٦٠ (٥) الأعلى : ١٧

وقوله (وَمَا الْحَيَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ^(١)) وقوله (فَلَا تَفَرَّ نَكْمُ الْحَيَاءِ الدُّنْيَا ^(٢)) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) بذلك طوائف من الكفار ، فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال ^(٢) : نشدتك الله أبمشك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم . فيصدق . وهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الفرور . وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب ، مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان . فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل فرور وفروره سبب . وذلك السبب هو دليل . وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ، ويورث السكون إليه ، وإن كان صاحبه لا يشعر به ، ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان . أحدهما : أن الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح . والآخر : قوله إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التليس . فليس الأمر كذلك . بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود ، فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير . فإن الكافر المفرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ؛ ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه . وإذا حذر الطيب الفواكه ولذا نذ الأظعمة ترك ذلك فى الحال ، خوفا من ألم المرض فى المستقبل . فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ، ويتعبون فى الأسفار نقدا ؛ لأجل الراحة والريح نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال ، خيرا من واحد فى الحال ، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة . فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف جزء من الآخرة

(١) حديث تصديق بعض الكفار ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليهم من يثرب فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منافيا من به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه - الحديث : وهى عند أحمد بإسناد جيد

(٢) حديث قول من قال له نشدتك الله أبمشك الله رسولا فيقول نعم فيصدق ؛ متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم الله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به ولطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن يدع الالهات والعزى قال نعم - الحديث ؛

فكأنه ترك واحدا يأخذ ألف ألف . بل يأخذ مالا نهاية له ولا حد . وإن نظر من حيث النوع ، رأى لذات الدنيا مكدره مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدره فإذا قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور ، أطلق وأريد به خاص ، فغفل به الغرور عن خصوص معناه . فإن من قال النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هي مثله ، وإن لم يصرح به . وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر ، وهو أن اليقين خير من الشك ، والآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول . لأن كلا أصله باطل . إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله . وإلا فالتاجر في تبعه على يقين ، وفي ربحه على شك ، والمتفقه في اجتهاده على يقين ، وفي إدراكه رتبة العلم على شك . والصيد في ترده في المقتنص على يقين ، وفي الظفر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول . إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضرري . وإن أتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا . وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه ، وهو من الشفاء على شك ، ومن مرارة الدواء على يقين . ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . فكذلك من شك في الآخرة ، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل ، وهو منتهى العمر ، بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة . فإن كان ما قيل فيه كذبا ، فإيفوتني إلا التمتع أيام حياتي ، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أنعم . فأحسب أنني بقيت في العدم . وإن كان ما قيل صدقا فأتبقى في النار أبد الآباد ، وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا . وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكنا . وما قال هذا من شك منه في الآخرة ، ولكن كلم الملحدين على قدر عقله ، وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور . وأما الأصل الثاني من كلامه ، وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ . بل ذلك يقين عند المؤمنين . وليقينه مدركان : أحدهما الإيمان والتصديق . تقليدا للأنبياء والسماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور ، وهو مدرك يقين العوالم وأكبر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علقه ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني ، فإنه تظمن نفس المريض إلى تصديقهم ، ولا يظالمهم بتصحيح

ذلك بالبراهين الطيبة . بل يثق بقولهم ويعمل به . ولوبقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا ، وأغزر منه فضلا ، وأعلم منه بالطب ، بل لا علم له بالطب ، فيعلم كذبهم بقولهم ، ولا يعتقد كذبه بقوله ، ولا يفتقر فى علمه بسببه . ولو اعتمد قوله ، وترك قول الأطباء ، كان معتوها مغرورا . فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة ، والخبرين عنها ، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدّم خير خلق الله ، وأعلام رتبة فى البصيرة ، والمعرفة ، والعقل وهم الأنبياء ، والأولياء ، والحكماء ، والعلماء ، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فمطم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ، فجدوا الآخرة ، وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا النبي الذى استترته الشهوات ، لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق ، وهويقين جازم يستحث على العمل لا محالة ، والغرور يزول به وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة ، فهو الوحي للأنبياء ، والإلهام للأولياء . ولا ننظر أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمر الدين ، تقليد لجبريل عليه السلام بالسمع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ، وهيئات . فإن التقليد ليس بمعرفة . بل هو اعتقاد صحيح . والأنبياء عارفون . ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها ، فشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر . فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن ، حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط ، لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات . بل العالم عالمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق . والله الخلق والأمر . فالأجساد ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير فى وضع اللسان . وكل موجود منزّه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة

في ذكره ، لاستضرار أكثر الخلق بسماحه كسر القدر الذي منع من إفشائه . فمن عرف
 سر الروح فقد عرف نفسه . وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وإذا عرف نفسه وربه
 عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب ، وأن هبوطه إليه
 لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته . وذلك العارض الغريب
 ورد على آدم صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بالمعصية : وهي التي حطته عن الجنة التي هي
 أليق به بمقتضى ذاته ، فإنها في جوار الرب تعالى ، وأنه أمر رباني ، وحينئذ إلى جوار الرب
 تعالى له طبعي ذاتي ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ،
 فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومما فعل ذلك فقد ظلم نفسه . إذ قيل له (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
 نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(١)) أي الخارجون عن مقتضى طبعهم
 ومنظنة استعقافهم . يقال فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه
 إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون ، وتشمز من بسماع ألقاظها القاصرون
 فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجمال ، وتبهر أعينهم الضميقة كما تبهر الشمس أبصار
 الخفافيش . وأحتاج هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى
 صاحبه وليا وعارفا . وهي مبادئ مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء
 ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالقصد أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك ، يدفع
 إما يقين تقليدي ، وإما ببصرة ومشاهدة من جهة الباطن . والمؤمنون بالسنتهم وبمقائدهم
 إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولا بسوا الشهوات والمعاصي ، فهم
 مشاركون للكفار في هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياء الدنيا على الآخرة . نعم أمرهم أخف
 لأن أصل الإيمان بعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم
 أيضا من الغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا
 وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز . قال تعالى (وَأَنِّي لَفَاقَرٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 ثُمَّ اهْتَدَى^(٢)) وقال تعالى (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ^(٣)) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الحجر : ١٩ (٢) طه : ٨٢ (٣) الاعراف : ٥٦

(١) وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » وقال تعالى - (وَالْمَصْرِيّ أَنْ الْإِنْسَانَ لِنَفْسٍ خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ^(١)) - فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا ، لا بالإيمان وحده . فهو لاه أيضا مغرورون ، أغنى المطئنين إلى الدنيا ، الفرحين بها . المترفين بنعيمها ، المحبين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا ، دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الفرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . . ولنذكر للفرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين . فأما غرور الكفار بالله ، فثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معاد ، فنحن أحق به من غيرنا ، ونحن أوفر حظا فيه وأبعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا^(٢)) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير ، أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار ، واشترى بستانا بألف دينار ، وخبثا بألف دينار ، وتزوج امرأة على ألف دينار . وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويحرب ، ألا اشتريته قصرا في الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يحرب ويفنى ، ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى ! وخبثا لا يفنون ولا يموتون ! وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ماهناك شيء ، وما قيل من ذلك فهو كاذب ، وإن كان فليكون لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول (لَا أُوتِينُ مَالًا وَوَلَدًا^(٣)) فقال الله تعالى ردا عليه (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلًّا^(٤)) . وروى عن خباب بن الأرت أنه قال^(٥) : كان لي على العاص بن وائل دين ، فبعت أبقاضاه ، فلم يقض لي . فقلت إني آخذه في الآخرة . فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أفضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَا أُوتِينُ مَالًا وَوَلَدًا^(٦))

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه: متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٢) حديث خباب بن الأرت قال كان لي على العاص بن وائل دين فبعت أبقاضاه - الحديث : في نزول قوله

تعالى أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لا أُوتِينُ مَالًا وَوَلَدًا البخاري: مسلم

(٣) سورة العصر (٢) الكهف : ٣٦ (٤) مريم : ٧٧ (٥) مريم : ٧٨ (٦) مريم : ٧٧

وقال الله تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسَىٰ (١))

وهذا كله من الغرور بالله ، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا ، فيقيسون عليها نعمة الآخرة . وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ (٢)) فقال تعالى جوابا لقولهم (حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٣)) ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون (أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا (٤)) ويقولون (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (٥)) وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم ، أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا في المستقبل ، كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب ، إذ يقول : لولا أني كريم عند الله ومحبوب ، لما أحسن إليّ ، والنبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لابل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده ، بدليل لا يدل على الكرامة ، بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران ينفض أحدهما ويحب الآخر ، فالذي يحبه ينعمه من اللعب ، ويلزمه المكتب ، ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، وينعمه من الفواكه وملاذ الأطلعة التي تضره ، ويسقيه الأدوية التي تنفعه . والذي ينفضه يهمله ليعيش كيف يريد ، فيلعب ، ولا يدخل المكتب ، ويأكل كل ما يشتهي . فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم ، لأنه يمكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه ، فلم ينعمه ولم يحجر عليه . وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها ، فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، (١) فإن الله يحى عبده من الدنيا وهو يحبه

(١) حديث ان الله يحى عبده من الدنيا وهو يحبه - الحديث : الترمذى وجسنه والحاكم ومصححه من حديث قتادة بن النعمان

(١) فملت : ٥٠ (٢ ، ٣) المجادلة : ٨ (٤) الانعام : ٥٣ (٥) الاخفاف : ١١

كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه . هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر
وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت
عقوبته . ورأوا ذلك علامة الموت والإهمال . وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا
بشمار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه
ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ
وَنِعْمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ^(١))
فأجاب الله عن ذلك (كَلَّا ^(٢)) أى ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر
البلاء ، ونسأل الله التثبيت . فبين أن ذلك غرور . قال الحسن : كذبها جميعا بقوله (كَلَّا ^(٣))
يقول ليس هذا بأكرامى ولا هذا بهوانى . ولكن الكريم من أكرمه بطاعته ، غنيا كان
أو فقيرا ، والمهان من أهنته بمعصيته ، غنيا كان أو فقيرا .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة
فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ، ووجه كون التباعدها
مقربا إلى الله ، ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم
المكاشفة ، ولا يليق بعلم المعاملة . وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق ، فهو أن يؤمن
بكتاب الله تعالى ، ويصدق رسوله . وقد قال تعالى (أَلَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءٌ
فَنَزَّلْنَا بِهِ الْيُسُفَىٰ فَجَعَلْنَا فِيهَا زُلْفَىٰ وَنَارًا تَلَوَّنَا) وقال تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ^(٤)) وقال تعالى (فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا
بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ^(٥)) وفي تفسير قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ^(٦)) أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة . ليزيد غرورهم
وقال تعالى (إِنَّمَا عَلَيَّ الْيُزَادُ وَإِنَّمَا ^(٧)) وقال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ^(٨)) إلى غير ذلك مما ورد
في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فمن آمن به تخلص من هذا الغرور ، فإن منشأ هذا الغرور

(١) (٣٠٢٠١) الفجر : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ . (٢) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٧٠٥) التلم : ٤٤ : (١) الأنعام : ٤٤

(٨) آل عمران : ١٧٨ : (٩) إبراهيم : ٣٢

الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ، ولا يفتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون ، وهامان ، وقارون ، وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم ، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ، ثم دمرهم تدميراً . فقال تعالى (هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ^(١)) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ^(٢)) وقال تعالى (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا نَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٣)) وقال عز وجل (وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَا كِرِينَ ^(٤)) وقال تعالى (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا ^(٥)) فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه ، وتمكينه من النعم ، على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرامته وكيداً ، مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يحب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فإذا من آمن مكر الله فهو مغتر . ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه ، وهو التصديق بدلالته على السكرامة ، وهذا هو حد الغرور

المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين ، بقولهم إن الله كريم ، وإنا نرجو عفوه ، وائسألهم على ذلك ، وإهمالهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية ثمتهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمه عظيم . وأين معاصي العباد في بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ، فترجوه بوسيلة الإيمان . وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلور ثمتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف ، والتقوى ، والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آبائهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيجبكم ، فلا تحتاجون إلى الطاعة . وينسى الغرور أن نوحاً عليه السلام

(١) مريم : ٩٨ (٢) الاعراف : ٩٩ (٣) النحل : ٥٥ (٤) آل عمران : ٥٤ (٥) الطارق : ١٥

أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة ، فلم يرد فكان من المرقين فقال (رَبِّ إِنَّا بَنَيْنَا لَكَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ قَرْيَةً تَمْلِكُ أَهْلُهَا وَتُؤْتُوا رُسُلَهُمْ خَبْرًا إِذْ يَمُوتُ الْوَلَدُ عَلَيْهِمْ أَمْ يُغْتَمَبُ أَفْئِدَتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ) فقال تعالى (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)^(١) وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم^(٢) ، وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها ، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة ، حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى . وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع وينفض العاصي . فكما أنه لا ينفض الأب المطيع بينضه للولد العاصي ، فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه الأب المطيع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا . بل الحق أن لا تزور أزره وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراها بئشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا . وكذا العكس . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه ، فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب

فإن قلت فأين الغلط فى قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فها هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب فاعلم أن الشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ، مردود الباطن . ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال^(٣) « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَثَمُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ مَوَامَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » وهذا هو التمنى على الله تعالى ، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له

فى الاستغفار - الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الكيس من دان نفسه : تقدم قريبا

اللَّهُ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ^(١)) يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال . قال الله تعالى (جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢)) وقال تعالى (وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣)) أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان ، وشريط له أجرة عليها ، وكان الشارط كريما ينى بالوعد مهما وعد ، ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأوانى ، وأفسد جميعها ، ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه المقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا ، أو راجيا؟ وهذا الجهل بالفرق بين الرجاء والفرقة قبل للحسين : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال هيهات ! هيهات ! تلك أمانتهم يترججون فيها . من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى . فقال له رجل : إنالترجو الله . فقال مسلم : هيهات ! هيهات ! من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح ، أو نكح ولم يجمع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو معتوه . فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحا ، أو عمل ولم يترك المعاصى ، فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ، ووطىء ، وأنزل ، بقى مترددا فى الولد ، يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كئيس ، فكذلك إذا آمن ، وعمل الصالحات ، وترك السيئات ، وبقى مترددا بين الخوف والرجاء ، يخاف أن لا يقبل منه ، وأن لا يدوم عليه وأن يحتم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يشته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق مكبرات الموت ، حتى يموت على التوحيد ، ويحرص قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يهمل إلى المعاصى فهو كئيس . ومن عباه هؤلاء فهم المنرورون بالله . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل مبيلا . ولتعلن نبأه بعد حين . وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ^(٤)) أى علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ، ولا ينبت زرع إلا بحرارة وبث بذر فكذلك لا يحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحا ، فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى (كُلَّمَا أَتَى عَلَى فِيهَا جَوْحٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الواقعة : ٢٤ (٣) آل عمران : ١٨٥ (٤) الملك : ٨

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ^(١)) أَى أَلَمْ نَسْمَعْ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَأَنَّهُ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَأَن كُلَّ نَفْسٍ عَمَّا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، فَمَا الَّذِى غَرَمَ بِاللَّهِ بَعْدَ أَن سَمِعْتُمْ وَعَقَلْتُمْ؟ (قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ^(٢))

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه الحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين : أحدهما : في حق العاصي المنهك إذا خطرت له التوبة ، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك ؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يجمع القنوط بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده ، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال الله تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ^(٣)) أمرهم بالإنباء . وقال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن يَتَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى^(٤)) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور . كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق ، فخطر له أن يسمى إلى الجمعة ، فقال له الشيطان إنك لا ندرك الجمعة فأقم على موضعك ، فكذب الشيطان ومريدو ، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج . وإن استمر على التجارة ، وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت ، أو لأجل غيره ، أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها ، فهو مغرور

الثانى : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ، ويقتصر على الفرائض : فيرجى نفسه نعيم الله تعالى ، وما وعد به الصالحين ، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة ، فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٥)) إلى قوله أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٦))

فالرجاء الأوئل : يجمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمر . فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو راج . وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غيرة . كما إذا خطر له أن يترك الذنوب

(٢٠١) الملك : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ (الزمر : ٥٣ ، ٥٤) طه : ٨٧ ، ٨٨ (المؤمنون : ١٠٩)

ويشتغل بالعمل ، فيقول له الشيطان مالك ولا يذء نفسك وتعذيبها ، ولك رب كريم ؛ غفور رحيم ، فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة ، فهو غرة . وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول .. إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . وإنه مع أنه كريم ، خلده الكفار في النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم : بل سلب العذاب ، والمحن ، والأمراض ، والعلل . والفقر ، والجوع ، على جملة من عباده في الدنيا ، وهو قادر على إزالتها . فن هذه سنته في عباده ، وقد خوفني عقابه ، فكيف لأخافه ! وكيف أعتربه . فالخوف والرجاء قائدان وسائقان ، يبعثان الناس على العمل . فالأبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعي للآخرة ، فذلك غرور . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم ^(١) وذكر أن الغرور سينقلب على قلوب آخر هذه الأمة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم . فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله ، يبالغون في التقوى والحذر من الشهوات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم في الخلوات . وأما الآن ، فترى الخلق آمنين ، مسرورين ، مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصي ، وانهما كههم في الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء ، والصحابة ، والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا ، فعلام ذا كان بكاء أولئك ، وخوفهم ، وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، فيما رواه معقل بن يسار « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ الْقُرْءَانُ فِي

(١) حديث ابن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة : تقدم في آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبي ثعلبة في إعجاب كل ذي رأى برأيه -

(٢) حديث معقل بن يسار يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال - الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل

قُلُوبُ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلُقُ الثِّيَابُ عَلَى الْأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعًا لَا خَوْفَ مَعَهُ
 إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ يُتَقَبَّلُ مِنِّي وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ يُفْقَرُ لِي » فَأَخْبَرَهُمْ يَضْمُونَ الطَّمَعِ
 مَوْضِعَ الْخَوْفِ لَجْهَلِهِمْ بِتَخَوُّيَاتِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ . وَبِئْسَ أَخْبَرَ عَنِ النَّصَارَى إِذْ قَالَ تَعَالَى
 (فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ
 سَيُغْفَرُ لَنَا ^(١)) وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ وَرِثُوا الْكِتَابَ أَيْ هُمْ عُلَمَاءُ ، وَيَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى أَيْ
 شَهْوَاتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، حَرَامًا كَانَ أَوْ حَلَالًا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ حِثَّتَانِ ^(٢))
 (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ^(٣)) وَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ تَحْذِيرٌ وَتَخْوِيفٌ
 لَا يَتَفَكَّرُ فِيهِ مُتَفَكِّرٌ إِلَّا وَيَطُولُ حَزَنُهُ ، وَيَعْظُمُ خَوْفُهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمَا فِيهِ . وَتَرَى النَّاسَ
 يَهْذُونَهُ هَذَا يَخْرُجُونَ الْحُرُوفَ مِنْ مَخَارِجِهَا ، وَيَتَنَاطَرُونَ عَلَى خَفْضِهَا ، وَرَفْعِهَا ، وَنَصْبِهَا
 وَكَأَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ شِعْرًا مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، لَا يَهْتَمُّونَ بِالْإِتِّفَاتِ إِلَى مَعَانِيهِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ
 وَهَلْ فِي الْعَالَمِ غُرُورٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا . فَهَذِهِ أَمْثَلَةُ الْغُرُورِ بِاللَّهِ ، وَبَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْغُرُورِ
 وَيَقْرَبُ مِنْهُ غُرُورٌ طَوَائِفُ لَهُمْ طَاعَاتٌ وَمَعَاصٍ ، إِلَّا أَنْ مَعَاصِيَهُمْ كَثُرَ ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ
 الْمَغْفِرَةَ ، وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ تَرَجَّحَ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِمْ ، مَعَ أَنْ مَا فِي كِفَّةِ السَّيِّئَاتِ أَكْثَرُ وَهَذَا غَالِيَةُ
 الْجَهْلِ . فَتَرَى الْوَاحِدَ يَتَصَدَّقُ بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَيَكُونُ مَا يَتَنَاوَلُ مِنَ
 أَمْوَالِ الْمَسَاكِينِ وَالشُّبُهَاتِ أَضْعَافَهُ . وَتَعْلَمُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمَسَاكِينِ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ
 وَيُظَنُّ أَنْ أَكَلَ أَلْفَ دِرْهَمٍ حَرَامٍ ، يَقَارِمُهُ التَّصَدَّقُ بِعَشْرَةٍ مِنَ الْحَرَامِ أَوْ الْحَلَالِ وَمَا هُوَ إِلَّا
 كَنْ وَضَعُ عَشْرَةِ دِرَاهِمٍ فِي كِفَّةِ مِيزَانٍ ، وَفِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى أَلْفًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ الْكِفَّةَ
 الثَّقِيلَةَ بِالْكَفَّةِ الْخَفِيفَةِ . وَذَلِكَ غَالِيَةُ جَهْلِهِ . نَعَمْ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ طَاعَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ
 مَعَاصِيهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَحْسِبُ نَفْسَهُ وَلَا يَتَفَقَّدُ مَعَاصِيَهُ ، وَإِذَا عَمِلَ طَاعَةً حَفِظَهَا وَاعْتَدَبَهَا ، كَالَّذِي
 يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ ، أَوْ يَسْبِحُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ يَنْتَابُ الْمَسَاكِينَ ، وَيَمِزُقُ أَعْرَاضَهُمْ
 وَيَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ طَوْلَ النَّهَارِ مِنْ غَيْرِ حَصْرٍ وَعَدَدٍ . وَيَكُونُ نَظَرُهُ إِلَى عَدَدِ سَبْعَةٍ
 أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَغَفَلَ عَنْ هَذْيَانِهِ طَوْلَ نَهَارِهِ ، الَّذِي لَوْ كَتَبَهُ لَكَانَ مِثْلَ تَسْبِيحِهِ

(١) الأعراف : ٦٩ (٢) الرحمن : ٤٦ (٣) إبراهيم : ١٤

مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالمقاب على كل كلمة فقال (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ^(١)) فهذا أبدأ يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المفتابين ، والكذابين ، والمأمين ، والمنافقين يظهر من الكلام ما لا يضررونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسيحه ، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في قتراته كان بعده ويحسبه ، ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجره نسخه . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يقوته في الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفا من قوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها . فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحق المبرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القراء ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبيه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ، ولا يقتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم

بيان

أصناف المفتارين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمفترون منهم فرق ، فرقة أحكموا المعلوم الشرعية والعقلية ، وتمسكوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقد الجوارح ، وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغترروا بملهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لمكرتهم على الله . وهم مغرورون . فإنهم لو نظروا بعين البصيرة ، علموا أن العلم علان علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وهو العلم بالله ووصفاته ، المسمى بالعادة علم المعرفة : فلما العلم

بالمعاملة ، كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لا تراد إلا للعمل ، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة . وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل : فثال هذا كمرضى به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب ، بعد أن هاجر عن وطنه ، حتى عثر على طبيب حاذق ، فعلمه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ، ومقاديرها ، ومعادنها التى منها نجتلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه ، وعجنه ، فتعلم ذلك ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويملأها المرضى ، ولم يشتغل بشرها واستعمالها . أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيات ! هيات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة ، لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ، ويشتري الدواء ، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ، ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته ، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه . وإذا فعل جميع ذلك ، فهو على خطر من شفائه ، فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فهما ظنّ أن ذلك يكفيه ويشفيه ، فقد ظهر غروره

وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور . إذ قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ^(١)) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تركيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرنك هذا المثال ، فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض . وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه ، والعلم يجلب الثواب . ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا ، وافق ذلك مراده وهواه ، فاطمأن إليه وأهل العمل . وإن كان كيسا ، فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العلم ، وتنسىنى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه ؟ كقوله تعالى (قَتَلُوهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ^(٢)) وكقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُحْمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَاهِلِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً ^(٣)) فأى خذى

(١) الشمس : ٩ (٢) الأعراف : ١٧٧ (٣) البقرة : ٥

أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ أَزْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْ دَهْدِي لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا » وقال أيضا ^(٢) « يُلْقَى الْعَالِمُ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى » وكقوله عليه الصلاة والسلام ^(٣) « شَرُّ النَّاسِ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ » وقول أبي الدرداء : ويل للذي لا يعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه . وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات . أى أن العلم حجة عليه ، إذ يقال له . ماذا عملت فيما علمت ؟ وكيف قضيت شكر الله ؟ وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ » . فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم ، في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر . وما ورد في فضل العلم ، يوافق . فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه ، وذلك عين الغرور . فإنه إن نظر بالبصيرة ، فمثاله ما ذكرناه . وإن نظر بعين الإيمان ، فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بدم العلماء السوء . وأن حالهم عند الله أشد من حال الجاهل ، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذى يدعى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، وبصفاته ، وأسمائه ، وهو مع ذلك يهمل العمل ، ويضيع أمر الله وحدوده ، فغروره أشد . ومثاله مثال من أراد خدمة ملك ، فعرف الملك ، وعرف أخلاقه ، وأوصافه ، ولونه ، وشكله ، وطوله ، وعرضه ، وعادته ومجلسه ، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه ، وما يفضى عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يفضى به وعليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى ، وهيته ، وكلام ، وحركة ، وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه ، والاختصاص به ، متلظا بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع ما يحبه ، متوسلا إليه بعرفته له ولنسبه ، واسمه ، وبلده ، وصورته ، وشكله ، وعادته في سياسة غلامانه ، ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا . إذ لو ترك جميع ما عرفه ، واشتغل بعرفته فقط ، ومعرفة ما يكرهه ويحبه ،

(١) حديث من ازداد علما ولم يزد دهدى - الحديث : تقدم في العلم

(٢) حديث يلقي العالم في النار فتندلق أقتابه - الحديث : تقدم غير مرة

(٣) حديث شر الناس علماء السوء : تقدم في العلم

(٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه : تقدم فيه

لكان ذلك أقرب إلى نيله المزارد من قربته والاختصاص به . بل تقصيره في التقوى ، واتباعه للشهوات ، يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى . إذ لو عرف الله حق معرفته ، لخشيته واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . نعم : من يعرف من الأسد لونه ، وشكله ، واسمه ، قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد . فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلاف مؤلفة ، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد ، لم يؤثر ذلك فيه أثرا ، ولم تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ^(١)) وفاتحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله . وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب ، ف قيل له . إن فقهاءنا لا يقولون ذلك . فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله ، الصائم سهاره ، الزاهد في الدنيا . وقال مرة . الفقيه لا يدارى ولا يعارى ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه حمد الله ، وإن ردت عليه حمد الله . فإذا الفقيه من فقه عن الله أمره ونهييه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه ، وهو العالم . ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، من الكبر ، والحسد ، والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقربان والنظر ، وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير متحرر عنها . ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « أدنى الرياء شرك » وإلى قوله عليه السلام ^(٢) « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » وإلى قوله عليه الصلاة

(١) حديث أدنى الرياء شرك : تقدم في قسم الجاه والرياء

(٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم غير مرة

والسلام^(١) « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام^(٢) « حُبُّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهو لاء زينوا ظواهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم^(٣) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فتمهدوا الأعمال وما تمهدوا القلوب . والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كبر الحش ، ظاهرها جص ، وباطنها نتن : أو كقبور الموتى ، ظاهرها مزين ، وباطنها جيفة . أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه ، فاستنار ظاهره ، وباطنه مظلم . أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره ، فخصص باب داره ، وترك المزايل في صدر داره . ولا يخفى أن ذلك غرور . بل أقرب مثال إليه رجل زرع ذراعاقبت ، ونبت معه حشيش يفسده . فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله . فأخذ يجز رؤسه وأطرافه ، فلا تزال تقوى أصوله فتنبت ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمرريض ظهر به الجرب ، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فقع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به ، يتفجر من المادة التي في الباطن

وفرقه أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يتليهم بذلك ، وإنما يتلى به الموام دون من بلغ مبلغهم في العلم . فأما هم فأعظم عند الله من أن يتليهم . ثم إذا ظهر عليهم نخايل الكبر ، والرياسة ، وطلب العلو ، والشرف ، قالوا ما هذا كبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، ونصرة دين الله ، وإرفام أنف المخالفين من المبتدعين ،

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات - الحديث : تقدم في العلم وغيره .

(٢) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب - الحديث : تقدم

(٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم - الحديث : تقدم

وإني لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، لسمت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلاً على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوه الذى حذّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين ، وبماذا أرغم الكافرين . ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع ، والتبذل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب ، والديبقي ، والإبريسم المحرم ، والخينول ، والمراكب ، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين . وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فى من رد عليه شيئاً من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، ولكن قال إنما هذا غضب للحق ، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد . حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، أو منع غيره من رئاسة وزوحم فيها ، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن . فيكون غضبه لله ، أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأفرانه ، من خبث باطنه ؟ وهكذا يرانى بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات ، إنما غرضى من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليبتدوا إلى دين الله تعالى ، فيتخلصوا من عقاب الله تعالى . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره ، كما يفرح باقتدائهم به . فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر . وربما يذكر هذا ، فلا يخايه الشيطان أيضاً ويقول . إنما ذلك لأنهم إذا اهتمدوا بى كان الأجر لى ، والثواب لى . فإنا فرحى بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولى . هذا ما يظنه بنفسه ، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه فى التحول وإخفاء العلم ، أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن ، وقيد بالسلاسل ، لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل ، حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته ، من تدريس أو وعظ أو غيره . وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام ، قال له الشيطان :

هيئات، إنما ذلك عند الطمع في مالهم. فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه في كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطمع فيه، والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام، قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيفتقر بهذا التليس في ثلاثة أمور أحدها: في أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء. وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف في أنه مال حرام. ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة، ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر

الثاني: في قوله. إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا، والإقبال على الرياسة، والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها، وأقبلوا على الله. فهو على التحقيق رجال الدين، وقوام مذهب الشياطين لإمام الدين، إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف. والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله، والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته. وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير

وفرة أخرى. أحكموا العلم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء، والحسد، والحقد،...

والكبر ، وطلب الملو ، وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها ، وقلموا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ، إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس ، مادك ونمض مدركه ، فلم يفتنوا لها وأهملوها . وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه ، وفش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ، وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف ، فانبسطت تحت التراب ، فأهملها وهو يظن أنه قد قلعا ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت ، وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ، ويذهل عن المراقبة للخفايا ، والتفقد للدقائق قتره يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها ، وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ، ولعل باعته الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات ، وإثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب ، والأتباع ، والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم ، والورع ، وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بعصية الدين ، ولكن عن إدلال بالميز واعداد بالتخصيص ولعل هذا المسكين المغرور ، حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر ، وإمارة ، وعز ، واتياد ، وتوقير ، وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب ، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ، فعساه يتشوش عليه قلبه ، وتختلط أوراده ووظائفه ، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه ، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع ، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره . وينبو قلبه عن عرف خد فضله وورعه ، وإن كان ذلك على وفق حاله . وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض ، وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع . وإنما ذلك لأنه أطوع له ، واتباع لمراده ، وأكثر

ثناء عليه ، وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته . ولعلمهم يستفيدون منه ، ويرغبون في العلم ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه ، وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الجمول ، والمزلة ، وإخفاء العلم لم يرغب فيه ، لفقده في العزلة ، ولا محفاه لذة القبول وعزة الرياسة .

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه يعلم امتنع مني ، فبجبهه وقع في حبائل . وعساه يصنف ويجهده فيه ، ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به ، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف . فلو ادعى مدح تصنيفه ، ومحا عنه اسمه ، ونسبه إلى نفسه ؛ ثقل عليه ذلك ، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف ، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه . ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعوى الطويلة العريضة ، وإما ضمناً بالطعن في غيره ، ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه ، وأعظم منه علماً . ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه ، فيعزیه إلى قائله ، وما يستحسنه فلعله لا يعزیه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ، أو يغيره أدنى تغيير ، كالذي يسرق قميصاً فيتخذ قباء حتى لا يعرف أنه مسروق . ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه ، وتسجيعة وتحسين نظمته ، كيلا ينسب إلى الركاكزة ، ويرى أن غرضه ترويح الحكمة وتحسينها وتزيينها ، ليكون أقرب إلى نفع الناس ، وعساه غافلاً عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة ، فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقاً ، وإني لأقبل من نفاقك شيئاً

ولعل جماعة من هذا الصنف من المفتزين إذا اجتمعوا ، ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه ، نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعاً أو غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر ، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه . ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ، ثقل على قلبه ، ووجد في نفسه نفرة منه ، فبعد ذلك لا يهتمر باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجة كما كان يتشمر

من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل الشخير منه إلى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه ، لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة ، وسلامته عنها فى تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه

ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره ، فيتعمل بالطمع فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول : إنما غضبت لدين الله لأنفسى . ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له ، وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه . وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ، يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ، وسر قلبه راض به ، ومريد له ، والله مطلع عليه فى ذلك فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ، ولا يتزده عنه إلا الأقوياء ولا مطمئع فيه لأمثاله من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويسويه ذلك ويكرهه ، ويحرص على إصلاحه . فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصره بعيوب نفسه ومن سترته حسنته . وساءته سيئته ، فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه ، الممتن على الله بعمله وعلمه ، الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاعتقار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، ولكن قصرُوا فى العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون . إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم عليه

فهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات ، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وسموه الفقه وعلم المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح ، ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولا الرجل عن المشى إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح . ولم يخرسوا قلوبهم عن الكبر ، والحسد ، والرياء وسائر المهلكات

فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه ، وأن أمثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء ، واشتغل بتكراره وتعليمه . لابل أمثالهم مثال من به غلة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ، ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم دواء

الاستحاضة ، وبتكرار ذلك ليلا ونهارا ، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول . ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك . وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المسكين ، قد يسلط عليه حب الدنيا ، واتباع الشهوات ، والحسد ، والكبر ، والرياء ، وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي ، فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله وأشتغل بعلم السلم ، والإجارة ، والظهار ، واللعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى ، والبيّنات ، وبكتاب الحيض ، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة ، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه ، والرياسة ، والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه ، وليس يدري أن الاشتغال بفرض السكفائية قبل الفراغ من فرض العين معصية : وهذا لو كانت نيته صحيحة كما قال ، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى . فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه ، فهذا غروره من حيث العمل

وأما غروره من حيث العلم ، فحيث اقتصر على علم الفتاوى ، وظن أنه علم الدين ، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وربما طعن . في المحدثين ، وقال إنهم نقلة أخبار ، وحمل أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق ، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف ، والهيبة ، والخشوع ، ويحمل على التقوى . فتراه آمنا من الله ، مغترا به ، متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه ، فإنه قوام دينه وإنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتمطل الحلال والحرام . فقد ترك العلوم التي هي أهم ، وهو غافل مغرور . وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه ، ولم يدرك أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلزم التقوى ، إذ قال تعالى (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ^(١)) والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم . فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات

والمال فى طريق الله آله ، والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفت سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى . وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه ، مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شيء ، ولا بسبيله . وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ، ولم يهमे إلا تعلم طريق المجادلة ، والإلزام ، وإلغام الخصوم ، ودفع الحق ، لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسييبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ، طبعهم الإيذاء ، وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بمحو الصفات المذمومة ، وتبديلها بالمحمودة ، فإنهم يستحقرونه ، ويسمونونه التزويق وكلام الوعاظ . وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ؛ بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأما أدلة الأحكام فيشتغل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب والتعدي ، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإلغام ، وإقامة سوق الجدل بها . فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين ، وتتبع مناقضاتهم ، واسكتروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإلغامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم ، وما سموه أدلة عقائدهم . وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ، ولم يتعلم علمهم . ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها . ثم هم فرقتان : ضالة ومحققة ، فانضالة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والمحققة هي التي تدعو إلى السنة ، والفروور شامل لجميعهم . أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها ، وظنها بنفسها النجاة . وهم فرق كثيرة ، يكفر بعضهم بعضا . وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيا ، ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا ، والدليل شبهة . وأما الفرقة المحققة ، فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أم الأمور ، وأفضل القربات في دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ، أو ليس كامل الإيمان ، ولا مقرب عند الله . فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم ، حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا لتذاذه بالغلبة ، والإفحام ، ولذة الرياسة ، وعز الإتياء إلى الذب عن دين الله تعالى ، عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول . فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى ، فاجعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للنصوصات والمجادلات ، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم . بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا تخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه في الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر . بل قاوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو إمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) « مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطُّ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ » ^(٢) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقيء في وجهه حب

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الأوتوا الجدل : تقدم في العلم وفي آفات اللسان

(٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقيء في وجهه حب الرمان

الحديث : تقدم

الزمان من الغضب ، فقال : « ألهذا يُعَيِّشُكُمْ أَيُّهَا أَمِيرُكُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بِمَضْءِ يَمْنِي أَنْظَرُوا إِلَى مَا أَمَرُكُمْ بِهِ فَأَعْمَلُوا وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهَوْا » فقد زجرهم عن ذلك ، وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام ، وإفحام ، وتحقيق حجة ودفع سؤال ، وإيراد إلزام . فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم . ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم . وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأفيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام . ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا بهذا ، وقالوا لو نجما أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود ، والنصارى ، وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم ، فالناضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لنا من على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بمجده . بل يزيده التعصب والخصومة تشددا في بدعته . فاشتغالى بخصامة نفسى ومجادلتها ، ومجاهدتها لترك الدنيا والآخرة أولى . هذا لو كنت لم أُنْهَ عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيت عنه ! وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ! فالأولى أن أتفقد نفسى ، وأنظر من صفاتها ما ينفسه الله تعالى وما يحبه ، لأنزه عما ينفسه وأتمسك بما يحبه

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير . وأعلام رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين والإخلاص ، والصدق ونظائره ، وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ، ودعوا الخلق إليها ، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها عند الله ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يحبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ما تبجروا في علم المحبة إلا وهم محبوبون لله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا ولم عنها مترقون . ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب ، والبعد ، وعلم السالك

إلى الله ، وكيفية قطع المنازل في طريق الله . فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكئين على العز ، والجاه ، والمال ؛ والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره ، ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها . فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ، لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضائق عليه الأرض بما رحبت ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق . ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه ، وصلحوا على يديه ، لمات غما وحسدا . ولو أثنى أحد من المتردين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهو لأعظم الناس غرة ، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة ، والمنفر عن المذمومة ، هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به ، فبعد ذلك بماذا يعالج ، وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف . نعم : إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة ، يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله ، فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف ، فما الذي امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد ، فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لابل يرى قلبه يتلىء بالخلوة إذا أحرق به المريدون . وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى . فهل رأيت عجا يستوحش من محبوبه ، ويستروح منه إلى غيره ؟

فلا كياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ، ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنمون منها

بالتزويق ، بل بموثق من الله غليظ . والمفترون يحسنون بأنفسهم الظنون ، وإذا كشف
الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم ، فيدور بها أحدهم
كما يدور الحمار بالرحى ، كما ورد به الخبر ، لأنهم يأمررون بالخير ولا يأتونه ، وينهون عن الشر ويأتونه
وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول
هذه المعانى ، وهو حب الله ، والخوف منه ، والرضا بفعله ، ثم قدروا مع ذلك على وصف
المنازل العالية فى هذه المعانى ، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك ، وما رزقهم الله علمه ،
وما نفع الناس بكلامهم فيها ، إلا لاتصافهم بها . وذهب عليهم أن القبول للكلام ، والكلام
للمعرفة ، وجريان اللسان والمعرفة للعلم ، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة . فلم يفارق
آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف ، بل فى القدرة على الوصف . بل ربما زاد
أمنه ، وقل خوفه ، وظهر إلى الخلق ميله ، وضعف فى قلبه حب الله تعالى . وإنما مثاله مثال
مرضى يصف المرض ، ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى
لا يقدر على وصف الصحة والشفاء ، وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم فى صفة
المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة
أنه صحيح غاية الجهل . فكذلك العلم بالخوف ، والحب ، والتوكل ، والزهد ، وسائر هذه
الصفات ، غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق
فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ
القرءان والأخبار ، وعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم

وفرقه أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان
كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ، ولسانعرفه ، فاشتغلوا
بالطامات والشطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلبا للإغراب
وطائفة شغفوا بطيارات النكت ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم بالإسجاع ،
والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالستهم الزعقات والتواجد
ولو على أغراض فاسدة . فهؤلاء شياطين الإنس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . فإن
الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم وعظهم . وأما هؤلاء

فلأنهم يصدون عن سبيل الله ، ويمجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ، ورغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كانت الواعظ متزينا بالثياب ، والخييل ، والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فأيفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه ، بل لا يصلح أصلا ، ويضل خلقا كثيرا . ولا يخفى وجه كونه مغرورا وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها . فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلوس . وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوق والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ، فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له ، وأمن عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة أخرى . استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث ، أعنى في سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغربية العالية . فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ، ولقد رأيت فلانا ، ومضى من الأسناد ما ليس مع غيري وغرورهم من وجوه أنها أنهم كحيلة الأسفار ، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة ، فعملهم قاصر وليس معهم إلا النقل ، ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها ، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به .

ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين ، وهو معرفة علاج القلب ، ويشغلون بتكثير الأسانيد ، وطلب العالي منها ، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك .

ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان ، أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع ، فإن السماع بمجردده وإن لم تكن له فائدة ، ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهم بعد الإثبات ، والعمل بعد التفهم . فالأول السماع ، ثم التفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع ، فتروى الضميمة بحضر في مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ، والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع ، فإذا كبر تصدى ليستمع منه . والبالغ الذي يحضر ربما يفتل ولا يسمع ،

ولا يصنى، ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ . والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ، ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه . فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع ، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصنى لتسمع . فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً . ولو غير غيرك منه حرفاً وأخطأ علمت خطأه

ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب ، وتستدعيه بالذكر والتكرار ، كما تحفظ ما جرى على سمعك فى مجارى الأحوال . والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه ، حتى لاتصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره . فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره . فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته ، وتأمن فيه من التغيير والتحريف . فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب ، وجرى على سمعك صوت غفل ، وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون ما فيه مغيراً ، أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يحز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب . فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه ، بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها ، فن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ^(١)) وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان : إنا سمعنا ما فى هذا الكتاب ، إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه ، فهو كذب ضريع . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع ، مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير . ولو جاز أن يكتب سماع الصبي ، والغافل ، والنائم ، والذى ينسخ . لجاز أن يكتب سماع المجنون ، والصبي فى المهد . ثم إذا بلغ الصبي ، وأفاق المجنون ، يسمع عليه . ولا خلاف فى عدم جوازه . ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي فى المهد ، لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذى يلعب ،

والناقل، والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ . وإن استجراً جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد ، فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت ، وهذا يسمع الصوت ، فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ؟ فليقتصر إذ صار شيخنا على أن يقول : سمعت بعد بلوغى أنى في صباى حضرت مجلساً يروى فيه حديث ، كان يقرع سمعى صوته ، ولا أدرى ماهو . فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح . وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركي الذى لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً ، لجاز إثبات سماع صبي في المهد ، وذلك غاية الجهل . ومن أين يؤخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « نَصَرَ اللَّهُ أُمَّراً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا » وكيف يؤدى كما سمع من لا يدري ماسمع ؟

فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان . ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا بشيخنا إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة . إلا أن للمحدثين في ذلك جاهاً وقبولاً ، نخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل من يجتمع لذلك في حلقتهم ، فينقض جاهلهم ، وتقل أيضاً أجاديتهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربما عدسوا ذلك واقتضحوا فاصطلخوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة ، وإن كان لا يدري مايجرى . وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين ، لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه . فهذا غرور هؤلاء . ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معاني الأخبار . بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ، ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر

(١) حديث نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها - الحديث : أصحاب السنن وابن جبان من حديث زيد بن ثابت

والترمذى . وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط

من حديث جبير بن مطعم وأنس

مجلس السماع ، فكان أول حديث زوى قوله عليه الصلاة والسلام ^(١) « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامٍ الْمَرْءُ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو ، واللغة ، والشعر ، وغريب اللغة ، واغترؤا به ، وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة . إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو . فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو ، وفي صناعة الشعر ، وفي غريب اللغة . ومثاله كمن يفنى جميع العمر في تعلم الخط ، وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعى أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلا بد من تعلمها وتصحيحها . ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط ، بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقي زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيق عمره في معرفة لغة العرب كالمضيق له في معرفة لغة الترك والهند . وإنما فارقها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكنى من اللغة علم الغريبيين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب . فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنتهى فهو فضول مستغنى عنه . ثم لو اقتصر عليه ، وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها ، فهذا أيضا مغرور . بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن ، واقتصر عليه ، وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات . ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجيين ليزول ما به من الصفراء ، وضع أوقاته في تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجيين ، فهو من الجهال المغرورين . فكذلك غرور أهل النحو ، واللغة ، والأدب ، والقراءات ، والتدقيق في مخارج الحروف ، مهما تعمقوا فيها ، وتجردوا لها ، وعرضوا عليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التى هى فرض عين . فاللب الأتقى هو العمل . والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل ، وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية . وهو قشر بطريق

(١) حديث من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه الترمذى : وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم

الإضافة إلى المعرفة ، ولب بالإضافة إلى ما فوقه . وما فوقه هو العلم باللغة والنحو . وفوق ذلك وهو القشر الأعلى ، العلم بمخارج الحروف . والقانون بهذه الدرجات كلهم مفترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل ، فلم يرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل ، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ، ورجى عمره في حمل النفس عليه ، وتصحيح الأعمال وتصفيتهما عن الشوائب والآفات ، فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع ، وسائر العلوم خدم له ، ووسائل إليه ، وقشور له ، ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب ، سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع ، اغتر بها أربابها . فأما علم الطب ، والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يمتد أصحابها أنهم يناولون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع . لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة ، كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا . ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى ، والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى : فن اتخذ القشر مقصودا ، وعرج عليه ، فقد اغتر به . وفرقة أخرى : عظم غرورهم في فن الفقه ، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء ، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق ، وأسأوا تأويل الألفاظ المهمة ، واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه . والخطأ في الفتوى مما يكثر ، ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم ، فنشير إلى أمثلة . فن ذلك فتوأم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى . وذلك خطأ . بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتضطر إلى طالب الخلاص ، فتبرىء الزوج لتخلص منه ، فهو إبراء لاعلى طيبة نفس . وقد قال تعالى (فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا ^(١)) وطيبة النفس غير طيبة القلب . فقد يريد الإنسان بقلبه مالا تطيب به نفسه . فإنه يريد الحجامة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه . وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لاعتن ضرورة تقابله ، حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها . فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه

الباطن . نعم : القاضى فى الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر
وأنها لم تكره بسبب ظاهر . والإكرام الباطن ليس بطلع الخلق عليه ولكن مهماتصدى
القاضى الأكبر فى صعيد القيامة للقضاء ، لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الإبراء
ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه . فلو طلب من الإنسان مالا
على ملا من الناس ، فاستحيا من الناس أن لا يعطيه ، وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة
حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما
فاختار أهون الأملين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة . إذ معنى
المصادرة إيلام البدن بالصوت ، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب بئذ المال ، فيختار
أهون الأملين . والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط . ولا فرق بين ضرب
الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى ، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر . وإنما حاكم الدنيا
هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت ، لأنه لا يمكنه الوقوف على مافى القلب

وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه ، أو لشر سماعته ، فهو حرام عليه

وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام
حيث قال بعد أن غفر له : يارب ، كيف لى بخصمى فأمر بالاستحلال منه ، وكان ميتا ،
فأمر ببدائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى يا أوريا ، فأجابه لبيك يا نبي الله ، أخرجتنى من
الجنة ، فإذا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك فى أمر فهبه لى . قال قد فعلت ذلك يا نبي الله .
فانصرف وقد ركن إلى ذلك ، فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال لا
قال فارجع فبين له . فرجع فناداه فقال : لبيك يا نبي الله ، فقال إني أذنبت إليك ذنبا ، قال
ألم أحبه لك ؟ قال ألا تسألنى ما ذللك الذنب ؟ قال ما هو يا نبي الله ؟ قال كذا وكذا ، وذكر
شأن المرأة . فانقطع الجواب . فقال يا أوريا ، ألا تجيبينى ؟ قال يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء
حتى أقف معك بين يدي الله . فاستقبل داود بالبكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله
أن يستوبه منه فى الآخرة . فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تقيد ، وأن طيبة
القلب لا تحصل إلا بالمعرفة . فكذلك طيبة القلب لا تكون فى الإبراء والهبة وغيرهما ، إلا
إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه ، لأن تضطر بواعثه

إلى الحركة بالجيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وانها به مالها ، لإسقاط الزكاة . فالفقيه يقول سقطت الزكاة . فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه ، فقد صدق . فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال . وإن ظن أنه يسلم في القيامة ، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع حاجته إلى المبيع لأعلى هذا القصد ، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ! فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شَحٌّ مُطَاعٌ » وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله ، وقيله لم يكن مطاعاً ، فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ، فإن الله مطلع على قلبه ، وحبه للمال ، وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل ، حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور . ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة . والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات ، وبين الحاجات . بل كل ما لا يتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور . بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة ، وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته . وما عدا ذلك ، فهو فضوله وشهوته . ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملانا فيه مجلدات . والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل . والمغرورون منهم فرق كثيرة . فمنهم من غروره في الصلاة ، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ، ومنهم في الحج ، ومنهم في الغزو ، ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور إلا الأكياس وقليل مام فمنهم فرقة : أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحسوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض . ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام ، لكان أشبه بسيرة الصحابة : إذ توسأ عمر رضي الله عنه ماء في جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة . وكان مع هذا يدع

(١) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : تقدم غير مرة .

أبواباً من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء ، وذلك منهى عنه ^(١) وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور ، لما فاتته من فضيلة أول الوقت . وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء . وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أغز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك

وفرقه أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل ، يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت . وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يفترون صيغة التكبير لشدة الإحتياط فيه . يفعلون ذلك فى أول الصلاة ، ثم ينفلون فى جميع الصلاة ، فلا يحضرون قلوبهم ، ويفترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتمعوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة ، وتغزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خير عند ربهم .

وفرقه أخرى : تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من خارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والطاء ، وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته ، لايهمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسرارهِ وهذا من أقبح أنواع الغرور . فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأق فى مخارج الحروف ، ويكررها ويبيدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فأحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل . وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرآن فيهدونه هدأً ، وربما يهتمونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ، ويتمتع بمواعظه ، ويقف عند أوامره

(١) حديث للنبي عن الإسراف فى الوضوء : الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب أن الوضوء

شيطاناً يقال له الوهان : الحديث : وتقدم فى هجاء القلب

ونواهي ، ويشتبه بمواضع الإعتبار فيه ، إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة . فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرآن ان المهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاة ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن إقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة . فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه ، فهو مغرور

نعم : تلاوته إنما أراد لكيلا ينسى ، بل لحفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلنذ به ، ويفتر باسنلذاذه ، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هي لذته في صوته . ولو ردد ألقانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ، ذلك الإلتذاذ . فهو مغرور ، إذا لم يتفقد قلبه ، فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه ، أو بصوته . وفرقة أخرى . اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، وخواطرهم عن الرياء ، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار ، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير ، فيحمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور وفرقة أخرى : اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال . وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ويتمرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام . وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصى الله تعالى في كسب الحرام أولا ، وفي إنفاقه بالرياء ثانيا . فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه في حقه . ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق ، وذميم الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور

وفرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ، ويأمرهم بالخير ، ويتنسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف ، وطلب الرياسة والعزة .

وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف تنكر على اوقد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرياسة بولو قام بتمهيد المسجد غيره لحد عليه . بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة ، وقال لم آخذ حقى ، وزوجمت على مرتبتى ، وكذلك قد يتقدم إمامة مسجد ، ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يقال إنه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه ،

وفرقه أخرى : جاوروا بمكة أو المدينة ، واغترروا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم محلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرفه إن فلانا مجاور بذلك وتراه يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة . وإذا سمع أن ذلك نبيح ، ترك صريح التحدى ، وأحب أن يعرفه الناس بذلك . ثم إنه قد يجاور ، ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ، وإذا جمع من ذلك شيئا شاع به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء ، والبخل ، والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمنزل لو ترك المجاورة . ولكن حب المحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ، ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل . فهو أيضا مغرور . وما من عمل من الأعمال ، وعبادة من العبادات ، إلا وفيها آفات . فمن لم يعرف مداخل آفاتهما واعتمد عليها ، فهو مغرور . ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق فى الكتب . وفرقة أخرى : زهدت فى المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد . وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه ، إما بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين ، وباء بأعظم المهلكين . فإن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب . فهذا مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا ، وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدرك أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا ، وحسودا ، ومتكبها ، ومرائيا ومتصفا بجميع خباياث الأخلاق . نعم : وقد يتركه

إلى الرياسة ، ويؤثر الخلوة والمزلة ، وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتناول بذلك على الأغنياء ، ويختشع معهم الكلام ، وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، ويعجب بعمله ، ويتصف بمجمل من خباثات القلوب وهو لا يدري . وربما يمتطي المال فلا يأخذه ، خيفة من أن يقال بطل هده . ولو قيل له إنه حلال نخذه في الظاهر وردة في الخفية ، لم تسمح به نفسه ، خوفا من ذم الناس . فهو راغب في حمد الناس ، وهو من ألد أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا ، وهو مغرور . ومع ذلك فرعاً لا يخلو من توقيير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء ، والميل إلى المريدين له ، والمثنين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد . وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان ، نعوذ بالله منه .

وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح ، حتى ربما يصلي في اليوم واليلة مثلاً ألف ركعة ، ويحتم القرآن ، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته وتطهيره من الرياء ، والكبر ، والعجب ، وسائر المهلكات ، فلا يدري أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر ، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجع بها كفة حسناته ، وهيات . وذرة من ذى تقوى ، وخلق واحد من أخلاق الأكياس ، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح . ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس ؛ وخشونته ، وتلوث باطنه ، عن الرياء وحب الثناء . فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض ، وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور ، بذلك ، وصدق به ، وزاده ذلك غروراً ، وظن أن تزكية الناس له دال على كونه مرضياً عند الله ، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخباثات باطنه

وفرة أخرى : حرصت على النوافل ، ولم يمتزج اعتدادها بالفرائض ، ترى أجدهم يفرح بصلاة الضحى ، وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (١) « مَا يَقْرَبُ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ آدَاءِ مَا أَقَرَضْتُ عَلَيْهِمْ » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يمتنع على الإنسان فرضان ، أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ،

(١) حديث ما تقرب المتقربون إلىي بمثل آداء ما أقرضت عليهم : البخاري من حديث أبي هريرة باللفظ ما تقرب إلى عبيد

أو فضلان ، أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه ، كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة . وإنما النامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لأقائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت . وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) فقيل له : من أبر يا رسول الله ؟ قال « أُمُّكَ » قال ثم من ؟ قال « أُمُّكَ » قال ثم من ؟ قال « أبَاكَ » قال ثم من ؟ قال « أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ » فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب . فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأقرب .

وكذلك من لا يفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فربما يحج وهو مغرور . بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج . وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ، ودخل وقت الجمعة ، فالجمعة تقوت ، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية ، وإن كان هو طاعة فى نفسه : وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض ، لأن المغرور فيه فى طاعة ، إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية ، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها

ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه ، فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بالجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره فى حوائجه ، فمعرفة ما يحتاج هو إليه فى قلبه أولى به . إلا أن حب الرئاسة

(١) حديث من أبر قال أمك - الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

والجاء ، ولذة المباحاة وقهر الأقران والتقدم عليهم ، يعنى عليه ، حتى يغتر به مع نفسه ،
ويظن أنه مشغول بهم دينه

الصنف الثالث : المتصوفة . وما أغلب الغرور عليهم ! والمفترون منهم فرق كثيرة
ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله ، اغتروا بالزى والهيئة والمنطق
فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيههم وهيئتهم ، وفي ألفاظهم ، وفي آدابهم ومراسمهم
وإصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع ، والرقص ، والطهارة ، والصلاة ، والجلوس
على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله في الجيب كالمفكر ، وفي تنفس الصعداء ، وفي
خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشوائب والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور ،
وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة ، والرياضة ،
ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل
منازل التصوف . ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية . كيف
ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ، بل يتكالبون على الحرام ، والشبهات
وأموال السلاطين ، ويتنافسون في الرغيف والفلس ، والحب ، ويتحاسدون على النكير
والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعضهما خالفه في شيء من غرضه ، وهؤلاء غرورهم
ظاهر . ومثالهم مثال امرأة عجوز ، سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم
في الديوان ، ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع
لها مملكة ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الأبطال ألياتا
وتعودت إيراد تلك الأليات بنغماتهم حتى تيسرت عليها ، وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان
وكيف تحريكهم الأيدي ، وتلقفت جميع شنائلهم في الزى ، والمنطق ، والحركات ، والسكنات
ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان . فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت
إلى ديوان العرض ، وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته ، وتمتحن بالمبارزة مع
بعض الشجعان ، لينعرف قدر عنائها في الشجاعة . فلما جردت عن المغفر والدرع ، فإذا هي
محجوزة ضعيفة زمنة ، لا تطيق حمل الدرع والمغفر ، فقيل لها : أجنث للاستهزاء بالملك ،
وللاستخفاف بأهل حضرته والتليس عليهم ؟ خذوها فاقروها قدام الفيل لسخفها . فالتقت

إلى القيل . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة ، إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على القاضى الأكبر ، الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع ، بل إلى سر القلب

وفرقه أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاعة الثياب ، والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ، ولم تجد بدا من التزين بزيتهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقعات النفيسة ، والفوط الرقيقة ، والسجادات المصبغة ، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، وسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة ، وخياطة المرقعات منها ، فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ هؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتمتعون بنفيس الثياب ولذيذا الأطعمة ويطلبون رغد العيش ؛ ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير . وشر هؤلاء مما يتمدى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه ؛ فيطول اللسان فى الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ؛ والملازمة فى عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته ، والحائك يترك حيا كته ويلازمهم أياما معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيقة ، فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحققر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد إنهم أجراء متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق ، وأنه من المفربين ، وهو عند الله من الفجار المناقضين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى

الجاهليين ، لم يحكم قط علما ، ولم يهذب خلقا ، ولم يرتب عملا ، ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهديان وحفظه

وفرة أخرى وقعت في الإباحة ، وطورا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام . فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عمل ، فلم أتعب نفسي ؟ وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ، فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يفتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ولا يعلم الأحق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع مادتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصله إلى معرفة الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يكون عليها وينوحون سنين متوالية . وأصناف غرور أهل الإباحة من المنشبهين بالصوفية لا تحصى . وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير انتداء بشيخ متقن في الدين والعلم ، صالح للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول . وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء ، واجتنبت الأعمال ، وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد ، والتوكل ، والرضا ، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها ، وآفاتنا . فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل ، وعن إشار هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب

وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض البوادي من غير زاد ، ليصحح دعوى

التوكل ، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة ، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد . وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب ، واثق به . وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور ، وقد اغتر به قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المنجيات من الكتاب ، فلا يمكن إعادتها

وفرقة أخرى ضيقت على نفسها في أمر القوت ، حتى طابت منه الحلال الخالص ، وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق ، والتواضع ، والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفية ، فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال . وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع . وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية . ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات ، وينفقون عليهم ، لتكثر أتباعهم ، وينشر بالخدمة اسمهم . وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ، ويزعم أن غرضه البر والإتفاق . وباعث جميعهم الرياء والسمعة . وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ، ورضاهم بأخذ الحرام والإتفاق منه . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير ، كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ، ويزعم أن قصده العمارة

وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمقون فيها ، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيق الكلام في آفاتهم فيقولون هذا في النفس عيب ، والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والإلتفات إلى كونه عيبا عيب ويشنفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها . ومن جعل طول عمره في التفتيش

عن عيوب وتجوير علم علاجها، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم
يسلك طريق الحج، فذلك لا يقنيه . وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة . وابتدؤا سلوك
الطريق، وأنفتح لهم أبواب المعرفة، فكلموا تشمموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها،
وقرحوا بها، وأعجبهم غرابتها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها، والتفكر فيها وفي كيفية
الافتتاح بابها عليهم، وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله لسها
نهاية . فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيدها، قصرت خطاه، وحرم الوصول إلى المقصد
وكان مثاله مثال من قصد ملكا، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار، لم يكن
قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتمجب حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك
وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما فيض عليهم من الأنوار في الطريق،
ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها، والالتفات إليها، جادين
في السير حتى قاربوا، فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله،
فوقفوا وغلطوا، فإن الله تعالى سبعين حجابا من نور، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك
الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام، إذ قال
الله تعالى إخبارا عنه (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ^(١)) وليس المعنى
به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر، ويعلم أنها ليست آلهة، وهي كثيرة
وليس واحد، والجهال يعمون أن الكوكب ليس إله . فمثل إبراهيم عليه السلام
لا يفره الكوكب الذي لا يفر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي
من حجب الله عز وجل، وهي على طريق السالكين . ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى
إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من نور بمضاهأ أكبر من بعض، وأصغر البيرات
الكوكب، فاستعير له لفظه، وأعظمها الشمس، وبينهما رتبة القمر . فلم يزل إبراهيم عليه
السلام لما رأى ملكوت السموات، حيث قال تعالى (وَكَذَلِكَ بُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(٢)) يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد
وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا، فيترقى إليه ويقول قد وصلت، فيكشف له ما وراءه.

(١) الأنعام ٧٦ (٢) الأنعام ٧٥

حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لاوصول إلا بعده ، فقال هذا أكبر . فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص ، والانحطاط عن ذروة الكمال قال لأحب الآفلين ، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغتر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه . فإنه أيضا أمر ربانى ، وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى أنه ليتسع لجملة العالم ومحيط به ، وتتجلى فيه صورة الكل . وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ، وربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق . فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس . فهو مغرور . وهذا محل الالتباس . إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون ما يراى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج ، كما قيل

رق الزجاج ورقى الخمر فتشابه فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلامأ فيه ؛ فنلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور

وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى فى مجلدات ، ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لا رخصة فى ذكره . ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه ، إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه ، بل ربما يستضر به ، إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم . ولكن فيه فائدة وهو إخراجنا من الغرور الذى هو فيه . بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما تخيله

بذهنه المختصر، وخیاله القاصر، وجدله المزخرف، ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله. ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن، كما يكذب بما يسمعه من قبل

الصف الرابع أرباب الأموال . والمفترون منهم فرق

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد، والمدارس، والرباطات، والقناطر، وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أسامهم بالآجر عليها، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم . وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم، والنهب، والرشا، والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها . فإذا قد عصوا الله بكسبها، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها، إما بأعيانها وإما بربدها عند العجز . فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث، فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك، خيفة من أن يظهر ذلك للناس . فيبنون الأبنية بالآجر، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسماهم المكتوبة فيها، لالبقاء الخير

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه، لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه، كتب اسمه أو لم يكتب . ولولا أنه يريد به وجه الناس لأوجه الله لما افتقر إلى ذلك

وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت على المساجد . وهي أيضا مغرورة من وجهين . أحدهما : الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء، وصرف المال إليهم أهم، وأفضل، وأولى : من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس

والثاني أنه يصرف إلى ^(١) زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش، التي هي منهي عنها،

(١) حديث النبي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش : البخاري . بن قول عمر بن الخطاب : كن الناس ولا تهم ولا تصفر

وشاغلة قلوب المصايين، ومختطفة أبصارهم، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين، ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يفتربه ويرى أنه من الخيرات، ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى، وهو يظن أنه مطيع له، وممثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتتون مثل ذلك في بيوتهم، ويشغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى.

قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوق أحدهما على الباب وقال: مثلى لا يدخل بيت الله. فكتبه الملائكة عند الله صديقا. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد. وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: أنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال أمتى أمتى، بحق أقول لكم، لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله. إن الله لا يعبد بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا. وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة، بها يعمر الله الأرض، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا زَخِرْتُمْ مَسَاجِدُكُمْ وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ قَالَدَّمَارُ عَلَيْكُمْ » وقال الحسن: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) لما أراد أن يبنى مسجد المدينة، أتاه جبريل عليه السلام، فقال له ابنه سبعة أذرع طولا في السماء، لا تزخرفه ولا تنقشه. فقرر هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفا واتكل عليه وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصديق في السر

(٢) حديث: إذا زخرفت مساجدكم وحليت مصاحفكم فالسار عليكم: ابن المبارك في الزهد وأبو بكر بن أبي داود.

في كتاب المصاحف موقفا على أبي الدرداء.

(٣) حديث الحسن مرسل لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال له ابنه سبعة أذرع طولا في السماء

ولا تزخرفه ولا تنقشه: لم أجده.

ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحجبون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يؤاسيه وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع لشرب الحارث ، وقال قد عزمت على الحج ، فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة ؟ فقال أثنى درهم . قال بشر : فأى شيء تبتغي بحجك ، ترهدا ، أو اشتياقا إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله . قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك ، وتنفق أثنى درهم ، وتكون على يقين من مرضات الله تعالى ، أتفعل ذلك ؟ قال نعم . قال اذهب فأعطاها عشرة أنفس . مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعته ، ومعيّل يغنى عياله ، ومربي يتيم يفرحه . وإن قوى قلبك تعطيها واحدا فأفعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم : وإغاثة اللفان ، وكشف الضر ، وإغاثة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر ، سفرى أقوى في قلبي . فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له . المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضى به وطرا ، فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين

وفرة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون . لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمع بإخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه خية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجين ليسكن به الصفرء ومن قتله الحية متى يحتاج إلى السكنجين ! ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة . فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وفرة أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردى ، الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسغار فى خدمة ، أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه ، لينال بذلك عنده منزلة ، فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ، ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى . وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور وفرة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون . لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير . فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن الجمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يقترب بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كركة النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : يا سلام سلم ، أو نعوذ بالله ، أو سبحان الله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله ، وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك ، حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . فإذا رأيت وسلة لك كنت مغرورا . فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ، ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات .

فأقول الإنسان إذا فترت همته فى شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر ، واستوعر الطريق . وإذا صبح منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق

في الوصول إلى الغرض ، حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه . وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه . وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحارى اقتنصها . وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها . وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها ، واستخرج الدرياق من أجوافها . وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنتش من ورق التوت اتخذها . وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك ، وهو مستقر على الأرض . وكل ذلك باستنباط الحيل ، وإعداد الآلات . فسخر الفرس للركوب ، والكلب للصيد ، وسخر البازي لاقتناص الطيور ، وهيا الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل آدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه . فلو أنه أمر آخرته ، فليس عليه إلا شغل واحد . وهو تقويم قلبه . فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ، ومن الذي يقدر عليه وليس وذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد ، بل هو كما يقال لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان ، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته ، وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها فإن قلت : قد قربت الأمر فيه ، مع أنك أكثر في ذكر مداخل الغرور ، فبم ينجو العبد من الغرور ؟ . فأعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل ، فأعني به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء . فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة . والبلد لا يقدر على التحفظ عن الغرور . فصفاء العقل ، وذكاء الفهم ، لا بد منه في أصل الفطرة فهذا إن لم يقطر عليه الإنسان فاكتمس به غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السمادات كلها العقل والكياسة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « تَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي قَسَمَ الْعَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ »

(١) حديث تبارك الذي قسم العقل بين عباده - الحديث - الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية

طاوس بن سفيان وفي أوله قصة وإسناده ضعيف وزوايد يجهل من حديث أبي حمزة وهو ضعيف أيضاً

أَشْتَاتَا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيْسَتْ بَيْنَهُمَا مَعْلَمَةٌ وَبَرُّهُمَا وَصَوْمُهُمَا وَصَلَاتُهُمَا وَلَكِنَّهُمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الْعَقْلِ كَالذَّرَّةِ فِي جَنْبِ أَحَدٍ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لَخَلْقِهِ حَقًّا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ »
وعن أبى الدرداء ، أنه قيل يارسول الله ^(١) أرايت الرجل يصوم النهار ، ويقوم الليل ويحج ، ويعتمر ، ويتصدق ، وينزوي سبيل الله ، ويعود المريض ، ويشبع الجناز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ » وقال أنس : أننى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا يارسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقته . فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمُقِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ، فإذا قالوا حسن ، قال « أَرْجُوهُ » وإن قالوا غير ذلك قال « لَنْ يَبْلُغَ » وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا ليس بشيء . قال « لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبُكُمْ حَيْثُ تَظُنُّونَ » فالذكاء صحيح ، وغريزة العقل نعمة من الله تعالى فى أصل الفطرة ، . فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدرك لها

الشانى المعرفة : وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريبا فى هذا العالم ، وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعها هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ، ولم يعرف ربه فليست من على هذا ما ذكرناه فى كتاب المحبة ، وفى كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكير ، وكتاب الشكر ،

(١) حديث أبى الدرداء أرايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل - الحديث : وفيه انما يجزى على قدر عقله

الخطيب فى التاريخ وفى أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره

من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أنس على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله - الحديث : داود بن المهبر

فى كتاب العقل وهو مضمون وتقدم فى العلم

(٣) حديث أبى الدرداء كان اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله - الحديث : الترمذى الحكيم

فى النوادر وابن عدى ومن طريقة البيهقي فى الشعب وضعفه

إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله . ويحصل به التنبيه على الجلالة ، وكمال المعرفة ورأيه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة وأما معرفة الدنيا والآخرة ، فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ، ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه وربه ، وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها . ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه في الآخرة . وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحت نيته في الأمور كلها . فإن أكل مثلاً ، أو اشتغل بقضاء الحاجة ، كان قصده منه الاستمانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحت نيته ، واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا ، والجاه ، والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى ، فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة الله وبأنفسه ، الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث : وهو العلم ، أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بأفات الطريق وعقباته وغوائله . وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربح العبادات شروطها فیراعیها ، وآفاتھا فیتقیھا ، ومن ربح العادات أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذ به بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن ربح المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله ، فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه . ويعرف من ربح المنجيات الصفات الحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها . فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور . وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية . ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك ، فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخذله الشيطان ، ويدعوه إلى نصح الخلق ، ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله .

فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد ، وهو الله تعالى ، والتلذذ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه ، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم ، والنصح لهم ، والدعاء إلى الله . فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم ، سكارى في دينهم ، صامعا ، قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وقدوا الطبيب ، وأشرفوا على المطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم ، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ، ويرشدهم إلى سعادتهم ، وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ، ومؤنة ، ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه . وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، ولا يتصرف ، لشدة ضربان الألم ، فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ، ولا تعب ، ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرىء وصح ، فطاب نومه بالليل بعد طول سهره ، وهذا بالنهار بعد شدة القلق ، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر ، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها ، وقد طال سهرهم ، واشتد قلقهم ، وارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ، ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون ، وفي أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ، ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق ، وشفى من أمراض القلوب ، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل دأؤهم ، وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم ، وحرصه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة . فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة ، فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من ديب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق ، بتحسين الألفاظ ، والنفات ، والحركات ، والتصنع فى الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافيا

لأدوائهم بحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم ، وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولا كالعبيد والخدم ، فخدموه وقدموه في المحافل ، وحكموه على الملوك والسلاطين . فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذافت لذة يالها من لذة ، أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة

وأمانة انتشار الطبع ، وركون النفس إلى الشيطان ، أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب . فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب ، بادر الشيطان فخيّل إليه أن ذلك غضب لله ، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله . فوقع في الغرور . فربما أخرجه ذلك إلى الوقعة فيمن رد عليه ، فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المنع ، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه ، بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات . وكذلك إذا سبقه الضحك ، أوفتر عن بعض الأوراد ، جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله ، فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك ، والشيطان يخيّل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله ، فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور . بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله ، وزاد أثر كلامه . في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه . ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة ، لكان ينتم ذلك . إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ، وتنطى رأس البئر بحجر كبير ، فمجزوا عن الرقي من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه . فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر ، فشق عليه ، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه ، أو كفاه ذلك ونجاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة ، إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر . فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسامين من النار ، فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه . أرايت لو اهتموا جميعهم من أنفسهم ، أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه

إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتموا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب، وفواحش الجوارح، وأهلكه، فعمود بالله من زنج القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس

فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه، أو لو اهتموا بأنفسهم، وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم؛ فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبال بدمهم إذا كان الله يحمد، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقرن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم، ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم، فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزل فى قلوبهم، فإنه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يزين لها ولا يتصنع. بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية، ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فإلى رسائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها، ولا يبالى بها، لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضىء لغيره ويحترق فى نفسه

فإن قلت: فلو ترك الوعظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلعت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم، وبطلت المعاش، وهلكت القلوب والأبدان جميعا. إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصيح، وذكر مافى حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده، ليسوقهم بها إلى جهنم، تصديقا لقوله تعالى (وَلَسَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٢)) فكذلك لا تزال السنة الوعظ معلقة

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة: البيهقي فى الشعب من حديث الحسن مرسل وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا

لحب الرياسة ، ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام . كما لا يدع الخلق الشرب ، والزنا ، والسرقة ، والرياء ، والظلم ، وسائر المعاصي ، بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام . فانظر لنفسك . وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ، ولو لادفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فإنيما يخشى أن يفسد طريق الانعاط فأنما أن تحرس السنة الوعظ ، ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا ، فلا يكون ذلك أبدا فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان ، فاشتغل بنفسه وترك النصيح ؛ او نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه ، فما الذي يخاف عليه ؟ وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الأغترار ؟ . فاعلم أنه بقي عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني ، وأفلت مني بذكائك وكال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك : فما أصبرك ، وما أعظم عند الله قدرك ومحلك ، إذ قواك على قهرى ، وممكنك من التفتن لجميع مداخل غرورى . فيصنى إليه ويصدقه ، ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر ، فالمعجب أعظم من كل ذنب . ولذلك قال الشيطان . يا ابن آدم ، إذا ظننت أنك بملكك تخلصت منى ، فبجهلك قد وقعت في حبائلى

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لآمنه ؛ وأنه مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعاونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل ، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى ، فما الذي يخاف عليه بعدنى المعجب فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله ، والثقة بكرمه ، والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ، ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط ، دون أن يقارنه الخوف من مكره . ومن آمن مكر الله فهو خاسر جدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ، ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه ، من حب دنيا ، ورياء ، وسوء خلق ، والتفات إلى عز

وهو غافل عنه . ويكون خائفاً أن يسلب حاله فى كل طرفه عين ، غير آمن من مكر الله ، ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه ، وخوف لا نجاه منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزاع ، وكان قد بقى له نفس ، فقال : أفلت منى يا فلان ، فقال لا بعد . ولذلك قيل . الناس كلهم هلكى إلا العالمون . والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم فإذا المغرور هالك ، والمخلص الفار من الغرور على خطر . فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً ، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربيع المهلكات

ويتلوه فى أول ربيع المنجيات كتاب التوبة ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

كتاب التوبة

كتاب التوبة

وهو الأول من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبمحمد
يتنم أهل النعيم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب
بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه
توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم
الغفور التواب . ونمزع الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل
التوب شديد العقاب . ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، صلاة
تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب
أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق
السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة الماثلين ،
ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأئينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء
أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمي واجترم
فهى سنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباء فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر
عمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات ، والوجود والعدم . ولقد
قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم . فمن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة
فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون
التلا في سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة آدميين . فالتجرد للخير
ملك مقرب عند الملك الديان ، والتجرد للشر شيطان ، والمتلا في الشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان

فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجتان . وكل عبد مصصح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بعلامة حد الإنسان . والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخرج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجبنا محكما ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وعمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان .

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ، وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صفائر وكبائر ، وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصفائر

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك ماضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول فى نفس التوبة

بيان

حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم وبلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل
فالعلم الأوّل ، والحال الثانی ، والفعل الثالث . والأوّل موجب للثانی ، والثانی موجب
للاّلت ایجابا اقتضاء اطراد سنة الله فی الملك والملکوت

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بین العبد و بین کل محبوب .
فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، یقین غالب علی قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب
فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبة تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف علی
الفعل المفوت ، فیسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبو به ندما . فإذا غلب هذا الألم علی القلب
واستولى ، انبعث من هذا الألم فی القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له
تعلق بالحال ، وبالماضی ، وبلاستقبال . أما تعلقه بالحال ، فبالترك للذنوب الذی كان ملابسا . وأما
بالاستقبال ، فبالعزم علی ترك الذنوب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضی ، فبتلاقی
ما فات بالخیر والقضاء إن كان قابلا للخیر فالعلم هو الأوّل ، وهو مطلع هذه الخیرات ، وأعنی
بهذا العلم الإیمان والیقین . فإن الإیمان عبارة عن التصدیق بأن الذنوب سموم مهلكة ، والیقین
عبارة عن تأكد هذا التصدیق ، وانتفاء الشك عنه ، واستیلائه علی القلب ، فیشعر نور
هذا الإیمان مهما أشرق علی القلب نار الندم ، فیتألم بها القلب حیث یبصر بإشراق نور
الإیمان أنه صار محجوبا عن محبوبة ، كمن یشرق علیه نور الشمس وقد كان فی ظلمة ، فیسطع
النور علیه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبة وقد أشرف علی الهلاك ،
فتشتعل نیران الحب فی قلبه ، وتنبعث تلك النیران بإرادته للانتهاض للتدارك

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك فی الحال والاستقبال ، والتلاقی للماضی ، ثلاثة
معان مرتبة فی الحصول ، فیطلق اسم التوبة علی مجموعها وكثیرا ما یطلق اسم التوبة علی معنى
للندم وحده ، ویجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر . وبهذا الاعتبار

قال عليه الصلاة والسلام ^(١) « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجهه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه . فيكون الندم محفوفا بطريقه ، أعنى ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ . فإن هذا يعرض لمجرد الألم . ولذلك قيل هو ناز فى القلب تلهب ، وصدع فى التكبد لا ينشعب . وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة

والأقويل فى حدود التوبة لا تنحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة ، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها يقاصر عن الإحاطة بجميع معانيها . وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة

بيان

وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار ^(٢) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهتدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه ، فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتخير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبيه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصية ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه

(١) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه اساده من حديث ابن مسعود ورواه ابن جبان

والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغرلزنى يأبى الناس توبوا إلى الله الحديث :

ولابن ماجه من حديث جابر يأبى الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا - الحديث : وسنده ضعيف

يحتزى بأذى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسه نار . فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ، ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض . فإن ما لا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محبوب عنه يشقى لا محالة ، محول بينه وبين ما يشتهي ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفاني ، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله ، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى . فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإعائيم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ، ولم يتراجع بسبب سلوكه في طريق البعد . وما لم يتوجه فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحامل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلا حظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١)) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا^(١)) الآية ، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصيح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ^(٢)) . وقال عليه السلام^(٣) « التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ » وفى بعض الألفاظ قال من شدة فرحه ، إذ أراد شكر الله ، أنا ربك وأنت عبدى .

ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام ، هنأته الملائكة ، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام . فقالا يا آدم ، فرت عينك بتوبة الله عليك . فقال آدم عليه السلام : يا جبريل ، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه يا آدم ، ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة . فمن دعائى منهم لييته كما لببتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه ، لأننى قريب مجيب يا آدم ، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعائهم مستجاب . والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ابن ماجه من حديث ابن مبرود بالشرط الثانى دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد فى زوائد السند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على ان الله يحب البعد المؤمن المقتن الثواب

(٢) حديث الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة - الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس تمثال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا

في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها
 أو من معانيها ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق
 من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق، والتحزن
 عليه، فواجب. وهو روح التوبة، وبه تمام التلافي. فكيف لا يكون واجبا! بل هو نوع
 ألم يحصل لاحالة، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بقوات المحبوب. وله سبيل إلى تحصيل سببه. وبمثل هذا
 المعنى دخل العلم تحت الوجوب، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه، فإن ذلك
 محال. بل العلم، والندم، والفعل، والإرادة، والقدرة، والقادر، الكل من خلق الله وفعله
 (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ^(١)) هذا هو الحق عند ذوى البصائر. وما سوى هذا ضلال

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا نعم: وذلك لا يناقض قولنا إن الكل
 من خلق الله تعالى. بل الاختيار أيضا من خلق الله. والعبد مضطر في الاختيار الذي له.
 فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق
 العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام
 هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق
 العلم بأنه لا مانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول. فأنجزم
 الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا، ولا بد من
 حصوله عند تمام أسبابه. فإذا حصل انجزم الإرادة يخلق الله تعالى إياها، تحركت اليد
 الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة. إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضروريا،
 فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الإرادة، وهما أيضا
 من خلق الله. وانجزم الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة، والعلم بعدم الموانع، وهما أيضا
 من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة
 الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة

مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، ومالم يخلق فيها حياة ، ومالم يخلق إرادة مجزومة . ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميل فى النفس . ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب آخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدا تستدرف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والكل من اختراع الله تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم . فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة ، لأن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم ، لأن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة ، لأن العلم يولد الإرادة . ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، ولا إمكان ترتيب لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فهما وجد شرط الوصف استعداد المحل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والتبند مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلى البصر ترتيبا كليا لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ^(١)) وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ^(٢)) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر . ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير ، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل ، قد تحركت ، ورميت ، وكتبت . ونودى من وراء حجاب الغيب ، سرادقات الملكوت

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ^(١)) وما قتلت إذ قتلت ، ولكن
(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ^(٢)) وعند هذا تحجير عقول القاعدين في مجبوحة عالم
الشهادة ، فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى
أنه كسب . ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملوكوت ، لظهر لهم أن
كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا
الأمر ، ولم يحيط علمه بجوانبه . وتام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب
وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول . وقد
يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء . ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات
وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناسباتها بسبب الأسباب ، انكشف له سر القدر
وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ، ولا مبدع سواه

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر ، والاختراع ، والكسب ، أنه
صادق من وجه ، وهو مع صدقه قاصر ، وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن
إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل ،
وما كانوا قط شاهدوا صورته ، ولا سمعوا اسمه . فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفة
بالمس الذي تقدر عليه . فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجله
ووقع يد بعضهم على نابيه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا
سألهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل
اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذي لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو
صلب لا لين فيه ، وأملس لا خشونة فيه ، وليس في غلظ الأسطوانة أصلا ، بل هو مثل
عمود : وقال الذي لمس الأذن : لعمري هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن
قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل
واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ،

(١) الانفال : ١٧ (٢) التوبة : ١٤

ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل. ولكنهم يحملتهم فصرخوا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا ، فلترجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة ، العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب ، لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

بيان

أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهده ما لم يصير باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام ^(١) « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفي الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، ووحدانيته ، وصفاته ، وكتبه ؛ ورساله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى . موجبا للمقت . كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا . فالمعاصى بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل ،

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، متفق عليه من حديث أبي هريرة .

ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها القلب والروح وأدناها إمامة الأذى عن البشرية ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأظفار ، نقي البشرة عن الخبيث ، حتى يتميز عن البهائم المرسله الملوثة بأروائها ، المستكرهه الصور بطول مخالبتها وأظلالها وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وقد شهدته التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقده الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين ، فاقده لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لأصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، قترأيله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التي تخلف عنها الأعضاء التي تمددها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر في الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، الحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده . فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ، ولم تنتشر في الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة ، لا ما يسبق بالطاعات على توالي الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة صنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة ، مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة ، التي لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإن الموت غالباً لا يقع فجأة ، فيقال له . الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت . وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمالكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعة ، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصي

فإذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ، وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقياً ، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لايفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ، مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التى فيها النعيم المقيم ، والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم ، والعذاب المقيم الذى تتصرم أعمار الدنيا دون عشر عشر مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبته . فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ، ولا ينفع بعده الإحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصيح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(١)) ولا يفرنك لفظ الإيمان فتقول . المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً ، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن . فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع ، سيساق إلى الموت المدم للروح التى هى أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع . فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلم المكشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها

فإن هي لم تعمل عملها الذي ترادله، قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم

بيان

أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا، إذ قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١)) فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله، المقرب إلى الشيطان. ولا يتصور ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة، والغضب، وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين. وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار، والنور والظلمة. ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل، فقد سبق جند الشيطان، واستولى على المسكان، ووقع للقلب به أنس، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة. وغلب ذلك عليه، ويعسر عليه النزوع عنه. ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده، ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل، سلمت مملكة القلب للشيطان، وأنجز اللعين موعده حيث قال (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا^(٢)) وإن كدل العقل وقوى، كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات، ومفارقة العادات، ورد الطبع على سبيل القهر إلى المبادئ. ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق، دليله الشهوة، وخفيته الشيطان، إلى طريق الله تعالى. وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق

(١) النور : ٣١ (٢) الاسراء : ٦٢

إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان ، نبيا كان أو غيبيا ، فلا تظن أن هذه
الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سحابة نفس كل غانية هند
بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لا يمكن فرض خلافة ما لم تتبدل السنة
الإلهية التي لا مطمع في تبديلها . فإذا كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره .
فإذا بلغ مساماً تبعاً لأبويه ، غافلاً عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بثمهم معنى
الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع
عن عاداته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله
في المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك
الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من
البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقه الوالد أصلاً
وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفي كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية
بجوارحه . إذ لم يخلو عنه الأنبياء ، كما ورد في القراءات والأخبار من خطايا الأنبياء ،
وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا
يخلو عن الهمم بالذنوب بالقلب . فإن خلا في بعض الأحوال عن الهمم ، فلا يخلو عن وسواس
الشیطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة
وقصور في العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه
بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو
في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير . فأما الأصل فلا بد منه . ولهذا
قال عليه السلام ^(١) « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »

(١) حديث انه ليل ن على قلبي فاستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة: مسلم من حديث الأغر المزني أنه قال في
اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة أني لأستغفر الله في اليوم
أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار والدعوات

الحديث ولذلك أكرم الله تعالى بأن قال (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ^(١))
وإذا كانت هذه حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال
في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد
الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن
هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور
ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع . فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟
فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقه من اتباع الشهوات أصلاً . وليس
معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع
منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة . فإن تراكمت
ظلمة الشهوات صار دينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً ، كما قال تعالى
(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(٢)) فإذا تراكم الرين صار طبعاً ، فيطبع على
قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده ، وصار
لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات
تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في
ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل
بمحو ما انطبعت فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ، فيرتفع
إليه نور من الطاعات وترك الشهوات . فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة . وإليه الإشارة
بقوله عليه السلام^(١) « أَتُبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا »

فإذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه ، بمباشرة حسنات
تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاءه وجلأه ، ثم أظلم بأسباب عارضة .

(١) حديث أنبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر بريده في أوله وآخره وقال حسن صحيح

وقد تقدم في رياضة النفس

(١) الفتح : ٢ (٢) النطيفة : ١٤

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدأ عن المرأة كشغله فى عمل أصل المرأة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً . وكل ذلك يرجع إلى التوبة فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجباً ، بل هو فضل وطلب كمال ، فأعلم أن الواجب له معنيان أحدهما : ما يدخل فى فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو التقدير الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقائه لركوا المعاش ، ورفضوا الدنيا بالكفاية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكفاية ، فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى : هو الذى لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة فى الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع ، أى لمن يريد ها . ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرم من فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط فى وجود الإنسان . يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضى أن يكون كلحم على وضم ، وكثرة طروحة ، فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ، ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة ، يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تنهى الحياة ، وفيه سعى الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم للملاذ الدنيا بالكفاية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذى حدث ؟ فقال توسد لك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا ، فلم لانضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه بالحجر توبة عن ذلك التعم . أقترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً فى فتاوى العامة ؟

أفتري أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ^(١) ، لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزع ، ^(٢) وشغله شرارك نمله الذي جددته حتى أعاد الشراك الخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لسكافة عبادته ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه أثرا يمنه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ؟

أفتري أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه ، أدخل أصبه في حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه ربحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شره بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا اسر وقر في صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟ فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ، وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تترك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف مرة أن يغرك بالله الغرور . فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى ، في كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال : لو لم يكن العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة ، لكان خليقا أن يجزئه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة ، وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاءه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأي جواهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها في الغفلة ، فقد خسرت خسرانا مبينا . وإن صرفتها إلى معصية ، فقد هلكك هلاكا فاحشا . فإن كنت لاتبكي على هذه المصيبة ، فذلك لجبرلك . ومصيبتك بجبرلك أعظم من كل مصيبة ،

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضا

(٢) حديث نزع الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق : تقدم في الصلاة أيضا

لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل منصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظن للعبد ، أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بمخذا فيبرها لخرج منها ؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعشب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلا . وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ^(١)) وإليه الإشارة بقوله تعالى (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ^(٢)) ففيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت ، أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأتزو دصالحا لنفسى فيقول : ففيت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرنى ساعة . فيقول : ففيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ، فيتفرغ بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتخرج غصصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضییع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنی ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمش هذا يقال (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ^(٣)) وقوله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ^(٤)) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوييف ، كان بين خطرين عظيمين . أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطلبها ،

(١) سبا : ٥٤ (٢) المنافقون : ١٠ ، ١١ . (٣) النساء : ١٨ (٤) النساء : ١٧

فلا يقبل المحو، الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد في الخبر^(١) «إِنَّ أَكْثَرَ صَبَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ» فما هلك من هلك إلا بالتسويق. فيكون تسويده القلب نقداً، وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم. ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده. وكذا سائر أسباب الطاعة. فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانتة، فأمره مخطر. قال بعض العارفين: إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام. أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدى، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك واثمتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وأنظر إلى كيف تلقاني. والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدى، ماذا صنعت في أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد، فألقاك على الوفاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ^(١)) ويقول تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ^(٢))

بيان

أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول، لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومنتعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنا نتفوته السلامة بكبدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها. وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكبدورة الوسخ مع بياض الصابون.

(١) حديث إن أكثر صباح أهل النار من التسويق: لم أجده أصلاً

(١) البقرة: ٤٠ (٢) المؤمنون: ٨

وكأن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه. فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة. فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه، ويطهره، ويزكيه . وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول. فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لا مرد له . وهو المسمى فلاحا في قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ^(١))

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر، أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة، كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور، كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره، ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين، بل عن حقيقة نفسه، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعنى به قلبه. إذ قلبه يعرف غير قلبه. فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه! فن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن ينوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم: قد يقول باللسان تبت، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلا، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يبيض الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد؛ بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة . ولسكنا نعصده جناحه بنقل الآيات، والأخبار، والآثار . فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به. وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ^(٢)) وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ^(٣)) إلى غير ذلك من الآيات

وقال صلى الله عليه وسلم « **للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ** » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءٍ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « **لَوْ عَمِلْتُمْ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَأْتِيَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** » وقال أيضا ^(٣) « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَذُنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ** » فقيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « **يَكُونُ نَصَبٌ عَلَيْهِ تَائِبًا مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ** » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « **كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ** » وقال صلى الله عليه وسلم « **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** »

ويروى ^(٥) أن حبشيا قال يا رسول الله ، إني كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة ؟ قال نعم . فوئى ثم رجع فقال : يا رسول الله ، أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال نعم . فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه . ويروى ^(٦) أن الله عز وجل لما لعن ابليس ، سأله النظرة

(١) حديث أن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار - الحديث : مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده

بالليل لتوب مسيء النهار - الحديث : وفي رواية لا طبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار - الحديث :

(٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتأتى الله عليكم : إرمجة من حديث أبي هريرة واسناده

حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتهم

(٣) حديث أن العبد ليدنس الذنوب فيدخل به الجنة - الحديث : ابن المبارك في الزهد عن المبارك برفضالة

عن الحسن مرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة أن العبد ليدنس الذنوب فإذا ذكره

أحزنه فادانظر الله إليه أنه أحزنه غفر له - الحديث : وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه

مضعف في الحديث ولأن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر أن الله لينفع العبد بالذنوب يذنبه

والحديث غير محفوظ قاله العقيلي

(٤) حديث كفارة الذنوب الندامة : أحمد والطبراني وهن في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمر

ابن مالك اليشكري ضعيف

(٥) حديث أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم - الحديث : لم أجده أصلا

(٦) حديث أن الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لأخرجت من قلب

ابن آدم مادام فيه الروح - الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد

أن الشيطان قال وعزتك يارب لأزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي

وجلالى لأزال أغفر لهم ما استغفرونى وأورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يره إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فذكرته احتياطا

فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال
الله تعالى . وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام الروح فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١)
« إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الْوَسْخَ » والأخبار فى هذا لا تحصى
وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) ^(٢)
فى الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر
المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم . وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبهم
وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبغوا ثابئين
وأمسوا ثابئين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها
قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب ويروى أن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى
إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم
تعصنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد لا يذنب الذنب فلا يزال نادما
حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس . ليتنى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت . تعرض
على الرجل ذنوبه . يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إني قد كنت مشفقا منه ، قال
فيه غفرله . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه
أن مسعود ، ثم التففت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب ، كلها
تفتح وتعلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكا موكلا به لا يفلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم . تذكر نامع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى (إِنْ يَنْتَهُوا
يُغْفَرْ لَهُمْ مَآقَدَ سَلَفٍ) ^(٣) فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا . ولقد
بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبي
مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفه عين ، وسقط عنه أسرع
من طرفه عين . وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

(١) حديث ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو معنى
أتبع السيئة الحسنة تمحها ورواه الترمذى وتقدم قريبا

بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة و يروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحبته ، فسأه ذلك ، فقال : إلهي أعطتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً . أحببتنا فأحبنّاك ، وتركنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن لله عبادة نصبوا لأشجار الخطايا نصب رواق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندماً وحزناً : فجنوا من غير جنون ، وتبدلوا من غير عي ولا بكى ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولعت قلوبهم في الملكوت : وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلنوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العلا ، حتى أناخوا في رياض النعيم ، وخاضوا في بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ، ومعدن المزم والكرامة . فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة

فإن قلت : أفنقول ما قالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله فأقول : لا أغنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا ما يريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء منيلاً للعطش ، والقدرة متمسكة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى . ولكن ما سبقت به إرادته

الأزلية فواجب كونه لا محالة . فإن قلت : فما من نائب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه ، فلم يشك فيه .
فأقول : شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل ، وذلك لشكك في حصول شروط الإسهال في الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبعه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثلة موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك في قبولها لا محالة ، على ما سيأتى في شروطها إن شاء الله تعالى

الركن الثانى

فما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته . وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، في ترك أو فعل . وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا . ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته

بيان

أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ، على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله . ولكن تنحصر مميزات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقترض كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار ، كما يقتضى السكر والخمر ، والزعفران ، في السكنجين آثاراً مختلفة

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحجب

المدح ، والثناء ، والعز ، والننى ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستملاء على الكفاية ، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا ، وهى المهلكات العظيمة ، التى هى كالأهمات لأكثر المعاصى ، كما استقصيناه فى ربيع المهلكات

الثانية : هى الصفة الشيطانية ، التى منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكاب ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقه وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع ، والمنكر ، والحيلة ، وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهى الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أهمات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح — قسمة ثانية : —

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة ، وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير قايما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وتناول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب فى المعاصى ، وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجا على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ

وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا ، فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء فى الخبر
 (١) « الدَّوَّائِينَ ثَلَاثَةٌ دِيْوَانٌ يُغْفَرُ وَدِيْوَانٌ لَا يُغْفَرُ وَدِيْوَانٌ لَا يُتْرَكُ فَالدَّيْوَانُ الَّذِي
 يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدَّيْوَانُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى
 وَأَمَّا الدَّيْوَانُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظَلَمُ الْعِبَادِ » أى لا بدوان يطالب بها حتى يعفى عنها - فسمعة ثالثة :-

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صفائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها . فقال قائلون
 لأصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة وهذا ضعيف . إذ قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ
 مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) (١) وقال تعالى (الَّذِينَ
 يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ) (٢) وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ
 وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكَفِّرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنْ اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ » وفى لفظ آخر « كَفَّارَاتُ
 لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه (٤) عبد الله بن عمرو بن
 العاص « الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »

واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر ، من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى
 إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود . هن أربع : وقال ابن عمر : هن سبع .
 وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع
 يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة
 وقال غيره : كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل
 ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ،
 وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس
 ثلاثين آية منها عند قوله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ) (٥) فسيل ما نهى الله عنه

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر - الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة

ابن موسى الدفيع صفه ابن ميين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبرانى

(٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنب الكبائر : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عبد الله بن عمرو والكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس : رواه البخارى

(٤) النساء : ٣١ (٥) النجم : ٣٣ (٦) النساء : ٣١

في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكي . الكبائر سبع عشرة ،
جمعها من جملة الأخبار^(١) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر

(١) للأخبار الواردة في الكبائر حتى المصنف عن أبي طاب لب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة

الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاضرار
على معصيته والفتنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس
والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة
والفرار من الزحف وعقوق الوالد بن انتهى وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها
في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا
يا رسول الله وما هي قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله بالإلحاق وأكل الربا
وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكرة
الأأنبيكم بأ كبر الكبائر الاشرار بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما
من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال الأأنبيكم
بأ كبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل
ولذلك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس
إنما أربيع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الإلحاق ولا تزنا ولا تسرقوا
وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنا ولا تسرقوا
وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الجمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه وقوفاً
على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر ركلاها ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس
بإسناد حسن إن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط
من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشرار بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل
الماء ومنع العجل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة
الكبائر أولهن الاشرار بالله وفيه والانفال إلى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف
السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حشمة في الكبائر والتعرب بعد
المحجرة وفيه ابن لميعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع
إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني ولا حاكم من حديث عبيد
ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام والطبراني من حديث وإثالة
أن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم يقل وله أيضاً من حديثه أن من أكبر الكبائر
أن ينتفي الرجل من ولده ومسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة
ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد
ابن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس
أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال اتهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وأنه لكبير أما أحدهما
فكان يمشي بالنخعة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله - الحديث : ولا حاكم في هذه القصة
من حديث أبي بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبي داود والترمذي من حديث

وغيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من معسكره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولوسواكا من أراك ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة

وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .

واثنان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجلة عقوقها أن يقسم عليه فى حق فلا يبرقسهما . وإن سألناه حاجة فلا يعطينهما . وإن يسأله فيضربهما . ويجوعان فلا يطعمهما

هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال

انس عرضت على ذنوب أمتى فلم أردنا أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكك عليه أبوداود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبي شيبة فى النوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع اصرار وفيه أنوشية الخراسانى والحديث منكريف به (وأما الموقوفات) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وفل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وفطية الرحم وروى ابن أبي الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصره عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون الآن بعضها لا يصح اسناده كما تقدم وانما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد فى المرفوع وما ورد فى الموقوف والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم

ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل . فأما قتل العين ، وقطع اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع المذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله . كيف وفي الخبر « مِنَ الْكَبَائِرِ ^(١) السُّبْتَانِ بِالسُّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عَرَضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذا زئد على قذف المحصن . وقال ^(٢) أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة . إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقالت طائفة كل عمدة كبيرة ، وكل منهي الله عنه فهو كبيرة : وكشف اللطاء عن هذا: أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة أم لا ، لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لا ثم البحث عن وجوده في السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم لا نسان أن يطلق على ما تبوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ما ألوحب الحد عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيمة ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكبيرة لاحالة بالإضافة . إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ،

(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم : عزاه أبو منصور

الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد . والذي عندهما من حديثه

من أربي الربا استطالة في عرض المسلم بغير حق كما تقدم

(٢) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعتها

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبرز بسند صحيح وقال من الوقات

بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص

وقال صحيح الاسناد

ولا يبعد تنزيها على شئ من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى
(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ^(١)) وقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا يَنْهَوْنَ إِلَّا الْكَبَائِرَ » فإن هذا إثبات حكم الكبائر

والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استمظامه إياها ، وإلى
ما يعلم أنها معدودة في الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه : فالطمع في معرفة حد
حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسمع من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا ، أو خمسا ، ويفصلها . فإن لم يرد
هذا ، بل ورد في بعض الألفاظ^(١) ثلاث من الكبائر ، وفي بعضها^(٢) سبع من الكبائر .
ثم ورد أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه
لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إيهامه
ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها . نعم لناسبيل كل
يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرها بالظن والتقريب
ونعرف أيضا أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ، أن مقصود الشرائع كلها سياق
الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقاءه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بعرفة الله تعالى
ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٣)) أى ليكونوا عبيدا لى . ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ،
ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى بعبادة الأنبياء .
ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام^(٣) « الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةُ »

(١) حديث ثلاث من الكبائر: الشيخان من حديث أبي بكرة ألا تنهك بأكثر الكبائر ثلاثا - الحديث: وقد تقدم

(٢) حديث سبع من الكبائر: طب في الاوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير
من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر - الحديث: ثم عددهن
سبعاً وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات

(٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة: لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم
الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار ابن تيمية أن تزود منها لآخرته بالحديث: وإسناده ضعيف

ففسار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال . فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ، ويليهِ ما يسد باب حياة النفوس ، ويليهِ ما يسد باب المعاش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب تحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد بيعته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ، ثم يأمرهم بما ينمهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب

الأولى : ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل . والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا ، الأمن من مكر الله ، والتقنوط من رحمته . فإن هذا أيضا عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلّقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله ، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ، وإلى ما يشك فيه . وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطعم المرتبة الثانية : النفوس . إذ يبقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لا محالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصدم عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى . ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف ، وكل ما يفضي إلى الهلاك ، حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض . وينع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر في قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجد قريبا من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الأنساب ، ويبطل التوارث والتناصر

وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإثاث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا ينم أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معاش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والمرفة وغيرهما . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تعريضها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبار وذلك بأربع طرق أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك ؟

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضا من الخفية . وأعنى به فى حق الولي والقيم . فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تقويتها بشهادة الزور

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين النعوس . فإن هذه طرق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالسكائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالاستراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من السكائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن

دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر . وذلك واقع في مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي ، القذف ، والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا . لأن العقل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل . فإذا أزيل العقل من الكبائر . ولكن هذا لايجرى في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة ، وإنما هو شرب ماء نجس . والقطرة وحدها في محل الشك . وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فالتوقف فيه مجال

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في الرية . ولتناولها مراتب : وأعظمها تناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل مايجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرد لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني ، فله أن يشهد ، ويحلف المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات . فإذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك النفس ، أو مرض ، أو غيره

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شئ سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بنصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ما قيل فيه ، فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحقق بالكبائر

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نفى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا ، وإلى ما ينبغى أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذا لامطع فيه ، فطلب رفع الشك فيه خال

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإيهام ، لأن دار التشكيك هى دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لا يحكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرها . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإيهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ^(١)) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنابها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عينا ، أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهى الحظر بطبعه ، ولو أبيع له ما شر به ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى

من مقدماته ، كسماع الملاحى والأوتار . نعم : من يشتهى الحر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحر ، ويطلقها فى السماع ، فجاهدته النفس بالكف ربما تحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك ، وتكون من التشبهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع ، بل ورد بالفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ إِشْرَاكٌ بِاللَّهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْتُ الصَّفَقَةِ » قيل ماترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة ، ونكت الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالمدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لآحالة مبهما

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطاً فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاحى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب ، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر ، وقال الشافعى رضى الله عنه : إذا شرب الخنى النبيذ حددته ، ولم أردد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يردبه الشهادة . فدل على أن الشهادة نفيًا وإثباتًا لا تدور على الصغائر والكبائر . بل كل الذنوب تقدر فى العدالة ، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمر الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على ستمه مع المخالطة بعد ذلك . ولولم يقبل إلا قول مثله لمز وجوده ، وبطلت الأحكام .

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكت الصفة - الحديث : الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد

والشهادات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاهى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصفائر من هذا القبيل . فإلى مثل هذا المهاج ينبغي أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصفائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواطبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواطبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره . فهذا بيان حكم الصفائر والكبائر

بيان

كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإننا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت . ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ^(١)) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن مؤذن فى رمضان

(١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب

(١) العكبوت : ٤٣

قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كائى أصب الزيت فى الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حاليها ، فإنها أملك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو يردّ إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر : رأيت كائى أقلد الدر فى أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نغنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقا . وإن نظر إلى صورته وجد كاذبا . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقا ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذى يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » وهو من المثل الذى لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل ، لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيرا ، فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل فى صفات إلهية ، حتى فى الكلام ، وجعلوا صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول

وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، يجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يُؤْتَى بِالْمُوتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَذْبَح » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء

(١) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم

(٢) حديث أن الله خلق آدم على صورته : تقدم

(٣) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبى سعيد

ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسرارهم فقال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ^(١)) ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جىء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمركما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا المعبر صادق فى تصديقه ، وهو صادق فى رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذى يطلم الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ ، عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقا ، وكان معناه صحيحا

فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا ، وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفا بعباده ، وتيسيرا للإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبتت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القراء بقوله (كُنْ فَيَكُونُ ^(٢)) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّسْمَنِ » عن سرعة التقلب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهّم من المثل الذى نضربه معناه لصورته ، فنقول :

الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتوا لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا أبته ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها ، إلا أنا إن مجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين

وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلاً ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معاندآله في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفاً له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة ، أو تنكيلاً بالمثلة ، بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الخفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل في دار السلامة . ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً ، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة (١) ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلنذكر كيفية توزعها عليها

الرتبة الأولى : وهي رتبة الهالكين . ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معاني المثال . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ،

(١) حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة

وبأنبيائه المرسلين ، إلههم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة ، وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة ، فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق . ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحدود العينية ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط . وقالوا : من يعبد الله بعوض فهو لئيم ، كأن يعبد الله بطلب جنته ، أو لخوف ناره . بل العارف يعبد لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لا يشتهيها . وأما النار ، فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة . ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحق مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال ، فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال ، لأن الغضب نار في القلب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَلْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيوف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحققه بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان . وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ، ولم يعد ذاك ألماً ، وقال . العدو في الميدان مع الصولجان ، أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء

(١) حديث العصب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبي سعيد خدرى وقد تقدم

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلى القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان ، والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صح قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ^(١)) فجعل من لم يتذكر بالقرءان مفلسا من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جميعا . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ^(٢)) هو الأمير والملك ، لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهى حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى تقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نورد لها .

الرتبة الثانية : رتبة المذنبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه . فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى (قُلِ اللَّهُ مُنَّمْ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ^(١)) وهو أنت تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ^(٢)) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشره عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قاذح فى كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . فذلك يقتضى لا محالة نقصانا فى درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل ماثل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقتله . وإذا لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ^(٣)) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأننا تيقنا أن على النار واردون ، وشككنا فى النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد ^(١) فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادى يا حنان يا منان قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل .

واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد . وإن الاختلاف بالشدة لانهائية

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسطل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

(١) الأنعام : ٩١ (٢) فصليت : ٣٠ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢ .

لأعلاه ، وأدناه التعذيب المناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال المناقشة في الحساب ؛ ثم يعفو . وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب . ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع . إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحرم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقتلها ، وكثرة السيئات وقتلها

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، وهو المعنى بقوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١)) وبقوله تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ^(٢)) وبقوله تعالى (وَأَنْ كُنْتُمْ كَانِئًا لِّلْإِنْسَانِ إِلَّا مَسْئَتَهُ ^(٣)) وبقوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٤)) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال . وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ^(٥) « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ^(٦)) فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، أغنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصّر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) فصل : ٤٦ (٣) النجم : ١٧ (٤) الزلزلة : ٨ (٥) النساء : ٤٠

بحكم نص القرءان مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، فى عيشة راضية . نعم : التحاقه بأصحاب اليمين ، أو بالمقربين ، ونزوله فى جنات عدن ، أو فى الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانسراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملا الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لما نازله فإلما يكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم

وأما المؤمن إيماننا تقليديا من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضا على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر . وأدى الفرائض كلها ، أعنى الأركان الخمسة ، التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعداً يخاف عليه سوء الخاتمة . وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ، إلا أن يعفو الله ، عذابا يزيد على عذاب المناقشة

في الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين . ففي الخبر ^(١) « آخِرُ مَنْ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال . بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان ، والجمل في الكفة الأخرى ، عشر عشيره . بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهياكلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، بل لمساويته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجواهريون . فإن روح الجوهري لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به الصبي ، بل القروي والبدوي ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله . والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْجَنَّةُ فِي السَّمَوَاتِ » كما ورد في الأخبار ، والسّموات من الدنيا ،

(١) حديث أن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضغاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث كون الجنة في السموات : مخ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن .

فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوى .

وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « اَرْحَمُوا ثَلَاثَةَ عَالِمًا يَبْنِي الْجَهْلُ وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ وَعَزِيْزَ قَوْمٍ ذَلَّ » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام ^(٢) « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأُمَثَلِ فَلَا تُمَثِّلِ »

فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن ، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لايزيدهم دعاؤه إلى الله بالإفراار ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال ^(٣) « رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » فإذا لا تحلوا الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ، ولا تذلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، والسعاية بهم إلى السلاطين ، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المتناض عن الجمل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فإذا عرفت هذه الدقائق ، فأمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط ، فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس ، وإنما أنت مفارق للحمار بسر الهى ،

(١) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال - الحديث : ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن

أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الأئمة قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحتري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين

(٢) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل : الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى

وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكر

دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون . الحديث

(٣) حديث رحم الله أخى موسى لقد أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ : البخارى من حديث ابن مسعود

عرض على السموات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، وإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس، لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم. فمن ذهل عن ذلك، وعظله وأهمله، وقنع بدرجة البهائم، ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها، ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم: فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس. وكل من نسي الله أنساه الله لاهياله نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلا الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافر لا نعمه ومتعرضا لنقمته. إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة تسترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها: وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القلب الفاني وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القلب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إمام مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أياضاراجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين. ولذلك قال تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ^(١)) فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أفقيتهم وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه، ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال، والنزول إلى منازل الجهال

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر. ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة، فلا ينفع إلا في عالم الملك، فيدفع السيف عن رقبتة، وأيدي الغانمين عن ماله. ومدة الرقبة والمال مدة الحياة. فحيث لا تبقى رقبة ولا مال، لا ينفع القول باللسان. وإنما ينفع الصدق في التوحيد. وبما التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله. وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه، إذ لا يرى الوسائط، وإنما يرى

مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال ^(١) « أُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . ففى الأثر أن العبد ليقف بين يدى الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سامت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سبب عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : ياربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقي طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له بصكا إلى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا بخالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، ونمحوض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة

(١) حديث أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث

لهما أسباب خفية ، ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعمما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوِّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب : وهو انغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١)) ولا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ^(٢)) وكل ذلك صحيح ، فليس للألسنة إلا ماسعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاعوا أزاع الله قلوبهم . ولما غيروا مآباً أنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ^(٣)) وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا ، والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ^(٤))

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فإما من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ،

(١) فصلت : ٢٦ (٢) النساء : ٤٠ (٣) الرعد : ١١ (٤) النجم : ١١

ومقام بين المقامين، عبر الشرع عنه بالأعراف^(١) وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم
يقينا من الآيات والأخبار، ومن أنوار الاعتبار. فأما الحكم على العين، كالحكم مثلا
بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة، ويبعد
أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة، حتى قالت عائشة رضی
الله عنها^(٢) لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقال « وَمَا يُدْرِيكَ ؟ » فإذا الأشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام

الرتبة الرابعة: رتبة الفازين. وهم المارفون دون المقلدين. وهم المقربون السابغون. فإن

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف: البزار من حديث أبي سعيد الخدرى سئل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم
فمنعهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة

والنار - الحديث: وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من
رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر
نجح السننى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف

قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة - الحديث: وقال صحيح على شرط
الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس
وحزمة وعلى وجهه - الحديث: هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين

(٢) حديث عائشة انها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك

رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة * قلت روى البخارى من حديث
سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى في الروضة

فابراهيم عليه السلام واما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقبله رسول الله وأولاد
المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف
يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان ولا نسأله من حديث الأسود بن سريع كنانى غزاة

لنا - الحديث: في قتل النذرية وفيه ألان خياركم أبنا المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة
تولد على الفطرة - الحديث: واسناده صحيح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود

يولد على الفطرة - الحديث: وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد الا على هذه الملة ولأبى داود
في آخر الحديث فقالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا

عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين
فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود
اذا هلك لهم صى صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة

بخلقها الله في بطن أمه الا أنه شقي أو سعيد - الحديث: وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث
ابن مسعود الوائدة والموودة في النار وله من حديث عائشة قلت يا رسول الله ذرارى المؤمنين

المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة، فهو من أصحاب اليمين. وهؤلاء هم المقربون. وما يليق هؤلاء بجواز حد البيان. والقدر الممكن ذكره ما فصله القراءان، فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم. فهو الذي أجمله قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ^(١)) وقوله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم. وأما الحور، والقصور، والفاكهة واللبن، والعسل والخمر، والحلى والأساور، فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها. ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم، فهي غاية السعادات، ونهاية اللذات ولذلك قيل لاربعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت الجارثم الدار. فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه، حتى عن أنفسهم. ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه، المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره، وصارت همومه هما واحدا وهو محبوه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوه حتى يلتفت إليه، لانفسه ولا غير نفسه. وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله، ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته، فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة، وأن الدار الآخرة هي الجوان لو كانوا يعلمون

فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه

فقال مع آبائهم فقلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فندري المشركين قال مع آبائهم قلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين ولاطرائي من حديث خديجة قلت يا رسول الله أين أطفالي منك قال في الجنة. قلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالي قبلك قال في النار قلت بلاعمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واستاده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم

بيان

ما نعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولو احق من جملة الصغائر قلما يزنئ الزانى بغتة من غير صراودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعادة . فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكرهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة . وقد جاء في الخبر ^(٢) « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَفْئَةٍ فَطَارَهُ » وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصي به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار

(١) حديث خير الاعمال أدومها وإن قل : متفق عليه من حديث عائشة بنقطة أحب وقد هدم

(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه - الحديث : البخارى من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا

قال بعض العارفين . لاصغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة : وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم تعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول : أما رأيتني كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر في مناظراته أما رأيتني كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته في ماله ؟ وكيف استحقت ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به في الحبل عليها ، فينبغى أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمرضى الذى يفرح بأن ينكسر إناءه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ، لا يرجى شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإسهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يعمل مقتا ليزداد بالإسهال إنما . فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به . فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ^(١))

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه في مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه ، أو أشهده

وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يتبن المرفوع من الوقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فغلظت به . فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وهيته الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفي الخبر ^(١) « كُلُّ النَّاسِ مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك السر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذبذب فإن كان ولا بد فلا ترغيب غيرك فيه فتدب ذنبين . ولذلك قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ^(١)) وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه

ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس . العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته أيام يترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان في الأعراض وتعمديه باللسان في المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة : فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفي الخبر ^(٢) « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » قال تعالى (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ^(٣)) والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعمل وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق وبفرق أهلها . وفي الإسرائيليات أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل في الإصلاح دهرا . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، وعليهم وظيقتان إحداها : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك

(١) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمق وقد تقدم

(٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها - الحديث : مسلم من حديث جرير بن

عبدالله وقد تقدم في آداب الكسب

(١) التوبة : ٦٧ (٢) يس : ١٧

يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق، فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام . فيكون له مثل ثوابهم . وإن مال إلى التجميل، مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرONT على التجميل إلا لمخدمة السلاطين، وجمع الحطام من الحرام . ويكون هو السبب في جميع ذلك . فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بالربح، وإما بالخسران: وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا . وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمسك . ولتمامها علامة، ولدوامها شروط . فلا بد من بيانها، أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسببها . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بقوات المحبوب . وعلامته طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طل عليه مصيبتة وبكاؤه . وأي عزيز أعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي خبر أصدق من الله ورسوله ! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طيبا، أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه؛ لطلال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى، والتعرض بها للنار . فآلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب، وغزارة الدمع . وفي الخبر (١) « جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةٍ » ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه، وقد سأله قبول توبة عبد، بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يرب قبول توبته فقال : وعزتي وجلالي، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته، وحلاوة ذلك الذنب الذي

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة : لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرفقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعة وأرق قلبا ٢

تاب منه فى قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق ، واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه وألمه ، وتناثر شعره . وقلجت أعضاؤه ، فإذا قدم إليه غسل فيه مثل ذلك السم ، وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك الغسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن الغسل الذى ليس فيه سم أيضا ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلامة بأن كل ذنب فذوقه ذوق الغسل ، وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بعثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة ، والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى ، متهاونا بالذنوب ، مصرا عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد تناول السم فى الغسل النفرة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من الغسل بل مما فيه . ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار فى كل ذنب وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودولم ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه السن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرا شهرا ، ويوما يوما ، ونفسا نفسا . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها . فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها فى ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقضيها عن آخرها . فإن شك فى عدد ما فاتته . منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقي . وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، وبصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم ، فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمدا ، أو نسي النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، وبشتغل بقضائه . وأما الزكاة ؛ فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة فى مال الصبي : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته . فإن أداه لاعلى وجهه يوافق مذهبه ، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فيقضى

جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً. وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء. وأما الحج، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج، والآن قد أفلس فعليه الخروج. فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد. فإن لم يكن له كسب ولا مال، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً. قال عليه السلام (١) «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحْجْ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا» والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها. وأما المعاصي، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها. فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاء، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذ من قوله صلى الله عليه وسلم (٢) «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا» بل من قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١)) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر. ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله، وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً. ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه. وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة. فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نورير ترفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي التناسبات، فلذلك ينبغي أن تحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة. وهذا التدريب والتحقيق من التلطف في طريق

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً - الحديث : : تقدم في الحج

(٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذی من حديث أبي ذر وصححه وتقدم

أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس

المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً فى المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشئ يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها ، والحنين إليها . فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له . إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مِنْ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يُكَفَّرُهَا إِلَّا الَّهُمُّومُ » وفى لفظ آخر ^(٢) « إِلَّا الَّهُمُّ يُطَلِّبُ الْمَعِيشَةَ » وفى حديث عائشة رضى الله عنها ^(٣) « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرُهَا أَدْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الَّهُمُّومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرفه ، هو ظلمة الذنوب والهموم بها . وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع : فإن قلت : هم الإنسان غالباً بما له وولده وجاهه ، وهو خطيئة ، فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة . ولو تمتع به لمت الخطيئة فقدر روى أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام فى السجن ، فقال له : كيف تركت الشيخ الكتيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة تكلى ، قال فماله عند الله ؟ قال أجزم مائة شهيد . فإذا الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله . فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففهيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتعسر ، وترك مثله فى المستقبل ، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها . فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم . ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال . ويكفر تناول أعراضهم بالغبية والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله . ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء ، إذ العبد مفقود لنفسه ، موجود لسيدته . والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، فيقابل الإعدام بالإيجاد . وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع ، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة . ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ، ما لم يخرج عن مظالم العباد . ومظالم العباد إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو القلوب . أعنى به الإيذاء

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفى لفظ آخر الالههم فى طلب المعيشة : طس وأبو نعيم

فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وتقدم فى النكاح

(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم : تقدم أيضاً فى النكاح

وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحرز

المحض . أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدنة ووصولها إلى المستحق، إمامه أو من عاقلته، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول: وإن كان عمداً وجبالاً للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عقا عنه، وإن شاء قتله. ولا تسقط عهده إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كالألوان، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتئم من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روى ^(١) أن ماعز بن مالك، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني. فردّه. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت. فردّه الثانية. فلما كان في الثالثة، أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرجم. فكان الناس فيه فريقين. فقاتل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته. وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوْ سِعَتْهُمْ» ^(٢) وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني. فردّها. فلما كان من الغد قالت يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا. فوالله إني لحبلى. فقال صلى الله عليه وسلم «أَمَّا الْآنَ فَأَذْهَبِي حَتَّى نَضْعِي» فلما ولدت أمت بالصبي في خرقة. فقالت هذا قد ولدته. قال «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَقْطِيعِيهِ» فلما فطمته أمت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، قد فطمته. وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد بن الوليد بجحر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال «مَهْلًا يَا خَالِدُ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعاً وقوله لقد تاب توبة - الحديث: مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة - الحديث: مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله

بنفسب، أو خيانة، أو غبن في معاملة بنوع تلبس، كتر ويحزائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص
أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده.
فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراج بعد البلوغ، إن كان الولي قد قصر فيه. فإن لم يفعل
كان ظلما مطالبه، إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ. ويحاسب نفسه على الحبات
والدنانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته. قبل أن يحاسب في القيامة: وليناقتش قبل أن يناقتش. فمن
لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه. فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من
الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا، وليطف في نواحي العالم
وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم. وهذه التوبة تشق على الظامة وعلى التجار، فإنهم
لا يقدرون على طلب المسلمين كلهم، ولا على طلب ورثتهم. ولكن على كل
واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه. فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات،
حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته
بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم؛ فيهلك بسيئات غيره
فهذا طريق كل تائب في رد المظالم. وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر
بحسب طول مدة الظلم. فكيف ذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون
تشميره للحسنات والوقت ضيق، أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا
حكم المظالم الثابتة في ذمته. أما أمواله الحاضرة. فليرد إلى المالك ما يعرف له مال كما معينا.
وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به. فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام
بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام. وأما الجناية
على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرض له بلسانه، أو أذى
قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدا واحدا منهم. ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك
إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضا في القيامة. وأما من وجدده وأحله بطيب قلب منه، فذلك
كفارته. وعليه أن يعرف قدر جنايته وتعرضه له. فلا يستحلل المبهم لا يكفي. وربما لو عرف ذلك
وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وأدخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته،
أو يحمله من سيئاته. فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بعمره، كزناه بجاريته
أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم إذا ههما شوقه به، فقد انسد عليه طريق

الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظلمة الميت والغائب. وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومبها ذكر جنائته، وعرفه المجنى عليه، فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظلمة عليه. فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به، ويسعى في مبهاته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة. فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، سمحت نفسه بالإحلال بلا. أبي إلا الإصرار، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته. التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته. وليكن قدر سعيه في فرحه، وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه في آذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر، أوزاد عليه. أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه. كمن ألتف في الدنيا مالاً، فجاء بمثله، فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحكم بحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي. فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين، وأعدل المقسطين : وفي المتفق عليه من الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال ^(١) « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَّ عَلَى رَأْسِهِ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحْوِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ بَهَا أَنْاسٌ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نِصْفُ الطَّرِيقِ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمَ فَجَعَلُوهُ حَكَمًا يَنْتَهُمُ فَقَالَ قِيَسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفي رواية « فَكَانَ إِلَى الْفَرِيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِيرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية « فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي وَقَالَ قِيَسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَغُفِرَ لَهُ »

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أهل الأرض - الحديث : هو متفق عليه. كما قال المصنف من حديث أبي سعيد

فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برحمان ميزان الحسنات ولو بمثل ذرة . فلا بد للتائب من
تكميل الحسنات ، هذا حكم القصد المتعلق بالماضى
وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعتقد مع الله عقدا ، وكدا ، ويماهده بعهد وثيق ، أن
لا يعود إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها . كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تبصره مثلاً ، فيعزم عزمًا
جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه . فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصور أن
تغلبه الشهوة في ثانی الحال . ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال . ولا يتصور أن يتم
ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت وقلة الأكل والنوم ، وإجراز قوت حلال . فإن كان
له مال موروث حلال ، أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية ، فليقتصر عليه . فإن رأس
المعاصى أكل الحرام . فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه . ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات
من لا يقدر على ترك الشهوات في الماء كولات والملبوسات . وقد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة
وجاهد نفسه لله سبع مرار ، لم يتل بها وقال آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً
ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل . وما يحرم عليه ، حتى
يمكنه الاستقامة . وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة ، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ،
كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغضب مثلاً ، وليست هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس
إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون : تصح . ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل . بل نقول لمن قال لا تصح
إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً ، بل وجوده كعدمه . فما أعظم خطأك ؛ فإننا نعلم
أن كثرة الذنوب بسبب كثرة العقاب ، وقتلها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح ، إن أردت به
أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضاً خطأ . بل
النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولست أتكلم في خفايا أسرار عفو الله

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح ، إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم ؛ وإنما يندم
على السرقة مثلاً لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان
توجهه لأجل المعصية ، فإن العلة شاملة لهما ، إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله
بالسكين ، لأن توجهه بفوات محبوبة سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجهه بالعبد بفوات
محبوبة ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا ، فكيف يتوجه على البعض دون البعض ،
فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوة للمحبيب من حيث إنها معصية . فلا يتصور أن

يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا الجواز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر، فإن استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد، وإنما الدنان ظروفاً فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالمملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول تقول إن العقد لا يصح، لم ترتب عليه الثمرة وهو أي الملك. وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترتيب أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمره الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة، بل الندم عليها. ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي

وهو كلام مفهوم واقع، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقته. والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه. كالذي يجنى على أهل الملك وحرمة، ويحجن على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل، مستحقراً للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع. فقد كثرت التائبون في الأعصار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوماً. فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر. فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته، ندم على كل العسل دون السكر، الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن. لا اعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله. كالذي يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعله أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضاً ممكن، كما في تفاوت الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبيها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف، يوجب ذلك تركه في المستقبل وندماً على الماضي. الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر، وهو مضر على كبيرة يعلم أنها كبيرة.

كالذى يتوب عن الغيبة، او عن النظر إلى غير المحرم، أو ما يجري مجراه، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه، ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا، ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم، ولا قويا عليه. فإن سلم عن شهوة أقوى منه، بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية. وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر، فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة مآ بالغبية، وثلب الناس، والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية. فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق في نفسه: إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي، فلا ينبغي أن أخلم العذار وأرعى العنان بالسكينة، بل أجاهده في بعض المعاصي، ففسانى أغلبه، فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى. ولولم يتصور هذا المتصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله، فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول. لله تعالى على أمران، ولى على المخالفة فيها عقوبتان. وأنا ملئ فى أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه فى الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو عجا هدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى. فكيف لا يتصور هذا، وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا. وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها. والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «الندم توبة» ولم يشترط الندم على كل ذنب. وقال «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنها متاملة فى حق الشهوة، وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبذ، لتفلوتها فى اقتضاء السخط. ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. كالمرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة، فإنه قد يتناول قليلا، ولكن لا يستكثر منها. فقد حصل من

هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه. إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم؛ فيتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب، ووقاؤه بعزمه على الترك، يلحقه عن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأمر والنواهي . فإن قلت هل تصبح توبة العنّين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول لا. لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله. وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق، وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإن أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه، وما حيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة، ومات عقيب التوبة، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة. وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغا مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا أو ظهر قصده . فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنّين هذا المبلغ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه. فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف. والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه. بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين: أحدهما حرقه الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محو هادون المجاهدة. ولو لا هذا لقاننا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة، يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة. وذلك مما لا يبدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا . فإن قلت: إذا فرضنا تائبين، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب، والآخري بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها وينهها. فأيهما أفضل؟ فأعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه. فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل، لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل، لأنه لو قدر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان أحدهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا. إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه، واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين.

وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب ، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل . العنبر أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ ، لأنه أسلم . والمفاس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه ، لأن المفلس لا عدو له ، والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات . وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير عالم بأن العز فى الأخطار ، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل هو كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب ، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه ، فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض ، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديتهما على رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة ، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصودا لعينه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين . فإذا قهرته وحصلت المقصود ، فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه ، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ، ولا يدرك كيف يسلم . ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح ، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكيفية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه ، فقال هذا محال ، فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة ، واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس

من ربيع المهلكات . فإن قلت: فما قولك في تائبين، أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه ،
والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه، فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه. فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك.
وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق، ولكن بالإضافة
إلى حالين. وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه
فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة
والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره. إذ طريقه
إلى الله نفسه، ومنازله أحواله. وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم. فالطرق إلى الله تعالى كثيرة
وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، مع الاشتراك في أصل
الهداية. فأقول: تصوّر الذنب وذكره والتفجع عليه، كمال في حق المبتدئ. لأنه إذا نسيه لم
يكتر احتراقه، فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف
الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان. فإنه شغل مانع عن سلوك
الطريق. بل سالك الطريق ينبغي أن لا يرجع على غير السلوك. فإن ظهر له مبادئ الوصول،
وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب، استغفره ذلك، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق
من أحواله، وهو الكمال، بل لوعاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز، طال تعب
المسافر في عبوره مدة، من حيث إنه كان قد خرب جسر من قبل. فلو جلس على شاطئ النهر
بعد عبوره، يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر، كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك
المانع. نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل، بأن كان ليلا فتعذر السلوك، أو كان على طريقه أنهار
وهو يخاف على نفسه أن يمر بها، فيلطل بالليل بكأؤه وحزنه على تخريب الجسر، ليتأكد بطول
الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله. فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله،
فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه. وهذا لا يعرفه
إلا من عرف الطريق، والمقصد، والعائق، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب
العلم، وفي ربيع المهلكات. بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة
لتزيد رغبته. ولكن إن كان شاباً، فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخود
والقصور. فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن

يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة . فالمبتدئ أيضا قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج ، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتئة بأمتهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع أمتهم عشايدته ، وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم . فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنيا عنها فراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «أما إني لا أنسى وليكني أنسى لا شرع» وفي لفظ «إنا أسهوا لأنس» . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي ، كما قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «للحسن كخ كخ» لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقهم ، ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذي يعلم شاة أو طائرا ، يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر ، تلطف في تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزية أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

- (١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر : ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسل لا اسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا
- (٢) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها فيه : البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام

فهرست الجزء الحادى عشر

فهرست الجزء الحادى عشر

صفحة	صفحة
١٩٧٦	١٩٣٢
علاج التكبر بالقوة	كتاب ذم الكبر والعجب
١٩٧٧	١٩٣٣
علاج التكبر بالمال والجاه	الشرط الأول من الكتاب في الكبر
١٩٧٩	بيان ذم الكبر
علاج التكبر بالعلم	الآيات التى بها ذم الكبر
١٩٨٢	احاديث ذم الكبر
الامتحانات التى تبين زوال الكبر عن القلب	بيان ذم الاختيال و اظهار آثار الكبر
١٩٨٤	١٩٣٧
بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	في المشى وجر الثياب
١٩٨٨	١٩٣٨
الشرط الثانى من الكتاب في العجب	الآثار في ذم الكبر
بيان ذم العجب وآفاته	١٩٣٩
١٩٩٠	١٩٤٢
بيان آفة العجب	بيان فضيلة التواضع
١٩٩١	١٩٤٦
بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما	الآثار في ذم الكبر ومدح التواضع
١٩٩٢	١٩٤٧
بيان علاج العجب على الجملة	بيان حقيقة الكبر وآفته
١٩٩٧	الفرق بين الكبر والعجب
بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه	بعض أعمال المتكبرين
العجب بالبدن وعلاجه	١٩٤٩
١٩٩٨	١٩٥٢
العجب بالقوة وعلاجه	بيان المنكر عليه ودرجاته وأقسامه
٢٠٠٠	١٩٥٣
العجب بالعقل الراجح وعلاجه	وثرات الكبر فيه
٢٠٠١	١٩٥٤
العجب بالنسب وعلاجه	بيان مابه التكبر
٢٠٠٢	١٩٥٥
العجب بالمال وعلاجه	العلم مع خبيث النفس
٢٠٠٣	١٩٥٧
العجب بالرأى الخطأ	العمل والعبادة
٢٠٠٦	١٩٥٩
كتاب ذم الغرور	درجات العلماء والعباد
٢٠٠٧	١٩٦٠
بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله	الحسب والنسب
٢٠٠٨	١٩٦١
فرور الكفار	الجمال . المال
٢٠١٢	القوة . الاتباع
بيان أصناف المفترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف	بيان البواعث على التكبر وأسبابه
٢٠٣٧	المهيجة له
غرور من يعطون بالفضل	بيان أخلاق المتواضعين ومجامع
٢٠٣٨	ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
ان يفقهوها	بعض صفات المتكبرين
	بيان الطريق في معالجة الكبر
	واكتساب التواضع له
	الانسان بعد الموت
	علاج التكبر بالنسب
	علاج التكبر بالجمال

صفحة	كتاب التوبة	صفحة	غرور سماع الأحاديث
٢٠٧٠	بيان حقيقة التوبة وحدها	٢٠٤١	بحث في سماع الحديث على الوجه الصحيح
٢٠٧٢	بيان وجوب التوبة وفضلها	٢٠٤٢	غرور علماء اللغة
٢٠٧٣	لزوم التوبة للعبد	٢٠٤٣	« الفقهاء باستنباط الحيل وأمثله
٢٠٧٤	فرح الله بتوبة العبد	٢٠٤٤	أكراه الزوجة لإبراء زوجها
٢٠٧٥	بحث في أفعال العبد وهل له اختيار	٢٠٤٥	الهبة بالتوريث
٢٠٧٦	وجوب التوبة بجميع أجزائها	٢٠٤٦	الاحتياال للتخلص من الزكاة
٢٠٧٩	بيان أن وجوب التوبة على الفور	٢٠٤٧	احتياال الفقهاء لأخذ الحاجة من المال
٢٠٨٢	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك منه	٢٠٤٨	الغرور في الصوم
٢٠٨٨	أحد البتة	٢٠٤٩	الغرور في الحج
٢٠٩٣	بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها	٢٠٥٠	غرور الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٠٩٥	مقبولة لا محالة	٢٠٥١	« المجاورين بمكة والمدينة
٢٠٩٩	الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صفاتها وكبائرها	٢٠٥٢	« الزهاد
٢١٠٠	بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد	٢٠٥٣	« الحريصين على النوافل دون الفرائض
٢١٠١	انقسام الذنوب الى صفائر وكبائر	٢٠٥٤	« مدعى التصوف
٢١٠٢	تحديد الكبائر من الصفائر	٢٠٥٥	« المتشبهين بالصوفية
٢١٠٣	تحرير الغزالي في الفرق بين الصغيرة والكبيرة	٢٠٥٦	« مدعى الوصول
٢١٠٤	المرتبة الأولى من الكبائر الكفر	٢٠٥٧	« الاباحيين من مدعى التصوف
٢١٠٥	المرتبة الثانية من الكبائر القتل	٢٠٥٨	« مدعى الزهد والتوكل
٢١٠٦	قطع الأطراف	٢٠٥٩	« طالبى الحلال فى شأن واحد
٢١٠٧	الزنا واللواط	٢٠٦٠	« مدعى التواضع
٢١٠٨	المرتبة الثالثة من الكبائر السرقة . اكل مال اليتيم . شهادة الزور	٢٠٦١	« المتعمقين فى البحث عن عيوب الناس
٢١٠٩	اليمين الغموس	٢٠٦٢	« المتدينين فى سلوك الطريق
٢١١٠	اكل الربا	٢٠٦٣	« التجلى
٢١١١	شرب الخمر	٢٠٦٤	« بناء المساجد وغيرها من الحرام لتخليد ذكراهم
٢١١٢	القذف . السحر	٢٠٦٥	« الانفاق على المساجد من الحلال
٢١١٣	الفرار من الزحف وعقوق الوالدين	٢٠٦٦	« المتصدقين فى العلانية
٢١١٤	بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات	٢٠٦٧	« البخلاء المشتغلين بالعبادة البدنية
٢١١٥	فى الدنيا	٢٠٦٨	« من يؤدى الزكاة لفرض
٢١١٦	اقسام الناس فى الآخرة	٢٠٦٩	« من يحضر مجلس الوعظ ولا يتعظ
٢١١٧	الهالكون	٢٠٧٠	سهولة النجاة من الغرور
٢١١٨		٢٠٧١	كيفية النجاة من الغرور
		٢٠٧٢	خداع الشيطان للمتقين
		٢٠٧٣	متى يجوز الاشتغال بنصح الناس

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني عشر

دار الشعب
٩٤ شارع صلاح الدين - القاهرة ٢١٨١٠

بيان

أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة . فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَعَهُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْ زَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خَفَافًا » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضمنها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، فقتر تراعى ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملى بمجاهدتها وردها .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلّة باختلاف المدة ، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن يختطف يموت قريبا من توبته ، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده وصبره . وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ، حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ، ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى . واشترط هذا بعيد ، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهبج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطعم فى الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المصيبة ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى

(١) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله - الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم

يسد طرقها على نفسه، ويسمى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه، فبه تسلم توبته في الابتداء
الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبار الفواحش
كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يتلى بها في
مجارى أحواله، من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه
وندم وتأسف، وجدد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. وهذه
النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من
الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد. وهذه أيضا رتبة عالية، وإن
كانت نازلة عن الطبقة الأولى. وهي أغلب أحوال التائبين. لأن الشر معجون بطينة الآدمي
فلما ينفك عنه. وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يتقل ميزانه، فترجح كفة
الحسنات. فإما أن تخلو بالكلية كفة السيئات، فذلك في غاية البعد وهو لا لهم حسن الوعد
من الله تعالى، إذ قال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ
وَبَكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ^(١))

فكل إمام يقع بصغيرة، لا عن توطين نفسه عليه، فهو جدير بأن يكون من اللمم المغفور
عنه. قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ^(٢)) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل
هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه^(٣)
«خياركم كلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ» وفي خبر آخر^(٤) «الْمُؤْمِنُ كَالسُّنْبَلَةِ يَفِيءُ أَحْيَانًا وَيَعْمَلُ
أَحْيَانًا» وفي الخبر^(٥) «لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْفِتْنَةُ بَعْدَ الْفِتْنَةِ» أي الحين بعد الحين

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب: البيهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن كالسنبلة تنفي. أحيانا وتميل أحيانا: أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس
والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وكلها ضعيفة
وقالوا تقدم بدل تنفي. وفي الأمثال للرامهرمزي إسناده جيد لحديث أنس

(٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة: الطبراني في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

(٤) النجم: ٣٢ (٢) ل عمران: ١٣٥

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة
المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذي يؤيس الصحيح
عن دوام الصحة ، عما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى ، من غير مداومة
واستمرار . وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار
والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه
بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من
الفترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « كُلُّ نَبِيٍّ آدَمَ
خَطَاءُونَ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ » وقال أيضا ^(٢) « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ *
فَخَبِرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ ، أَيْ وَاهٍ بِالذَّنُوبِ ، رَافِعٌ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ . وَقَالَ تَعَالَى (أُبُولُوكَ يُؤْتُونَ
أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ عَمَّا صَبَرُوا وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ^(٣)) » فما وصفهم بعدم السيئة أصلا
الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب
فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على
الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة
أو الشهواتان ، وهو بولوا قدره الله تعالى على قهرها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته في حال قضاء
الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول : ليتني لم أفله ، وسأتوب عنه ، وأجاهد نفسي في
قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم . فهذه
النفس هي التي تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَأَخْرُونا
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ^(٤)) فأمره من حيث مواظبته على
الطاعات وكرهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث

(١) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذي واستغربه والحاكم وصحح إسناده
من حديث أسس وقال التوابون بدل المستغفرون * قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البحاري

(٢) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعته : الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند
ضعيف وقالوا فسميد بدل فخيرهم

بـ راقع : أي يهيئ دينة بمصيته ويرقمه بتوبته من رقت الثوب إذا رمت

(٣) القصص : ٥٤ ^(٢) التوبة : ١٠٢

تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة : فإن تداركه الله بفضلِهِ وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة ، التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا بسرت له أسباب المواظبة على التحصيل ، دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات ؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس ، الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تقيقه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم ، إلا نفس صارت فقيهة بطول التقيقه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ^(١)) فهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا سُبُرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا »

فإذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك انهماك

(١) حديث ابن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة - الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجحيم سبعين سنة وشهر مختلف فيه

الغافل فى اتباع شهواته . فهذا من جملة المصرين . وهذه النفس هى النفس الامارة بالسوء
الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء
شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من
النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما
لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يحده ، وأن يجلس فى البيت ليحمله
الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كانت الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات
كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد
الرجاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز فى المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم
الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من أبحر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له .
فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون
كلهم محرومون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

وكما أن من خرب بيته وضع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعا ، يزعم أنه ينتظر فضل
الله بأن يرزقه كنزا يحده تحت الأرض فى بيته الخرب ، يمد عند ذوى البصائر من الحقى
والمفرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر
المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك
سبيل المغفرة ، يمد عند أرباب القلوب من المعتوهين

والمعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويح حماقته فى صيغة حسنة ، إذ يقول . إن الله
كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتى ليست تضره . ثم يراه يركب البحار ، ويقتحم
الأوعار فى طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك
وكسلك بترك التجارة ليس بضررك ، فاجلس فى بيتك فمساه يرزقك من حيث لا تحسب
فيستجنى قائل هذا الكلام ويستتر به ، ويقول . ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهبا
ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ،
ولا تبدل لسنة الله ولا يعلم المفرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبدل

لهما فيها جميعا . وأنه قد أخبر إذ قال (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ^(١)) فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا . وينسي قوله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ^(٢))

فنعوذ بالله من العمى والضلال . فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ، وانغماس في ظلمات الجهل : وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ^(٣)) أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ^(١)) فارجعنا نسعى . وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ، ويحق عليه العذاب : فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب

بيان

ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاستغفار بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه . فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني ، وهو أن يدرك بالحسنة السيئة ليجوها ، فيكون بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالجوارح . ولتكن الحسنة في محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب ، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فبالعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضم بقلبه الخيرات للمسلمين ، والعزم على الطاعات

(١) النجم : ٣٩ (٢) الذاريات : ٢٢ (٣) السجدة : ١٢

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي . وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار وأما بالجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بنائية أعمال كان العفو عنه مرجوا . أربعة من أعمال القلوب ، وهي التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوماً . وفي بعض الآثار ^(١) : تسبغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصل ركعتين . وفي بعض الأخبار ^(٢) : تصلي أربع ركعات . وفي الخبر ^(٣) : إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تُكَفِّرْهَا السِّرُّ بِالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ ، ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفي الخبر الصحيح ، ^(٤) أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إني عالجت امرأة

(١) أثران من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين : أصحاب السنن من حديث

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصل ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعن المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي

(٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : ابن مردويه في الفهرست والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس

قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة - الحديث : وفيه فلما رآها جالس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادماً فأثم النبي

صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل

الله عز وجل وأقم الصلاة طرفي النهار الآية وأسناده جيد

(٣) حديث إذا عملت سيئة فأتبعتها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية : البيهقي في الشعب من حديث معاذ

وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت

من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر - الحديث :

(٤) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا الميس - الحديث :

في نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت

معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن

حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم - الحديث :

فأصبحت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض على بحكم الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم
« أَوْ مَا صَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ » قال بلى . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة
له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا يَنْهَنَ إِلَّا الْكِبَائِرَ »
فملى الأحوال كلها، ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع - يثاته، ويجتهد في دفعها بالحسنات.
فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر ^(١)
« اِلسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِآيَاتِ اللَّهِ » وكان بعضهم يقول:
أستغفر الله من قولي أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة
المدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير

فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر، ذكرناها في كتاب الأذكار
والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ^(١)) فكان بعض
الصحابية ^(٢) يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما . وهو كون الرسول فينا ، وبقي الاستغفار
معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون
للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما
يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد
حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله
في سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة في نفسها ، فتصلح

(١) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ . يأتى الله : ابن أبي الدنيا في التوبة من طريقه

البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ . بره وسنده ضعيف

(٢) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما

أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله علي إمانين - الحديث :

وصعه وابن مردويه في تفسيره . من قول ابن عباس

لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار ، حتى قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي أَيَّامٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لا تحلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لا بد للعبد في كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء : فإن عصي قال يارب استر علي . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي . فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل مني .

وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم اليان ، ثم الفكر . ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ثم محادثة السر ، وهو الخلقة . ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش

وسئل أيضاً عن قوله صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ » فقال . إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ^(١)) الآية - وقال . الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه

والمقصود . أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيباً . وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه نحو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتباعد بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس ينحلو عن الفائدة أصلاً . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ، أن قول الله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ^(٢)) صدق

(١) حديث ما أصر من استغفر - الحديث : تقدم في الدعوات

(٢) التوبة : ١١٢ (٢) الزلزال : ٧

وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات . فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أي غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل ، فقال : اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله في الشر ولم يموده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصي . فن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى مانوعه فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول ، سبق لسانه إلى قول : ما أحقك ، وما أفيح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله . فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^(١)) ومعانى قوله تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ^(٢)) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات : وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون

(١) التوبة: ١٢٠ (٢) النساء: ٤٠

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات ، فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلمعته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات

أما السابق : فقال صدقت ياملمعون ، ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب . فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملاح عليه

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأضعف الشيطان ، وتدلّى بحبل غروره ، فتمت بينهما المشاركة والمواقفة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه .

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل ، وتفقن لقصصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول ، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير

فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركا وأصبح كاتبا . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة ، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس . فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية . استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضا . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد

فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم ، وحمد ما يحمد ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقرين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغى أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعن رضاه فيه .

وغضبه في معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه . وخباً ولايته في عبادته ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فلعله ولي الله تعالى . وزاد وخباً إجابته في دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

في دواء التوبة ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان :

شاب لاصبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءَةٌ * » وهذا عزيز نادر والقسم الثاني : هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدوائه حل ذلك السبب ، ورفع ، وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده : ولا سبب الإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ^(١)) فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ، وصرارة الصبر . وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما ، فيقع الأسباب المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من يانهما فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن العلوم

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

* ليست له صبوة : أي ميل إلى هوى

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

يحملها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :
يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار ، على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثانى : أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب - حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف

الثالث : أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة على الاحتماء . ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذى هو الركن الآخر في العلاج

الرابع : أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ، ليبرّفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، وما كوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء . بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص . ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم

بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه عاوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوَّام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكشف شره ، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتسى ، أو الذي غلب عليه الجنون ، إلى القتيِّم ليقبده بالسلاسل والأغلال ، ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل : إحداهما : أن المريض به لا يدري أنه مريض

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطبائع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا

وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافا من أن يقال لهم . فبالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ، فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يفشوا . وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا . وليتهم مسكتوا وما نطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهتم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألد في الأسماع ، وأخف على الطباع . فتتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ، ومزيد ثقة بفضل الله . ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائفا ، أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواء ، ولكن لشخصين متضادين العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالسكينة ، وكلف نفسه مالا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالسكينة ، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

وكذلك المصر على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت ، يعالج أيضا بأسباب الرجاء ، حتى يطعم في قبول التوبة فيتوب فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصى بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء . وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذا فساد الأطباء هى المعضلة الزباء التى لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذا ذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك بطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أنواع الأول : أن يذكر مافى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والمعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار . مثل قوله صلى الله عليه وسلم " « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا آيَةٌ

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملك أن يتجاوز بأربعة أصوات يقول أحدها يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا - الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث ابن عمر . بسند ضعيف أن الله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد ذنا حصاده - الحديث : وفيه ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم ادخلوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتناكروا - الحديث :

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١) «الطابع مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتَهَكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتَحَلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّابِعَ قَيْطَبِعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا» وفي حديث مجاهد ^(٢) «الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ أَصْبَعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّابِعُ» وقال الحسن :
إِنَّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ حِدَا مِنْ الْمَعَاصِي مَعْلُومًا، إِذَا بَلَغَهُ الْعَبْدُ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَمْ يَوْقِعْهُ بَعْدَ الْخَيْرِ
وَالْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِي ذَمِّ الْمَعَاصِي وَمَدْحِ التَّائِبِينَ لَا تَحْصَى . فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَكْثِرَ الْوَاعِظُ
مِنْهَا إِنْ كَانَ وَارِثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٣) ، فَإِنَّهُ مَا خَلْفَ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنْ

(٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قالت هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس عرو وعروفاً وفي حديث مجاهد في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درهما اما خلف العلم والحكمة : البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال ماتك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ماتك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا وفي حديث أبي الدرداء انه الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما اما ورثوا العلم - الحديث : وقبّ تقدم في العلم

خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق . مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، ومالقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتعنا عنه ، فجاء جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصاني . قال فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فأني سليمان ابن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فمكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه . فقال لا ألوكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروي في الإسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبتها بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبيا في بني اسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر

عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديدا ، فكأنه أعجبه . قال فوضعت الريح . فقال لم فعلت هذا ولم أمرك ؟ قالت إنما نطيعك إذا أطلعت الله وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أندرى لم فرقت بينك وبين ولدك

يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجئني ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال لأنك رجوتني وقلت (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ^(١)) وبما قلت (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا ^(٢)) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذكرني عند ربك ^(٣)) قال الله تعالى (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ^(٤)) وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يزد بها القراءن والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ! نعم كانت سماعتهم في أن عوجلوا بالمقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته . فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله . فنبغي أن يخوف به . فإن الذنوب كلها يتمجل في الدنيا شوئها في غالب الأمر . كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام . حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب بصيبه وهو معنى قوله عليه السلام ^(٢) « مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا في الوجه ، ونقصا في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله

(١) حديث أن العبد ليحرم الرزق بالذنب بصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح استاده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا : تقدم

(١) يوسف : ٨٣ (٢) يوسف : ٨٧ (٣) يوسف : ٤٢

او شر منه ، وهو كما قال . لان اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير ، ويسر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من محاسبة العلماء المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين . بل يثقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعا ثيابه ، محترزا عن زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاجبها ، حتى يقع في ذنب وذنوبين ، فعندها يخوض في الذنوب خوفا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ، فذنوبك ورثت ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعراف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه ، فوقفت أنظر إليه ، فرآني ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ يدي فاستحييت منه . فقلت يا أبا عبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت للشار . فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة ، وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر ^(١) « مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفي الخبر ^(٢) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَا صَنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أُحْرِمَهُ لِيَذِمُّ مَنَاجَاتِي »

وحكي عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها ، قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلي ، فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدي كله ، فاستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا سودا ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد ، وكان

(١) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم : البهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هاني * قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم

روى عن أبيه أحاديث بواطيل .

(٢) حديث يقول الله أن أدني ما صنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لئلا مناجاتي : غريب لم أجده

قد وجه إلى فاشخصني من الرقة . فلما أتيت قال لي : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائما بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى ؟ فلولا أني دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعميت كيف علم بذلك وهو ينفد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ، ويحرم جميل الشكر ، حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة في درجاته النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولا بالنبض ، والسخنة ، ووجوده الحركات ، على العلل الباطنة . ويشغل بعلاجها ، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ^(١) حيث قال له واحد : أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي . قال « لَا تَغْضَبْ » ^(٢) وقال له آخر : أوصني يا رسول الله ، فقال عليه السلام « عَلَيْكَ بِالنَّاسِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغِنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُودِعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني . فقال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة . قال وكيف لي بذلك ؟ قال الزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب قهاه عنه . وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ

(١) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال لا تغضب : تقدم

(٢) حديث قال له آخر أوصني قال عليك بالناس . الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

أوصنى . فقال : كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والنلظة وقال رجل لإبراهيم بن آدم . أوصنى . فقال : إياك والناس ، عليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقي النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا في ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة . وأخبر عما كان هو الغالب على جاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل : وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكترى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ^(١) « مَنْ التَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْئِنَةَ النَّاسِ وَمَنْ التَمَسَ سَخَطَ اللَّهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ، فانظر إلى فقها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددھا ، وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفالك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام فإذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواضع الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم في جمع ، أو سأل من لا يدري باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ماروي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري . أوصنى . قال عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . عليك بالقرءان فإنه نور لك في أهل الأرض ، وذكر لك في أهل السماء . عليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال . أعز أمر الله يميزك الله . وقال لقمان لابنه . يا بني ، زاحم العلماء برأيك ، ولا تجادلهم فيمقتولك ،

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس - الحديث : الترمذى والحاكم

وفي مسند الترمذى من لم يسم

وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض
 فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلاً ، وصم صوما يكسر شهوتك ، ولا تصم صوما يضر
 بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفية ، ولا تخالط ذا الوجهين
 وقال أيضا لابنه . يا بني ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما
 لا يعينك ، ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت
 يا بني ، إن من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يفهم ، ومن يقل الشر يآثم
 ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبي حازم أوصني . فقال كل مالو جاءك الموت عليه
 فرأيت غنيمة فالزمه . وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه ، وقال موسى للخضر
 عليهما السلام أوصني . فقال : كن بسّاما ولا تكن غصّابا . وكن نقّاما ولا تكن ضرّارا :
 وانزع عن اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير
 الخطّائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني . فقال :
 اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف أوصني . فقال :
 اجعل لديك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه آفات . قال وما غلاف الدين قال ترك طلب
 الدنيا إلا ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما
 لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ، تخف مما خوفك
 الله ، واحذر مما حذر الله ، وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر
 اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه
 أما بعد ، فإن الهول الأعظم والأمور المفضعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك
 إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر
 في العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن أمن اعتبر
 ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زلت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع
 وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن
 عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم
 عنده . فكن فيها يأمير المؤمنين كالداوي جرحه ، بصبر على شدة الدوام لا يخاف من عاقبة الداء

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عذوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله ، فأما أولياؤه فغنتهم . وأما أعداؤه فقرتهم .
وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم ، باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام
فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدري خصوص واقعه . فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصى ، واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزغرفون أسجعا ، وينشدون آياتا ، ويتكفون ذكر ما ليس فى سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصاف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مذبر ومتخلف . فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحداً ركان العلاج وأصوله الأصل الثانى : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فاذا ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كوله مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ، ثم بصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ، فلا بد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك بعلاج الشهوة فى المعاصى . كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته . فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والمظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ،

ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكير فيه لتام الفهم . وينبعت من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بموته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب ، وصدق بالحسن ، فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسن ، فسييسره الله للعسرى ، فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهاهلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما الله الآخرة والأولى

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكان من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور . أحدها . أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالحق . وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتقاد والألف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ^(١)) وقال عز وجل (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ^(٢)) وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظُرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِ نَفْسِي لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَقَّهَا

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها - الحديث : أبو داود والترمذي والحاكم

ومححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

(٣) القِيَامَةُ : ٢٠ (٤) الأعلى : ١٦

بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ أَذْهَبَ فَاَنْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظُرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَذْهَبَ فَاَنْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظُرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَقَّقَهَا بِالْمَسْكَارَةِ ثُمَّ قَالَ أَذْهَبَ فَاَنْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ . فإذا كَوْنُ الشَّهْوَةِ مَرَهْقَةً فِي الْحَالِ ، وَكَوْنُ الْعِقَابِ مُتَأَخِّرًا إِلَى الْمَالِ ، سَبَبَانِ ظَاهِرَانِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ ، مَعَ حَصُولِ أَصْلِ الْإِيمَانِ . فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذبا بأصل الطب ، ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث : أنه مامن مذهب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة ، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان الرابع : أنه مامن مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه ، وهو كونه شاكيا في صدق الرسل ، وهذا هو الكفر . كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض . فإن كان المحذر ممن لا يمتد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالي به . فهذا هو الكفر

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت ، وأن غدا للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شرك نعله ، فإيديره لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال . إذ يركب البعار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الريح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت أمله لحظة إذا لم يخف مابعد ، ومفارقة الدنيا لا بد منها . فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فليظن كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبعه ، فيقول . كيف يليق

بعقل أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي ، دون قول نصراني يدعى الطب
لنفسه بلا معجزة على طبعه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي
أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟
وبهذا التفكير بعينه يعالج المذلة الغالبة عليه ، ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على
ترك لذاتي أيام المروهي أيام فلائيل ، فكيف أقدر على ذلك أبداً لا أبداً وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ،
فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنقصها وامتزاج صفوها
بكدرها ، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! . وأما تسويف التوبة فيعالجها بالفكر في أن أكثر صباح
أهل النار من التسويف ، لأن التسويف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلم له لا يبق وإن بقي فلا
يقدر على الترك غذا كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعري هل عجز في الحال إلا لقلبة الشهوة ؟ والشهوة
ليست تفارقه غذا بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتیاد . فليست الشهوة التي أكدها الإنسان
بالمادة كالتي لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوقون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون
أن الأيام منسابة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، ومما مثل المسووف إلا مثال من احتاج إلى قلع
شجرة فرآها قوية لا تنقطع إلا بعشة شديدة ، فقال : أواخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن
الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة في الدنيا
أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر القلبة عليه إذا
ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ،
فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظر من فضل
الله تعالى أن يرزقه الثور على كنز في أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا
الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده ، وترك ذخائر أمواله في صحراء
داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة
أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إلى داري مات على
باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكي في الأسفار أن مثل ذلك وقع ، فأنا
أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ، ولكنه في غاية الحماقة والجهل ،
إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التي
تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله

فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك في البيت لحظة ، أنه وانغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألد الأطمعة ؟ فيقول أتركه لاحالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ما ظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضا فيما يقول ! فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثوابا وعقابا ، وإن اختلفوا في كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره : فلا يبقى له توقف إن كان عافا لمع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليك

إن صح قولك فليست بخاسر أو صح قولى فالحسار عليكما

ولذلك قال علي رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلفنا جميعا ، وإلا فقد تخلصت وهلكت . أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جليلة ، ولكنها ليست تال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلت ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات الماضين في الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لداع مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه . ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله، ونفس من أنفاسه، شهوة قد نسلطت عليه واسترقتة. فصار عقله مسخرا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة؟ والفكر يمنعه من ذلك. وأما علاج هذين المانعين، فهو أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده، تألم بذلك، مع استحقار ألم مواقته. فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده، ومتألم به!

وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم. فإنها لا آخر لها، ولا كدورة فيها. ولذات الدنيا سريعة الدور، وهي مشوبة بالمكدرات. فافهم لذة صافية عن كدر. وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى، واستراحة يعرفته، وطاعته، وطول الأنس به! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من جلاوة الطاعة، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً. فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة! نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة، وقد صار الخير ديدناً، كما كان الشر ديدناً. فالنفس قابلة ما غودتها تعود، والخير عادة، والشر لاجبة.

فإذا هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن الذات. ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع، فيميل القلب إليه. ويمبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق. إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة. وقد روي في حديث طويل، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم. على الجفاء، والمعنى، والغفلة، والشك. فمن جفا احتقر الحق، وجهر بالباطل. ومقت العلماء. ومن عني نسي الذكر. ومن غفل حاد عن الرشد. ومن شك غزته الأمانى: فأخذته الحسرة والندامة، وبداله من الله ما لم يكن يحتسب. نفساً ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير. وهذا القدر في التوبة كاف. وإذا كان الصبر كناساً أركان دوام التوبة. فلا بد من بيان الصبر، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

كتاب الصبر والشكر

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والملاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء. والصلاة على محمد سيد الأنبياء، وعلى أصحابه سادة الأصفياء، وعلى آله قادة البررة الأتقياء، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء

أما بعد: فإن الإيمان نصفان. نصف صبر ونصف شكر، كما وردت به الآثار، وشهدت له الأخبار^(١). وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا. فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن. ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان. وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان، وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لا ارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشر الأول

في الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر)

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك

بيان

فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً. وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له. فقال عز من قائل (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا^(١)) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا صَبَرُوا^(٢)) وقال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٣)) وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ لَمَّا صَبَرُوا^(٤)) وقال تعالى (إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٥)) فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنه نصف الصبر، قال الله تعالى: الصوم لى وأنا أجزي به. فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات. ووعدا الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٦)) وعلق النصره على الصبر فقال تعالى (يَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(٧)) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها غيرهم، فقال تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(٨)) فالهدى، والرحمة، والصلوات، مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار. فقد قال صلى الله عليه وسلم^(٩) «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ» على ماسياتى وجه كونه نصفاً. وقال صلى الله عليه وسلم^(١٠) «مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيْتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيْمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ فَيَّامِ اللَّيْلِ وَصِيَّامِ النَّهَارِ وَلَآنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِقَنِي كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ

(١) حديث الصبر نصف الإيمان: أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم

(٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر - الحديث بطوله تقدم فى العلم مختصراً ولم أجد هكذا بطوله

(١) السجدة: (٢) الأعراف: ١٢٧ (٣) النمل: ٩٦ (٤) القصص: ٥٤ (٥) الزمر: ١٠ (٦) الأنفال: ٤٦

(٧) آل عمران: ١٣٥ (٨) البقرة: ١٥٧

وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنْكِرُ كُفْرُ أَهْلِ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفَرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ « ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا وَأَجْرُهُمْ^(١)) » الْآيَةَ

وروى^(١) جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصَّبْرُ وَالسَّامَحَةُ » وقال أيضا^(٢) « الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ »^(٣) وسئل مرة ما الإيمان ؟ فقال « الصَّبْرُ » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الْحُجُّ عَرَفَةٌ » معناه معظم الحج عرفة . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم^(٤) « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهْتَ عَلَيْهِ النَّفْسُ »

وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، تخلق بأخلاقى ، وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور.^(٥) وفى حديث عطاء عن ابن عباس ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « أُمُومِنُونَ أُنْتُمْ » فسكتوا . فقال عمر نعم يا رسول . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيْمَانِكُمْ » قالوا نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ورضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم « مُؤْمِنُونَ وَرَبُّ الْكُفَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٦) « فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧) « لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلًا لَكَانَ كَرِيمًا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » والأخبار فى هذا لا تحصى

(١) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة: الطبراني فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الصغافه

وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني فى الكبير من رواية عبد الله بن عبيد

ابن عمر عن أبيه عن جده

(٢) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة : غريب لم أجده

(٣) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر : أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي

عن أنس مرفوعا الصبر من الإيمان : بخرقة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف

(٤) حديث الحج عرفة : تقدم فى الحج

(٥) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفس : لأصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز

هكذا رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب محاسن النفس

(٦) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أُمُومِنُونَ أُنْتُمْ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله

الحديث : الطبراني فى الأوسط من رواية يوسف بن عيسى وهو منكر الحديث عن عطاء

(٧) حديث فى الصبر على ما تكره خير كثير : الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٨) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما : الطبراني من حديث عائشة وفيه صريح بن دينار ضعفه العقيلي

(١) النجلى : ٩٦

وأما الآثار ، فقد وحد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أنى موسى الأشعرى : عليك بالصبر . واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر . الصبر فى المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر . وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم اليقين ، والصبر ، والجهد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له

وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم المدلان ، ونعمت الملاوة للصابرين . يعنى بالمدلين الصلاة والرحمة ، وبالملاوة الهدى . والملاوة ما يحمل فوق المدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى (وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(١)) وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِئْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ^(٢)) بكى وقال : واعجابه ! أعطى وأثنى . أى هو الممطى للصبر وهو المثنى وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل . وأما من حيث النظر بعين الاعتبار ، فلا تفهم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناها إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه ، وبالله التوفيق :

بيان

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف هي الأصول ، وهي تورث الأحوال . والأحوال تنمى الأعمال . فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل ، كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب فواعد العقائد . وكذلك الصبر ، لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وبمجالاة قائمة

(١) البقرة : ١٥٧ (٢) ص : ٤٤

فالصبر على التحقيق عبارة عنها . والعمل هو كالثمره يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة ، والإنس ، والبهايم ، فإن الصبر خاصية الإنس . ولا يتصور ذلك في البهايم والملائكة . أما في البهايم فلنقصانها ، وأما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهايم هسلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام . فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والاتباع بدرجة القرب منها ، ولم تسلمط عليهم شهوة صارفة صادرة عنها حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما الإنسان فإنه ~~منه~~ في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهايم . ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم بني آدم ، ورفع درجاتهم عن درجة البهايم ، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ، أحدهما يهديه ، والآخر يقويه . فتميز بمعونة الملكين عن البهايم ، واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب . وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ، ولا هداية إلى مصلحة العواقب ، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط . فلذلك لا تطالب إلا اللذيق . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ، ولكن لا قدرة له على دفعه . فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه . فوكل الله تعالى به ملكا آخر . يسدده ، ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها . وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة . فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى . وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد . كما أن نور

الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر . فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا . ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة ، فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها ، التحق باتباع الشياطين . فإذا ترك الأفعال المشبهة بعمل يثمره حال يسمى الصبر . وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ، ومضادها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى ، قوى ثبات باعث الدين . وإذا قوى ثباته ، تمت الأفعال على خلاف ما تقتاضاه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان المكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما . وهما من الكرام الكاتبين . وهما للمكان الموكلان بكل شخص من آدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، ينبغي أن يكون مساماله ، فهو إذا صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران في الغفلة والفكر ، وفي الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن ، فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه ، فهو به مسيء إليه ، فيثبت عليه سيئة . وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما . فلذلك سميا كراما كاتبين . أما الكرام ، فلا تتفاد العبد بكرمه ؛ ولأن الملائكة كلهم كرام بررة . وأما الكاتبون ، فلا يثابتهما الحسنات

والسيآت. وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب، حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما، وكتبتهما، وخطهما، وصحائفهما، وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت، لا من عالم الشهادة. وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم. ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى، ومرة في القيامة الكبرى. وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم^(١) « مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ^(٢)) وفيها يقال (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^(٣)) أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق، فلا يكون وحده. بل ربما يحاسب على ملائ من الخلق. وفيها يساق المتقون إلى الجنة، والمجرمون إلى النار زمرا آحادا. والحوال الأول هو هول القيامة الصغرى. ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى، مثل زلزلة الأرض مثلا، فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها. بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه، لا بزلزلة مسكن غيره. فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب. وحظك الخاص من التراب بدنك فقط. فأما بدن غيرك فليس بحظك. والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان. وإنما تخاف من زلزاله أن يتزلزل بدنك بسببه. وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تنخشاه. إذ ليس يتزلزل به بدنك. لحظك من زلزلة الأرض كلها بدنك فقط، فحسب أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقبابك شمس أرضك، وسممك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض المرق من بدنك ببحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك. فإذا انهدم بالموت أركان بدنك، فقد زلزلت الأرض زلزالها. فإذا انفصلت

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أسد صيف

(١) الانعام : ٩٣ (٢) الاسراء : ١٤

العظام من اللحوم ، فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فإذا رمت العظام ، فقد نسفت الجبال نسفا . فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا . فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا . فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا . فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك ، فقد عطلت المشار تعطيلًا . فإذا فارقت الروح الجسد ، فقد حملت الأرض فدت ، حتى ألقت ما فيها وتخلت

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال . ولكنى أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك . فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها . فالانجلاء بعد ذلك حصته غيره . ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سما له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟

فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر . وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، ونعت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها ، فإننا لم نذكر عشر عشر أوصافها . وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . فإن للإنسان ولادتين : إحداها الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ، من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى ، كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى ، فاخلفكم ولا بمشكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنَنْشِئُكُمْ فِيهَا لَا تَعْمُونَ ^(١))

فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، وموقن بالملك والمكوت : والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين . وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يامسكين ، وكلا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال . فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال ، أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء ^(١) « كَفَى بِالْمُوتِ وَاعِظًا » أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ مُحَمَّدَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين ، الذين لا ينظرون إلا صبيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون ؟ فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن . أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ أو ام يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟ أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون ؟ كلا . إن كل لما جميع لدينا محضرون . ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشبر إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام السكاتبين . ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة في الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة ، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض

(١) حديث كنى بالموت واعظا : البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدير ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت : الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت

وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من الفادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس . ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ، ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة . بل على القيم العدل ، والولي البر الشفيق ، إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل وليّ هذا سمته في حق الصبي ، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها في حق الصبي ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة ، فيكون مع النبيين ، والمقربين ، والصدّيقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

بيان

كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعاً . وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب . ولاشمال لفظ الإيمان على جميعها ، كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العابدات ، ولم يكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر . والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين : البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

عنده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين . إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة . ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ » وَعَزِيَّةُ الصَّبْرِ الحديث إلى آخره

الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المشورة للأعمال لاعلى المعارف . وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقى العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة . أو يضره فيها . وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر . وقد رفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة اطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا . فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبتها إلى الإيمان . والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

بيان

الأسامى التى تنجد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع . ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج ، سمي عفة

وإن كان عن احتمال مكروه ، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل في رفع الصوت ، وضرب الحدود ، وشق الجيوب وغيرها . وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ، وبضاده الجبن . وإن كان في كظم الفيض والغضب سمي حاما ، وبضاده التذمر . وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر وبضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، وبضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وبضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هُوَ الصَّبْرُ » لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال ^(١) « الْحُجُّ عَرَفَةٌ » وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى السكل صبرا فقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ ^(١)) أى المصيبة ، (وَالضَّرَاءِ ^(٢)) أى الفقر ، (وَحِينَ الْبَأْسِ ^(٣)) أى المحاربة (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٤))

فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة . والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله ، يلحظ المعانى أولا ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول ، والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٥)) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

(١) حديث الحج عرفة : أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وثقه في الحج

بيان

أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة . ويتوصل إليه بدوام الصبر .
وعند هذا يقال . من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون . فلا جرم هم الصديقون
المقربون ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا
على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى
بأيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم
نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد لياسه من المجاهدة . وهؤلاء هم الغافلون . وهم الأكثرون
وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم ، فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي
هي سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله . وإلهم الإشارة بقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا
لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(١))
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، ففخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم
(فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ^(٢))
وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والفرور بالأمانى ، وهو غاية الحق . كما قال صلى الله
عليه وسلم ^(١) « الْكَبِيرُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَخْقُ مَنْ أَتْبَعَ
نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَعَتَّى عَلَى اللَّهِ » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة
ولكنها قد تعذرت عليّ ، فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال :
إن الله غفور رحيم كريم ، فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله رفيقا لشهوته ،
فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته . فقد صار

(١) حديث الكيس من دان نفسه - الحديث : تقدم في ذم الفرور

(٢) السجدة : ١٣ (٢) الحج : ٢٩

عقله فى يد شهواته كسليم أسير فى أيدي الكفار، فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير، وحفظ الحمور وحملها، وعمله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار، ويجعله أسيرا عندهم . لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه . وإنا استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنا استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين . وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة، للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى، كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه، فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه . فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته، واستيغابه لنقته، لأن الهوى أبغض إله عبيد فى الأرض عند الله تعالى، والمقل أعز موجود خلق على وجه الأرض

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه . وهذا من المجاهدين يمد مثله لامن الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، عسى الله أن يتوب عليهم . هذا باعتبار القوة والضعف

ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه . فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئا منها، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ^(١)) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالإنعام، بل هم أضل سبيلا . إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات . وهذا قد خلق ذلك له وعطاه، فهو الناقص حقا، المدبر يقينا . ولذلك قيل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنفص القادرين على التمام
وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر واليسر . إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد، وتمب شديد، ويسمى ذلك تصبرا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى، وقوى

التصديق بما في العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر . ولذلك قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى
وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ^(١)) ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره . فإن
الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة ، بحيث لا يلقاه في
مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر . ولا يقوى على أن يصرع
الشديد إلا بتعب ومزيد جهد ، وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين
وباعث الهوى . فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما
أذغنت الشهوات وانقمعت ، وتسلب باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة
أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتى في كتاب الرضا . فالرضا أعلى من الصبر . ولذلك قال
صلى الله عليه وسلم ^(١) « اَعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَبْلِ الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ
خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك
الشهوة ، وهذه درجة التائبين : وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها
المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقيين . وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة
أعلى من مقام الرضا ؛ كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكان هذا الانقسام يجرى في
صبر خاص ، وهو الصبر على المصائب والبلايا

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ، ونقل ، ومكروه ، ومحرم . فالصبر
عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نقل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن
تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا ، وكن يقصد حرمة بشهوة محظورة ،
فهييج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم
والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع . فليكن الشرع
محسك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه
محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع في الصبر على ما تكره خير كثير : الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم

بيان

مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما : هو الذي يوافق هواه ، والآخر : هو الذي لا يوافق بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما . وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحدهذين النوعين ، أو عن كليهما . فهو إذاً لا يستغنى قط عن الصبر النوع الأول : ما يوافق الهوى ، وهو الصحة ، والسلامة ، والمال ، والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار . وجميع ملاذ الدنيا ، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور . فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها ، والانهماك في ملاذها المباحة منها ، أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان . فإن الإنسان ليطنى ، أن رآه استغنى . حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والموافى لا يصبر عليها إلا الصديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا . ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال ، والزوج ، والولد ، فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ^(١)) وقال عز وجل (إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ^(٢)) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَحْبَبَةٌ مَحْزَنَةٌ » ، ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيضه ، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صَدَقَ اللَّهُ » ، (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ^(٤)) (إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتُهُ » في ذلك عبرة لأولي الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب . وأن لا يرسل نفسه في الفرج بها ولا ينهمك في التمتع ، واللذة ، واللاهو ، واللعب . وأن يربى حقوق الله في ماله بالإتفاق

(١) حديث الولد عينة مبخلة محزنة : أبو يعلى الوصلى من حديث أبي سعيد وتقدم

(٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قيضه نزل عن المنبر - الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحين والحسين وقال الترمذي حسن غريب

(١) المناققين : ٩ (٢) التغابن ١٤ (٣) التغابن : ١٥

وفي بدنه يبذل المعوة للخلق ، وفي لسانه يبذل الصدق . وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي . وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة . ومن المعصية أن لا تقدر . والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاها غيرك ، أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأكلة الطيبة اللذيذة وقدر عليها . فلهذا عظمت فتنة السراء النوع الثاني : ما لا يوافق الهوى والطبع . وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد ، كالطاعات والمعاصي ، أولا يرتبط باختياره ، كالمصائب والنوائب ، أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته ، كالنشي من المؤذى بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية . وهما ضربان .

الضرب الأول : الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها . فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهي الربوبية . ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضجرة ما أظهره فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ^(١)) ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده ، وخادمه ، وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره . فإن استشاطته وغيطه عند تقصيرهم في خدمته ، واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ، ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء ، فإذا العبودية شاقة على النفس مطلقاً . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب التخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال .

الأولى . قبل الطاعة ، وذلك في تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية ، والإخلاص ، وآفات الرياء ، ومكاييد النفس وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال ^(٢) : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » وقال تعالى

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) التازمات : ٣٢

(وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١)) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ^(٢))

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا ينفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير. فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ. وهذا أيضا من شدائد الصبر. ولعله المراد بقوله تعالى (نِمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا^(٣)) أي صبروا إلى تمام العمل

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء. والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره. كما قال تعالى (وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ^(٤)) وكما قال تعالى (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى^(٥)) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونقل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعها الله تعالى في قوله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى^(٦)) فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر

الضرب الثانى المعاصى، فإحوج العبد إلى الصبر عنها. وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى في قوله تعالى (وَبَنَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ^(٧)) وقال صلى الله عليه وسلم^(٨) «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ» والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر على الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدين على قمعها. ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله، كان الصبر عنه أثقل على النفس. كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة، والكذب، والمراء، والثناء على النفس تمرىضا وتصريحا، وأنواع المزح المؤذى للقلوب، وضروب الكلمات التى

(١) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه: ابن ماجه بالشطر الاول والنسائي فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدمما

(١) البينة: ٥ (٢) هود: ١١ (٣) العنكبوت: ٥٨، ٥٩ (٤) محمد: ٣٣ (٥) البقرة: ٢٦٤

(٦، ٧) النحل: ٩٥

يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ، والتدح فيهم ، وفي علومهم ، وسيرهم ، ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة ، وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان . إحداها نفي الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين ، وتيسر تحريك اللسان ، ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر هنا ، وهي أكبر الموبقات ، حتى يطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها ، وعموم الأنس بها . فترى الإنسان يلبس حريرا مثلاً ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ما ورد في الخبر ^(١) من أن الغيبة أشد من الزنا . ومن لم يملك لسانه في المحاورات ، ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره . فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة . وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسواس . فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلاً ، إلا بأن يغلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه . كمن أصبح وهمومه ثم واحداً ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه

القسم الثاني : ما لا يرتبط بهجومه باختياره ، وله اختيار في دفعه ، كمال أو ذى بفعل أو قول ، وجنى عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا ، وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم . ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ^(١))
^(٢) وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال لبعض الأعراب من المسلمين . هذه قسمة ما أريد به وجه الله . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحمرت وجهه ثم قال « يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » وقال تعالى (وَدَّعَ أَذَاهُمْ)

(١) حديث ان الغيبة أشد من الزنا : تقدم في آفات اللسان

(٢) حديث قسمة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله - الحديث : متفق عليه

من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(١) إبراهيم : ١٢

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ^(١)) وقال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ^(٢))
 وقال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ^(٣))
 الآية، وقال تعالى (وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
 أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(٤)) أى تصبروا عن
 المكافاة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره ، فقال تعالى
 (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولَا عَثَلٍ مَا غَوَّيْتُمْ بِهِ يُؤَلِّينَ صَبْرُكُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ^(٥))
 وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ
 ظَلَمَكَ » ورأيت فى الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل
 إن السن بالسن والأنف بالأنف . وأنا أقول لكم . لا تقاوموا الشر بالشر . بل من ضرب
 خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر . ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك . ومن سخرك
 لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى
 الناس من أعلى مراتب الصبر ، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا
 القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أو له وأخره كالمصائب . مثل موت
 الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء وبالجملة
 سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما
 الصبر فى القراءان على ثلاثة أوجه . صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثائة درجة ، وصبر
 عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة
 درجة . وإتاما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهى من الفرائض ، لأن
 كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء
 لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٧)
 « أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا هُوَ عَلَى يَدِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا » فهذا صبر مستندة حسن اليقين

(١) حديث صل من قطعك - الحديث : تقدم

(٢) حديث أسألك من اليقين ما هو على مصائب الدنيا : الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث

ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات

(١) آل عمران : ١٨٦ - (٥) النحل : ١٢٦

(٢) المزمل : ١٠ (٣) الحجر : ٩٧

وقال أبو سليمان . والله مانصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ! وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ حَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنْ تَطَارُ الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عِبَادَةَ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) ^(٤) » اللَّهُمَّ أَوْجِرْ لِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْ خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ » . وقال أنس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) أن الله عز وجل قال . « يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سُلِبَتْ كَرَمَتُهُ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِيَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عَوَادِهِ أَبَدَلْتُهُ خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي »

(١) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ولده او ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل

الحديث : ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة : القضاة في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا

في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد المالبني في مسند

الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل العبادة

انتظار الفرج وتقدم في الدعوات

(٣) حديث ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إن الله وإننا إليه راجعون - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة

(٤) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كرمته - الحديث : الطبراني في الأوسط من رواية

أبي ظلال القسحلي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ أن الله عز وجل

قال اذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصبر وعوضته منهما الجنة رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت

كرمتي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت

واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف

(٥) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدي بيلاء فصبر ولم يشكني الى عواده أبدلته لخيرا من لحي - الحديث :

مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه

البهقي وقفا على أبي هريرة

وقال داود عليه السلام : يا رب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته . ما أنعم الله على عبد نعمة فأنزعهها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزعه منه . وقرأ (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١))

وسئل فضيل عن الصبر فقال . هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك؟ قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم؟ قالوا أحباؤك جاؤك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجارة . فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ^(٢))

ويقال إن امرأة فتحت الموصلي عثرت ، فانتقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها أما تجدين الوجع؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ^(١) « مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَمْعَكَ وَلَا تَذْكُرْ مُصِيبَتَكَ » . ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة ، فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه . فقال بارك الله له فيها ، لعله أخرج إليها مني . وروي عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رmq . فقلت له أسقيك ماء ، فقال . جُرّني قليلا إلى العدو ، واجعل الماء في الترس ، فإنني صائم ، فإن عشت إلى الليل شربته ، فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى . فإن قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب ، وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة . فذلك غير داخل في الاختيار . فأعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ،

(١) حديث من اجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو . وجعلك ولا تذكر مصيبتك : لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تذكر نفسك

(١) الزمر : ١٠ (٢) الطور : ٤٨

وشق الجيوب ، وضرب الحدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في اللبس ، والمفرش ، والمطعم . وهذه الأمور داخلية تحت اختياره ، فينبغي أن يحتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، كما روي ^(١) عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي ، وزوجي أبو طلحة غائب . فقامت فسجته في ناحية البيت . فقدم أبو طلحة : فقامت فبيأت له إفطاره ، فجعل يأكل . فقال كيف الصبي ؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه ، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة . ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت . ألا تعجب من جيراننا ؟ قال مالهم ؟ قلت أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ! فقال بشئ ما صنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . فحمد الله واسترجع . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال . « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي لَيْلَتِهَا » قال الراوى . فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة ، كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال « رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرَّمِيْضَاءِ امْرَأَةٍ ابْنِي طَلْحَةَ » وقد قيل . الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره . ولا يخرج من حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت . ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال « إِنْ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا . فالمقدم على الحجابة والقصد راض به ، وهو متألم بسببه لا محالة ، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه . وسيأتى ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيج يعزى بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه ، من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاء له

واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه . فإذا مهما دفع الكراهة

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجى أبو طلحة غائب فقامت فسجته في ناحية البيت - الحديث :

طب ومن طريقه ابو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب ، نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان
 المرض ، والفقر ، وسائر المصائب . وقد قيل . من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة
 فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال . فإن
 الذي كُفي الشهوات كلها ، واعتزل وحده ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والافراد ظاهر
 وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثرجولان
 الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أوفى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر
 فهو كيفما كان تضييع زمان . وآلة العبد قلبه ، وبضاعته عمره . فإذا غفل القلب في نفس واحد
 عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى ، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد
 بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون . هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه .
 ولا يكون ذلك غالبا . بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل
 من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه
 بظهور أماره له منه . بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه ، حتى في أهله وولده ، ويتوهم
 مخالفتهم له ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم ، وجوابهم ، عما يتعللون به
 في مخالفته . ولا يزال في شغل دائم ، فلا شيطان جندان . جند يطير وجند يسير ، والوسواس
 عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان
 خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار . والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين
 والطين طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة . فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك . بل
 لا تزال تتحرك بطبيعتها . وقد كاف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ، ساجدا
 لما خلق الله من الطين ، فأبى واستكبر واستمصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال
 (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . فإذا حيث لم يسجد الملعون لأيننا آدم
 صلوات الله عليه وسلامه ، فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده . ومهما كلف عن
 القلب وسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه ، فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان
 سجود منه . فهو روح السجود . وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه ، وعلامته الدالة عليه

بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح ، لتصور ذلك . كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة .

فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر ، وقالب الروح عن الروح ، وقشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين ، إلا أنت تصبح وهموك هم واحد ؛ فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالاً فيك . فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين ، الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تنظن أنه يخلو عنه قلب فارغ . بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم . وسيلانه مثل الهواء في القدرح . فإنك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره ، فقد طمعت في غير مطمع . بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة . فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين ، يخلو عن جولان الشيطان . وإلا فسن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغِضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ » وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بماح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغاً ، ولم يبق قلبه فارغاً . بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ . ثم تردوج أفراخه أيضاً ، وتبيض مرة أخرى وتفرخ . وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات ، لأن طبيعه من النار . وإذا وجد الخلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ، ولا تنقطع ألبته . بل تسرى شيئاً فشيئاً على الاتصال . فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالخلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب ، فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة

فاذاً إذا تأملت ، علمت أن أعدى عدوك شهوتك ، وهى صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ، حين كان يصلب ، وقد سئل عن التصوف ما هو فقال : هي نفسك

(١) حديث إن الله يبغض الشاب الفارغ : لم أجده

إن لم تشغلها شغلتك . فإذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة . وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك . وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت ، نسأل الله حسن التوفيق بحسنه وكرمه

بيان

دواء الصبر ودا يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً ، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخطا التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها . ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر . وكما أن أقسام الصبر مختلفة ، فأقسام العلل المانعة منه مختلفة . وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج . إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ، ولكننا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً ، وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ، إذ لا ترال تحدته بمقتضيات الشهوات ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول . قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى . وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر . فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . فلا بد من قطعها بالصوم الدائم ، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل فى نفسه ، ضعيف فى جنسه . فيحترز عن اللحم والأطعمة المبهجة للشهوة

الثانى : قطع أسبابه المبهجة فى الحال . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة . إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . وهذا يحصل بالفزلة ، والاختراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، والفرار منها بالسكينة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس» وهو سهم يسدده الملموت ولا رس يمنع منه إلاّ تغميض الأجفان، أو الهرب من صوب رمية. فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور. فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه. وذلك بالنكاح فإن كل ما يشتهيه الطبع في المباحات من جنسه ما يغنى عن المحظورات منه. وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر. فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فقلبه بالصوم فإن الصوم له وجاء» ، فهذه ثلاثة أسباب للعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح، وعن الكلب الضارى، ليضعف فتسقط قوته. والثاني يضاهى تغييب اللحم عن الكلب، وتغييب الشمير عن البهيمة، حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهى تسليتها بشيء قليل مما يعمل إليه طبعها، حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب. وأما تقوية باعث الدين، فإنما تكون بطريقتين:

أحدهما: إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر، وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثران ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيسا في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن لقوات الخسيس في الحال. وهذا من باب المعارف، وهو من الإيمان. فتارة يضعف، وتارة يقوى. فإن قوي قوي باعث الدين، وهيجه تهيجا شديدا. وإن ضعف ضعفه، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين، وهو المحرك لعمية الصبر. وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا، قليلا قليلا، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيستجري عليها، وتقوى مثته في مصارعها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس: تقدم غير مرة

(٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم - الحديث: تقدم في الكاح

الشاقة ، تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال . ولذلك تزيد قوة المحالين ، والفلاحين والمقاتلين . وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين ، والمطارين ، والفقهاء ، والصالحين . وذلك لأن قوام لم تتأكد بالممارسة

فالملاج الأول يضاهاى إطماع المصارع بالخلمة عند الغلبة ، ووعده بأنواع الكرامة ، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام موسى حيث قال (وَإِنَّا نَكُفُّكُمْ إِذَا كَانَ الْمُقَرَّرِينَ ^(١)) والثاني يضاهاى تمويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة ، بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ، ويستجري عليه ، وتقوى فيه منته . فن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين . ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت . ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها معها أراد فهذا مناج العلاج في جميع أنواع الصبر . ولا يمكن استيفائه . وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس . وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له ، بأشقى قمع الشهوات الظاهرة ، وأثر العزلة ، وجلس للمراقبة والذكر والفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له ألبته إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا ، بالفرار عن الأهل ، والولد ، والمال ، والجاه ، والرفقاء ، والأصدقاء . ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت ، وبعد القناعة به . ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصدر الهوم هيا واحدا ، وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكتفى ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر ، وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض ، ومعجائب صنع الله تعالى ، وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن لم يكن له سير بالباطن ، فلا ينحيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة ، والأذكار ، والصلوات . ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور . فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة . ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تشغله ، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض ، وخوف ، وإيذاء من إنسان ، وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يقينه في بعض أسباب المعيشة ، فهذا أحد الأنواع الشاغلة

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول ، وهو اشتغاله بالمطعم ، والملبس ، وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تخرج إلى شغل ، إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملة أو وافعة . وفى تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى ، فى ملكوت السموات والأرض ، ما لا يقدر على عشر عشره فى زمان طويل ، لو كان مشغول القلب بالعلائق . والانتفاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد

فأما مقادير ما ينكشف . ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويحل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ . والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازى أعمال الثقلين . وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيا العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ رَبَّكُمْ فِي أَيَّامِ ذَهَرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَّا تَتَعَرَّضُوا لَهَا ، وَذَلِكَ لَأَنَّ تِلْكَ النِّفَحَاتِ وَالْجَذَبَاتِ لَهَا أَسْبَابُ سَمَاقِيَةٍ » ، إذ قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ^(١)) وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا ، فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفرغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض ، وينقيها من الحشيش ، ويث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا مطر . ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخل سنة عن مطر . فكذلك فلما تحل سنة ، وشهر ، ويوم ، عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة . كما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع ، وعند ظهور الغيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الغيم

وتساعد القلوب ، كما في يوم عرفة . ويوم الجمعة . وأيام رمضان . فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ، حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء ، واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار . بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بملأ فمك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليهما من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضراً في القلب ، ومنسبياً بالشغل عنه ، سعى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكر ا فقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١)) وقال تعالى (وَلَيَذَكِّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ^(٢)) وقال تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ^(٣)) فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله . السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن ، وهجران الخلق في حب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق . وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ، فإن لذة الرياسة ، والغلبة ، والاستعلاء ، والاستتباع ، أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء . وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأمر الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ^(٤))

وليس القلب مذموماً على حبه ذلك ، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تمير الشيطان اللعين ، المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه . وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ! فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكفاً لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية

(١) الحجر : ٩ (٢) إبراهيم : ٥٢ (٣) القمر : ١٧ (٤) الاسراء : ٨٥

وليس مذموما على طلب ذلك . بل حق كل عبد أن يطلب مُلكا عظيما لا آخر له : وطالب الملك طالب للعلو ، والعز ، والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو في الدنيا ، وملك مخلد دائم ، لا يشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل . وقد خلق الإنسان عجولا راغباً في العاجلة . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه ، فاستغواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق ، فوعده بالفرور في الآخرة ، ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْإِمَانِي » فأنخدع المخدول بفروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتبدل الموفق بجبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة . فعبر عن المخدولين بقوله تعالى (كَلَّا بَلْ يُحِيطُونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ^(١)) وقال تعالى (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِيطُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ^(٢)) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ^(٣))

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق ، أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك المدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي ، الذي لأصل له إنسلم ، ولادوام له أصلا ، فنادوا فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ^(٤))

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وصحف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ، ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد . والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ، ملوكا في الآخرة . أما ملك الدنيا فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه ، وعزا لا ذل فيه ، وقرّة عين أخفيت في هذا العالم ، لانعالمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا ، لعلهم بأن ملك الآخرة يفوت به . إذ الدنيا والآخرة ضربان . ولعلهم بأن الدنيا لا تسلم له أيضا

(١) الفيلامة : ٢٠ (٢) الدهر : ٢٧ (٣) النجم : ٣٠ ، ٢٩ (٤) التوبة

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا . ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المازعات والمكدرات ، وطول المموم في التديورات . وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضى العمر (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنَّ أَهْلُهَا أُنْهَضُوا قَادِرُونَ عَنِهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ^(١)) فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ^(٢)) . والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا ، حسده الشيطان عليه ، فصده عنه . ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق . إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرامثل البهيمة ، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بتخلفه إلى حيث يريد . ويهوى . فأكظم اغترارا الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا ، منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف اطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال من أنت عبده فهو عبد لى فقال كيف ذلك ؟ قال أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لى . فهذا إذا هو الملك في الدنيا . وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة فالتخذوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا . والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط فى ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه ، يسهل عليك التزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته . إذ تصير بتركه ملكا فى الجال وترجو به ملكا فى الآخرة . ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه فى البلاج مجرد العلم والكشف . بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله فى ثلاثة أمور :
أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع

(١) يونس : ٢٤ (٢) الكهف : ٤٥

الأسباب . كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض ، إذ قال تعالى . (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)^(١) الثاني : أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده . فيبدل التكلف بالتبذل ، وزى الحشمة بزى التواضع . وكذلك كل هيئة ، وحال ، وفعل ، في مسكن ، وملبس ، ومطعم ، وقيام ، وقعود كان يعتاده ، وفاءً بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها ، حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى المعالجة إلا بالمضادة

الثالث : أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلّي نفسه بالبعض . ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداءً بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً ، إلى أن يقنع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم^(١) « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ يَرْفُقْ وَلَا تَبْغُضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَ لَأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام^(٢) « لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادَّهُ يَغْلِبْهُ »

فإذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس ، وعن الشهوة ، وعن الجاه ، أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات ، فاتخذة دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل . فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه ، كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق . وله نظير في العادات فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم ،

(١) حديث ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق - الحديث : أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد

(٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه : تقدم فيه

(١) النساء: ٩٧

والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سئل الشيلي عن الصبر ، أيه أشد ؟ فقال : الصبر في الله تعالى . فقال لا . فقال الصبر لله . فقال لا . فقال مع الله . فقال لا . فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشيلي صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل في معنى قوله تعالى (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاحِبُوا ^(١)) (اصبروا في الله وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه

والصبر عنك فذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

الشرط الثاني

من الكتاب في الشكر وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته ، وأقسامه وأحكامه الثاني : في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر

الركن الأول

في نفس الشكر

بيان

فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرم في كتابه مع أنه قال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ^(٢)) فقال تعالى (فَادْكُرُوا نِيَّ أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ^(٣)) وقال الله تعالى (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ^(٤)) (وقال تعالى) (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ^(٥))

(١) آل عمران : ٢٠٠ (٢) العنكبوت : ٢٥ (٣) البقرة : ١٥٣ (٤) النساء : ١٤٧ (٥) آل عمران : ١٤٥

وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين (لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١)) قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر ، طعن اللعين في الخلق فقال (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ^(٢)) وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ^(٣)) وقد قطع الله تعالى بالزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى (لَّيْسَ شُكْرُكُمْ لَّا يَزِيدَنَّكُمْ ^(٤)) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة فقال تعالى (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِّنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ ^(٥)) وقال (فَيَكْشِفْ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنِ شَاءَ ^(٦)) وقال (يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(٧)) وقال (وَيَغْفِرْ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ^(٨)) وقال (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ^(٩)) وهو خلق من أخلاق الربوبية ، إذ قال تعالى (وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ^(١٠)) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ ^(١١)) وقال (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٢)) . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » وروي عن ^(٢) عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقالت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجباً ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ، أو قالت في لحافي ، حتى مس جلدي جلده ، ثم قال « يَا أَبْنَةَ أَبِي بَكْرٍ ذَرِينِي أَلْعَبُدُ لِرَبِّي » قالت قلت إني أحب قربك لكنني أوتر هوالك . فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام بصلى ، فبكي حتى سالت

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنان وفي إسناده اختلاف (٢) حديث عطاء دخلت على عائشة فقالت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجباً - الحديث : في بكانه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو حنبل واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا على آخر الحديث :

(١) الأعراف : ١٦ (٢) الأعراف : ١٧ (٣) سبأ : ١٣ (٤) إبراهيم : ٧ (٥) التوبة : ٢٨ (٦) الأنعام : ٤١ (٧) البقرة : ٢١٣ (٨) النساء : ٤٨ (٩) التوبة : ١٥ (١٠) التغابن : ١٧ (١١) الزمر : ٧٤ (١٢) يونس : ١٠

دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة . فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا وَلَمْ لِأَفْعَلْ ذَلِكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ » (١) « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢) » الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ما روي أنه مر بمض الأنبياء بحجر صنير يخرج منه ماء كثير ، فتمعجب منه . فأطلقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى (وَتُؤَدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٣)) فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار ، فأجابه . ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك . فقال لم تبكي الآن ؟ فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالْحِجَارَةُ أو أشد قسوة . ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقُمْ الْحَمْدُونَ فَتَقُومُ زُمَرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لُؤْلَاءُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » قيل ومن الحمدون ؟ قال « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « الْحَمْدُ رِذَاءُ الرَّحْمَنِ » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ، في كلام طويل . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : إن دارهم دار السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، بالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه : أي المال تتخذ ؟ فقال عليه السلام (٣) « لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَا كِرٍّ وَقَلْبًا شَاكِرًا » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان

(١) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمدون - الحديث : الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث

ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمدون - الحديث : وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور

(٢) حديث الحمد رداء الرحمن : لم أجده إلا في الصحيح من حديث أبي هريرة الكهبر داؤه - الحديث :

وتقدم في العلم

(٣) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا - الحديث : تقدم في الكلام

بيان

حد الشكر وحقيقته

أعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين . وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال . والحال يورث العمل . فأما العلم ، فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود بالمنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان . ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه

فالأصل الأول : العلم . وهو علم بثلاثة أمور . بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم ، ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ، ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة . فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى . فأما في حق الله تعالى ، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله ، وهو المنعم ، والوسائط مسخر ون من جهته . وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس . إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان والتقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة ، فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس ، وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثانية ، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ^(١) « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَهُ عَشْرُونَ حَسَنَةً وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَفْضَلُ الدِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » وقال ^(٣) « أَبْسَ شَيْءٍ مِنَ الْأَذْكَارِ يُضَاعَفُ مَا يُضَاعَفُ الْحَمْدُ لِلَّهِ »

(١) حديث من قال سبحان الله وله عشر حسنات - الحديث : تقدم في الدعوات

(٢) حديث أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله : الترمذي وحسه والنسائي في اليوم والليلة

وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر

(٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله : لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا

في كتاب الشكر عن ابراهيم النخعي يقال ان الحمد أكثر الكلام تضعيفا

ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات، من غير حصول معانيها في القلب. فسبحان الله كلمة تدل على التقديس. ولا إله إلا الله، كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين واعلم أن تمام هذه المعرفة ينشئ الشرك في الأفعال. فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيضاله إليه، فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه. بل منه بوجه، ومن غيره بوجه: فيتوزع فرحه عليهما، فلا يكون موحدا في حق الملك. نعم لا ينض من توحيد في حق الملك وكما لا شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه، وبالسكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والسكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لورد الأمر إليه، ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته، لما سلم إليه شيئا. فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل، كنظره إلى القلم والسكاغد، فلا يورث ذلك شركا في توحيد من إضافة النعمة إلى الملك. وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله، علم أن الشمس، والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، كالقلم مثل في يد الكاتب. وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها. فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شئت أم أبت. كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده. فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده، فهو مضطر، إذ ساط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به. وبعد أن خاق الله له هذا الاعتقاد، لا يجد سبيلا إلى تركه. فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك. ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك. ولو لم يعلم أن منفعة في منفعتك لما منعتك فهو إذاً إنما يطلب نفع نفسه بنفعك، فليس منعمًا عليك. بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات

ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك ، فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا ، وقدرت على شكره . بل كنت بهذه المعرفة بمجرد ما شاكرنا . ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل . أعلم أن كل ذلك مني ، فكانت معرفته شيكرا . فإذا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه . فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده ، بل وبغيره . فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل

الأصل الثاني : الحال . المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر . ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا لشرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإتيان . ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول . الملك الذي يريد الخروج إلى سفره ، فأنعم بفرس على إنسان ، يتصور أن يفرح بالمنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لاحظ له في الملك ، بل غرضه الفرس فقط . ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح

الوجه الثاني : أن يفرح به لامن حيث أنه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به ، وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه . حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء ، أو أعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائه عن الفرس أصلا ، أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك . الوجه الثالث : أن يفرح به ليركبه ، ليخرج في خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقى إلى درجة الوزارة ، من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ، ويعتني به هذا القدر من العناية . بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطة ثم أنه ليس يريد من الوزارة للوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب ، لا يختار القرب .

فهذه ثلاث درجات . فالأولى : لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، وفرحه بالفرس لا بالمعطى . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لفرضه ، فهو بعيد عن معنى الشكر . والثانية : داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، ولكن لا من حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الإنعام في المستقبل . وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه ، خوفاً من عقابه ، ورجاءاً لثوابه . وإنما الشكر التام في الفرع الثالث : وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى ، والنزول في جواره ، والنظر إلى وجهه على الدوام . فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ، ويعينه عليها . ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذیذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج ، بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه . ولذلك قال الشبلي رحمه الله . الشكر رؤية المنعم لأروية النعمة . وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرّب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن ، والفرج ، ومدركات الحواس من الألوان والأصوات ، وخلا عن لذة القلب . فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى . ومعرفة ، ولقائه . وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات ، كما يلتذ ببعض الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوّة ، ويستحل الأشياء المرة ، كما قيل ومن يك ذا فم مريض يجنّ مرأ به الماء الزلالاً

فإذاً هذا شرط الفرع بنعمة الله تعالى . فإن لم تكن إبل فعزى . فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب . فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ، ومن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه ، وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه الأصل الثالث : العمل بموجب الفرع الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب ، وباللسان . وبالجوارح . أما بالقلب ، فقصد الخير وإخاره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح ، فاستعمال نعم الله تعالى في

طاعته ، والتوق من الاستعانة بها على معصيته . حتى أن شكر العيين أن تستر كل عيب تراه لمسلم . وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه . فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء . والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى ، وهو مأموره . فقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «لرجل» كيف أصبحت؟ قال بخير . فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره . فقال صلى الله عليه وسلم « هذا الذي أردت منك » وكان السلف يتساءلون ويتهم استخراج الشكر لله تعالى ، ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا . وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر ، أو يشكو ، أو يسكت . فالشكر طاعة . والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين . وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ، ويده كل شيء ، إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء ، وأفضى به الضعف إلى الشكوى ، أن تكون شكواه إلى الله تعالى . فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز . والشكوى إلى غيره ذل . وإظهار الدل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّقُوا اللَّهَ عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ^(١)) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ^(٢)) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر . الكبير الكبير . فقال يأمر المؤمنين ، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك . فقال تكلم . فقال . لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة ، فقد أوصلها إلينا فضلك . وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك . وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر ،

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك : الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح

(١) العنكبوت ١٧. (٢) الاعراف : ١٩٤

المحيطة بمجموع حقيقته . فاما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال ، إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معاني الشكر ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا إشارة إلى أن المعرفة من معاني الشكر فقط . وقول الجنيدى . الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص . وهؤلاء أتوا لهم تعرب على أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق . ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم . أو يتكلمون بما يرونه لا تقابح السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه . فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التى شرحناها كانوا يذكرونها . بل لا يظن ذلك بما قل أصلا ، إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ ، في أن إسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا ، وبقيّة المعاني تكون من توابعه ولوازمه . ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شيء ، والله الموفق برحمته

بيان

طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى

اعلمك يخاطر ببالك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر . فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلمهم فى القلوب ، ويظهر كرمهم عند الناس ، فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التى هي إعانة لهم على بعض أغراضهم . أو بالثول بين أيديهم فى صورة الخدم ، وذلك تكثير سوادهم ، وسبب لزيادة جاههم . فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشئ من ذلك . وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين . أحدهما : أن الله تعالى منزّه عن الخطو وظل الأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والخشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين

يديه ركعاً سجداً . فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه ، يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا ، أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولاحظ لله تعالى في أفعالنا كلها . الوجه الثاني : أن كل ما تنعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا . إذ جوارحنا ، وقدرتنا ، وإرادتنا ، وداعتنا ، وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته . فكيف نشكر نعمة بنعمة ! وأعطانا الملك مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوباً آخر ، لم يكن الثاني شكراً للأول منا ، بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك في الأمرين جميعاً . والشرع قد ورد به . فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام ، فقال : يا رب كيف أشكرك ؟ وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر . وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكراً . فإن قلت : فقد فهمت السؤال ، وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ، فإنني أعلم استحالة الشكر لله تعالى . فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه . فإن هذا العلم أيضاً نعمة منه . فكيف صار شكراً ؟ وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر . وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكراً للخلعة الأولى . والفهم قاصر عن درك السر فيه . فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم : أن هذا قرع باب من المعارف ، وهي أعلى من علوم المعاملة . ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول . ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطماً أنه الشاكر ، وأنه المشكور ، وأنه المحب ، وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً . لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام . ومثل هذا الغير لا وجود له ، بل هو محال أن يوجد . إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود . بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره . فإن

اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود ألبتة . وإنما الوجود هو القائم بنفسه .
والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقي موجودا . فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم
بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم . ولا قيوم إلا واحد . ولا يتصور أن يكون غير ذلك
فإذا ليس فى الوجود غير الحى القيوم ، وهو الواحد الصمد . فإذا نظرت من هذا المقام ،
عرفت أن الكل منه مصدره ، وإليه مرجعه . فهو الشاكر ، وهو المشكور . وهو المحب
وهو المحبوب . ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قال (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقَمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ^(١)) فقال . وأعجبا ! أعطى وأثنى . إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه
فعلى نفسه أثنى . فهو المثنى وهو المثنى عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث
قرىء بين يديه (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ^(٢)) فقال : لعمري يحبهم ، ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم
لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب . وهذه رتبة عالية لا تفهمها
إلا بمثال على حد عقلك . فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه ، فقد أحب نفسه ،
والصانع إذا أحب صنعته ، فقد أحب نفسه . والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده ،
فقد أحب نفسه . وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعتة . فإن أحبه
فأحب إلا نفسه . وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب . وهذا كله نظر بيمين
التوحيد . وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بقاء النفس . أي قى عن نفسه وعن غير الله ، فلم
ير إلا الله تعالى . فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول . كيف نرى وطول ظله أربعة أذرع !
ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ؟ فيضحك عليهم الجهال ، لجهلهم بمعانى كلامهم
وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين . وإليه الإشارة بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ^(٣))
ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ^(٤)) وكذلك أمته نوح عليه السلام ، كانوا يضحكون
عليه عند اشتغاله بعمل السفينة (قَالَ إِنَّ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَأَنَا تَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ^(٥))

(١) ص : ٤٤ (٢) المائة : ٥٤ (٣ ، ٤) اللطفين : ٢٩ ، ٣٥ (٥) هود : ٣٨

فهذا أحد النظريين. النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه. وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا
إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد. وهؤلاء هم العميان المنكوسون
وعمام في كلتا العينين، لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا، وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه
وقائم على كل نفس بما كسبت، وكل قائم فقام به. ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا
أنفسهم. ولو عرفوا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم، ولا وجود لهم. وإنما وجودهم
من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا. وفرق بين الوجود وبين الموجد. وليس في الوجود
إلا موجود واحد، وموجد. فالموجود حق، والموجد باطل من حيث هو هو. والموجود
قائم وقيوم، والموجد هالك وفان. وإذا كان (كُلُّ مَنْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ^(١)) فلا يبقى إلا وجه
ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني: ليس بهم عمى، ولكن بهم عور. لأنهم
يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق، فلا ينكرونه. والعين الأخرى إن تم
عماهم يبصر بها فناء غير الموجود الحق. فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى. وهذا مشرك
تحقيقا، كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا. فإن جاوز حد العمى إلى العمى، أدرك تفاوتنا بين
الموجودين، فأثبت عبدا وربا. فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر
داخل في حد التوحيد. ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه. وبقدر ما يزيد في
بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى. فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به
النقصان إلى المحو، فيمنحى عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله. فيكون قد بلغ كماله
التوحيد. وحيث أدرك نقصا في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد.
وبينهما درجات لا تحصى. فهذا تفاوت درجات الموحدين. وكتب الله المنزلة على السنة
رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار. والأنبياء هم الكحالون. وقد جاءوا داعين
إلى التوحيد المحض، وشرجه قول لا إله إلا الله. ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق.
والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأتقون. والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. وم على
الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد. إذ عبدة الأوثان قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللَّهِ زُلْفَى^(٢)) فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا. والمتوسطون

(١) الرحمن ١٦، (٢) الزمر ٢٣

هم الأكترون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال ، فتلوح له حقائق التوحيد ، ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ، ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز لكل إلى شأو الملا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب ، فقيل له (وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ^(١)) قال في سجوده « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط . فكانه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات ، فقال « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد ، فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفه ، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ، ومستعيذا ومثنياً ، ففنى عن مشاهدة نفسه ، إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « لَا أُحْصِي » خبر عن فناء نفسه ، وخروج عن مشاهدتها . وقوله « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » يان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ^(٢) » فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموجدين ، وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعبد بفعل من فعل . فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بمبدأ بالإضافة إلى الثانية . فكان يستغفر الله من الأولى . ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه

(١) حديث قال في سجوده أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ - الحديث : مسلم من حديث عائشة أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِعَافَاتِكَ عَنْ عِقَابِكَ - الحديث .

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) «إِنَّهُ لَيُفَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما ، بعضها فوق البعض ، أو لها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها . فكان استغفاره لذلك ^(٢) ولما قالت عائشة رضي الله عنها . أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا مَشْكُورًا ، معناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) ^(٣) . وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا الدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه . ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة ، وعقبات شديدة . وإعنا الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات . وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر ، فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر ، والشاكر ، والمشكور . ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول . يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بدمته مركوبا ، وملبوسا ، ونقدا ، لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ، ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان . إحداها : أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ، ويكون له عناية في خدمته ، والثانية : أن لا يكون الملك حظ في العبد ، ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه ، لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء . وغيبته لا تنقص من ملكه . فيكون قصد من الإناعام عليه بالمركوب والزاد ، أن يحظى العبد بالقرب منه ، وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه ، لا لينتفع الملك به وباتتفاعه . فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى . فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال

(١) حديث أبي ليلى - الحديث : تقدم في التوبة وقوله في الدعوات

(٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء - الحديث : رواه أبو الشيخ

وهو بنية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عورة

عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه

(١) إبراهيم : ٧

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى ، بمجرد الركوب والوصول إلى
حضرته ، ما لم يقوم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية : فلا يحتاج إلى
الخدمة أصلا . ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافرا . ويكون شكره بأن يستعمل
ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه . وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه ، بأن
يمطله ، أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فهما لبث العبد الثوب ، وركب الفرس ، ولم ينفق
الزاد إلا في الطريق ، فقد شكره مولاه ، إذا استعمل نعمته في محبته ، أي فيما أحبه لعبد
لا لنفسه . وإن ركب واستدبر حضرته ، وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته ، أي استعملها
فيما كرهه مولاه لعبد لا لنفسه . وإن جلس ولم يركب ، لافى طلب القرب ولا في طلب
البعد ، فقد كفر أيضا نعمته ، إذ أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه . فكذلك
خلق الله سبحانه الخلق ، وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات ، لتكمل
بها أبدانهم ، فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم في القرب منه . فأعطاهم من النعم
ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال (لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ^(١)) الآية
فإذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد
حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها
في الطاعة ، فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه ، وبين أن يستعملها في معصيته ، فقد كفر
لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له . فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها
ولم يستعملها في طاعة ولا معصية ، فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا
إنما خلق آلة للعبد . ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ، ونيل القرب من الله تعالى ، فكل مطيع
فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسول ترك
الاستعمال ، أو خاص استعملها في طريق البعد ، فهو ، كافر جار في غير محبة الله تعالى ، فالمعصية
والطاعة تشملها المشيئة ، ولكن لا تشملها المحبة والكرامة ، بل رب مراد محبوب ، ورب
مراد مكروه ، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا

الإشكال الأول . وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .
 وبهذا أيضا ينحل الثاني . فإننا لم نمن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله .
 فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله ، فقد حصل المراد . وفلك عطاء من الله تعالى
 ومن حيث أنت محله فقد أننى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك . فهو الذى أعطى ،
 وهو الذى أننى . وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته . فله الشكر على
 كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر ، بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه ،
 لا بمعنى أنك موأجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم ، لا بمعنى أنك خالق للعلم وموأجده
 ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك . فوصفك بأنك شاكر إثبات
 شيئية إليك ، وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا . وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت
 ظانا لنفسك شيئا من ذاتك . فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء أشياء ، فأنت شيء
 إذ جعلك شيئا . فإن قطع النظر عن جملة كنت لاشيء تحقيقا . وإلى هذا أشار صلى الله
 عليه وسلم حيث قال ^(١) « اَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » لما قيل له : يا رسول الله ففيم
 العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟

فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى . ومحل أفعاله ، وإن كانوا هم أيضا من أفعاله
 ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اَعْمَلُوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول
 صلى الله عليه وسلم ، فهو فعل من أفعاله . وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم
 فعل من أفعال الله تعالى . والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة . وانبعاث
 الداعية أيضا من أفعال الله تعالى . وهو سبب لحركة الأعضاء ، وهى أيضا من أفعال الله تعالى
 ولكن بعض أفعاله سبب للبعض . أى الأول شرط للثانى ، كما كان خلق الجسم سببا لخلق
 العرض ، إذ لا يخلق العرض قبله . وخلق الحياة شرط لخلق العلم . وخلق العلم شرط لخلق
 الإرادة . والكل من أفعال الله تعالى ، وبعضها سبب للبعض . أى هو شرط ومعنى كونه
 شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ، ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ؛
 ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم . فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى ، لا بمعنى أن بعض أفعاله
 موأجد لغيره ، بل مبدء شرط للحصول لغيره . وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له : متفق عليه من حديث طى وعمران بن حصين

فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم ؟ وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا . والاعتقاد سبب لهيجان الخوف . وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور . وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها . فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذا لأسباب ، حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة . ويعبر عن مثله بأن كلاميسر لما خلق له . ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع لم يعلم . وإذا لم يعلم لم يخف . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا . وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدم أجمعين . فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . فامن أحد إلا وهر مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وامن مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه . فالتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا . ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ، ولا قادر إلا الملك الجبار . وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك ، سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم ، لذلك اليوم على الخصوص . ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم . فهو ناعما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا يتفهم الكشف . فنعمو بالله الحليم الحكيم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك

بيان

تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه . إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في مجابهة ، ومعنى الكفر نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال

أو باستعمالها في مكارهه . ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان . أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات والأخبار ، والثاني : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار . وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز . فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطريق على الخلق . ومعرفة ذلك تنبئ على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد . فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا .

وأما الثاني : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه . إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية ، فسكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا ، والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكم فيها . بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع الثبات مطعما للخلق ، وصرعى للأنعام . وقد انطوى القراءان على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَابًا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا^(١)) الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب ، السيارة منها والثوابت ، فنخفية لا يطلع عليها كافة الخلق . والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ، لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ^(٢)) . فجميع أجزاء العالم ، سماؤه وكواكبه ، ورياحه ، وبحاره ، وجباله ، ومعادنه ، ونباته ، وحيواناته ، وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة ، إلى عشرة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف . وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها ، كالعلم بأن العين للإبصار ، واللبطش ، واليد للبطش ، والمشى لا المشى . فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء ، والمرارة ، والكبد ، والكلية ، وآحاد العروق ، والأعصاب ، والمضلات ، وما فيها من التجايف ، والالتفاف ، والاشتباك ، والانحراف ، والدقة ، والغلظ ، وسائر الصفات ، فلا يعرف

(١) عبس : من ٢٥ إلى ٢٨ (٢) الصفات : ٦

الحكمة فيها سائر الناس . والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرها يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ^(١)) . فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ، ولا على الوجه الذي أريد به ، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده ، فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه . لا يهلك بها غيره . ومن نظر إلى وجه غير المحرم ، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملهما في غير ما أريدتا به . وهذا لأن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا ، والتجافى عن غرور الدنيا . ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض ، والماء ، والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض ، وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً . فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة . فلذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ^(٢)) الآية فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولتذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول :

من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير . وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة في أعيانها ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه ، وملبسه ، وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك الزعفران ، مثلاً وهو محتاج إلى جل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبدل صاحب الجمل جملة . بكل مقدار من الزعفران . ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري داراً بثلث باب ، أو عبداً بخنجر ، أو دقيقتاً

بحمار ، فهذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعران ، فتنمذر
المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها ، يحكم فيها
بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل ، وترتبت
الرتب ، علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدرهم حاكمين
ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يسوى مائة
دينار ، وهذا القدر من الزعران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد
إذاً متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لا غرض في أعيانها . ولو كان في أعيانها
غرض ، ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ، ولم يقتض
ذلك في حق من لا غرض له ، فلا ينتظم الأمر . فإذا خلقهما الله تعالى لتداولهما
الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل . ولحكمة أخرى ، وهى التوصل بهما إلى
سائر الأشياء ، لأنهما عزان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانها . ونسبتهما إلى سائر
الأموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا
الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، لأن غرضه في دابة مثلاً
فاحتجج إلى شيء هو صورته كأنه ليس بشيء ، وهو معناه كأنه كل الأشياء . والشئ إنما
تستوى نسبته إلى المختلفات ، إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها . كالرأى
لألون لها . ونحكي كل لون . فكذلك النقد لا غرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض .
وكل حرف لا معنى له في نفسه ؛ وتظهر به المعاني في غيره . فهذه هى الحكمة الثانية . وفيهما
أيضاً حكم يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم ، بل يخالف القرض
المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذا من كنزهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة
فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز
فقد ضيع الحكم ، ولا يحصل القرض المقصود به ، وما خلقت الدرهم والدنانير لزيد خاصة
ولا لعمر خاصة ، إذ لا غرض للأحد في أعيانها ، فإنهما حبران ، وإنما خلقا لتداولهما
الأيدي ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير ، مقومة للراتب . فأخبر
الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات

بخط الهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ، أخبر هؤلاء
العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل إليهم بواسطة الحرف
والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(١)) . وكل من اتخذ من الدراهم
والدنانير آتية من ذهب أو فضة ، فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالا ممن كثر . لأن مثال
هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياة ، والمكس ، والأعمال التي يقوم بها أخساء
الناس : والحبس أهون منه . وذلك أن الحرف ، والرصاص ، والنحاس ، تنوب مناب الذهب
والفضة في حفظ المائعات عن أن تبدد . وإنما الأواني لحفظ المائعات . ولا يكفي الحرف
والحديد في المقصود الذي أريد به النقود . فمن لم يكشف له هذا ، انكشف له بالترجمة الإلهية
وقيل له ^(١) « مَنْ شَرِبَ فِي آتِيَةِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَكَأَنَّمَا يُجْرِي جُرْفٌ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ »
وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما ختفا
لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما . فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا
على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا تقدمه
فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو
معدور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد ، فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الخير
لا غرض في أعيانهما . وموقعهما في الأموال كوقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون :
إن الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره . وكوقع المرأة من الألوان فأما من معه نقد ،
فلو جازله أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيدا عنده ، وينزل
منزلة المكنوز . وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم . فلامعنى
لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للاذخار ، وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ؟ ولم جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجري في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة
لمصرح المصنف بكونه حديثا .

النقدین يخالف الآخر في مقصود التوصل . إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرتة كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا . ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يائله فجائز ، من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهم انساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث يحجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلان منع مما لا تشوق النفس إليه ، إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر . وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء ، فلا ينتظم العقد . وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده ، فلا جرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه . ومالا غرض في عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته . وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة ، حتى صارت مقصودة في أعيانها ، وحقها أن لا تقصد

وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة ، فإنما لم يحز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد للإحسان ، ففي القرض وهو مكرمة مندوحة عنه ، لتبقى صورة المسامحة ، فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم ، لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة . وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها ، أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها . فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ، ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له . فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل . والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ، ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ، ولم يجعله بضاعة تجارة ؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام ليكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه . ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب

نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض ، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ، ولكنه عابث ، فلا يحتاج إلى منع ، لأن النفوس لا تسمح به

إلا عند التفاوت في الجودة ، ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد .
وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأظعمة من الضروريات ، والجيد يساوى
الرديء في أصل الفائدة ، ويخالفه في وجوه النعم ، أسقط الشرع غرض النعم فيما هو القوام
فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقهاء ،
فلنلحق هذا بفن الفقهاء ، فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات

وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله في التخصيص بالأظعمة دون المكيلات
إذ لو دخل الجص فيه لكانت الشيايب والدواب أولى بالدخول . ولولا الملح لكان مذهب
مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه ، إذ خصصه بالأقوات . ولكن كل معنى يراه الشرع
فلا بد أن يضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت ، وكان ممكنا بالمطعموم ، فرأى الشرع
التحديد بجنس المطعموم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء . وتحديدات الشرع قد تحيط
بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم . ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة
ولو لم يجد لتحجير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص . فمعين
المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضروريا . فذلك
قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ^(١)) ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف
فيها الشرائع . وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام
تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثيره
والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس ، كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية
فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقيدين . فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها
بهذا المثال . فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها . ولا يعرف هذا إلا من قد
عرف الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ^(٢)) ولكن لاتصادف
جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات ، وملاعب الشياطين . بل لا يتذكر إلا أولوا
الألباب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحْمُومُونَ عَلَى قُلُوبِ

(١) حديث لولان الشياطين يحومون على بنى آدم انظروا الى ملكوت السموات : تقدم في الصوم

(٢) الطلاق : ١ (٢) البقرة : ٢٦٩

بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ » . وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكوتك . وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر . إذ لا يتصور أن ينفك عنهما . وبمض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة ، وبمضه بالحظر . وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلاً لو استنجيت باليمن فقد كفرت نعمة الدين ، إذ خلق الله لك الدين ، وجعل إحداها أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل . وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل . ثم أحوك من أعطاك الدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة . فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزأت النجاسة باليمن ، فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، ففضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل . وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة ، أو استقبلتها في قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لأنه خلق الجهات لتكون متمسك في حركتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرفها ، وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه ، استمالة لقلبك إليه ، ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك . وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهي شريفة كالطاعات ، وإلى ماهي خسيسة كقضاء الحاجة ، ورمي البصاق . فإذا رميت بصاقت إلى جهة القبلة فقد ظلمتها ، وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة ، التي بوضعها كمال عبادتك . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداء في الحفظ ينبغي أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل . وهذا عند العارفين كبيرة ، وإن سماه الفقيه مكروهاً . حتى أن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الخطئة ، وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً ، فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها . فقيبح أن يقال الذي شرب الخمر ، وأخذ الفدح

يساره ، فقد تعدى من وجهين . أحدهما : الشرب ، والآخر : الأخذ باليسار . ومن باع خيرا
 فى وقت النداء يوم الجمعة ، فقيح أن يقال خان من وجهين . أحدهما : بيع الحمر ، والآخر : البيع
 فى وقت النداء . ومن قضى حاجته فى محراب المسجد مستدبر القبلة ، فقيح أن يذكرك
 الأدب فى قضاء الحاجة ، من حيث إنه لم يحمل القبلة عن يمينه . فالمعاصى كلها ظلمات وبعضها
 فوق بعض ، فينمحق بعضها فى جانب البعض . فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه
 بغير إذنه . ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده ، لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه
 حكم ونكاية فى نفسه . فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب ، وتساعنا فيه فى الفقه
 مع العوام ، فسببه هذه الضرورة . وإلا فكل هذه المكارة عدول عن العدل ، وكفران
 للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب . نعم بعضها يؤثر فى العبد
 بنقصان القرب وانحطاط المنزل ، وبعضها يخرج بالسكينة عن حدود القرب إلى عالم البعد
 الذى هو مستقر الشياطين . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة فاجزة
 مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله تعالى فى خلق الأشجار وخلق اليد . أما
 اليد ، فإنها لم تخلق للمبت ، بل للطاعة والأعمال المينة على الطاعة . وأما الشجر فإنما خلقه
 الله تعالى ، وخلق له المروق ، وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاعتذاء والماء ، ليبلغ
 منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده ، مخالف لمقصود
 الحكمة ، وعدول عن العدل . فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذا الشجر والحيوان جملا فداء
 لا غراض الإنسان فإنهما جميعا فانيان هالكان . فإفناء الأخس فى بقاء الأشرف مدة ما أقرب
 إلى العدل من تضييعهما جميعا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ^(١)) . نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا . لأن
 كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم ، بل تفي بحاجة واحدة . ولو خصص واحد بها من غير
 رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض
 وساق إليه الماء ، وقام بالتمهيد ، فهو أولى به من غيره ، فيرجح جانيه بذلك . فإن ثبت ذلك

في موات الأرض ، لا بسمي آدمي اختص بغيره أو بغيره ، فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه . فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به . وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض . إذ لا ملك إلا لملك الملوك ، الذي له ما في السموات والأرض . وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه ! بل هو ملك غيره . نعم الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله . وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم . كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها براحه ، نجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده ، لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ، فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد ، فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفر به العبد ، فنزع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته . فكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عبادته . ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته ، وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه ، فهو ظالم وهو من الذين يسكنزون الذهب والفضة ولا يتفقونها في سبيل الله . وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضرورتهم ، وترتفع حاجاتهم . نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة . فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار ، والتؤدة ، والسكوت عن كل كلام غير مهم . وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه . فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم ، لا يدل على أن اللهو واللعب حق

فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال ، والاقتصار في الإتفاق على قدر الزكاة ، لضرورة ما جبلوا عليه من البخل ، لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القراء إلى ذلك إذ قال تعالى (**إِنْ يَسْأَلُكُمْ مَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا** ^(١)) بل الحق الذي لا كدورة فيه ، والعدل الذي لا ظلم فيه ، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرأب . فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان ، إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ، ثم منعه عن ركب

آخر محتاج إليه ، فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن ، والرسول ، والعقل ، وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأى كماله وبال عليه فى الدنيا والآخرة . فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات ، قدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لاني إلا بالقليل . وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ^(١)) وفرح إبليس لعنة الله بقوله (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ^(٢)) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأموراً أخرى وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها ، فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة فى كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتلك الحكمة ، وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة . فكل فعل وافق مقتضى الحكمة ، حتى انسأقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر . وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران . وهذا كله مفهوم . ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنتظم إلى ما يتم الحكمة ، وإلى ما يرفعها ، هو أيضاً من فعل الله تعالى . فأين العبد فى البين حتى يكون شاكر مرة وكافراً أخرى ؟

فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقدر مرنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها . ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها ، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويحجدها من عجز عن الإيضاح فى السير ، فضلاً عن أن يحول فى جو الملكوت جولان الطير . فنقول : إن الله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع . وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة ، حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنهه جلالها ، وخصوص حقيقتها . فلم يكن لها فى العالم عبارة لعل شأنها ، وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يتدبر فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم ، كما تنخفض أبصار الخفايش عن نور

(١) سبأ : ١٣ (٢) الاعراف : ١٧

الشمس ، لا لعموض في نور الشمس ، ولكن لضعف في أبصار الخفافيش . فاضطر
الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها ، إلى أن يستيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات
عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا . فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسر ناسبب
استعارتهم على النطق ، فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع
ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام ، وخصوص صفات ومصدرا نقسام هذه الأقسام
واختصاصها بخصوص صفاتها ، صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت ، عبارة
المشيئة . فهي توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات ، التي هي حروف وأصوات المتفاهمين
بها . وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها ، كقصور لفظ القدرة
نم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المتسمى الذي هو غاية حكمته
وإلى ما يقف دون الغاية . وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة ، لرجوعها إلى الاختصاصات
التي بها تم القسمة والاختلافات . فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة
الوافد دون غايته عبارة الكراهة : وقيل إنهما جميعا داخلان في وصف المشيئة ، ولكن
لكل واحد خاصية أخرى في النسبة ، يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند
طالب الفهم من الألفاظ واللغات . ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه
إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك
قهر في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم
لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور . فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة
خاصة . فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف
بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل
وقف الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة
في النكال . وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له
عبارة الشكر ، وأردف بخلمة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال
فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله
أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل

ما أجلك وأجل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقيقة هو المجلل ، وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف البناء من حيث الظاهر والصورة . فهكذا كانت الأمور في الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب . ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث ، بل عن إرادة ، وحكمة ، وحكم حق ، وأمر جزم ، استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلعج بالبصر أو هو أقرب . ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم ، بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتيب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد السكلي ، ولمعظ القدر بإزاء التفصيل المتماهى إلى غير نهاية . وقيل إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر . فيخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل . وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر ، والاحتواء على مجامعه ، فألجأوا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع . وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

وامتلائت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض ، وكان ريتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ، ولو لم تمسه نار ، فتمته نار ، فاشتعل نوراً على نور ، فأشرقت أقطار الملوكوت بين أيديهم بنور رها ، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه ، فقبل لهم : تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا ، " وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، فإن للحيطان آذاناً ، وحواليكم ضعفاء الألبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكتشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتحلقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ، ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيجابه حياة يحتملها شخصه وحاله ، وإن كان لا يجابه به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شراباً طيباً عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله وللأرض من كأس الكرام نصيب

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا : الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بصحته حديثاً

فكذا كان أول هذا الأمر وآخره . ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له . وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك . والأعمى ممكن أن يقاد ، ولكن إلى حد ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى . وإذا دق المجال ، واطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ، وربما يقدر على أن يستجر وراءه آخر . فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جواهر الخلق ، كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض . والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم ، بل ينال بقوة اليقين . ولذلك ^(١) قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن عيسى عليه السلام يقال أنه مشى على الماء . فقال صلى الله عليه وسلم « لَوْ اَزْدَادَ يَقِينًا لَمَشِيَ عَلَى الْهَوَاءِ » فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب ، والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها . وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خاق الجن والإنس إلا لعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم . ثم أخبر أن له عبيدين ، يحب أحدهما واسمه جبريل ، وروح القدس ، والأمين ، وهو عنده محبوب ، مطاع ، أمين ، مكين ، وينقض الآخر واسمه إبليس ، وهو اللعين ، المنظر إلى يوم الدين . ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى (قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ^(٢)) وقال تعالى (يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ^(٣)) وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ^(٤)) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة . فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه . والإرشاد سياقه لهم

(١) حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء هذا حديث منكراً يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد اختلفوا فيهم فقبل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث

معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمستم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

إلى الغاية . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه . وعندك فى المادة له مثال . فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب ، وإلى من يحجبه وينظف فناء منزله عن القاذورات ، وكان له عبدان ، فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحها وأخسها ولا يفوض حمل الشراب الطبيب إلا إلى أحسنها ، وأكملها ، وأحبها إليه . ولا ينبغي أن تقول هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ، فإنك أخطأت ، إذ أضفت ذلك إلى نفسك . بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه ، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب ، إتماما للعدل . فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك . فإنك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك ، وعلمك ، وعملك ، وسائر أسباب حركاتك ، فى التعبير هو فعله ، الذى رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك ، فتظن أن ما يظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ ، الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص ، وترعق ، وتقوم ، وتقع ، وهى مؤلمة من خرق لا تتحرك بأنفسها ، وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر فى ظلام الليل ، ورؤوسها فى يد المشعبذ ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون ، لظنهم أن تلك الخرق ترقص ، وتلعب وتقوم وتقع . وأما العقلاء ، فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله . والذى يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجازبة يده فكذلك صبيان أهل الدنيا . والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء . ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة ، فيحيلون عليها . والعلماء يعلمون أنهم محركون ، إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك ، وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدرکوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية ، بل أدق منها بكثير ، معلقة من السماء ، متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض ، لا تدرك تلك الخيوط لدفعها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط فى مناطق لها هى معلقة بها . وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أبدي الملائكة المحركين للسماوات . وشاهدوا أيضا ملائكة السموات

مصرفه إلى حملة العرش ، ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن قليل (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ^(١)) وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ^(٢)) وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتلها أفهام الخلق ، حيث قرأ قوله تعالى (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ^(٣)) فقال : لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجعتوني وفي لفظ آخر لقلم إنه كافر . ولنقتصر على هذا القدر ، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار ، وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول

إذا رجع حقيقة الشكر إلى قول العبد مستعملا في إتمام حكمة الله تعالى ، فاشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه . وأقربهم إلى الله للملائكة ، ولهم أيضا ترتيب . وما منهم إلا وله مقام معلوم . وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام . وإنا علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام . وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض . وبلى درجتهم درجة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق ، وتم بهم حكمته . وأعلام رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكل الله به الدين . وختم به النبيين . ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره . ثم يليهم السلاطين بالعدل ، لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين ، والملك والسلطنة ، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنهم أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم . ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء . ثم يلي العلماء والسلاطين ، الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم . ومن عنا هؤلاء فهمج رعاع

(١) الديارت : ٢٣ (٣٠٢) الطلاق : ١٢ .

واعلم أن السلطان به قوام الدين ، فلا ينبغي أن يستحقروا إن كان ظلماً فاسقاً ، قال عمرو ابن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنه تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ » وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق . ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع . ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير ؟ فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلاً ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صميفته فينظره جميع ذنبه وكان يقول : الخشب السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصاً يقصون .

الركن الثاني

من أركان الشكر ، ما عليه الشكر

وهو النعمة . فلنذكر فيه حقيقة النعمة ، وأقسامها . ودرجاتها ، وأصنافها ، وبجائزها فيما يخص ويعم . فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(١)) فنقدم أموراً كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نستغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة يسعمل عليكم أمراء معروفون وتكفرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح والبرار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض ياؤى إليه كل مطلوب من عباده فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أحده هذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أسكروا صيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فإن جوراً ما مكّم خمسين سنة خير من هرج شهر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثاً والاملة الفاجرة خير من المرح رواء الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به

بيان

حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة . ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية . وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز كنسبة السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض . وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق ، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة ، واللذات المسماة نعمة ، نشرحها بتقسيمات . القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا ، كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال وبضر في المآل ، كاللذات بتابع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل ، كقمع الشهوات وغلبة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة بتحقيقا . كالعلم وحسن الخلق . والضار فيهما من البلاء بتحقيقا ، وهو ضدهما . والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة . ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم ، فإنه يمدده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سبق إليه . والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء البشع في الحال مذكاه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة . فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والماعقل يمدده نعمة ويتقصد المنفعة من يهديه إليه ، ويقربه منه ، ويهيئ له أسبابه . فلهذا تمنع الأم ولدها من الحجامة ، والأب يدعو إليها ، فإن الأب لكال عقله يلح العاقبة ، والأم لفرط حبها ونصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقصد منة من أمه دون أيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوآله . ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا في صورة صديق ، لأن منعها إياها من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو الماعقل .

وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل . فلذلك تعمل به
ملا يعمل به العدو . قسمة ثانية . اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة ، قد امتزج
خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال ، والأهل ، والولد ، والأقارب ، والجاه ، وسائر
الأسباب . ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرره ، كقدر الكفاية من المال والجاه
وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص ، كالمال الكثير
والجاه الواسع ، وإلى ما يكافئ ضرره نفعه . وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان
صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر ، فينفقه في سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع
هذا التوفيق نعمة في حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا ، إذ لا يزال مستصغرا له ،
شاكيا من ربه ، طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه

قسمة ثالثة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ،
وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره كاذة النظر
إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقاءه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا تقضاء لها ، فإنها لا تطلب
ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها

الثانى : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته ، كالدرهم والدنانير ، فإن الحاجة لو كانت
لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة . ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات ، سريعة
الإيصال إليها ، صارت عند الجهال محبوبة في نفسها ، حتى يجمعوها ويكنزوها ، ويتصارفوا
عليها بالربا ، ويظنون أنها مقصودة . ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا . فيجب بسببه
رسوله الذى يجمع بينه وبينه ، ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل ، فيعرض عنه طول عمره ،
ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقدته ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره ، كالصحة والسلامة ، فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر
والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا . وتقصد أيضا
لذاتها ، فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذى تراد سلامة الرجل لأجله ، فيريد أيضا
سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ،
وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما ما يؤثر لغيره كالنقددين

فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ، ومعها الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة ، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة . قسمه رابعة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فالذي هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المال ؛ والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشرور أيضا تنقسم إلى ضار ، وقبيح ومؤلم . وكل واحد من القسمين ضربان . مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة ، أما في الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة . وأما في الشر فكالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ، ويرى نفسه جاهلا ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد ، والكبر . والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان ، فيمظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات ، أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة والضرب الثاني : المقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم ، كقطع الأصبع المتأكلة ، والسلعة الخارجة من البدن . ورب نافع قبيح كالخلق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له ، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كالقاء المال في البحر عند خوف الفرق ، فإنه ضار للمال ، نافع للنفس في نجاتها والنافع قسمان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه

قصة خامسة : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ . واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض

الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلاذ العلم والحكمة .
إذ ليس يستلذها السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها
القلب ، لا اختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا ، وهى أشرفها
أما قلها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل
العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم ، والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها
لازمة لاتزول أبدا ، لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، ودائمة لآغل . فالطعام يشبع منه فيمل ،
وشهوة الوقاع يفرغ منها فنستقل ، والعلم والحكمة فط لا يتصور أن تغل وتستقل . ومن
قدر على الشريف الباقي أبد الآباد ، إذا رضي بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد ، فهو مصاب
فى عقله ، محروم لشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان
وحفظة ، بخلاف المال . إذ العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإتفاق ، والمال
ينقص بالإتفاق ، والمال يسرق ، والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدى السراق
بالأخذ ، ولا أيدى السلاطين بالنزل ، فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا ، وصاحب
المال والجاء فى كرب الخوف أبدا . ثم العلم نافع ، ولذيذ ، وجيل ، فى كل حال أبدا
والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن
فى مواضع ، وإن سماه خيرا فى مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ،
فإما لعدم الذوق ، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد
أمزجتهم ، ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمرضى الذى لا يدرك حلاوة العسل
ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل
الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن . وذلك لا يدل على
أنها ليست لذيدة ، ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء . فالقاصرون عن درك
لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحى باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع
الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى (فَيُؤَلِّقُ بِهِمْ مَرَضٌ ^(١))
إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل (لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ جَبِيًّا ^(٢)) إشارة إلى من لم يحى

(١) النقرة : ١٠ (٢) بس : ٧٠

حياة باطنة . وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى ، وإن كان عند الجهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فحين ، وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة : ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا ، وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة ، وهو أشدها التصاقا ، بالمتغافلين . فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة ، فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب . وآخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره بما يقوى عليه الصالحون . وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون . فأما قمها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال ، فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر ، بل يعتريه الفترات ، فعمود إليه الصفات البشرية ، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على المدول عن المدل

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام . قلب لا يحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري مالذة المعرفة ، وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالجاه ، والرياسة . والمال ، وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه ، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ، ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد .

وأما الثاني : فالدنيا طالحة به . وأما الثالث والرابع : فوجودان ، ولكن على غاية الندور . ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا ما إذا . وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرة في الأعصار القرية من أعصار الأنبياء عليهم السلام . فلا يزال يزداد

المهد طولا ، وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة ، والملك عزيز ، والملوك لا يكثر ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا ، وأكثر الناس من دونهم ، فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود ، فإنها أولى في حق رؤيتك . فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولا ، فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة . فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما . وهذا نوع من الانعكاس . ولكن الانعكاس والانعكاس ضرورة هذا العالم . فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت . فن الناس من يسر له نظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويمر به إلى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ^(١)) . ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وسينفتح إلى حبسه أبواب جهنم . وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفتدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا . فإذا رجع ذلك الحجاب بالموت أدرك . وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق ، فقالوا . الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين . وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ، ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين . فلذلك قال الله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ^(٢)) أي في الدنيا (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ^(٣)) أي في الآخرة ، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح للملك الآخرة ، لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا .

قسمة سادسة : حاوية لجامع النعم . اعلم أن النعم تنقسم إلى ماهي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ماهي مطلوبة لأجل الناية . أما الناية فإنها سمادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء Lafناء له ، وسرور لانعم فيه ، وعلم لاجتهل معه ، وغنى لافقر بعده ، وهي النعمة

(١) الحشر : ٣ (٢) التكاثر : ٥ (٣) التكاثر : ٧

الحقيقية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ » وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس ، وذلك في وقت ^(١) حمر الخندق في شدة الضر . وقال ذلك مرة في السرور منما للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك ، عند إحقاق الناس به ^(٢) في حجة الوداع . وقال رجل : ^(٣) اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَأْتِي النِّعْمَةُ ؟ » قال لا قال « تَأْتِي النِّعْمَةُ دُحُولُ الْخَنَةِ »
وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن ، وهو الثاني ، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن ، كالأسباب المطبقة بالبدن من المال ، والأهل والعشيرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهي إذا أربعة أنواع النوع الأول : وهو الأخص . الفضائل النفسية . ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة ، وهو العلم بالله تعالى ، وصفاته وملائكنه ، ورسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفة ، ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يتنزع أصلاً ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى (أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ^(١)) فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر ، فقد أخسر الميزان . ومن انهمك في شهوة البطن والفرج ، فقد طغى في الميزان . وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ، فتعتدل به كفتا الميزان فإذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة . علم مكاشفة ، وعلم معاملة ،

- (١) حديث قوله عند حمر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة : متفق عليه من حديث أس
(٢) حديث قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة : الشافعي . رسلوا الحاكم متصلاً ومحمداً بتقديم في الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة - الحديث الترمذي من حديث معاذ بن عبد حسن

وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني . وهو الفضائل البدنية ، وهي أربعة . الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهي النعم الخارجة المطيقة بالبدن ، وهي أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم المشيرة . ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهي أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأنيده . فجموع هذه النعم ستة عشر ، إذ قسمناها إلى أربعة ، وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إما حاجة ضرورية ، أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سمى ، وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا . فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم ، وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري . وأما الحاجة النافعة على الجملة ، فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ، مثل المال ، والعز ، والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال ، والأهل ، والجاه والمشيرة ؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المسهلة للمقصود . أما المال ، فالفقير في طلب العلم والسكال وليس له كفاية ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي بروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) (نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) : نِعَمَ الْغَمُونُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ ، وكيف لا . ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات ، وفي تهينة اللباس ، والمسكن ، وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا بسلاح المال .

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد

(٢) حديث نعم الغمون على تقوى الله المال : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن

المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسل ومن طريقه رواه

القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسل

ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج ، والزكاة ، والصدقات ، وإفاسة الخيرات . وقال بعض الحكماء ؛ وقد قيل له ما النعيم ؟ فقال الغنى ، فإني رأيت الفقير لا يعيش له . قيل زدنا . قال لا من فإني رأيت الخائف لا يعيش له . قيل زدنا . قال العافية . فإني رأيت المريض لا يعيش له . قيل زدنا . قال الشباب . فإني رأيت الهرم لا يعيش له . وكان ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . لذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمَحْذَافٍ هَا »

وأما الأهل والولد الصالح ، فلا يخفى وجه الحاجة إليهما . إذ قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « نِعْمَ أَلْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد ^(٣) « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فهم أكثر أولاد الرجل وأقاربه ، كانوا له مثل الأعين والأيدي ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ، ماله وانفرد به بإطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذا نعمة وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضم ، ولا يستغنى عنه مسام ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه عمله ، وعمله ، وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإلما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه . ولذلك قيل . الدين والسلطان توأمان . قال تعالى (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) ^(١) ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم . ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه . فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه . وعلى هذا القصد كان

(١) حديث من أصبح معافى في بدنه آمنا في سريره - الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث

عبيد الله بن محسن الانصارى وقد تقدم

(٢) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة : لم أجده اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو والدنيا

متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة

(٣) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح

الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة ، يراعون السلاطين ، ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين . لا على قصد التناول من خزائهم ، والاستئثار والاستكثار في الدنيا بما يتبعهم . ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث نصره وأكمل دينه ، وأظهره على جميع أعدائه ، ويمكن في القلوب حبه ، حتى اتسع عزه وجاهه ، كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة .^(١)

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) « الْأَعْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم^(٣) من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام . وقال صلى الله عليه وسلم^(٤) « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ الْأَكْفَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم^(٥) « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّينِ » فقل وما خضراء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد الله باليل الحديث : والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد . ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد . ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذوكب الاثني يواريه ابط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال والبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه فخذه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه . الحديث والبخارى وأبو يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلسكم أقتلون رجلا أن يقول ربي الله واسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأنثع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه أن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنزلون أصلى فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا

(٤) حديث تخيروا لنطفكم : ابن ماجه من حديث عائشة : وتقدم فى النكاح

(٥) إياكم وخضراء الدين : تقدم فيه أيضا

الدمن؟ قال « الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمُنْتَبِتِ الشَّوْءُ ، فهذا أيضا من النعم . ولست أعنى به الانتساب إلى الظَّلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار ، المتوسمين بالعلم والعمل

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة ، وإلى طول العمر ، إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى » وإنما يستحق من جعلته أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات . ولعمري الجمال قليل الغناء ، ولكنه من الخيرات أيضا . أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها . وأما في الآخرة فمن وجهين . أحدهما أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة . وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجهه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . وكل معين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والخبر كثيرا ما يتلا زمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم . ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيهِ . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال . الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « اَطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صَبَاحِ الْوُجُوهِ » ، وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال الفقهاء إذا نساوت

(١) حديث أصل السعادة طول العمر في عبادة الله : غريب بهذا اللفظ ولا ترمى من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه : أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد ابن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لأعرابي حالمما ورواه ابن جبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة

درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا بذلك (وَزَادَهُ بُسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَنِّهِمِ^(١)) . ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة ، فإن ذلك أنوثة . وإعنا نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناسف خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه . فإن قلت فقد أدخلت المال ، والجاه ، والنسب والأهل ، والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، وكذا العلماء ، قال تعالى (إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ^(٣)) وقال عز وجل (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ^(٤)) وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقيل . المرء بنفسه لأبائه . فاما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة ، والعمومات المخصصة ، كان الضلال عليه أغلب ، ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها ، بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى . فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها . إلا أن فيها فتناً ومخاوف . فمثال المال مثال الحية التي فيها تريق نافع ، وسم نافع . فإن أصاب المغمزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها ، وطريق استخراج تريقها النافع ، كانت نعمة . وإن أصابها السوادى الغر ، فهي عليه بلاء وهلاك . وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلى ، فمن ظفر بالبحر ، فإن كان عالماً بالسباحة ، وطريق الغوص ، وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر ، فقد ظفر بنعمه . وإن خاضه جاهلاً بذلك ، فقد هلك . فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيراً . ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَالُ » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه . ولسكن المنقول في مدحها قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير . وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب . وإنما كثر هذا وقل ذلك

(١) حديث ذم المال والجاه : الترمذى من حديث كعب بن مالك ماذنبان جاءان أرسلا في غم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه : وقد تقدم في دم المال والبخل

(٢) البقرة : ٢٤٧^(١) التغابى : ١٤^(٢) التغابى : ١٥

لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال ، وطريق الفوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم ، فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى تربيته ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره . ولو كانا في أعينهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد ، لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك ، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى ، كما كان لسليمان عليه السلام .

فالناس كلهم صبيان ، والأموال حيات ، والأنبياء والعارفون معزومون . فتدبىض الصبي ما لا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه ، وقد وجد حية ، وعلم أنه لو أخذها لأجل تربيته لاقتدى به ولده ، وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فيهلك ، فله غرض في الترياق ، وله غرض في حفظ الولد . فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد . فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ، ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ، ويعظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ، ويشير على الصبي بالهرب ، ويقبح صورتها في عينه ، ويعرفه أن فيها سماً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدته أصلاً بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك النواص ، إذا علم أنه لو غاص في البحر يجرأ من ولده لا تبعه وهلك ، فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينجو الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل ، فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ، ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لَوْلَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّا لَنَكُمُ تَهَاقُوتُ عَلَى النَّارِ تَهَاقُتُ الْفَرَّاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك . وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت . وما فضل فلم يمسكوه ، بل أنفقوه . فإن

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولاه : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولاه وقد تقدم

(٢) حديث إنكم تهافتون على النار تهافت الفرّاش وأنا آخذ بحجركم : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفرّاش يقعن فيه فأنا آخذ بحجركم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجركم عن النار وأنتم تفتلون من يدي

الإتفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم . ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه ،
لمالوا إلى سم الإمساك ، ورغبوا عن ترياق الإتفاق . فذلك قبحت الأموال ، والمضى به
تقبيح إمساكها ، والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون
إلى الدنيا ولذاتها . فأما أخذها بقدر الكفاية ، وصرف الفائض إلى الخيرات ، فليس بعموم
وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده فى السفر ، إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله
فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام ، وتوسيع الزاد على الرفقاء ، فلا بأس بالاستكثار .
وقوله عليه السلام ^(١) « لَيْكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّائِبِ » ، معناه لا تنفك
خاصة . وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به ، من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع
واحد ، ويفرقها فى موضعه ، ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة ^(٢) ، استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى أن
يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له . فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين
ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، الحديث

فاذا للنعم الدنيوية مشوبة . قد امتزج دواؤها بدائها ، وصر جوارها بخوفها ، وتقعها
بضرها . فمن وثق ببصيرته وكال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ، ومستخر جادواءها
ومن لا يثق بها ، فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة
شيئا فى حق هؤلاء ، وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهدها لطريقه
فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية ، والرشد ، والتأييد ، والتسديد ؟
فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد . وهو عبارة عن التأليف والتفريق بين إرادة العبد
وبين قضاء الله وقدره . وهذا يشمل الخير والشر ، وما هو سعادة وما هو شقاوة .
ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره

- (١) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب : ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظا لهما
وقال بلغة وقال مثل زاد راكب وقال صحيح الأسناد * قلت هو من رواية أبي سفيان عن
أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد راكب
(٢) حديث استأذنه عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون
الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم للمسكين الحديث : الحاكم من حديث
عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الأسناد * قلت كلا فيه خاله بن أبي مالك ضعيف جدا

كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق . ولذلك قيل

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهد

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً ، فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة في الإرادة ، والقدرة ، والأسباب ، إلا بعد الهداية . ولذلك قال تعالى (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ^(١)) وقال تعالى (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ^(٢)) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى » أى بهدايته فقيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « وَلَا أَنَا » . وللهداية ثلاث منازل

الأولى : معرفة طريق الخير والشر ، المشار إليه بقوله تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(٤)) وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده ، بعضه بالعقل ، وبعضه على لسان الرسل . ولذلك قال تعالى (وَأَمَّا نُمُودُ فَبَعْدُ يَأْتُهُمْ فَاسْتَخَبُوا النَّعْمَى عَلَى الْهُدَى ^(٥)) فأسباب الهدى هي الكتب ، والرسل وبصائر العقول . وهي مبذولة . ولا يمنع منها إلا الحسد ، والكبر ، وحب الدنيا ، والأسباب التي تمنع القلوب وإن كانت لا تمنع الأبصار . قال تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ^(٦)) . ومن جملة المعميات الإلف والعادة ، وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ^(٧)) الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٨)) وقوله تعالى (أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ^(٩)) فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء والهداية

(١) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : منفق عليه من حديث أبي هريرة أن أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا لا أن يتعمدى : الله بفضل منه ورحمته وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة - الحديث : واتقوا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

(١) طه : ٥٠ (٢) النور : ٣١ (٣) البلد : ١٠ (٤) فصات : ١٧ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الزخرف : ٢٢

(٧) الزخرف : ٣١ (٨) القمر : ٢٤

الثانية: وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ^(١)) وهو المراد بقوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى ^(٢)) . والهداية الثالثة وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهدى بها إلى ما لا يهدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم . وهو الهدى المطلق ، وماعداً حجاب له ومقدمات . وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه ، وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى (قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُودًا هُودًا ^(٣)) وهو المسمى حياة في قوله تعالى (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ^(٤)) والمعنى بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ^(٥)) . وأما الرشد ، فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على مافيه صلاحه ، وتفقده عما فيه فساد . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ^(٦)) فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ، محركة إليها . فالصبي إذا بلغ خيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ، ولكنه مع ذلك يذر ولا يريد الاستثناء ، لا يسمى رشيداً ، إلا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم إنه يضره ، فقد أعطى الهداية ، وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ، ولكن ما أعطى الرشد : فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال ، وهي نعمة عظيمة .

وأما التسييد ، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسرها عليه ، ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت . فإن الهداية بمجرد ما لا تسكني . بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد . والرشد لا يسكني ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسييد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد .

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧ (٣) البقرة : ١٢٠ (٤) الأنعام : ١٢٢ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٥١

وأما التأييد ، فكأنه جامع للكل . وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وهو المراد بقوله عز وجل (إِذَا أَيْدُتُكَ رُوحُ الْقُدُسِ ^(١)) وتقرب منه المعصية . وهي عبارة عن وجود إلهي بسبح في الباطن ، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس . وإياه عني بقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ^(٢))

فهذه هي مجاميع النعم . ولن تثبت إلا بما يحوله الله من الفهم الصافي الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب البصير المتواضع المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرتة . والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء . ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين ، وملجأ المضطرين ؛ وذلك رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يمتثل مثل هذا الكتاب استقصاءها ، فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(٣)) وبالله التوفيق

بيان

وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا . وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة . فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها . ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل ، فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة . ولا بد من إرادة للحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له . ولا بد للأكل من مأكل ، ولا بد للمأكل من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه . فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكل ، على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(١) المائدة : ١١٠ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) إبراهيم : ٣٤

الطرف الأول

في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجودا من الحجر ، والمدر ، والحديد ، والنحاس ، وسائر الجواهر التي لانمى ولا تغذى ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء ، وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة ، حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ، ويماس أصله ، جف ويس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر . فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب ، وبالاتقال إليه . والنبات عاجز عن ذلك . فمن نعمة الله تعالى عليك ، أن خلق لك آلات الإحساس ، وآلة الحركة في طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس ، التي هي آلة الإدراك . فأولها : حاسة اللمس . وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة ، أو سيف جارح ، تحس به فتهرب منه . وهذا أول حس يخلق للحيوان . ولا يتصور حيوان إلا ويكوز له هذا الحس ، لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان . وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه . فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة . وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التي في الطين ، فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب كالنبات . فإن النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحس بالقطع . إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة ، لا تقدر على طاب الغذاء من حيث يبعد عنك . بل ما لمس بدئك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط . فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك . فخلق لك الشم . إلا أنك تدرك به الرائحة ، ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية . فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب ، فربما تثر على الغذاء الذي شممت ريحه ، وربما لم تثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا . فخلق لك البصر ، لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

لكنك ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه . وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو ، فتعجز عن الهرب . فخلق لك السمع ، حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا . وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات ، تدرك بحس السمع . فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك أذنك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات . وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ورعا يكون ذلك سبب جفافها . ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر ، يسمى حسامشتركا ، تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس ، وتجتمع فيه . ولولا لطال الأمر عليك . فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا ، فوجدته مرا مخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مضر مالم تذقه ثانيا ، لولا الحس المشترك . إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والمرارة جميعا ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانيا . وهذا كله تشاكك فيه الحيوانات . إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلص إذا قيدت . وقد تلقى نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها . ولذلك قد تأكل البهيمة ما تسنذه في الحال ، ويضرها في ثانی الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر . فأما إدراك العواقب فلا . فيترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من السكل ، وهو العقل . فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك ، وهو أحسن فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه . بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة في حاله . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس

فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي
 المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان ،
 والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ،
 والأخرى بأخبار الحر ، والبرد ، والحشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، وغيرها . وهذه
 البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك .
 والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك ،
 يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فى أخذها وهى مختومة ويسلمها ، إذ ليس
 له إلا أخذها ، وجمعها ، وحفظها . فأما معرفة حقائق ما فيها فلا . ولكن إذا صادف
 القلب العاقل ، الذى هو الأمير والملك ، سلم إليها آت إليه مختومة ، فيفتشها الملك ،
 ويطلع منها على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا
 المقام . وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود ، وهى الأعضاء ، مرة فى
 الطلب ، ومرة فى الهرب ، ومرة فى إتمام التدبيرات التى تمن له . فهذه سياقة نعمة الله
 عليك فى الإدراكات . ولا تظن أنا استوفيناها . فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات
 والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات
 مختلفة ، بعضها رطوبات وبعضها أغشية . وبعض الأغشية كأنها نسج المنكبوت ، وبعضها
 كالمشيمة . وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض ، وبعضها كأنه الجمد . ولكل واحدة
 من هذه الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهىة ، وعرض ، وتدوير ، وتركيب لو اختلفت
 طبقة واحدة من جملة العشر ، أو صفة واحدة من صفات كل طبقة ، لاختل البصر ، وعجز
 عنه الأطباء والكحالون كلهم

فهذا فى حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس . بل لا يمكن أن تستوفى
 حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملة لا تزيد
 على جوزة صغيرة . فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز
 إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني

في أصناف النعم في خالق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ، ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه ، وشهوة له تستحثك على الحركة ، لكان البصر معطلا . فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه . فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك ، يسمى شهوة ، ونفرة عما يخالفك ، تسمى كراهة ، لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام ، وسلطها عليك ، ووكّلها بك ، كالمقتاضي الذي يضطرك إلى تناول ، حتى تتناول وتقتدى ، فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة ، أسرفت وأهلكت نفسك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ، لتترك الأكل بها ، لا كالزرع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد ، فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك ، خلق لك شهوة الجماع ، حتى تجامع فيبقى به نسلك . ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الأثنيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور ؛ وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغوطة وعلقة ، ثم عظامها ولحمها ودمها ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ، ويد ، ورجل وبطن ، وظهر ، وسائر الأعضاء ، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب ، فضلا عما نراه الآن . ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام فإذا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يسكفيك ، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب . فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للآفات ، ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء . فإن كل واحد يشتهي ما في يديك ، فتحتاج

إلى داعية في دفعه ومقاتلته ، وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك
ثم هذا لا يكفيك ، إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال . وأما
في المآل ، فلا تكن في هذه الإرادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى ، مسخرة تحت إشارة
العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك
للحالة الحاضرة ، قتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضر
لا يفيك في الاحتراز عنها ، ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة . وهذه الإرادة
أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم ، كما أفردت بعرفة العواقب . وقد سمينا هذه الإرادة
اعثاً دينياً ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا

الطرف الثالث

في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب .
وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاق إلى شيء .
بعيد عنه ، مدرك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد
يده ، أو لفاج وخدر فيهما . فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة
لتكون حركتها بعقضى الشهوة طلباً ، وبعتضى الكراهية هرباً . فلذلك خلق الله تعالى
لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ما هو للطلب والهرب ،
كالرجل للإنسان ، والجنح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان
والقرون للحيوان . وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد
غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة ، فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع
قوائم . ومنها ما له رجلان . ومنها ما يدب . وذكر ذلك يطول . فلنذكر الأعضاء التي
بها يتم الأكل فقط ، ليقاس عليها غيرها فنقول . رؤيتك الطعام من بُعد ، وحركتك
إليه لا تكني ، ما لم تتمكن من أن تأخذه . فافتقرت إلى آلة بالمشة ، فأنعم الله تعالى عليك
بخلق اليدين ، وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ، ومشملمان على مفاصل كثيرة لتتحرك
في الجهات ، فتمتد وتنثنى إليك فلا تكون كغشبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضا

بخلق الكف . ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع . وجعلها في صفتين . بحيث يكون الإبهام في جانب . ويدور على الأربعة الباقية . ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك . فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة ، وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض . ثم خلق لها أظفارا ، وأسند إليها دوس الأصابع حتى لا تنفتحت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك . ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين ، فمن أين يكفيك هذا ، ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر دهايز إليها ، حتى يدخل الطعام منه . فجعل الفم منفذا إلى المعدة ، مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة ، فلا يتيسر ابتلاعه ، فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنًا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع . ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك . فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس . وإلى حادة قواطع كالرباعيات . وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب . ثم جعل مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح . ولو لا ذلك لما تيسر لإضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحي الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى ، فإن كل رحي صنعه الخالق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى . فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فناء الفم ، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، أو كيف يتصرف باليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرسى . هذا مع ما فيه من فائدة الذوق . وعجائب قوة النطق . والحكم التي لساننا نطلب بذكرها . ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس ، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها ، وينصب بقدر الحاجة ، حتى ينعجن به الطعام . فانظر كيف سخرها لهذا الأمر ، فإنك ترى الطعام من بعد ، فيثور الحنكان للخدمة ، وينصب اللعاب حتى تتحلب أشدا فك ، والطعام بعد بعيد عنك . ثم هذا الطعام المطحون المنعجن ، من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد ، ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام . فانظر كيف هيا الله تعالى المريء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضبط حتى يتقلب الطعام بضغطة ، فيهوى إلى المعدة في دهليز المريء . فإذا ورد الطعام على المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة ، بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه . فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر ، فيقع فيها الطعام ، فتحوى عليه ، وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابقا فيها حتى يتم الهضم والنضج ، بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ، ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب ، فتتبدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائما متشابها ، يصلح للنفوذ في تجاويف العروق . وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة ، حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهى إلى الكبد .

والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد ، ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر في أجزائها ، حتى تستولى عليه قوة الكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء . . إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم . فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ ، إحداهما شبيهة بالدردي والمكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة ، وهي الصفراء . ولولم تفصل عنها

الفضلتان فسد مزاج الأعضاء . فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد ، داخل في تجويفه . فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال المكر السوداء . فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة ، لما فيه من المائية . ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخاق الله سبحانه الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخل في تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد ، حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد . إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق . فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث ، نقيا من كل ما يفسد الغذاء . ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجري الدم الصافي فيها ، ويصل إلى سائر الأعضاء ، حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار ، بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء . ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم ، وحصل منه الأمراض الصفراوية ، كاليرقان والبثور والحمرة . وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداء ، حدثت الأمراض السوداء ، كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها . وإن لم تندفع المائية نحو الكلا حدثت الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم ، كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة ، أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها ، وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ، ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزلفة ، ويحدث في الأمعاء لدع يحركها للدفع ، فتتضغط حتى يندفع الثفل وينزاق ، وتكون صفراء لذلك وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحوالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها في كل يوم شيئا إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة بحموضته ، وينبهها ويثيرها ، ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلية فإنها تفتدي بما في تلك المائية من دم ، وترسل الباقي إلى المثانة ولنتقصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء

الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن ، وبواسطتها يصل الحس ، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء ، وعدد عظامها ، وعضلاتها ، وعروقها وأوتارها ، ورباطاتها ، وغضاريفها ، ورطوباتها ، لطال الكلام . وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأشياء أخرى سواه . بل في الآدي آلاف من المضلات ، والعروق ، والأعصاب . مختلفة بالصغر ، والكبر ، والدقة والغلظ ، وكثيرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان ، أو ثلاث ، أو أربع ، إلى عشر وزيادة . وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جلتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلك بامسكين . فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا ، لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحرار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهي فيجامع ، ويستنهض فينهض ويرمح . فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار ، فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك . وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط . فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل . وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى ، أقل من قطرة من بحر . إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(١)) . ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء ، وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف ، يتصاعد من الأخلاط الأربعة ، ومستقره القلب ، ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهى إلى جرم من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك ، وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار في أطراف البيت ، فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت ، من خلق الله تعالى واختراعه ، ولم يكنه جعل السراج سبباً له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحل القلب : ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالسراجة ، والدم الأسود

الذي في باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت . وكما أن السراج إذا انقطع زيتُه انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفئ . مهما انقطع غذاؤه . وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت ، فينطفئ السراج مع كثرة الزيت ، فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب ، فينطفئ مع وجود الغذاء ، فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح . كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به .

وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل - وتارة بسبب من خارج وهو القتل . وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت ، أو بفساد الفتيلة ، أو بريح عاصف ، أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ؛ ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده ، فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقت أنواره التي كان يستفيد بها من الروح ، وهي أنوار الإحساسات ، والقدر ، والإرادات ، وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة .

فهذا أيضا رمزٌ وجيزٌ إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعته وحكمته ، ليعلم أنه لو كانت البحار ممدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى عز وجل فتجسس لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر ب نعمته سحقا .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم (١) سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح . فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها . ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً . وقد عرفوا صفته

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

ووجوده ، وكيفية سريانه في الأعضاء ، وكيفية حصول الإحساس والتفوق في الاعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجري هذا الروح ، فلا يعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب ، وبواسطته يتسأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل

وأما الروح التي هي الأصل ، وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني ، كما قال تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ^(١)) والأمور الربانية لا تحتل العقول وصفها ، بل تتجبر فيها عقول أكثر الخلق . وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاهد العقول المقيدة بالجوهروالمرض المحبوسة في مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه ، بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبتة إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا . فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . وإنه لمقام شريف ، ومشرب عذب ، ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لـسـكـل واردة ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد . ولبواب الحق صدر ، وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني . فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ، ولا لحافظ العتبة مشاهدة ، استحال أن يصل الميدان . فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ! ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا في خزانة الأطباء ! ومن أين للطبيب أن يلاحظه ! بل للمعنى المسمى روحا عند الطبيب ، بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني ، كالكرة التي يجرها صولجان الملك . بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني ، كان كمن رأى الكرة التي يجرها صولجان الملك ، فظن أنه رأى الملك . ولا يشك في أن خطاه فاحش . وهذا الخطأ أفحش

منه جدا . ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف، وبها تدرك مصالح الدنيا، عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر ، لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته . أما نسبته ففي قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي ^(١)) وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ^(٢))
ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل

الطرف الرابع

في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدي بعد ذلك بصنعتهم ، اعلم أن الأطعمة كثيرة ، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية لا تتناهى . وذكر ذلك في كل طعام مما يطول . فإن الأطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ، ولندع سائر الأغذية فنقول :
إذا وجدت حبة أو حبات ، فلو أكلتها فנית وبقيت جائعا . فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها ، وتزيد وتتضاعف ، حتى تنفي بتمام حاجتك . فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يفتدى به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ، ولا يخالفك في الاغذاء ، لأنه يتغذى بالماء ، ويجتذب إلى باطنه بواسطة المروق ، كما تفتدى أنت وتجذب . ولسنا نطرب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك ، بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تفتدى بكل شيء ، بل تحتاج إلى شيء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد ، لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح

لغذائها . ولو تركتها فى الماء لم تزد . ولو تركها فى أرض لا ماء فيها لم تزد . بل لا بد من أرض فيها ماء ، يمزج ماؤها بالأرض فيصير طينا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَيْنَبًا وَقَضَبًا وَزَيْتُونًا^(١)) ثم لا يكتفى الماء والتراب . إذ لو تركت فى أرض ندية ، صلبة متراكمة . لم تثبت لفقد الهواء . فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة ، يتغلغل الهواء إليها . ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحَ^(٢)) وإنما إلقاها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك لا يفيك لو كان فى برد مفرط ، وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف . فقد بان احتياح غذائه إلى هذه الأربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد . إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار ، والعيون ، والأنهار ، والسواقي . فانظر كيف خلق الله البحار ، وغر العيون ، وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة ، والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى اليوم وكيف سلط الرياح عليها التسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سحب ثقيل حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأرضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي . ونعم الله فى الجبال ، والسحاب ، والبحار ، والأنهار ، لا يمكن إحصاؤها . وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر . فهذه إحدى حكم الشمس . والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم . ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق

(١) عبس . ٣٤ - ٣٩ (٢) الحجر : ٢٢

الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها ، لكأن فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة . وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يمر عنها بالزكام . فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا . ولا تطول فيما لا مطمع في استقصائه ، بل تقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب . فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها . ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ، ولم يصح قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ^(١)) وقوله عز وجل (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ ^(٢)) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا إلا لفائدة ، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك . وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع ، لما ورد فيه من ^(٣) النهي عن تصديق المنجمين ، وعن علم النجوم . بل المنهي عنه في النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها ، مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها ، وهذا كفر . والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل . فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ . فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض ، وفي النباتات ، وفي الحيوان ليس قادحا في الدين . بل هو حق .

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم : أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد والطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا واسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي السكبان قال فلا تأتوا السكبان الحديث

ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح فى الدين . ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحيى النهار والهواء ، لا يلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حيى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان ، فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى ، لم يلزمك تكذيبه بذلك . وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم ، وبعضها مجهول . فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بمضنه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فإذا الكواكب ما خلقت عبثاً ، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء ^(١) وقرأ قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ^(٢) ثم قال صلى الله عليه وسلم « وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبْلَتَهُ » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب . وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته . فله تعالى فى ملكوت السموات ، والآفاق ، والأنفس ، والحيوانات ، عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ، ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حياً له . فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كله من تصانيفه ، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنّفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف فلا تعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته ، وتسديده ، وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب ، فإنها خرق محرّكة لا متحرّكة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى ترك تأملها : الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حبة ضعيف

(١) آل عمران : ١٩١

المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار . فإذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، والكواكب . ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركزها فيها . ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها . ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركناها ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه ، ولنتقصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

الطرف الخامس

في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض . والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبراري . فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح ، مع أنهم لا يفنيهم في غالب الأمر شيء ، بل يجمعون ، فيما أن تفرق بها السفن ، أو تنهبها قطاع الطريق ، أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم ، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ، ويركبوا الأخطار ، ويفرروا بالأرواح في ركوب البحر ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك . وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن ، وكيفية الركوب فيها . وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل في البراري . وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس وكيف امتدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل مصوراً على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والمطش . وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج . وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها ، وأدواتها ، وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة . وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن . ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للابحاز

الطرف السادس

في إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات ، وما يخلق من الحيوانات ، لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك . بل لابد في كل واحد من إصلاح ، وطبخ ، وتركيب ، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض ، إلى أمور آخر لا تحصى . واستقصاء ذلك في كل طعام يطول ، فلنعين رغيفا واحدا ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض . فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذي يشير الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التمهيد بسقى الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفك والتنقية ، ثم الطحن ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدده هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد ، والخشب ، والحجر وغيره ، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة ، والطحن ، والخبز ، من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد ، والرصاص ، والنحاس ، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال ، والأحجار ، والمعادن ، وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة . فإن فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع . فابتدىء من الملك الذي يزعج السحاب لينزل الماء ، إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة ، حتى تنتهى النوبة إلى عمل الإنسان . فإذا استدار طلبة قريب من سبعة آلاف صانع ، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق . ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك ، لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمسا وعشرين مرة ، ويتعاطى في كل مرة منها عملا . فلولم يجمع الله تعالى البلاد ، ولم يسخر العباد ، واقتطعت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمره وعجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة ، لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة . فانظر إلى المقراض مثلا ، وهما جامان متطابقان ، ينطبق أحدهما على الآخر ،
 فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة . ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذهم بفضله وكرمه لمن قبلنا
 وافترقنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ، ثم إلى استخراج الحديد من الحجر ، وإلى تحصيل
 الآلات التي بها يعمل المقراض ، وعمر الواحد منا عمر نوح ، وأوتى أكمل العقول ، لقصر
 عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها ، فضلا عن غيرها : فسبحان من
 ألحق ذوى الأبصار بالعميان ، وسبحان من منع التبیین مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا
 بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد . أو عن الحجام الذى هو أخس العمال ، أو عن الخائك
 أو عن واحد من جملة الصناع ، ماذا يصيبك من الأذى ، وكيف تضطرب عليك أمورك
 كلها . فسبحان من سخر بعض العباد لبعض ، حتى نفذت به مشيئته ، وتمت به حكمته
 ونوجز القول في هذه الطبقة أيضا ، فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

الطرف السابع

في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها ، لو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم
 تنافر طباع الوحش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش
 لا يحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد . فانظر كيف ألف الله بين قلوبهم ، ووسط
 الأنس والمحبة عليهم (لَوْ أَفْقَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 أَلْفَ بَيْنَهُمْ^(١)) فلاجل الألف وتعارف الأرواح اجتمعوا واثقفوا ، وبنوا المدن والبلاد
 ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف
 البقاع مما يطول إحصاؤه . ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون
 فيها . ففي جبلة الإنسان الفیظ ، والحسد ، والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر
 فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين ، وأمدم بالقوة والعدة والأسباب ، وألقى رعبهم في
 قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها . وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح
 البلاد ، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ، ينتفع

(١) الأنعام : ٦٣

البعض منها بالبعض . فرتبوا الرؤساء ، والقضاة ، والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل ، وألزموا التساعد والتعاون ، حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب ، والخباز ، وسائر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحداد . وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد ، بسبب ترتيبهم ، واجتماعهم ، والنضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعارف جميع أعضاء البدن وينتفع بعضهم ببعض .

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا ، وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق ، وقوانين السياسة في ضبطهم ، وكشفوا من أحكام الإمامة ، والسلطنة ، وأحكام الفقه ما هتدوا به إلى إصلاح الدنيا ، فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين . وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض ، إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين ، والطحسان يصلح الحب بالطحن ، والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثة ، والنجار يصلح آلات الحداد ، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة ، والسلطان يصلح الصنائع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء ، إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وكل ذلك نعم من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ولو لا فضله وكرمه إذ قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ^(١)) لما هتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى . ولو لا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه ، لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء . ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة ، فقال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(٢)) فَإِنْ تَكَلَّمْنَا فَبِأَذْنِهِ انبسطنا ، وإن سكتنا فبقهره انتقبضنا ، إذ لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ^(٣)) فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار

(١) المتكوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٨ (٣) غافر : ١٦

الطرف الثامن

في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم ، وتبليغ الوحي إليهم . ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر . بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية ، والسماوية ، وحمة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه ، دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك ، بل من أجزاء النبات ، لا يفتدى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة ، إلى مائة إلى ما وراء ذلك . ويبانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دما في آخر الأمر ، ثم يصير لحما وعظما . وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاءك . والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهي لا تتحرك بأنفسها ، ولا تتغير بأنفسها ، وعجز الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ، ثم عجينا ، ثم خبزا مستديرا مخبوزا إلا بصناع . فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما ، وعظما ، وعروقا ، وعصبا إلا بصناع . والصناع في الباطن هم الملائكة . كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم . ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس بلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة اللحم باللحم ، حتى لا يكون منفصلا . ولا بد من سابع يرعى المقادير في الاصاق ، فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته ، وبالمرضي ما لا يزيل مرضه ، وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فإنه لو جمع متلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذ كبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته وخلقه ، بل ينبغي

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل فطره من المطر وكل سحب ينجر من جانب إلى جانب انتهى ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها افتح ... الحديث : ولهما من حديث أبي هريرة أن الله ملائكة سياحين يلقون عن أمقي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبدالمطلب فقال ملك الجبال ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - الحديث : ولهما من حديث أنس أن الله وكل بالرحم ملكا - الحديث : وروى أبو النصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسدي ما من نبت ينبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يحصد ... الحديث : وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو عمر البكر أوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف والطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف أن الله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون السكادل عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس وللمرءى وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقته فلان فتحت ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة - الحديث

الموكدين بالسموات والأرض ، وأجزاء النبسات والحيوانات ، حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ، أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به . فإن قلت : فهلا فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ، ولم أفتقر إلى سبعة أملاك ؟ والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً ، ثم إلى من يعجن رابعاً ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادساً ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ، يستقل به ، فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس . وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب ألبته ، فلا يكون لسكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ^(١)) فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس . فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمهما ، ولاهما ينازعان الشم . وليس كاليد والرجل . فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب . ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن ، والعجن ، والخبز ، فإن هذا نوع من الأعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس واحداني الصفة فلم يكن وحداني . الفعل . ولذلك ترى الإنسان بطبع الله مرة ويعصيه أخرى ، لاختلاف دواعيه وصفاته . وذلك غير ممكن في طباع الملائكة . بل هم يحبون على الطاعة ، لا مجال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويسبحون الليل والنهار لا يفترون . والراكم منهم راكع أبداً ، والساجد منهم ساجد أبداً ، والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم ، يمكن أن تشبهه بطاعة أطرافك لك . فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان ، لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف

في طاعتك مرة ، ومعصيتك أخرى . بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، يفتتح ، وينطبق متصلاً بإشارتك . فهذا يشبهه من وجهه . لكن بخالفه من وجهه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاوإطباقا، والملائكة أحياء عالمون بما يعملون . فإذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية، وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط ، دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها ، فإننا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات !

فإذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ^(١)) فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحمد ، وسوء الظن ، والبدعة ، واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب ، هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح ، شكر للنعمة الظاهرة . بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر ، فقد كفر كل نعمة الله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما . فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة ، والسموات والأرض والحوانات والنبات ، بحملته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تم به انتفاعه ، وإن انتفع غيره أيضاً به ، فإن الله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متممة بأعصاب الدماغ ، به يتم انخفاض الجفن الأعلى ، وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله في ترتيبها صفاً واحداً أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين ، ومتشبهاً للأقذاء التي تنثر في الهواء ، وله في كل شمرة منهما نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوام نصبها ، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ، ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب . فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

ثم إن أصاب الحديقة غبار ، فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحديقة ، كالمصقلة للمرأة ، فيطبقها مرة أو مرتين ، وقد انصقلت الحديقة من الغبار ، وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجفان . والذباب لما لم يكن لحديقته جفن ، خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حديقته ليصقلها من الغبار . وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا فتقاربه إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول :

من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان . ولا تقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض ، والهواء ، والمطر ، والنعيم ، والشمس ، والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ، ولا السماوات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود ، من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ولا ملك ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جاد إلا ويله . ولذلك ورد في الأخبار ^(١) أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم . وكذلك ورد ^(٢) أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر ^(٣) وأن الملائكة يلعنون العصاة ، في الفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها . وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والممالك ، وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فمسي الله أن يتوب عاياه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . يا أيوب ، ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكات ، فإذا شكرني على نعمائي قال الملك اللهم زده نعماً على نعم فإنك أهل الحمد والشكر ، فسكن من الشاكرين قريباً ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندي ألى أشكر شكرهم ، وملائكتي يدعون لهم ، والباقع تحبهم ، والآثار تبكي عليهم .

(١) حديث أن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم : لم أجده أصلاً

(٢) حديث أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر : تقدم في العلم

(٣) حديث أن الملائكة يلعنون العصاة : مسلم من حديث أبي هريرة للملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أحماء لأبيه وأمة

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نمسا كثيرة ، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ، ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك ، بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى (وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ^(١)) قال . إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدى نعمتان ، أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل عامه ، وحضر عذابه ، وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب ، فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل ، فإنه طمع في غير مطعم

بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجاهل والغفلة . فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم . ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها . ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه . الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها ، وهي طاعة الله عز وجل . فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب . وأحد أسبابها أن الناس يحلمهم لا يعدون ما يعين الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة . فذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم في جميع أحوالهم . فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به ، فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح

الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ، ماتوا غما . فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ، ربما قدر ذلك نعمة ، وشكر الله عليها . وهذا غاية الجهل . إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال . والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها . فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمي عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره ، وعده نعمة . ولما كانت رحمة الله واسعة ، عهم الخلق ، وبذل لهم في جميع الأحوال ، فلم يعد الجاهل نعمة . وهذا الجاهل مثل العبد السوء ، حقه أن يضرب دائما ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به مئة . فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر ، وترك الشكر : فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكوا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر ، وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا . وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا . فعدد عليه سوراء ثم قال . فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ! فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه . فقال له : عطنى . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك ، وإلا بقيت عطشان ، فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم . فقال لو لم تعط إلا بملكك كله ، فهل كنت تتركه ؟ قال نعم . قال . فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء . فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها . وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ؛ وقد ذكرنا النعم العامة ، فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول . مامن عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله ، رأي من الله

نعمة أو نعمة كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من الناس ، وربما لا يشاركه فيها أحد . وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل ، والخلق ، والعلم . أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل . وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه ، كما يفرح به المتصف به . فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس ، فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه ، فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ، لأنه في حقه كالباقى . وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها . فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى ، إذ حسن خلقه ، وأبلى غيره بالخلق السيئ . وأما العلم ، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه ، وخفايا أفكاره . ماهو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح . فكيف لو اطلع الناس كافة ! فأذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله . فلم لا يشكر ستر الله الجليل الذى أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجليل وستر القبيح ، وأخفى ذلك عن أعين الناس ، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد . فهذه ثلاثة من النعم خاصة ، يعترف بها كل عبد ، إما مطلقاً ، وإما في بعض الأمور . فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً فنقول . ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته ، أو شخصه أو أخلاقه ، أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه ، أو بيلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو عزه ، أو جاهه ، أو في سائر محايه أموراً لو سلب ذلك منه ، وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به . وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جاداً ، وإنساناً لا بهيمة وذكر الأنتى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضاً . فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها . بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضاً . وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق ، أو لا يبدله بما خص به الأكثر . فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره ، فإذا حاله أحسن من حال

غيره . وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه ، إما على الجملة ، وإما في أمر خاص ، فإذا الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء . وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه . فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه . أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها ، يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة ، فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟ فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ! ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ صَابِرًا وَشَاكِرًا وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا شَاكِرًا ، فَإِذَا كُلٌّ مِنْهُمَا حَالَ نَفْسِهِ ، وَفُتِّشَ عَمَّا خَصَّ بِهِ ، وَجَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ نِعْمًا كَثِيرَةً لَا سِيَّامَنْ خَصَّ بِالسَّيِّئَةِ ، وَالْإِيمَانِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالْقِرَاءَانِ ، ثُمَّ الْفِرَاقِ ، وَالصَّحَّةِ ، وَالْأَمْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلِذَلِكَ قِيلَ :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه وربما لينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا أَغْنَاهُ اللَّهُ » وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام ^(٣) « إِنَّ الْقُرْءَانَ هُوَ الْغَنَى الَّذِي لَا غِنَى بَعْدَهُ وَلَا فَقْرَ مَعَهُ » وقال عليه السلام ^(٤) « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْءَانَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ »

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا

الحديث : الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المنى ين الصباح ضعيف

(٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله : لم أجده بهذا اللفظ

(٣) حديث ان القرءان هو الغناء الذى لا غناء بعده ولا فقر معه : أبو يعلى والطبرائى من حديث أنس

بسند ضعيف بلفظ أن القرءان غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه

أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا وهو أشبه بالصواب

(٤) حديث من آتاه الله القرءان فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزا بآيات الله : البخارى فى التاريخ من

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ « وقال عليه السلام ^(٢) « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » . وقال بعض السلف . يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة إن عبدا أغنيته عن ثلاثة ، لقد أتممت عليه نعمتي ، عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، و عما في يد أخيه . وعبر الشاعر عن هذا فقال

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخاصن فلا فارقك الحزن

بل أرسق العبارات وأفصح الكلمات ، كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال ^(٣) « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِيهِ كَكَأَمَّا حَيَزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَا فِيرَهَا » . ومهما تأملت الناس كلهم ، وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ، ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به ووصلهم إلى النعيم المقيم ، والملك العظيم . بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب ، من أموال وأتباع ، وأبصار ، وقيل له خذها عوصا عن علمك ، بل عن عشر عشير علمك ، لم يأخذها وذلك لرجائه أن نعمة العلم تقضى به إلى قرب الله تعالى في الآخرة . بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات في الدنيا ، بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذها ، لعله بأنت لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وباقية لا تسرق ، ولا تعصب ، ولا ينافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ، مكدره ، مشوشة لا يني مرجوها بمخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بنعمها . هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا

حديث رجاء القوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن احدا أوتي الفضل لما أوتي

فقد صر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القراءة ورجاء مختلف في صحته برور من حديث

عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة

(١) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن : تقدم في آداب التلاوة

(٢) حديث كفى باليقين غنى : الطبراني من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في التلعة

موقوفا عليه وقد تقدم

(٣) حديث من أصبح آمنا في سربه : الحديث تقدم غير مرة

تكون ما بقى الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها ، أثبت عليها واستعصت . كالمرأة الجميل ظاهرها ، تزين للشباب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيدها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها في تعب قائم ، وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة . ولو عقل وغض البصر ، واستهان بتلك اللذة ، سلم جميع عمره . فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحباثلها . ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها . فإن المقبل عليها ، أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها ، وتحصيلها ، ودفع اللصوص عنها . وتألم المعرض يفضى إلى لذة في الآخرة ، وتألم المقبل يفضى إلى الألم في الآخرة . فليقر المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) (١) ، فإذا إنما أنسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة ؟ حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . فأقول : أما القلوب البصيرة ، فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها ، أو شعرت بالبلاء معها فسيبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى ، والمقابر ، والمواضع التي تقام فيها الحدود . فكان يحضر دار المرضى يشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ، ثم يتأمل في صحته وسلامته ، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ، ويشكر الله تعالى . ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أطرافهم ويمذبون بأنواع العذاب ، ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ، ومن تلك العقوبات وبشكر الله تعالى على نعمة الأمن وبحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليشدارك ، وأما من أطاع فليزد في طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن . فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غننى إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات . وأما المعاصي فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر ، وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقى له ،

فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس . وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله ، وهو التزود من الدنيا للآخرة .

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لشعر بنعم الله تعالى فحساها تشكر . وقد كان الربيع ابن خيثم مع غمام استبصاره ، يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة . فكان قد حفر في داره قبرا ، فكان يضع غلاف عنته ، ونام في لحده ثم يقول : (رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا ^(١)) ثم يقوم ويقول : يا ربيع ، قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بعلامته الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم : وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدها بالشكر . وفي الخبر ^(٢) ما عظمتم نعمة الله تعالى على عبدا إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ^(٣)) فهذا تمام هذا الركن

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان

وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا . فما معنى الصبر إذا ؟ وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء ، فضلا عن الشكر على النعمة ،

(١) حديث ما عظمتم نعمة الله على عبدا إلا كثرت حوائج الناس إليه - الحديث : ابن عدى وابن حبان في الصغهام من حديث مباد بن حبل بلفظ الأعظمتم مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث : ورواه ابن حبان في الصغهام ، من حديث ابن عباس وقال انه موضوع على حجاج الأعور

(٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٣) الرعد : ١١

فكيف يتصور الشكر على البلاء؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه! والصبر على البلاء يستدعى ألماً، والشكر يستدعى فرحاً، وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ . فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة، يوجب القول بإثبات البلاء، لأنهما متضادان. ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء. ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه، أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه، كاللحم الذي يصلح الدين من وجه ويفسد من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة، فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبداً. وأما في الدنيا، فالكفر والمعصية، وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر، والمرض، والخوف، وسائر أنواع البلاء التي لا تكون في بلاء الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا، فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء، ولا معنى للصبر عليه؛ وكذا المعصية. بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي. نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر، فيكون كمن به علة، وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص، فعليه ترك المعصية. بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه. فلو ترك الإنسان المساء مع طول المعطش، حتى عظم تألمه، فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته. فإذا يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلهذا يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر. فإن الغنى مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان، حتى يقصد بسبب ماله، فيقتل وتقتل أولاده. والصحة أيضاً كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن نصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه. فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولوصح بدنه وكثر ماله

لبطرس وبني . قال الله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ^(١)) وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّفٍ أَنْ رَأَاهُ اسْتَكْبَرَتْ ^(٢)) وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « إِنَّ اللَّهَ لَيَجْعَلِي عَبْدَهُ، مُلْؤَمِينَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ أَحَدَكُمْ مَرِيضُهُ، وكذلك الزوجة، والولد، والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم، سوى الإيمان وحسن الخلق، فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس، فتكون أضدادها إذا نعماً في حقهم، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة، فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء، ويكون فقدتها نعمة. مثاله جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه. إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش، وطال بذلك غمه. وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو رفع الستر وأطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام. وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه، وكان ذلك وبالأعلى في الدنيا والآخرة. بل جهله بالخصال الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتها، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة، وإيهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإيهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد. فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق سالم بها فإن لم تكن نعمة في حقه، كالآلم الحاصل من المعصية، كقطع يده نفسه، ووشمه بشرفته، فإنه يتألم به وهو عاص به. وآلم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة، ولكن في حق غيرهم من العباد لافي حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب، وعذب به طائفة، لما عرف المستعمون قدر نعمه، ولا أكثر فرحهم بها. ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا

(١) حديث أن الله ليحجي عبده الدنيا - الحديث : الترمذي وخسنه الحاكم وصححه وقد تقدم

(١) التورى : ٢٧ (٢) العلق : ٦

في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها ، من حيث إنها عامة مبدولة . ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء ، وهي أحسن من كل سستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها : فإذا قد صبح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عبادته ، أو على بعضهم . فإذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غير المبتلى . فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطاق ، ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على المهد وظيفتان ، الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم . ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينعم به من وجه ، ويفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفي كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء في الدنيا خمسة أمور ، ينبغي أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها . أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها . إذ مدة دورات الله تعالى لا تنهاى فلو ضاعف الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويحجزه فليشكر . إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا .

الثاني : أنه كان يمكن أن تكون مصيبتته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى . فقال : اشكر الله تعالى . لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال . اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال اشكر الله . فجىء بمجوسى فحبس عنده ، وكان مبطونا ، فقيد وجمل حلقة من قيده في رجله . وحلقه في رجل المجوسى : فأرسل إليه ، فقال اشكر الله . فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم صرات ، وهو يحتاج أن يقوم معه ، ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال اشكر الله ، فقال إلى متى هذا ؟ وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال

لوجعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ . فإذا مامن إنسان قد أصيب ببلاء ، إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه ، لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط ، فاقصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر . ومن استحق عليك أن يقطع يديك ، فترك إحداها ، فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع ، فصب على رأسه طشت من رماد . فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له ماهذه السجدة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم . ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ؟ فقال أنتم تستبطلون المطر وأنا أستبطل الحجر .

فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر . وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ، ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى (إِنَّمَا نُنَلِّهِمْ لَيْزَ دَاوُدَ وَإِسْمَاعِيلَ) .
وأما المعاصي ، فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ؟ ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته ، أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح .
ولذلك قال تعالى فى مثله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)^(٢) فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟ ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة ، وعجلت عقوبتك فى الدنيا . فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر ، وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا ينسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة ، فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالنسلى ، إذ أسباب النسلى مقطوعة بالسكينة فى الآخرة عن المذبذبين . ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

(١) حديث ان العبد اذا اذنب ذنبا فاصابه شدة وبلاء فى الدنيا فانه اكرم من ان يعذبه ثانيا : الترمذى وابن ماجه من حديث على من اصاب فى الدنيا ذنبا فعوقب به فانه اعدل من ان يلقى عقوبته على عبده . الحديث : لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من اصاب جدا فمجل عقوبته فى الدنيا . وقال حسن والشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن اصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . الحديث :

(١) آل عمران : ١٧٨ (٢) النور : ٤٥

أَوْ بِلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ تَائِبًا »

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ، وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي . فإنه لو خلى واللعب كان ينمعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره . فكذلك المال ، والأهل ، والأقارب ، والأعضاء ، حتى العين التي هي أعز الأشياء ، قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال . بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه . فاللحمة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى . فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية . فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة ، ويشكره عليه . فإن حكمة الله واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثواب الله على البلاء ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب ، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روي ^(١) أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال « لَا تَتَّبِعِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ » ^(٢) ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال « عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ قَضَى لَهُ بِالشَّرِّاءِ رِضًى وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالشَّرِّاءِ رِضًى وَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

الوجه الثاني : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا . ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب

(١) حديث قال لرجل أوصني قال لا تتبع الله في شيء قضاه عليك أحمد : والطبراني من حديث عبادة بن زيادة في أوله وفي استاده ابن لهيعة

(٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجب لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ - الحديث : مسلم من حديث ضبيب دون نظره إلى السماء ، وضحكه عجا لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته شدة شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنساء في اليوم والليل من حديث سعد بن أبي وقاص عجب من رضا الله للمؤمن أن أصابته خير حمد به وشكر - الحديث :

عن دار الغرور . ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، توزت طمانينة القلب إلى الدنيا وأسبابها ، وأنسه بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها : وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ، ولم يسكن إليها ، ولم يأنس بها ، وصارت سجنًا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالتخلص من السجن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ورضى بها ، واطمأن إليها . والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها . والكفر بمضه ظاهر وبمضه خفي . وبقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي . بل الموحّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق . فإذا في البلاء نعم من هذا الوجه ، فيجب الفرح به . وأما التألم فهو ضروري . وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجابتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعاعجانا . فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكره على سبب الفرح . فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال ، وينفع في المآل . بل من دخل دار ملك للنضارة ، وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأناس بمنزل لا يمكنه المقام فيه . ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه ، فأصابه ما يكرهه حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه . والدنيا منزل ، وقد دخلها الناس من باب الرحم ، وهم خارجون عنها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة . فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء . ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وحكي أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

إصبر نكن بك صابرين فأعما صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بمده والله خير منك للعباس

(١) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي . والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه ^(١) وسلم « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال عليه السلام « مَا مِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) ^(٢) اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتِي فَجَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ » . وروى ^(٣) أن رجلا قال يا رسول الله ، ذهب مالي وسقم جسمي . فقال صلى الله عليه وسلم « لَأَخِيرَ فِي عَبْدٍ لَا يَذْهَبُ مَالُهُ وَلَا يَسْقُمُ جِسْمُهُ إِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ وَإِذَا ابْتَلَاهُ صَرَّهُ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنْ الرَّجُلُ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلَاءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُهَا بِذَلِكَ » وعن ^(٥) خباب بن الارت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكونا إليه ، فقلنا يا رسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال « إِنْ مِنْ كَانَتْ قُبُلُكُمْ لَيُؤْتِيَنَّ بِالرَّجُلِ

(١) حديث من رد الله محيرا يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده أن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صرَّه

من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه ابن

(٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى بلاء في جسمه فيبلغها بذلك

أبو داود في رواية ابن داسه وابن العمد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس

في رواية اللؤلؤى ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ويحمد بن خالد لم يرو عنه

الأنبال الحسني بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عنه خالد الابن محمد وذكر أبو يعلى أن ابن منده

سمى جده اللجلاج بن سليم قاله أعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج

العامري ذلك المشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو يعلى وابن عبد البر في الصحابة من رواية

عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي

عن أبيه عن جده قاله أعلم

(٤) حديث خباب بن الارت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة

فشكونا إليه - الحديث : تقدم

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزمر : ١٠

فَيُخَفَّرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ حَقِيرَةً وَيُجَاهَهُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرَتَيْنِ مَا يَضْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ . . . وعن علي كرم الله وجهه قال . أيما رجل حبسه السلطان ظمأً فمات فهو شهيد . وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرُ مُصِيبَتَكَ » وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه . تولدوا للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرسون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى .

ألا حبذا المكروهات الثلاث ، الفقر ، والمرض ، والموت ، . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ صَبًّا وَنَجَّاهُ عَلَيْهِ نَجًّا فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَا رَبِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَتَبَيْتُ عَبْدِي وَسَعَدَيْكَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَدَّخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِئْتُ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفِّوا أَعْمَالَهُمْ بِأَلْبِزَانٍ أَهْلُ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيْوَانٌ يُصَبُّ عَلَيْهِمْ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمْ الْبَلَاءُ صَبًّا فَيَوْدُ أَهْلُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِبِ لِمَا يَرَوْنَ مَا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(٢)) . . . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال . شكاني من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه ، فقال يا رب ، العبد المؤمن يطيعك ويحتجب معاصيك ، تزوي عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحتريء عليك وعلى معاصيك ، تزوي عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا . فأوحى الله تعالى إليه ، إن العباد لي ، والبلاء لي ، وكل يسبح بحمدي . فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصابه صب عليه البلاء صبا - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

عنه الدنيا، وأعرض له البلاء، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات، فأبسط له في الرزق، وأزوي عنه البلاء، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته. وروى أنه ^(١) لما نزل قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) ^(٢) قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه. كيف الفرح بعد هذه الآية! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الْأَذَى أَلَسْتَ تُحْزَنُ فَهَذَا مِمَّا يُجْزَوْنَ بِهِ» يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عتبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ» ثم قرأ قوله تعالى (فَلَمَّا تَسَوَّأْتَ كُرُوءًا بِهِ فَتُحَنَّنَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ) ^(٣) يعني لما تركوا ما أمروا به، فتحننا عليهم أبواب الخير، (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) ^(٤) أي بما أعطوا من الخير (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) ^(٥) وعن الحسن البصري رحمه الله، أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية. فكلما هم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي، فصدمه حائط فأنزف وجهه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَجَلَ لَهُ عُقُوبَةً ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا». وقال على كرم الله وجهه. ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا بلى. فقرأ عليهم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به: قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تمرض - الحديث: من رواية

من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعه قال وليس له إسناد

صحيح وقال الدارقطني وروى أيضا من حديث عمرو بن عبد الله بن قيس قال وليس فيها شيء ثبت

(٢) حديث عتبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج

الحديث: أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن

(٣) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط

الحديث: وفيه إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد

صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من

رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي

وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي

وَيَمْنَعُو عَنْ كَثِيرٍ^(١)) فالصائب في الدنيا يكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن^(١) أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيِظَرَدَّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةٍ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا وَلَا قَطْرَةٍ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ أَهْرَيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قَطْرَةٍ دَمْعٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَخَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الرَّحِمِ »

وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهم السلام ، فوجد عليه وجداً شديداً ، فأتاه ملكان ، فجيا بين يديه في زى الخوصوم . فقال أحدهما . بذرت بذراً فلما استحصده مر به هذا فأفسده . فقال للآخر ما تقول ؟ فقال . أخذت الجادة ، فأثيت على زرع ، فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه . فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق ؟ أما علمت أن لا بد للناس من الطريق ؟ قال فلم تحزن على ولدك ؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتأب سليمان إلى ربه ، ولم يحزع على ولده بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يا بني ، لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك . فقال يا أبت ، لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفهاها الله ، وأجر قدسأته الله . ثم نزل فصرى ركعتين ثم قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ^(٢))

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسى يعرفه فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جيرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها - الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر - الحديث : وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دم في سواد الليل - الحديث : وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث :

اليوم ما يفعله الجاهل بعد حمسة أيام . فقال ابن المبارك . اكتبوا عنه هذه
وقال بعض العلماء . إن الله ليبتلّي العبد بالبلاء بعد البلاء ، حتى يمشی على الأرض وماله ذنب
وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير
وقال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة
أجناس . على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ؛ وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى
بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار
من بني اسرائيل ، واختفى في الشجرة ، فمروا ذلك ، فجنى بالمنشار ، فذشرت الشجرة حتى
بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنة ، فأوحى الله تعالى إليه ، يا زكريا لن صعدت منك
أنة ثانية لأخونك من ديوان النبوة . فمض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين
وقال أبو مسعود البانخي : من أصيب بمصيبة فزق ثوبا ، أو ضرب صدرا ، فسكأنما
أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه . يا بني ، إن الذهب
يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء . فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله
الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى
ضرسى ، فقلت لعلى : ما نمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قاما ثلاثا . فقال : لقد
أكثر من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد
وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكى إلى خلقى ،
واشك إلى ، كالأشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائك . نسأل الله
من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة

بيان

فضل النعمة على ألبلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟
فأقول لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستعيز

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة : أحمد من حديث بشر بن

في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) . وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) ^(٢) وكانوا يستعيذون من شمانية الأعداء وغيرها ^(٣) . وقال علي كرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم : لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ فَاسْأَلْهُ الْعَافِيَةَ « وروى ^(٤) الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ الْعَافِيَةِ إِلَّا الْيَقِينَ » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله . الخير الذي لا شرف فيه ، العافية مع الشكر . فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله . لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) في دعائه « وَعَافَيْتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ »

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد . وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ، إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر : بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب . فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ،

أبي ارطاة بلفظ أجرا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة واسناده جيد ولأبي داود من حديث عائشة اللهم اني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة (١) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا في الدنيا - الحديث . ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركبتين ربنا آتنا - الحديث

(٢) حديث كان يستعيذ من شمانية الأعداء : تقدم في الدعوات

(٣) حديث قال علي رضي الله عنه اللهم اني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فله العافية : الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسه ولم يسم عليا وإنما قال سمع رجلا وله والنسائي في اليوم والليلة من حديث علي كنت ساكنا فمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول - الحديث . وفيه فان كان بلاء فصبرني فصر به رجلاه وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح (٤) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية - الحديث . ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة

باسناد جيد وقد تقدم

(٥) حديث وعافيتك أحب إلي : ذكره ابن اسحاق في السيرة في دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك اوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسل ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمة ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا في النار ، وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء . فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه بُليَ بعد هذا البيت بملة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان . ادعوا لعنكم الكذاب . وأما حجة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغاب الحجة على القلب ، حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك . فمن شرب كأس الحجة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام . ولو زايلاه سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لاحقيقة لها . فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ، ولا يعول عليه . كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها ففنته ، فقال ما الذي ينعك عنى ؟ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك . فسمعه سليمان عليه السلام ، فاستدعاه وعاتبه ، فقال ، يا نبي الله ، كلام العشاق لا يحكى . وهو كما قال . وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجرى فأتارك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين . أحدهما : أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال ، فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا ، والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة . فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين ، فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال . الثاني : أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث أنه رضاه فقط ، ويكون له لذة في استشعاره وضا محبوبة منه ، تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته . فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم ، أكثر من لذتهم في المافية من غير شعور الرضا . فهو لاء إذا قدروا رضاه في البلاء

صار البلاء أحب إليهم من العافية . وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت . وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة ، أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب قالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه ، العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين

بيان

الأنفصل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك . فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون الشكر أفضل ، وقال آخرون هما سياتان ، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب ، بعيد عن التحصيل ، فلامعنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول في بيان ذلك مقامان . المقام الأول : البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته . وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ . إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم . والظن المشقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السماء وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف . وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لقوته ، ويفارق الضمف الذى هو عليه فى بنيته . فنقول هذا المقام فى البيان بأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر . بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل ، كقوله صلى الله عليه وسلم «^(١) من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» وفى الخبر «^(٢) يؤتى بأشكر أهل الأرض

(١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم

(٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض

الحديث : لم أجده أصلاً

فَيَجْزِيهِ اللَّهُ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ وَيُؤْتِي بِأَصْبَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَقَالُ لَهُ أَمَا تَرْضَى أَنْ
نَجْزِيكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَلَّا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ
فَشَكَرَ وَابْتَلَيْتُكَ فَصَبَرْتَ لِأَضْعَفَ لَكَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ فَيُعْطَى أَضْعَافُ جَزَاءِ الشَّاكِرِينَ «
وقد قال الله تعالى (إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١)) . وأما قوله ^(٢)
« الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر ، إذ ذكر
ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته . ولولا أنه
فهم من الشرع علو درجة الصبر . لما كان إخلق الشكر به مبالغة في الشكر . وهو كقوله
صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الْجُمُعَةُ حَجٌّ الْمَسَاكِينِ وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ » وكقوله
صلى الله عليه وسلم ^(٤) « شَارِبُ الْخَمْرِ كَمَا بَدِ الْوَتْنِ » وأبدأ المشبه به ينبغي أن يكون
أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » لا يدل على أن
للشكر مثله . وهو كقوله عليه السلام « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » فإن كل ما ينقسم قسمين
يسمى أحدهما نصفاً ، وإن كان بينهما تفاوت . كما يقال الإيمان هو العلم والعمل . فالعمل هو
نصف الإيمان . فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه
وسلم ^(٥) « آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ دُخُولُ الْجَنَّةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانٍ مُلْكِهِ

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر: الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل: الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط

الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف
أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة
قال طاعة أزواجهن وفي رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج . الحديث . وفيه القاسم
ابن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات

(٣) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه
بلفظ شارب الخمر الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمرو كلاهما ضعيف وقال ابن عدى

إت حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصباي

(٤) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن
ابن عوف لمكان غناه: الطبراني في الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل

وَأَخْرَجَ أَصْحَابِي دُخُولًا الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانَ غَنَاهُ ، وَفِي خَيْرِ آخِرٍ ﴿٥﴾
« يَدْخُلُ سَلِيمَانُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » وَفِي الْخَبَرِ ﴿٦﴾ « أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا
مَصْرَاعَاتُ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ
أَمَّا هُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقيه ،
والشكر حال الغنى : فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ، ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم .
والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثانى : هو البيان الذى تقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور ،
بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه . كل أمر بين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما
مع الأبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ،
لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ،
والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما في الرجحان والتقصان مع
الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنظم من أمور ثلاثة ، علوم ، وأحوال ،
وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك . وهذه الثلاثة . إذا وزن البعض منها
بالبعض ، لاح للنظرين في الظواهر أن العلوم تراد بالأحوال ، والأحوال تراد للأعمال
والأعمال هي الأفضل . وأما أبواب البصائر ، فالأمر عندهم بالعكس من ذلك . فإن الأعمال

داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لمروه لإشعيب بن خاله وهو كوفي ثقة وروى البرار
من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمى عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف
(١) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمى
في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين
على أنس والحديث منكر

(٢) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد - الحديث : لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث
الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس
محمد بيده أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى
وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة
أربعين سنة وإثباته عليه يوم وهو كظيم من الزحام

تراد للأحوال ، والأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ، لأن كل مراد لغيره ، فذلك الغير لا محالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة ، فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض . وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة ، لأنها تراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإعما فضل العالم بالمعاملة على العابد ، إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر . فنقول . فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته ، وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها . بل هي عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة ، وإعما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها ، فلا تنقيد بغيرها ، وكل ما عداها من المعارف عبید وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض ، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل ، فهي أفضل . وأما الأحوال ، فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وشوائب الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذا فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب ، وتطهيره ، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة . وكما أن تصفية المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب . فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال ، فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه . وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة ، موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للمكاشفة ، موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة . وكذا الطاعات في تنوير

القلب وتصفيته . فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ذلك يختلف باختلاف الأحوال . وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره . ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذى معه مال ، وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه ، فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع . فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال ، وليس يستضر بشهوة بطنه ، ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره . وهو كالمرضى الذى يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه . والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة ، وقيام ألف ليلة منه ذرة . بل لا يزيله إلا إخراج المال . فمليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا مما ذكرناه فى ربيع المهلكات ، فليرجع إليه فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف . وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ . إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل . فإن اجتمعا فليُنظر إلى الأغلب . فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان . وكذا إذا قيل السكنجين أفضل أم شراب اللينوفر ، لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً . نعم لو قيل لنا السكنجين أفضل أم عدم الصفراء ، فنقول عدم الصفراء ، لأن السكنجين مرادٌ له ، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة . فإذا فى بذل المال عمل ، وهو الإنفاق ، ويحصل به حال ، وهو زوال البخل ، وخروج حب الدنيا من القلب . ويتبهاً القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه . فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال ، وبالغ فى ذكر فضلها . حتى طلب الصدقات بقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ^(١)) وقال تعالى (وَيَأْخُذْ بِالْمَدَقَاتِ ^(٢)) فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يدل على

لأن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً . فهو كبرص على وجه من لامرأة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به ، والسبيل معه المبالغة في الشناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً ، إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثة فرط الشناء على المواظبة عليه ، فيزول مرضه . فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ، ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه : ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقراءة ، وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال إنه محفوظ ، ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً ، وكان له عبيد ، فأمر الولد بتعليم العبيد ، ووعدته على ذلك بالجميل ، لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم . فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القراءة ، وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدّر عليه دون تكلفي به ، وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد ، فضلاً عن عدم علمهم بالقراءة . فربما يتكاسل هذا المسكين ، فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه ، وعلى كرمه في العفو عنه ، فينسى العلم والقراءة ، ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري . وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة ، وسلكوا طريق الإباحة . وقالوا إن الله تعالى غني عن عبادتنا ، وعن أن يستقرض منا ، فأبي معنى لقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ^(١)) ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم ، فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نَطْعَمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ^(٢)) وقالوا أيضاً (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ^(٣)) فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم ، وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل . يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً فهو لاءلّا ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء ، أو لأجل الله تعالى ، ثم قالوا

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) يس ٤٧ (٣) الانعام : ١٤٨

لاحظ لنا في المساكين ، ولاحظ لله فينا وفي أموالنا ، سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه ، وتأكد في قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته . فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق . فإذا المسكين الآخذ لما لك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك . فالحجام خادم لك ، لأنك خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادماً ، بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم . ولما كانت الصدقات مطهرة للباطن ، ومزكية لها عن خبائث الصفات ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها ^(١) كما نهى عن كسب الحجام ^(٢) وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .

والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربح المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة . فهذا هو القول السكلي ، والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال ، والأحوال ، والمعارف . ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منها معرفة وحال . وعمل . فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر . بل يقابل كل واحد منها بنظيره ، حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ، رجعاً إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المينين مثلاً من الله تعالى ، ومعرفة الصابر أن يرى المعنى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان . هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة ، وعن المعصية . وفيهما يتحد الصبر والشكر . لأن الصبر

(١) حديث النهي عن كسب الحجام : تقدم

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها : مسلم من حديث عبدالمطلب بن ربيعة أن هذه الصدقة لآلنا إنما هي أوساخ القوم وإنما لآلنا الحمد والال

حمد وفي رواية له أوساخ الناس

على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين . فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذا باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة . فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه ! فإذا مجازى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء . وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية وأما البلاء ، فهو عبارة عن فقد نعمة . والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال . أما العينان ، فصبرا الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي . وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين . أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة . وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها . والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكر النعمة العينين ، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ، فقد دخل الصبر في شكره : وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة ، فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة . ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى : ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا ، وقد كان ضريرا ، من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام ، وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا : ولكن الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ، ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين ، يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين . وذلك لا يكون إلا بصبر . وأما ما يقع في محل الحاجة ، كالزيادة على الكفاية من المال ، فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة ، وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففي الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة ، فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التمتع المباح . وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل . إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية ، بل بصرفه إلى التمتع المباح ، فالصبر ههنا أفضل من الشكر . والفقير الصابر أفضل من الغنى المسك ماله ، الصارف إياه إلى المباحات ، لامن الغنى الصارف ماله إلى الخيرات . لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعى لاحالة قوة . والغنى أتبع نهمته ، وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير ، أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التمتع على المباح . والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها . فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة فى الإيمان فهو أفضل لاحالة

وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص . لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ، ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة . فإذا الصبر أفضل من الشكر ، أى الصبر الذى تفهمه العامة ، أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة . وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنييد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا مدح الفقير بالعدم ؛ وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما . فشرط الغنى بصحبه فيما عليه أشياء ثلاث صفته وتقبضها وترعجها . فإذا كان الإثنين قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما ، كان الذى ألم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر

في القسم الأخير الذي ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال : الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . فدعا عليه الجنيد ، فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده ، وإتلاف أمواله ، وزوال عقله أربع عشرة سنة . فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها ، علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، والباقي يصرفه إلى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها . ثم إذا صرف لم يصرفه لطالب جاه وصيت ، ولا تقليد منة ، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس ، والفقير يثقل عليه الفقر ، لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم العسر . فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس ، أكل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به ، وإنما يقطع عن نفسه قهراً . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطلوباً لعينه ، بل لتأديبها . وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد . والكلب المتأدب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب ، وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليهما في النهاية . بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذياً عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذياً . وقد كان مؤلماً له أولاً ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأفلين في البداية ، بل قبل البداية بكثير ، كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل . وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب . وتطلقه لإرادة الأكثر ، فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام . فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ،

ووراء الشكر على البلاء وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن إلا ألم فيه ولا فرح ،
والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ، ذكرنا
أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ، فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ،
ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم
الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر
والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر . وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها
شكر ، وشكر الوسائط شكر ، إذ قال عليه السلام ^(١) « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ
اللَّهَ » وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين
يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال
والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف
يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام ،
كما ورد في الأخبار والآثار :

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن ،
فسأله عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي ، وهي كذلك كانت تهواني ،
فاتفق أنها زوّجت مني ، فليلة زفافها . قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكراً لله تعالى على
ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ،
فصلينا طول الليل ، فمندسبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك إفلانة ؟
قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما
وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل .
فاذاً لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .

(١) حديث من لم يشكر الله : تقدم في الزكاة

كتاب النخوف والرجاء

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، الخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إل النزول بفنائهم ، والمدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدمهم عن التعرض لأنته ، والتهدف لسخطه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر . والمنف ، وأزمة الرفق والطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيّد نبياؤه وخير خلقته ، وعلى آله وأصحابه وعترته . أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان ، مع كونه بعيدا لأرجاء ، ثقیل الأعباء ، مخفوف بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلأزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه مخفوف بطائف الشهوات وعجائب اللذات إلسياط التخويف وسطوات التمني . فلا بد إذّا من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما ، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تصادهما وتمازجهما ، ونحن نجتمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف : أما الشطر الأول ، فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذي يحتلب به الرجاء .

بيان

حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين ، وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع ، وإلى ما هو بينهما كصفرة

المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالاً ؛ لأنه يحول على القرب . وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضاً يتم من حال ، وعلم ، وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال ، والحال يقتضى العمل . وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة . ويبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر فى الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرّاً وتذكراً . وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً فى الحال سمي وجداءً وذوقاً ، وإدراكاً ، وإنما سمي وجداءً لأنها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء فى الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً . فإن كان المنتظر مكروهاً ، حصل منه ألم فى القلب سمي خوفاً وإشفاقاً . وإن كان محبوباً ، حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالنال لذة فى القلب وارتياح ، سمي ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لا انتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق . وإن كان ذلك انتظارا مع انحرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا مأمومة الانتفاء ، فاسم التمنى أصدق على انتظاره ، لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أمّا ما يقطع به فلا . إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب . لأن ذلك مقطوع به نعم : يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى قلب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها ، كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلماء ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة . فينبغى أن يقاوم رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده

بما يحتاج إليه وهو سبوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الشوك عن الأرض والجشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء : وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة ، مرتقعة لا ينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لارجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ، لكن لاماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا ، سمي انتظاره تمنيا لارجاء .

فإذا اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد إذا بذر الإيمان ، وسقاء بقاء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ، محمودا في نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بعقضى أسباب الإيمان في إنعام أسباب المغفرة إلى الموت . وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بقاء الطاعات . أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْأَحْقُّ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ » وقال تعالى (تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ^(٢)) وقال تعالى (تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خِذُوا مِنْ عَرَضِ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُوا سَيَنْفَرُ لَنَا ^(٣)) وذم الله تعالى صاحب البستان ، إذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبدي هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا

فإذا العبد المجتهد في الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما المعاصي ، فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه

(كتاب الرجاء والخوف)

(١) حديث الأحق من أتبع نفسه هواها - الحديث : تقدم غير مرة

(٢) مريم : ٥٩ (٣) الاعراف : ١٦٩

من تقصير ، فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية ، تسوء السيئة ، وتسره الحسنة ، وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة ، يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ^(١)) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهك فيما يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المنفرة حق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يعمده بسقي ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب ، مع رجاء المفوم من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته ، فقد علمت أنها حالة أثرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالةثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره ، وطابت أرضه ، وغزر ماؤه ، صدق رجاءه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعمدها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها . فلا يفتر عن تعمدها أصلا إلى وقت الحصاد . وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعمد . فن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء معوز ، وأن البذر لا ينبت فيتترك لالحالة تفقد الأرض والتعب فى تعمدها والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم ، وهو ضده ، لأنه صارف عن العمل . والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث بطريق الرقبة . فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى

والتنعم بمناجاته ، والتلطف في التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك . أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى . فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء ، والنزول في حضيض الغرور والتمنى . فهذا هو البيان لحال الرجاء ، ولما أثمره من العلم ، ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إثاره لهذه الأعمال حديث ^(١) زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد . فقال « كَيْفَ أَصْبَحْتَ » قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه ، وأيقنت بشوابه . وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه ، وحننت إليه فقال « هَذِهِ عَلَامَةُ اللَّهِ فِيْمَنْ يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلْآخِرَىٰ حَيْثُ لَهَا نَمٌّ لَا يَبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكْتَ » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

بيان

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب ينال بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفاً من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسيما في وقت الموت . قال تعالى (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) ^(١) فحرم أصل اليأس . وفي أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه . أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجى : ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى »

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد - الحديث : الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال له أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماء النبي صلى الله عليه وسلم الخير ليس بروى عنه حديث وذكره في حديث يروى

فقام زيد الخير فقال يا رسول الله - الحديث : سمعت أبي يقول ذلك

(٢) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله : مسلم من حديث جابر

(١) الزمر : ٥٣

وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ قَرَّ وَجَلٌ ^(١) أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنِّ بِي مَا شَاءَ » ^(٢) ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال أجدني أخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ مَا رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان . من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال لأن الله عز وجل غير قوما فقال (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ^(١)) وقال تعالى (وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ^(٢)) وقال صلى الله عليه وسلم « ^(٣) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَأْنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُتَنَكِّرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِنْ لَقَّاهُ اللَّهُ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ رَجَوْتُكَ وَحِفْتُ النَّاسَ قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرْتُ لَكَ » وفي الخبر الصحيح ^(٤) « أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيُسَامِحُ أَلْفَنِيَّ وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَلَقِيَ اللَّهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه عن الطاعات . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ^(٥)) ولما قال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « لَوْ تَعْلَمُونَ »

(١) حديث أنس بن مالك عن عبد بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصحيحين

من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء

(٢) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال كيف تجدك - الحديث : الترمذي وقال

غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد

(٣) حديث أن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت التكرار أن تنكره - الحديث : ابن ماجه من حديث

أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف

(٤) حديث أن رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر - الحديث : مسلم من حديث أبي مسعود

حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا

فكان يأمر غلمانة أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك بما يورثون

واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا - الحديث : توفيه في خط جبريل - الحديث : ابن ماجه

(٦) فصلت : ٢٣ (٢) الفتح : ١٢ (٣) فاطر : ٢٩

مَا أَعْلَمُ لَصَحَّتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّنْدَاتِ تَلْدُمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجَارُونَ إِلَى رَبِّكُمْ ، فَهَبَطَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : إِنْ رَبِّكَ يَقُولُ لَكَ لَمْ تَقْنَطْ عِبَادِي ؟ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَرَجَاهُمْ وَشَوْقَهُمْ . وَفِي الْخَبَرِ ^(١) ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَحِبْنِي ، وَأَحِبْ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَحِبِّينِي إِلَى خَلْقِي . فَقَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَحْبَبْتُكَ إِلَى خَلْقِكَ ؟ قَالَ إِذْ كَرَنْتُ بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ ، وَإِذْ كَرَّ آلَائِي وَإِحْسَانِي ، وَذَكَرْتُمْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنِّي إِلَّا الْجَمِيلَ وَرُوِيَ أَبَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ فِي النَّوْمِ ، وَكَانَتْ يَكْثُرُ ذِكْرُ أَبْوَابِ الرَّجَاءِ ، فَقَالَ : أَوْقَفَنِي اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ أُرِدْتُ أَنْ أَحْبَبْتُكَ إِلَى خَلْقِكَ . فَقَالَ قَدْ غَفَرْتَ لَكَ ، وَرُوِيَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي النَّوْمِ ، فَقِيلَ لَهُ مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ فَقَالَ أَوْقَفَنِي اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ يَا شَيْخَ السُّوءِ ، فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ ، قَالَ فَأَخَذَنِي مِنَ الرَّعْبِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ . ثُمَّ قُلْتُ يَا رَبِّ ، مَا هَكَذَا حَدَّثْتَ عَنْكَ . فَقَالَ وَمَا حَدَّثْتَ عَنِّي ؟ فَقُلْتُ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ الزَّهْرِيِّ ، عَنْ أَنَسٍ ، عَنْ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّكَ قُلْتَ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِ بِي ، فَلِيْظُنُّ بِي مَا شَاءَ . وَكُنْتُ أَظُنُّ بِكَ أَنْ لَا تَعَذِّبَنِي . فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقَ جَبْرِيلُ ، وَصَدَقَ نَبِيُّي ، وَصَدَقَ أَنَسٌ ، وَصَدَقَ الزَّهْرِيُّ ، وَصَدَقَ مَعْمَرٌ ، وَصَدَقَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، وَصَدَقْتَ ، قَالَ فَأَلْبَسْتُ وَمَشَى بَيْنَ يَدَيْ الْوَلَدَانِ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَقُلْتُ يَا لَهَا مِنْ فَرَحَةٍ . وَفِي الْخَبَرِ ^(٢) أَنْ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَقْنَطُ النَّاسَ وَيَشُدُّ عَلَيْهِمْ ، قَالَ فَيَقُولُ لَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْيَوْمَ أَوْسَيْتُكَ مِنْ رَحْمَتِي كَمَا كُنْتَ تَقْنَطُ عِبَادِي مِنْهَا وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٣) : « إِنْ رَجُلًا يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمُوتُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِيْجَبْرِيلَ اذْهَبْ فَأَتِنِي بِعَبْدِي قَالَ فَيَجِيءُ بِهِ قَيُّوْمُهُ »

فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأُولَاهُ مُتَّفِقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَرَوَاهُ بَزْإٌ وَخَرَجَهُ إِلَى الصُّنْدَاتِ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَقَدْ تَقَدَّمَ

(١) حَدِيثُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى عَبْدِ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحِبْنِي وَأَحِبْ مَنْ يُحِبُّنِي - الْحَدِيثُ : لَمْ أَجِدْ لَهُ أَصْلًا وَكَأَنَّهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ كَالَّذِي قَبْلَهُ

(٢) حَدِيثُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَقْنَطُ النَّاسَ وَيَشُدُّ عَلَيْهِمْ - الْحَدِيثُ : رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَذَكَرَهُ مَقْطُوعًا

(٣) حَدِيثُ أَنَّ رَجُلًا يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمُوتُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ - الْحَدِيثُ : ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ وَضَعَهُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ

عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ ؟ فَيَقُولُ شَرُّ مَكَانٍ قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ قَالَ فَيَمْسِكِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ ؟ فَيَقُولُ لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لَا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه

بيان

دواء الرجاء والسييل الذي يحصل منه حاك الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال . فلما العاصي المغرور الممتنى على الله ، مع الإعراض عن العبادة واتحام المعاصي ، فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه ، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سيم مهلك لمن غلب عليه الحرارة . بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المبهجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل ، معالجا لكل علة بما يضادها ، لا بما يزيد فيها . فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوسطها . فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين ، عولج بما يردّه إلى الوسط ، لا بما يزيد في ميله عن الوسط . وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب . فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية . ولكنها لما كانت أخف على القلوب ، والله عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا ، مالوا إلى الرجاء ، حتى ازداد الفساد فسادا ، وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا . قال على كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتملان على الخوف

والرجاء جميعا ، لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة ، استعمال الطبيب الحاذق ، لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان وحال الرجاء يغلب بشيئين : أحدهما الاعتبار ، والآخرا استقرار الآيات والأخبار والآثار أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر ، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا . ومعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود . كآلات الغذاء . وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظافر ، وما هو زينة له . كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وحمرة الشفتين ، وغير ذلك مما كان لا ينلهم بفقده غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق ، حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقتهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا ، علم أن أكثر الخلق قدهي . له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا ، ولا يحشر أصلا . فليست كراهتهم للمعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة . وإنما الذي يتنمى الموت نادر . ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة ، وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لا تجدها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو غفور رحيم ، لطيف بعباده ، متعطف عليهم . فهذا إذا تَوَاضَع حق التأمل قوي به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقليل له وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ، ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه !

الفن الثاني : استقرار الآيات والأخبار ، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر

أما الآيات ، فقد قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ^(١)) وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « وَلَا يَبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وقال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ^(٢)) وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه ، فقال (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ^(٣)) وقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ^(٤)) وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^(٥)) وقال عز وجل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ^(٦))

ويقال ^(٦) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ^(٧)) وفي تفسير قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ^(٨)) قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ^(٩)) الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ^(١٠)) . وأما الأخبار ^(١١) فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أُمِّي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَا عَذَابَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَجَّلَ اللَّهُ عِقَابَهَا فِي الدُّنْيَا أَلَّا تَزِلَّ وَالْفِتْنُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقِيلَ

(١) حديث قرا قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى : الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد . وقال حسن غريب

(٢) حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له اما ترضى وقد أنزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما

من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله ونجاوزه ما هنا أحدا العيش - الحديث :

(٣) حديث أبي موسى أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا ألا تزل والفتن . الحديث :

(٩٠ ، ١) الزمر : ٥٣ (٢) الشورى : ٥ (٣) الزمر : ١٦ (٤) آل عمران : ١٣٩ (٥) النمل : ١٥٠

(٦ ، ٦) الرعد : ٦ (١٠ ، ٨) الضحى : ٥

هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ « وفي لفظ آخر^(١) » يَأْتِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ هَذَا فِدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) « الْحُمَى مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » وروى في تفسير قوله تعالى (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)^(٣) (١) « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَنِّي أَجْعَلُ حِسَابَ أَمْتِكَ إِلَيْكَ ، قَالَ لَا يَارَبُّ ، أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي : فَقَالَ إِذَا لَانْخَزِيكَ فِيهِمْ . » وروى عن^(٤) أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته ، فقال « يَارَبُّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي » فأوحى الله تعالى إليه ، هم أمتك ، وهم عبادي وأنا أرحمهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك . وقال صلى الله عليه وسلم « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ أَمَّا حَيَاتِي فَأَسْنُّ لَكُمْ السُّنَنَ وَأُشَرِّعُ لَكُمْ الشَّرَائِعَ وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَنًا تَحْدُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئًا اسْتَفْزَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ »

- أبي داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه
- (١) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم - الحديث : مسلم من حديث أبي موسى إذا كانت يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا
- (٢) حديث الحمى من فتح جهنم وهي حظ المؤمن من النار : أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه
- (٣) حديث أنت الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني - الحديث : في تفسير قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله
- (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث : لم أقف له على أصل
- (٥) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم - الحديث : البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وأن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بأسناد ضعيف

(١) وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يَا كَرِيمُ الْعَفْوِ » فقال جبريل عليه السلام : أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفان السيئات برحمته، بدلها حسنات بكرمه (٢) وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال « هَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النُّعْمَةِ ؟ » قال لا . قال « دُخُولُ الْجَنَّةِ » قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا ، إذ قال تعالى (وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (١))

وفي الخبر (٣) « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا قَلِمَ أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ » . وفي الخبر (٤) « لَوْ أَذْنَبَ الْعَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ مَا اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي » . وفي الخبر (٥) « لَوْ لَقِيتِي عَبْدِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوبًا لَقِيتُهُ بِقَرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً » . وفي الحديث (٦) « إِنَّ الْمَلَكَ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً »

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدري ما تفسير يا كريم العفو . الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب المعظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره

(٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة - الحديث تقدم

(٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنبا فلم أن له ربا يغفر الذنب - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ أن عبدا أصاب ذنبا فقال أي رب أذنبت ذنبا فاعفروني - الحديث : وفي رواية أذنب عبد ذنبا فقال - الحديث *

(٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء - الحديث : الترمذي من حديث أنس بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن

(٥) حديث لو لقيتني عبدی بقرباب الأرض ذنوبا لقيتني بقربابها مغفرة : مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيتني بقرباب الأرض حطيت لا يشرك بي شيئا لقيتني بمثلها مغفرة والترمذي من حديث أنس الذي

قله يا ابن آدم لو لقيتني - الحديث :

(٦) حديث أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه - الحديث

قال وفي ولفظ آخر فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب الميزان لمعجب الشهاب وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تصريف العشر - الحديث : البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا بطول منه وفيه أن صاحب الميزان

وفي لفظ آخر « فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشَّامِ وَهُوَ أَمِيرُ عَلَيْهِ أَلْقِ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أَلْقَى مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضَعُفُ الْعَشْرَ وَأَرْفَعَ لَهُ نِسْعَ حَسَنَاتٍ فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ » . وروى ^(١) أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ بَعْلَيْهِ » فقال أعرابي : وإن تاب عنه ؟ قال « يُحْيَى عَنْهُ » قال فإن عاد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال الأعرابي فإن تاب ؟ قال « يُحْيَى مِنْ صِحْفَتِهِ » قال إلى متى ؟ قال « إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الْغُفْرَةِ حَتَّى يَمَلَّ الْعَبْدُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ فَإِذَا هُمُ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعَفُ اللَّهُ سَبْعُمِائَةً وَتَمَّ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَإِذَا هُمْ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةٌ وَاحِدَةٌ وَوَرَاءُهَا حُسْنٌ عَفْوُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » ^(٢) . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، إني لا أصوم إلا الشهر لأزيد عليه ، ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها ، وليس لله في مالي صدقة ، ولا حج ، ولا تطوع ، أين أنا إذا مات ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نَعَمْ مَعِيَ إِذَا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنْ اثْنَتَيْنِ .

أمر على صاحب الشمال وأيس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بالفاء السيئة حتى ياتي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلا

(١) حديث أنس إذا أذنبت العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي فإن تاب عنه قال صلى الله عليه وسلم عنه قال فان عاد - الحديث وفيه أن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار - الحديث : البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل فقال يا رسول الله اني أذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر - الحديث : وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أن أجدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويناب عليه قل فيعود - الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تمأوا وليس في الحديثين قوله في آخره فإذا هم العبد بمحنة ألغ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر بويه عن ربه فمن هم بمحنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسينة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعلمها كتبها الله سبعة واحدة زاد مسلم في رواية أو عاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولها نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث جاء رجل فقال يا رسول الله أبيع لا أصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وأيس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع - الحديث : تقدم

الْقِلُّ وَالْحَسَدُ وَلِسَانُكَ مِنْ اثْنَتَيْنِ الْغِيْبَةِ وَالْكَذِبِ وَعَيْنُكَ مِنْ اثْنَتَيْنِ النَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَنْ تَزْدَرِي بِهِمَا مُسْلِمًا دَخَلْتَ مَعِيَ الْجَنَّةَ عَلَى رَاحَتِي هَاتَيْنِ . وفي الحديث (١) الطويل لأنس ، أن الأعرابي قال يارسول الله ، من بلى حساب الخلق ؟ فقال « الله تبارك وتعالى » قال هو بنفسه ؟ قال « نعم » فنبسم الأعرابي . فقال صلى الله عليه وسلم « مِمَّ صَحِكتَ يَا أَعْرَابِي » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . « صدق الأعرابي ألا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين » ثم قال « فقه الأعرابي » وفيه أيضا إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمتها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم آخرتها ما بلغ جرماً من استخف بولي من أولياء الله تعالى قال الأعرابي . ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (٢) وفي بعض الأخبار (٣) « الْمُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ » (٤) « وَالْمُؤْمِنُ طَيْبٌ طَاهِرٌ » (٥) « وَالْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وفي الخبر (٦) « خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رَحْمَتِهِ سَوْطًا يَسُوقُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ » . وفي خبر آخر « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (٦) إِنَّمَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْجِعُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لِأَرْجِعْ

(١) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من بلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه

ال نعم فنبسم الاعرابي .. الحديث : لم أجده أصلا

(٢) حديث المؤمن أفضل من الكعبة : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي

نفسى بيده حرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخر او شيخه نصر بن محمد

ابن سليمان الحمضي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن طيب طاهر : لم أجده هذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس

(٤) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة : ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن حبان عن أبي هريرة

بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه

ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف

(٥) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة : لم أجده هكذا ويقع عليه ما رواه

البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم الى الجنة في السلاسل

(٦) حديث قال الله انما خلقت الخلق ليرجعوا علي ولم اخلقهم لارجع عليهم : لم أقضه على أصل

عَلَيْهِمْ » . وفي حديث ^(١) أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ » وفي الخبر المشهور ^(٢) « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » . وعن ^(٣) معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٤) « وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ تَحْسَهُ النَّارُ » ^(٥) « وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ » ^(٦) « وَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » . وفي خبر آخر ^(٧) « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سِعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ مَا أَيْسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » ^(٨) ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

(١) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه : أبو الشيخ ابن حبان في الثواب

وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الليزان ليس بواه ولا يجهول

(٢) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتي تغلب غضبي : متفق عليه من

حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث معاذ وأنس من قال لا اله الا الله دخل الجنة : الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم

من حديث معاذ وهو في اليوم والليلة وللنساء بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث

معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار

(٤) حديث من كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تحسه النار : أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة

(٥) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار : الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم

قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار وزاد

البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من اتي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث

معاذ بلفظ جعله الله في الجنة وللنساء من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال

أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبدا يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة

(٦) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان : أحمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد أن لا اله الا الله

هرمة الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان اذ لعلم كلمة ولاية وله ما عبد حقا

من قلبه الا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا

ونحوه شاذ يخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من المؤمنين النار واخراجهم

بالشفاعة نعم لا يبق في النار من في قلبه وزن ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه

شأن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه وقال مسلم من خير بدل من إيمان .

(٧) حديث لوعلم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٨) حديث لما تلا - ان زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا - الحديث : الترمذي من حديث

(إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ^(١)) قال « أَتَذَرُون أَيَّ يَوْمٍ هَذَا ؛ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لَأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُمْ فَأَبْعَثْ بَعَثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ كَيْفَ ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْمَعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » قال فأبلس القوم ، وجعلوا ييكون وتمطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مَا لَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ ؟ » فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كَمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ أَيْ تَأْوِيلُ وَتَأْرِيْسُ وَمَنْسِكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَّمٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَكَالْقُرَّةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ » فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى ، إذ سافهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس ، داوam بدواء الرجاء ، وردهم إلى الاعتدال والقصد . والآ خر لم يكن مناقضا للأول ، ولكن ذكر في الأول ما رآه سببا للشفاء ، واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر : فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ ، فيتألف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة ، بعدملاحظة الملل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه . وفي الخبر ^(١) « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يَذْنُبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ » وفي لفظ آخر « لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يَذْنُبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وفي الخبر ^(٢) « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ » قيل وما هو ؟ قال « أَلْعَجَبُ » : وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ »

عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من راوية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد

(١) حديث لولم تذنبا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفرهم وفي لفظ لذهب بكم - الحديث : مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه

(٢) حديث لولم تذنبا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب : الزار وابن جان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب

(٣) حديث والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالد الشفيقة بولدها يغفر في عليه من حديث عمر بن الخطاب

مِنْ أَلْوَدَةِ الشَّفِيقَةِ بَوْلَدَهَا ، وَفِي الْخَبَرِ ^(١) « لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبٍ أَحَدٌ حَتَّى أَنْ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءً أَنْ تُصِيبَهُ » وَفِي الْخَبَرِ ^(٢) « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَدْخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ نِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَرَأَحُمُ الْخَلْقُ فَتَجِنُّ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَتَغْطِي الْبَيْمَةَ عَلَى وَلَدِهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التَّسْعِ وَالتَّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طَبَاقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هَالِكٌ » وَفِي الْخَبَرِ ^(٣) « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ » قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ » وَقَالَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ^(٤) « اْعْمَلُوا وَابْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْجِ عَمَلُهُ » . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٥) « إِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي أَتُرَوْنَهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَّقِينَ بَلْ هِيَ لِلْمُتَوَلِّينَ الْمُخْلِطِينَ » وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ^(٦) « بُعِثْتُ بِالْخَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ » . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مُصْطَفًى ^(٧) « أَحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَنَّ فِي دِينِنَا سَمَاحَةً » وَيَدُلُّ عَلَى مَعْنَاهُ اسْتِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِمْ (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

(١) حديث يغفرون الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد - الحديث : ابن أبي الدنيا

في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف

(٢) حديث ان الله تعالى مائة رحمة - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٤) حديث اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لن ينجيه عمله بقدم أيضا

(٥) حديث اني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي - الحديث : الشيخان من حديث أبي هريرة لكل

نبي دعوة واني خبأت دعوتي شفاعة لأهلي ورواه مسلم من حديث أنس وللترمذي من حديثه

وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ولا بن ماجه من حديث

أبي موسى وأحمد من حديث ابن عمر خیرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي

الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم وأكثي أترونها للمتقين - الحديث : وفيه من لم يسم

(٦) حديث بعثت بالخنيفية السمحة السهلة : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله

والطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الخنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحاق ورواه بالنعنة

(٧) حديث أحب ان يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة : أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد

إِصْرًا^(١) وقال تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^(٢)) وروى^(٣) محمد بن الحنفية ، عن علي رضي الله تعالى عنها أنه قال لما نزل قوله تعالى (فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ^(٤)) قال « يَا جَبْرِيلُ وَمَا الصَّفْحُ الْجَمِيلُ » قال عليه السلام . إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يَا جَبْرِيلُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاتَبَ مَنْ عَفَا عَنْهُ » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول . كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا ما لا يشبه كرمي والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه . من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة . ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا ، فالله تعالى أعدل من أن يتي عقوبته على عبده في الآخرة ، وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي ، لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة ، كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه ، فرفع يديه يدعو يقول ياربني ، حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة . حتى إذا قال الرابعة ياربني ، قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ؟ قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري . أشهدكم أنني قد غفرت له وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله عليه : خلا لي الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب ، فقلت ياربني اعصمني حتى لا أعصيك أبدا . فهتف بي هاتف من البيت ، يا ابراهيم ، أنت تسألني العصمة ، وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك فإذا عصمتهم فعلى من أفضّل ؟ ولمن أغفر ؟ . وكان الحسن يقول . لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالحسنين .
ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له . إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال يا أبا يحيى ،

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال جبريل وما الصفح الجميل قال إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه - الحديث : ابن مردويه في تفسيره معوقا على طي مختصرا قال الرضا بنير عتاب ولم يذكر بقية الحديث : وفي استاده نظير

إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح .

وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال : لما مات أخى سجي بثوبه ، وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال : إني لقيت ربي عز وجل ، فبانى بروح وريحان ، وربى غير غضبان ، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون ، فلا تفتروا ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه ، فكانها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه وفي الحديث ^(١) « أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَاحَيَا فِي اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الْآخَرُ عَابِدًا وَكَانَ يَعْطُهُ وَيَزَجُرُهُ فَكَانَ يَقُولُ دَعْنِي وَرَبِّي أَبُغِثَ عَلَى رَقِيبًا حَتَّى رَأَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى كِبَرَةٍ فَغَضِبَ فَقَالَ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْسَرُ طَعِيمٌ أَحَدُ أَنْ يَحْظُرَ رَحْمَتِي عَلَى عِبَادِي إِذْ هَبَ أَنْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ثُمَّ يَقُولُ لِلْعَابِدِ وَأَنْتَ فَقَدْ أَوْجَبْتَ لَكَ النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ أَهْلَكَتُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ »

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، قر عليه عيسى عليه السلام ، وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين . فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر ، وإلى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معها ثالوثا . قال فنزل ، فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ، وبزدرى نفسه تعظيما للحواري ، ويقول في نفسه مثلى لا يعيش إلى جنب هذا العابد ! قال وأحس الحوارى به ، فقال في نفسه هذا يعيش إلى جانبي ! فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشى بجنبه ، فبقى اللص خلفه . فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما . أما الحوارى ، فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر ، فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك ، وضم اللص إليه في حياتته ، وجمله من حواريه .

وروى عن مصروق أنه أنبيا من الأنبياء كان حاجدا ، فوطى عنقه بعض العصاة ، حتى

(١) حديث الرجلين من بني إسرائيل توأخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا . الحديث : أبو داود عن طريق أبي هريرة . إسناده صحيح

أزرق الحصى بجبهته . قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا ، فقال اذهب فلن يغفر الله لك : فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على في عبادي ! إني قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن ^(١) ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ، ويلعنهم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) ^(٢) الآية فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام .

وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين في العبادة ، قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة ، فرغمته على في عليين ؟ فيقول الله سبحانه . إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف . فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه ، وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « سَلُوا اللَّهَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيماً » وقال ^(٤) « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَعْظُمُوا الرِّغْبَةَ وَسَأَلُوا الْفَرْدَوْسَ الْأَعْلَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَاهُ شَيْءٌ » وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس في المشية

(١) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء فترك الدعاء عليهم - الحديث : البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول مع الله بن حمدة ربنا ولك الحمد فأمر الله عز وجل ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فلعنهم ظالمون ورواه الترمذي وسماه أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد ثواب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسلمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن صحيح

(٢) حديث سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد ليس بالحافظ (٣) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة وسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطاه شيء : مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة . فإن الله عز وجل لا يتعاطاه شيء أعطاه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

التي قبض فيها ، فقلنا يا أبا عبد الله ، كيف تجددك . قال لا أدري ما أقول لكم ، إلا إنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب . ثم ما برحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يغلب رجائي إياك مع الأعمال لأنني اعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف . وأجدني في الذنوب اعتمد على عفوكم ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجوود موصوف وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال إن أسأمت أضفتك ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى إليه . يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فمر إبراهيم يسمى خلف المجوسى ، فردده وأضافه ، فقال له المجوسى . ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر له . فقال له المجوسى . أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض على الإسلام . فأسلم . . . ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له كيف حالك . فقال وجدنا الأمر مما توهمنا ، ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى برى . . . وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى ، رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول . أين العلماء ؟ قال فجاءوا . ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا يارب قصرنا وأساءنا . قال . فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه . فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم . ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ، ودفع إلى غلامه أربعة دراهم ، وأمره أن يشتري شيئا من القوام كالمعجاس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليّ أربعة دراهم دعوت نه أربع دعوات . قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعوك ؟ فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله على دارهمى ، فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ فقال أن يفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم . فدعا منصور فخرج الغلام ، فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال وبهم دعا ؟ فقال سألت

لنفسى العتق . فقال له اذهب فانت حر . قال وإيش الثاني ؟ قال أن يخلف الله على الدرهم
قال لك أربعة آلاف درهم . وإيش الثالث ؟ قال أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى
قال وإيش الرابع ؟ قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر . قال هذا الواحد ليس إلى .
فلما بات تلك الليلة : رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له . أنت فعلت ما كان إليك ، أجمعين
أنى لا أفعل ما إلى ؟ قد غفرت لك ، وللغلام ، وللمصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين أقترى
وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال ، رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة
يحمون جنازة قال فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، وصلينا عليها ، ودفنا الميت .
فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى
ولكن صغروا أمره . قلت وإيش كان هذا ؟ قالت نحننا . قال فرحمته وذهبت بها إلى منزلى
وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا . قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر
وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكرنى . فقلت من أنت ؟ فقال : الخنث الذى دفتمونى اليوم ،
رحمنى ربى باحتقار الناس إياى . وقال ابراهيم الأطروش . كنا قعودا ببغداد مع معروف
الكرخي على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ويلعبون .
فقالوا لمعرف : أما تراه يعصون الله مجاهرين ؟ ادع الله عليهم : فرفع يديه وقال إلهى كما
فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقال القوم ، إنا سألناك أن تدعو عليهم . فقال إذا
فرحهم فى الآخرة تاب عليهم . وكان بمض السلف يقول فى دعائه : يارب ، وأى أهل
دهر لم يعصوك ، ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ، ورزقك عليهم دارا . سبحانه ما أحلك
وعزتك إنك لتحصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق ، حتى كأنك ياربنا لا تغضب .
فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين . فأما
الحقى المغرورون ، فلا ينبغي أن يسمعوها شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب
الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء ، والصبي العرم ، لا يستقيم
إلا بالسوط والعصا ، وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح
فى الدين والدنيا

فهرست الجزء الثانى عشر

صفحة	صفحة
الصديقون المقربون الغافلون	٢١٣٩ بيان أقسام العباد في دوام التوبة
٢١٨١ المجاهدون	توبة ذى النفس المطمئنة
اقسام الصبر باعتبار اليسر والعسر	٢١٤٠ توبة ذى النفس اللوامة
٢١٨٢ تقسيمه باعتبار حكمه	٢١٤١ توبة ذى النفس السوالة
بيان مظهر الحاجة الى الصبر وان العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال	٢١٤٢ توبة النفس الأمارة
٢١٨٣ الصبر على ما يوافق الهوى	بيان ما ينبغي أن يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبية أو عن المام بحكم الاتفاق
معنى الصبر على العافية	٢١٤٤ استغفار العبد امان له
٢١٨٤ الصبر على ما لا يوافق الهوى	ثمرة التوبة
الصبر على الطاعة	الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار
حالات احتياج المطيع الى الصبر	٢١٥٠ الايمان بأصل الشرع
٢١٨٥ الصبر على المعصية	٢١٥١ الوثوق بالرسول صلى الله عليه وسلم
الصبر على الأمور التي للعبد اختيار في دفعها	الاصغاء الى وعيد الله وتحذيره
٢١٨٦ الصبر على الأمور التي لا تدخل تحت الاختيار	طلب العلم ونشره
٢١٨٧ نتيجة حسنة لصبر الرميضاء	علة أكثرية مرض القلوب على مرضى الأبدان
٢١٩٠ الجميل	٢١٥٢ طريق الوعظ
البكاء لا ينافي الصبر	٢١٥٣ ذكر الآيات والأخبار المخوفة
بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه	٢١٥٥ ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء
٢١٩٣ سبيل ضعف الباعث الشهوانى	٢١٥٦ ذكر تعجيل عقوبة الذنوب في الدنيا
٢١٩٤ سبيل تقوية الباعث الدينى	ذكر حدود الذنوب والنفوس في الوجوه
٢٢٠١ الشطر الثانى من الكتاب في الشكر	٢١٦٢ اسباب الوقوع في المعاصى
الركن الأول في نفس الشكر	٢١٦٣ الفكر الحقيقى دواء الوقوع في المعاصى
بيان فضيلة الشكر	٢١٦٨ كتاب الصبر والشكر
٢٢٠٤ بيان حد الشكر وحقيقته	الشطر الأول في الصبر
الأمور التي ينتظم منها الشكر	٢١٦٩ بيان فضيلة الصبر
العلم	٢١٧١ بيان حقيقة الصبر ومعناه
٢٢٠٦ الحال المستمدة من أصل المعرفة	٢١٧٧ بيان كون الصبر نصف الايمان
٢٢٠٧ العمل بموجب الفرح	بيان الأسامى التي تتجدد للصبر
بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر	٢١٧٨ بالإضائة الى ماعنه الصبر
٢٢٠٩ في حق الله تعالى	بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
حكم ترميم الثواب على البطالة	٢١٨٠
٢٢١٧ والمقاب على المعصية	

صفحة	صفحة
فائدة الرياح فائدة الشمس فائدة القمر	بيان تمييز ما يحبه الله تعالى وما يكرهه
٢٢٦٣	٢٢١٨ ما من مخلوق الا وفيه حكمة
٢٢٦٤	٢٢٢٠ حكمة التقدين والتعامل بهما
الطرف الخامس في نعم الله تعالى في	٢٢٢٣ حكمة تحريم الربا
٢٢٦٦	٢٢٢٩ وجوب التأدب عند حدود الله تعالى
الأسباب الموصلة للأطعمة اليك	الركن الثاني من أركان الشكر ، ماعليه
الطرف السادس في اصلاح الاطعمة	٢٢٣٣ الشكر
ما يحتاجه الرغيف حتى يصلح	٢٢٣٤ بيان حقيقة النعمة واقسامها
٢٢٦٧	تقسيم الأمور بالنسبة اليها
للأكل	٢٢٣٥ تقسيم الخيرات باعتبار التأثير
الطرف السابع في اصلاح المصلحين	٢٢٣٧ مقارنة بين العلم والمال
٢٢٦٨	٢٢٣٩ تقسيم النعم باعتبار غايتها
٢٢٦٩	٢٢٤٠ الفضائل النفسية
الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى	وجهة احتياج طريق الآخرة للمال
في خلق الملائكة عليهم السلام	٢٢٤١ وغيره من النعم الخارجية
طبقات الملائكة	٢٢٤٤ الفضائل المنسوبة ومعناها
٢٢٧٠	٢٢٤٥ وجهة أن المال نعمة مع أنه ذم شرعا
٢٢٧٢	٢٢٤٨ منازل الهداية
الملائكة وحدانيو الصفات	بيان وجه النموذج في كثرة نعم الله
المعصية التافهة كفر بجميع نعم الله	تعالى وتسلسلها وخروجها عن
٢٢٧٣	الحصر والاحصاء
تعالى	٢٢٥٠
بيان السبب الصارف للخلق عن	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق
٢٢٧٥	٢٢٥١ أسباب الإدراك
الشكر	الطرف الثاني في أصناف النعم في
الفلة الالهية وأسبابها	خلق الإرادات
٢٢٧٦	٢٢٥٤
النعم الخاصة بكل عبد	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق
الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر	٢٢٥٥ القدرة وآلات الحركة
٢٢٨١	وظيفة اليد
بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على	٢٢٥٦ وظيفة الفم ووظيفة الأسنان
شيء واحد	٢٢٥٧ وظيفة اللعاب ووظيفة المرء والحنجرة
٢٢٨٢	وظيفة المعدة ووظيفة الكبد
البلاء المطلق - البلاء المقيد	٢٢٥٨ وظيفة المرارة ووظيفة الكليتين
٢٢٨٤	وظيفة الصفراء
مواضع الشكر في البلاء	الروح
٢٢٩٢	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في
بيان فضل النعمة على البلاء	الأصول التي يحصل منها الأطعمة
٢٢٩٥	٢٢٦٢
بيان الأفضل من الصبر والشكر	
٢٣٠١	
تلازم معرفتي الشكر والصبر	
الأفضلية بين الفنى الشاكر أو الفقير	
٢٣٠٤	
الصابر	
٢٣٠٨ *	
كتاب الخوف والرجاء	
٢٣١٢	
بيان حقيقة الرجاء	
بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	
٢٣١٥	
بيان دواء الرجاء والسبيل الذي	
يحصل منه حلل الرجاء ويغلب	
٢٣١٧	
ما يغلب به الرجاء	
الآيات في الرجاء	
الأخبار في الرجاء	





